

و. مونتجمرى وات

محمد فى مكة

ترجمة

د. عبد الرحمن الشيخ

حسين عيسى

مراجعة

د. أحمد شلبى



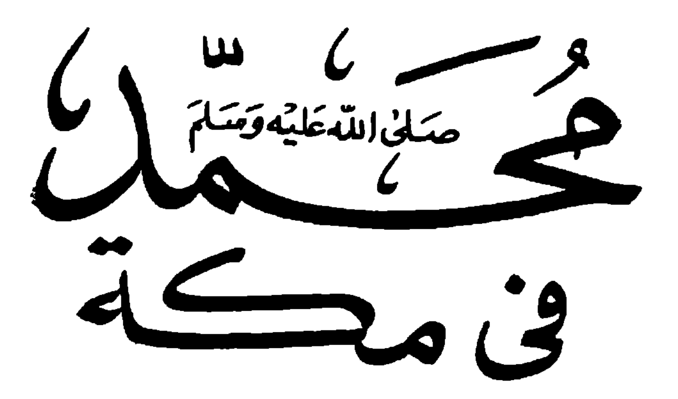
اهداءات ٢٠٠٣
ا المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني
الإسكندرية



Watt, William Montgomry

Mohammed at mecca

و . مونتجمرى وات



ترجمة

د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ

حسين عيسى

مراجعة

د . أحمد شلبى



٢٠٠٢


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

مقدمة الترجمة العربية

كتب مونتجمرى وات عددا كبيرا من البحوث والدراسات عن الاسلام، منها (القضاء والقدر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة) و (رسالة الاسلام فى العالم المعاصر) و (محمد ﷺ فى المدينة) وغيرها كثير ، وكان الرجل متزنا فى غالب دراساته هذه التى ترجم عدد منها الى العربية (١) • وقد مضى ذلك الزمان الذى كان يتحرج فيه الناس فى عالمنا العربى من ترجمة كتب المستشرقين التى تتناول الاسلام ، فقد أصبح ضروريا فى عصر تمور فيه الأفكار ان نعرف ما كتبه الآخرون عن المسلمين ، فليس كله سيئا على أية حال ، كما أصبح من الضرورى أن نعرف ـ بشكل أعمق ـ أديان الآخرين وثقافاتهم ، فهى موجودة بين أيدينا ، ونتعامل معها بالضرورة • وبالنسبة للكتاب الذى معنا الآن ، فان أول معيار للحكم عليه هو مصادره • فما المصادر التى رجع اليها ليأخذ معارفه الأساسية عن محمد ﷺ فى الحقبة المكية ؟

ان بعضها لا يرقى اليه الشك (القرآن والأحاديث الصحيحة) ، لكن بعضها الآخر يورد أخبارا قد لا يوافق عليها بعض المسلمين (كتب السيرة والتاريخ العام) • وفى هذه الحالة ، فالأولى بالنقد هو كتب التراث وليس ما اقتبسه وات منها ، مما يثير قضية تقويم كتب التراث قبل نشرها • وفيما يلى عرض تفصيلى للمصادر التى أخذ منها (وات) النصوص التى أقام عليها تحليلاته :

---

(١) صدر الكتابان الاولان فى هذه السلسلة •

القـــرآن الـــكريم

المصدر الأول الذى رجع اليه وات Watt هو القرآن الكريم ، وذلك من خلال المطبوعين التاليين :

ترجمة ريتشارد بل Bell للقـرآن الـكريم ، الذى نشر فى جزءين (١٩٣٧ ـ ١٩٣٩) فى أدنبرة ببريطانيا • غير أن بل فعل شيئا آخر غير الترجمة ، لقد أعاد ترتيب السور والآيات مسلسلا اياها حسب النزول الأول فالأول Critical rearrangement ، وأعطى للآيـات والســـور ترقيما بالحروف كالآتى :

— A أول ما نزل

— B باكره ، أى من أول ما نزل بمكة ـ الحقبة القرآنية الأولى

— C مكى بشكل عام

— D آخر الحقبة المكية

— E مدنية باكرة

— E+ مدنية بشكل عام

— F مرتبطة بغزوة بدر

— G مرتبطة بغزوة أحد

— H حتى الحديبية

— I بعد الحديبية

— J منســوخة .

ومعنى هذا أن بل Bell رجع لكتب التفسير كلها ، وكتب السيرة وكتب أسـباب النزول ليقـوم بهذا العمل المرهق • وتبع وات Watt

المطبوع آخر للقرآن الكريم بترجمة بل أيضا ، لكن المستشرق فلوجـــل Flügel هو الذى تحمل مسئولية ترقيم الآيات .

المطبوع الثانى يمثل جهدا من نوع يبين مدى الاهتمام الذى حظى به القرآن وسيرة الرسول ﷺ فى الغرب لسبب أو آخر ، ونعنى به كتاب ليون كيتانى Leone Caetani الذى حـاول ترتيب أحـداث السـيرة النبوية عاما فعـاما Annali dell' Islam ، وربط ترتيبـــه هذا بالآيات القرآنية ، فكأنما هو جعل السـيرة اطـارا عاما ، ثم راح يبحث عن الآيات أو السور التى تناسب كل واقعة أو حادثة أو ظرف اجتماعى ، ووضعها مرتبطة بها ، سواء كان ذلك بنـاء على مصـادر اسـلامية أو اسـتنتاجا بالشـواهد والقرائن والتخمينات . ولابـد أن كتـاب نولدكه Noldeke الشـهير عن تاريخ القرآن Geschichte des Quran قد تعرض لأسباب النزول وتحدث عن السابق والأسبق نزولا من الآيات القرآنية ، لكن مما يؤسف له أنه لم يتح لى قراءة هذا الكتاب ولا اظنه مترجمـا .

وهنا تثور عدة أسئلة . نبدأ بأولها : لماذا بذل المستشرقون هذا الجهد المضنى لترتيب القرآن الكريم وفقا للأسـبق فالسـابق فالأقل سبقا .. الخ ؟

ان أسباب ذلك متعددة ، منها ما ذكره وات نفسه فى مقدمته وهو محاولة (... ربط المادة التاريخية التقليدية ـ يقصد ما ورد فى كتب السيرة وغيرها ـ بالقرآن الكريم . ولقد كان من المعتاد لفترة من الوقت التأكيد على أن القرآن الكريم هو المصدر الأساسى للحقبة المكية فلا شك أن القرآن معاصر لهذه الفترة ، لكن القرآن ـ اذا استبعدنا صعوبة تحديد الترتيب الزمنى للأجزاء المختلفة (ترتيبه حسب تاريخ النزول) وعدم وضوح كثير من النتائج المتعلقة بذلك لأن القرآن نزل مفرقا ومنجما ـ لا يعطى لنا الصـورة الكاملة لحياة محمد ﷺ والمسـلمين فى الفترة المكية ..) .

ويخلص وات الى أنه ـ لذلك ـ سيعتمد على القرآن الكريم كمصدر لتاريخ الفترة المكية ، بالاضافة الى أحاديث الرسول ﷺ وكتب السير .. الخ .

سبب آخر دفع هؤلاء المستشرقين لاعادة ترتيب النص القرآني وهو ايمانهم بالمنهج التطورى فى التفكير وكتابة التاريخ ، سواء تاريخ أوربا أو تاريخ العالم الاسلامى . كما أنهم لا يرون الأحداث تتحرك فى فراغ وانما من خلال بيئة اجتماعية واقتصادية وسياسية . كما أنهم يبحثون دائما عن دافع أو وازع للحركة ، وقد يصيبون وقد يخطئون . واذا لم يضع القارىء فى اعتباره هذه (النظرة) أو هذه (الطريقة فى التفكير) ، فقد يسىء فهم ما يقرأ .

اننا نكاد نفهم أن وات اعتمادا على ترتيب بل الآنف ذكره ـ يكاد يحدثنا عن المرحلة القرشية للاسلام ، أى المرحلة التى بدا فيها الاسلام وكأنه لقريش دون سواها . ونكاد نفهم من تلميحاته أحيانا وتصريحاته حينا ـ أن الاسلام بدأ يمر بمرحلة عربية أى أنه فى هذه المرحلة صار موجها للعرب .

ولا يقصد وات هنا أن الاسلام ليس دينا عالميا ، فهذه مسألة حسمها التاريخ ، فالاسلام يمتد الآن بكثافة ما بين خط عرض ٦٠° شمالا وخط عرض ٦° جنوبا ، بالاضافة لمسلمين كثيرين خارج ما يحتضنه هذان الخطان . بل ان البعد العالمى ظهر فى الاسلام منذ بواكير الدعوة ، فقد كانت كل أجناس البشر ممثلة حول الداعى الرسول ﷺ ، فقد كان هناك صهيب (الرومى) وسلمان (الفارسى) وبلال (الحبشى) وعرب يمنيون وعرب شماليون . و (وات) نفسه يذكر لنا فى كتاب آخر له ترجم للعربية بعنوان (الاسلام والمسيحية) (١) ان الاسلام هو دين المستقبل ، لأنه يحتضن كل قيم الديانتين السابقتين عليه : اليهودية والمسيحية ، بالاضافة لأسباب أخرى ساقها تفصيلا فى كتابه .

---

(١) فى سلسلة الالف كتاب الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فليس المقصـــود ، اذن ، بالمرحلة القرشية والمرحلة العربية وصم الاسلام بالمحدودية ، وانما كان من الطبيعى ان تبدأ الدعوة لقريش ثم تمتد وفقا لتطور الأحداث · وأرانى غير منزعج كثيرا بقول وات ان الربا لم يحرم فى المرحلة المكية لأنه كان أمرا شائعا بين تجار مكة ، وانه لم يحرم الا فى المرحلة المدنية بعد استقرار دولة الجماعة الاسلامية · فالتدرج فى الدعوة ، ومراعاة الظروف والرفق ، كل ذلك من الأساليب المعروفة فى الدعوة بشكل عام ودعوة الاســلام بشــكل خاص · فالخمر محرمة فى الاسلام يقينا ، لكن ذلك لا يمنع من أن ذلك تم بالتدريج كما هو ثابت فى آيات القرآن الكريم ·

بقى سؤال آخر : أليس أمرا مزعجا أن يعاد ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره ؟ أليس ذلك تحريفا للكلم عن مواضعه ؟

اللهم لا (*)، فهذا يقصد به فهم مجريات الأمور وربط الآيات الكريمة بأسباب نزولها ، ومحاولة فهم الآيات فى ضوء الظروف الاجتمـــاعية والاقتصـــادية والســياسية ·.. وقد استقر المصحف الشريف بترتيب سوره وآياته ، ونحن نقرأه متعبدين بهذه الطريقة التى حفظه الله بها .

الحـــديث

والمصدر الثانى الذى اعتمد عليه (وات) هو أحاديث الرسول ﷺ ، ومن المعروف أن مجموعات الأحاديث التى ينظر لها المسلمون باعتبارها تضم أصح الأحاديث عن رسول الله ﷺ هى المجموعات المعروفة بالصحاح : البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وأبو داود · وقد اختار وات لنفسه مرجعا لكتابه هذا هو صحيح البخارى ، ربما لتوافر ترجمة له ، وربما لأنه كان متاحا له دون سواه · وهو اختيار موفق على أية حال ·

(*) فى تقديرى ، ان القرآن الكريم استقر على ترتيب معين ، وكان الرسول ﷺ عندما تنزل اية او ايات من القرآن الكريم يدل كتاب الوحى على السورة التى تنضاف اليها الاية او الايات ، ومن هنا فمن المتفق عليه أن ترتيب ايات السور توقيفى ، اى من عند الله لا يجوز تجاوزه (السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ص ٩٠ وما بعدها ـ (المراجع) ·

بقيت مسألة . فنحن نعرف أن أحاديث الرسول ﷺ هي المصدر الثاني للتشريع الاسلامي بعد القرآن الكريم ، لكن ماذا عنها كمصدر للتاريخ ؟ الواقع أن الفرق رقيق جدا بين (المحدث) و (الاخباري) و (المؤرخ) عندما نتحدث عن الفترة التي عاش فيها الرسول ﷺ بعد نزول الوحي عليه . فالمحدث هو كل مشتغل بالسنة وهو غير المؤرخ الذي يشتغل بالأخبار التاريخية ألا اذا كانت هذه الأخبار متعلقة بالرسول ﷺ ، الا أن كلمة (المحدث) كانت تطلق أحيانا على المشتغل بجمع الأخبار التاريخية وروايتها ، كما أن أخبار الرسول ﷺ وأفعاله وأقواله واقراراته هي في حد ذاتها اخبار تاريخية (١) . وحتى لو اشتملت مجموعات الأحاديث على ذلك النوع المعروف بالأحاديث القدسية وهي التي يبلغها الرسول ﷺ عن ربه ، فهي أيضا تفيد في شرح العقيدة ومعرفة التوجيهات التي يطلبها الله عز وجل ، وبالتالي فهي مصدر من مصادر التاريخ . ومن المفيد هنا أن نورد الحديث القدسي الشهير الذي رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري عن الرسول عن ربه : (يا عبادي ، اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . يا عبادي ، كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني أهدكم . يا عبادي ، كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي ، كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني أكسكم . يا عبادي ، انكم تخطئون في الليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادي ، انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئا . يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا . يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي الا كما ينقص الخيط اذا أدخل البحر . يا عبادي ، انما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم بها . فمن وجد خيرا فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه) . فالمتأمل في هذا الحديث القدسي يدرك أنه وان كان موجها للبشرية عامة ، الا أنه لابد من مناسبة وظروف بيئية قيل فيها هذا الحديث .

---

(١) محمد اسماعيل ابراهيم : الأحاديث النبوية والمحدثون . القاهرة . دار الفكر العربي . ١٩٧٣ .

القدسى . انه موجه لأقوام فى الغاية من الغرور . وفى الغاية من الثقة فى أموالهم وقوتهم . يظنون انهم هم المطمئون للناس ... الخ .

والواقع ، أن علماء الحديث أو المحدثين كانوا هم رواد علم التاريخ عند المسلمين ، فقد صار المؤرخون على نهجهم فى (العنعنة) أو (الاسناد) أو نسبة الخبر الى سلسلة من الرواة ، فعلوم الحديث تشكل فى حد ذاتها مناهج لتصحيح الخبر ، وهو أيضا عمل المؤرخ .

وفيما يلى نذكر بعض القضايا من علم مصطلح الحديث :

— علم الجرح والتعديل ، ويبحث فى أحوال الرواة من حيث أمانتهم وعدلهم وضبطهم أو عكس ذلك من كذب أو غفلة أو نسيان ، ويسمى أيضا علم ميزان الرجال .

— علم رجال الحديث ، وهو علم يتناول تراجم للرواة وحياتهم ومعرفة تواريخ مواليدهم وتواريخ وفاتهم والاشارة لمواطنهم ، وحالاتهم العقلية والصحية ، وأول من كتب فى هذا العلم هو ابن سعد (توفى ٢٣٠ هـ) ، والبخارى (توفى ٢٥٦ هـ) ، ابن الأثير فى كتابه أسد الغابة فى معرفة الصحابة (ت : ٦٣٠ هـ) .

— علم مختلف الحديث (بكسر اللام) ، وهو يبحث فى التوفيق بين الأحاديث التى ظاهرها التناقض .

— علم علل الحديث (بكسر العين) ، ويبحث فى أسباب القدح فى صحة الحديث أو اتهامه بانه موضوع .

— علم غريب الحديث ، ويبحث فى الأحاديث التي ينفرد بها راو واحد موثوق به .

— علم الناسخ والمنسوخ من الحديث ، وهو علم يبحث في أوامر أو توجيهات قال بها الرسول ﷺ ثم عدل عنها أو جاء بأوامر وتوجيهات غيرهـــا .

من هذا العرض يتضح أن علماء الحديث فى عصور التنوير الاسلامى لم يكونوا يأخذون الحديث على علاته ، وانما كانوا يقومون ازاءه بعملية

نقد للنص ونقد للراوى ، والتأمل فيه والتدبر في محتواه ، وبخاصة أن أحاديث الرسول ﷺ لم تجمع الا في القرن الثالث للهجرة ، أى بعد مضى أكثر من مائتى سنة على نطق الرسول ﷺ بها ، مما جعلها عرضة للتزوير والتزييف ، وعرضة لأصحاب الغرض والهوى (١) . وقد جعل المحدثون وعلماء الحديث لأحاديث الرسول درجات ، فليس كل ما روى عن الرسول ﷺ صحيحا ، لأنه لم يدون في غالبة وقت نطق الرسول به • وقد أفرد علماء الحديث مجموعات لبعض الأحاديث الموضوعة أى المكذوبة على رسول الله منها : المصنوع في معرفة الحديث الموضوع الذى وضعه على القارى الهروى •

وقد تحاشى (وات) الرجوع للأحاديث المشكوك فيها واكتفى بصحيح البخارى ، وهو باختياره هذا قد اختار الأحاديث التى أجرى عليها علماء الحديث منهجهم في نقد سلسلة الرواة ، والمتن أيضا •

وعندما ألف أسد رستم كتابه (مصطلح التاريخ) الذى حقق شهرة واسعة في جيلى على الأقل ، لم يفعل في الحقيقة الا أنه أعاد صياغة ما ورد في كتب مصطلح الحديث •

كتب السيرة والمغازى

رجع (وات) في كتابه هذا الى أهم مصدرين تعرضا للسيرة النبوية على الاطلاق ، وهما السيرة النبوية لابن اسحق (المتوفى ١٥٠ هـ) والتى

(١) من الكتب الأساسية التى تناولت علوم الحديث التى هى في الواقع علوم نقد النص وتحقيقه نذكر :

- الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث ، لابن كثير ، شرح أحمد محمد شاكر •

- علوم الحديث لابن الصلاح (أبو عمرو عثمان الشهرزورى) •

- ومن الكتب الحديثة : علوم الحديث ومصطلحه تأليف د• صبحى صالح ، وعلوم الحديث لمحمد على قطب وغيرهما كثير •

هذبها ابن هشـــــام (المتوفى ٢١٣ هـ) ، والطبقات الكبرى لابن سعد (المتوفى ٢٣٠ هـ) •

ومن المعروف أن كتب السيرة التقليدية ، بالاضافة الى هذين الكتابين، هي : كتابات الواقدى (المتوفى ٢٠٧ هـ) وعملان آخران كتبا في زمن متاخر هما : الكتاب المعروف بسيرة ابن سيد الناس (توفي ٧٢٤ هـ / ١٣٣٤ م) وقد جعل لها مؤلفها ابن سيد الناس عنوانا هو (عيون الأثر في فنون المغازى والشمائل والسير) ، وسيرة نور الدين الحلبي (المتوفى ١٠٤٤ هـ/١٦٢٤ م) المعروفة بين الناس باسم السيرة الحلبية • وقد جعل لها مؤلفها عنوانا هو (انسان العيون في سيرة الأمين المأمون) • وبتركيز وات على سيرة ابن اسحق (نقلا عن ابن هشام) وعلى الطبقات الكبرى لابن سعد يكون قد رجع للمصادر الأمهات التي اعتمدت عليها المصادر اللاحقة •

وقد تناول المؤلف مراجعه هذه في ضوء منهج نقد النص أو معرفة ظروف تأليفه وربطه بالفترة الزمنية التي كتب فيها ، ومعرفة اتجاهات الكاتب وما الى ذلك • وهي مسألة في الغاية من الأهمية لابد أن يراعيها قراء كتب التراث ، وهي لا تعني تشكيكا بالضرورة في هذه الكتابات ، ولا تعني ــ بالضرورة ــ انكار ما أوردته من معلومات ، لكن هذه الظروف جميعا تعين على فهم التوجهات العامة التي قد يسير فيها المؤلف ربما بدون وعي منه • ومن المفيد أن نستطرد في مسألة (تقويم المرجع) أو (نقد النص) هذه لأنها مسألة تنويرية خاصة في ظل حركة نشر كتب التراث على نطاق واسع ، ربما تأكيدا للذات ، وتمسكا بالهوية وهو أمر مطلوب على أية حال •

ولتبسيط الأمور وجعلها أقرب للفهم لا بأس من ضرب أمثلة معاصرة، ثم نعرج بعد ذلك على أمثلة من السيرة النبوية • ألا يضيف الينا شيئا عند قراءتنا لكتاب عن عبد الناصر مثلا أن نعرف ان كان الكتاب قد تم تاليفه في حياة عبد الناصر أم بعد مماته ؟ ثم هل نشر الكتاب داخل مصر أم خارجها ؟ وهل حظى بمباركة عبد الناصر أم أثار سخطه ؟ وان كان

قد نشر خارج مصر ، هل نشر في دوله معادية لعبد الناصر أم في دولة صديقة ؟ وهل كان المؤلف يشغل منصبا في حكومة عبد الناصر أم لا ؟ وهل كان في موقع يسمح له بالاطلاع على دواخل الأمور ؟ وهل كان جزءا من النظام ؟ أم هل استقى معلوماته من المصادر العامة المتاحة ، وكان كل دوره هو التحليل والتعليل ؟ هل هو مصري ؟ هل هو اسرائيلي ؟ هل هو عربي ؟ هل هو غير ذلك ؟ هل استفاد من النظام ؟ هل أضير في ظل النظام ؟ من الجهة التي مولت الكتاب ؟ هل كتبه بتكليف ؟ هل هو كتاب دراسي ؟ .. الخ . ألا تضيف اجابات هذه الأسئلة بعدا للكتاب وتوضيحا لبعض ما ورد به ؟

هذا بالتأكيد صحيح ، وليس معنى هذا أننا نشكك جازمين بما ورد فيه . لكن معرفة هذه الأمور بالنسبة لأي كتاب - تراثي أو غير تراثي - مسألة مهمة لفهم محتواه ، وما قيل عن كتاب يتناول عبد الناصر ، يقال عن كتاب آخر يتناول السادات ، ويقال عن أي كتاب على وجه الاطلاق .

يكفي للدلالة على أهمية تقويم المرجع أن نضع بين أيدينا مجموعة كتب عن أسرة محمد علي قبل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ومجموعة كتب أخرى بعد هذه الثورة . ولنقارن . ليس من الضروري أن تكون المجموعة الأولى غير دقيقة بالضرورة ، وليس أيضا من الضروري أن تكون المجموعة الثانية صحيحة أو العكس . وقد تكون المعلومات في كليهما صحيحة . وانما جرى التركيز على معلومات بعينها واغفال أخرى .. وهكذا .

نورد هذا لنقول ، انه من المفيد أن نعرف أن ابن اسحق قدم كتابه عن السيرة الى الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور لتكون بمثابة منهج دراسي يدرسه ولي عهده المهدي . وقد طلب المنصور أن يشتمل الكتاب على تاريخ البشرية منذ آدم عليه السلام . وفي رواية الخطيب البغدادي أن الذي كلفه بتأليف الكتاب هو المهدي ( ) دخل محمد بن اسحق على المهدي وبين يديه ابنه فقال له : أتعرف هذا يا ابن اسحق ؟

قال نعم ، هذا ابن أمير المؤمنين . قال : اذهب فصنف له كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام الى يومك هذا ..) (١) .

ليس معنى هذا أننا نقول ان ابن اسحق قد حابى بنى العباس ونزع من تاريخ أسرتهم ما لا يرضيهم ، لكنه ربما يكون قد خفف الصياغة ، كما أنه ليس من الضرورى أن يكون زور تاريخ عبد شمس . لكنه ربما يكون قد ركز على نقاط دون سواها . والواقع ، أنه كان من الصعب جدا تزوير التاريخ بشكل واضح لأن القبائل التى عاصرت الدعوة الاسلامية كانت لاتزال موجودة لم تنقرض ، وما كان ابن اسحق يؤلف كتابه بشكل سرى ، فلابد أن أفرادا من قبائل وعشائر مختلفة قد سمعوا بما حواه ان لم يكونوا قد قرءوه .

وعندما يقوم وات باثارة أمور كهذه ، مجرد اثارة دون تاييد أو معارضة ، فهو لم يفعل آكثر من ممارسة حقه فى تقويم المصدر .

وسنعتمد فى العرض الذى سنقدمه فى السطور التالية عن ابن اسحق على كتاب مهم ألفه المستشرق الألمانى جوزيف هوروفتس هو (المغازى الأولى ومؤلفوها) ، الذى ترجمه الدكتور حسين نصار (٢) ومراجع أخرى .

ومحمد بن اسحق هو أعظم التلاميذ الذين تخرجوا على يد شيخ مؤرخى السيرة فى القرن الأول وهو محمد بن شهاب الزهرى . واسمه الكامل هو أبو عبد الله محمد يسار وكان جده يسار من نصارى العراق الذين وقعوا فى أسر المسلمين سنة ١٢ هـ فكان رقيقا لبنى قيس بن مخرمة ابن المطلب . واعتنق يسار الاسلام فحرره سيده ؛ لذا فهو من الموالى . وعندما رزق اسحق بابنه محمد دفع به الى من يعلمه الحديث والفقه ، وعلمه بنفسه فقد كان اسحق من رواة الحديث . وقد نقل ابن اسحق فى

---

(١) الخطيب البغدادى ، أبو بكر أحمد بن على الخطيب : تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص [illegible] .

(٢) نشر فى القاهرة ، سنة ١٩٤٩ .

كتابه معلومات كثيرة عن شيوخه : عاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله ابن أبي بكر بن حزم ، ومحمد بن شهاب الزهري ، وهذا الأخير هو أهمهم جميعا .

وقد زار ابن اسحق ألاسكندرية سنة ١١٥ هـ فدرس على يد محدثها يزيد بن ابي حبيب ، ثم عاد للمدينة المنورة . وقد اورد ابن خلكان في ترجمته له (١) ما نصه :

« وكان محمد المذكور ثبتا في الحديث عند أكثر العلماء ، وأما في المغازي والسير فلا تجهل امامته ، قال ابن شهاب الزهري : من أراد المغازي فعليه بابن اسحاق ، وذكره البخاري في تاريخه ، وروى عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال : من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن اسحاق ، وقال سفيان بن عيينة : ما ادركت أحدا يتهم ابن اسحاق أمير المؤمنين ، يعني في الحديث ، ويحكى عن الزهري أنه خرج الى قرية له فاتبعه طلاب الحديث فقال لهم : أين أنتم من الغلام الأحول ، يعني ابن اسحاق ، وذكر الساجي أن أصحاب الزهري كانوا يلجأون الى محمد بن اسحاق فيما شكوا فيه من حديث الزهري ، ثقة منهم بحفظه ، وحكي عن يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان أنهم وثقوا محمد بن اسحاق واحتجوا بحديثه ، وانما لم يخرج البخاري عنه وقد وثقه ، وكذلك مسلم بن الحجاج لم يخرج عنه الا حديثا واحدا في الرجم من أجل طعن مالك بن أنس فيه ... » .

ويقال ، ان ابن اسحق كان من أنصار مذهب القدرية (مسئولية الإنسان عن فعله خيرا أم شرا) وهو مذهب المعتزلة ، ومعنى هذا أن الرجل كان ذا ميول مناهضة لبني أمية ، وقد قام وات في كتاب آخر له عن القضاء والقدر ، بربط المذاهب والاتجاهات التي تبدو وكأنها مسائل دينية خالصة ، بالتوجهات السياسية (٢) . وبشكل عام ، فقد كان علماء الحديث

(١) وفيات الاعيان – ترجمة محمد بن اسحق .

(٢) راجع الدراسة الملحقة بكتاب (القضاء والقدر في فجر الاسلام وضحاه) تأليف مونتجمري وات ، ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ – سلسلة الألف كتاب الثاني .

لا يثقون كثيرا في الاخباريين وكتاب السير ، بسبب دقتهم الشديدة ـ أي علماء الحديث ـ في تحري الخبر عن رسول الله ﷺ ، لذلك ليس بمستغرب أن تكون علاقة ابن اسحق بمالك بن أنس عالم المدينة ومحدثها علاقة غير طيبة · وقد عاد ابن اسحق الى العراق بعد سقوط الدولة الاموية ، وربما يكون حبه للعباسيين هو الذى دفعه للمقام في العراق ، وفيه وافته منيته في بغداد سنة ١٥١ هـ أو ١٥٢ هـ على خلاف ·

أما الكتاب الثانى من هذه الفئة من الكتب (السير) الذى اعتمد عليه وات فهو الطبقات الكبرى لابن سعد ، واسمه الكامل محمد بن سعد ابن منيع البصرى ، المولود في البصرة سنة ١٦٨ هـ ، وكان ابن سعد مولى للهاشميين ، وان كان ابن خلكان يجعل ولاء ابن سعد لبنى زهرة ، وكان كاتبا للواقدى ودرس في المدينة المنورة وبغداد والكوفة · وقد تقيد ابن سعد بأسلوب مدرسة الحديث في ايراد أخباره التاريخية ، لذلك كانت علاقته بالفقهاء وعلماء الحديث أفضل من علاقة ابن اسحق بهم · ورغم أن كتاب ابن سعد يندرج تحت كتب الطبقات ، الا أن الدراسة الطويلة المفصلة التى أوردها في الجزء الأول عن سيرة الرسول ﷺ جعلت الباحثين ـ حتى المستشرقين ـ يعتبرونه واحدا من كتاب سيرة الرسول ﷺ ·

ثم نتعرض بايجاز لكتاب الواقدى (١٣٠ ـ ٢٠٨) · وكان الواقدى منتميا بالولاء لعبد الله بن بريدة من بنى أسلم (من أهل المدينة) وذكر هو نفسه أنه انتمى بالولاء للهاشميين ، وقد ولد في آخر الدولة الأموية ، ومات عن عمر يناهز الثامنة والسبعين ودفن في بغداد · ولاه الخليفة الرشيد قضاء الجانب الشرقي من بغداد · وكان الواقدى من شيوخ الحديث ، ومن المعروف أن علم التاريخ عند المسلمين قد تأثر كثيرا بمنهج علماء الحديث · وغلبت على الأخبار التى جمعها في كتابه (المغازى) وهو الكتاب الذى نحن بصدده الصفة التشريعية ، لذلك فهذا الكتاب يقع في موقع وسط بين كتب الحديث وكتب السيرة (تاريخ النبى ﷺ) ، وهو كغيره من كتب السيرة لا يهتم كثيرا بالفترة السابقة على الاسلام ، وكان الواقدى لا يكتفى بالسماع وانما عاين مواقع الغزوات بنفسه وقام



بشيء يشبه ما يفعله الآثاريون هذه الأيام ، ومع هذا فقد كان ضعيف الذاكرة ولم يحفظ القرآن قط فيما يقول الخطيب البغدادي . وساءت علاقته في بغداد بالحنابلة .

كتب التاريخ العام

وكما رجع (وات) لمصادر أصيلة من فئة كتب السير والمغازي ، رجع أيضا لأهم كتب التاريخ العام ، ونعني به تاريخ الطبري المعروف باسم « تاريخ الأمم والملوك » وقد ولد الطبرى فى سنة ٢٢٤ هـ وتوفى سنة ٣١٠ هـ .

ومرة أخرى نذكر بطريقة أخرى ما أوردناه آنفا من أن قراءة كتب التراث فن ، اذ لابد أن يكون القارىء على وعى كامل بأنه ليس كل ما ورد بها صحيحا ، لذلك لابد من نقد النص أو تقويم المرجع . وحالة الطبرى أوضح دليل يؤكد قولنا هذا ، فالرجل يقول فى مقدمة كتابه وكأنه يتبرأ من كثير مما ورد فيه انه لا دخل له ، وانه كتب كل ما سمع سواء أكان صحيحا أم باطلا ، مقبولا للعقل أم مرفوضا منه ، فما هو الا مسجل لكل ما سمع ، ونفضل هنا نقل عباراته كما هى :

« وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادى في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أنى راسمه فيه ، انما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه ، والآثار التى أنا مسندها الى رواتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس ، الا اليسير القليل منه ، اذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين ، وما هو كائن من أنباء الحادثين ، غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم ، الا باخبار المخبرين ، ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول ، والاستنباط بفكر النفوس . فما يكن فى كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجها فى الصحة ، ولا معنى

فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قِبلنا ، وإنما أتي من قبل ناقليه الينا ، وأنا انما أدينا ذلك على نحو ما أدى الينا » (١) ·

وعندما هذب ابن هشام سيرة ابن اسحق ذكر لنا أنه حذف من ابن اسحق بعضا مما يغضب الناس ، بل بعضا مما لا يطيقه الناس · اذن لقد وضع ابن هشام في اعتباره (الناس) بالاضافة الى الحقيقة التاريخية وراح يوازن ، وراح يحاول أن يكون محايدا قدر الامكان . وتلك كلماته :

« ·· وتارك بعض ما ذكره ابن اسحاق فى هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيرا له ، ولا شاهدا عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعارا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته · ومستقص ـ ان شاء الله تعالى ـ ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له ، والعلم به » (٢) ·

فبعض ما يورده المستشرقون مما لا يعجب القارىء المسلم هو فى الواقع منقول من المصادر الاسلامية دون اخضاعها للنقد وتقويم النص ، وما الى ذلك مما انتهى اليه منهج البحث التاريخى الحديث · فاخضاع كتب التراث للتقويم ليس بالضرورة تجريحا لها وانما هو محاولة لفهمها .

نقول هذا لأن ما أورده وات Watt عن حكاية الغرانيق أو الآيات الشيطانية التى قيل ان الشيطان قذفها فى صدر رسول الله ﷺ واردة بنصها وتفاصيلها فى كتاب الطبرى ، وهى حكاية مرفوضة عقلا · رغم أن وات أورد بعض الآيات القرآنية وحاول تفسيرها بما يفيد اثبات حكاية

(١) الطبرى ، طبعة دار الكتب العلمية ، جـ ١ ، ص ١٣ ·

(٢) ابن هشام ، مكتبة الايمان · جـ ١ ، ص ٢٠ ·

الغرانيق هذه · فما يوجه من نقد لمونتجمرى وات فى هذه الحال ، انما هو فى الواقع نقد للطبرى ·

على أية حال ، كما كان وات أصيلا فى اختيار مصادره قرآنا كريما وأحاديث شريفة وسيرا كان أيضا أصيلا فى اختياره للطبرى · لماذا ؟ ليس من السهل الاجابة عن هذا السؤال دون استعراض تطور كتب التاريخ الاسلامى العام فى المكتبة التراثية العربية ، لبيان أهمية الطبرى وأسبقيته ·

لقد بدأ المؤرخون المسلمون فى كتابة التاريخ العام منذ منتصف القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد · وضمنوا كتبهم تاريخ البشرية عامة بقدر ما كان بين أيديهم من معلومات ، لكن المؤرخ من هؤلاء كان يبدأ بالتركيز على تاريخ الاسلام والمسلمين منذ بداية الدعوة ، مهملا ما سواه على عكس ما كان يفعل عندما كان يؤرخ لفترة ما قبل الاسلام .

وكتب التاريخ العام على نوعين : أولهما ما يسلسل الحوادث حسب تعاقب السنين ويسمى عادة بكتب الحوليات · وثانيهما يعرض السلالات الحاكمة أو تاريخ الملوك والدول ، وقد جمع بعضهم بين ذكر الحوادث وذكر التراجم أو الوفيات ·

وأول أهم مؤلفى التاريخ العام هو أبو حنيفة الدينورى المتوفى ٢٨٢ هـ ، ولم يصلنا من كتبه الا كتاب (الأخبار الطوال) ثم ابن قتيبة الدينورى المتوفى ٢٧٦ هـ ، وله كتاب (عيون الأخبار) وكتاب (المعارف) وهذا الأخير ليس فى مجال التاريخ . ثم نصل الى الطبرى (٢٢٤ — ٣١٠ هـ) أول مؤلف حولى بمعنى الكلمة ، أو على الأقل هو أول مؤرخ حولى يتوافر لدينا كتابه · ولد بمدينة آمد عاصمة طبرستان وهى تقع على السواحل الشرقية لبحر قزوين أو بحر الخزر · درس الثقافة الدينية المعتادة قرآنا وحديثا وفقها ونبغ فيها كما درس علوم اللغة ، وارتحل لطلب العلم ، وأقام فى بغداد مدة طويلة ، وزار مصر ، ثم عاد فاستقر

في بغداد . وكانت علاقته بالحنابلة سيئة ، ثم تصالح معهم ، وله تفسير شهير للقرآن الكريم .

وكل من اتى بعد الطبرى من مؤرخى التاريخ العام نقلوا منه إلى آخر سنة ٣٠٢ هـ حيث انتهى ثم يكملون بعد ذلك كل الى عصره ، وعلى هذا فالمسعودى (ت ٣٤٥ هـ) وابن مسكويه (ت ٤٢١ هـ) وابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) .. اعتمدوا فى كتابتهم للسيرة النبوية على كتب السير التى تناولناها فى فقرات سابقة وعلى الطبرى . فلم يجد وات ضرورة للرجوع الى ابن الأثير أو غيره من مؤرخى التاريخ العام اكتفاء بالطبرى . وكان وات — لو شاء — قادرا على جعل قائمة مراجعه طويلة عديدة العناصر دون فائدة كما يفعلون .

كما رجع (وات) لكتابات أخرى ، كتاريخ مكة للأزرقى ، ولتفسير الطبرى للقرآن الكريم لمرة واحدة ، بالاضافة لكتب زملائه من المستشرقين اذ أخذ عنهم بعض آرائهم وتحليلاتهم فأقر بعضها ، وعارض بعضها ، لكنه لم ينقل عنهم نصوصا أو أخبارا متعلقة بسيرة الرسول الا اذا كانت موجودة فى المصادر الاسلامية ، وفى هذه الحالة آثر الرجوع للمصادر الاسلامية — التى أسلفنا الحديث عنها — مباشرة .

علم نفس النبـــوة

علم نفس النبوة أو سيكولوجيـــا النبوة أو الظروف النفســـية للوحى ، .. كل هذا رغم أنه من الناحية الشكلية يلبس لبوسا علميا ، الا أنه غير صحيح ، ولا يتعدى كونه محـاولة للفهم جانبها الصواب . ولم يهتم (وات) باتجاه المستشرقين الذين فسروا الوحى هذا التفسير لسبب بسيط وهو أنها محاولة نظرية ليس هناك (ميدان) نجربها فيه . فعلم النفس الصناعى مثلا يجد له تطبيقات وسط المصانع وبين العمال ، وقياس الفعل ورد الفعل والاستجابة وما الى ذلك يتم على أفراد موجودين فعلا ، لكن من هذا الذى استطاع احضـــار الأنبياء عليهم السلام واجرى

عليهم تجاربه ؟! لقد اعتمد وات على دراســـة قام بهـا بولين Poulain عن الصلاة الداخلية أو الباطنية ، أو الدعاء الباطني أو المناجاة الداخلية ... Graces of interior prayer التي تنــاول فيهــا بعض التجارب الدينية أو (الصوفية) مثل (الرؤى) و (سماع الكلام) و (الحوار الداخلي) في النفس ، وقسم بولين الوحي الداخلي بالكلمـات الى : تخيلي وعقـــلي ·

لاحظ أن بولين طبق نظرياته هذه على القديسين المســـيحيين ولم يتعرض الا قليلا للتجربة التي خاضها محمد ﷺ · لكن وات أخذ بنتائج زميله بولين ، وراح يطبقها على محمد عليه الصلاة والسلام ، ومن أفكار بولين أن الوحي هو معان تقذف في النفس دون استخدام كلمات ، وبالتالي لا صلة له بأية لغة محددة · ويلاحظ أن بولين عندما يستخدم عبارات مثل (النوع التخيلي) أو (النوع العقلي) ·· الخ ، لا يقصـــد أية سخرية أو انكار لمحتوى التجربة الدينية فهو يطبق مبحثه ـ كما سبق القول ـ على القديسين المســيحيين ، أما وات من ناحيته فقد حشــد كل ما استطاع حشده من آيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة (نقلا عن صحيح البخاري) ليثبت أن قرآنا كريما نزل على محمد ﷺ بطرق مختلفة ، من بينها تلقين جبريل عليه السلام الآيات التي أنزلها الله سبحانه · وكان وات منطقيا تماما عندما اتهم بعض المستشرقين الذين يصفون ظاهرة الوحي عند محمد ﷺ بأنها هلوسة ، اتهمهم بالغباء الشديد في مجالات علم النفس والدين والصحة على سواء · ولن نتوقف عند هذه المسالة كثيرا ، لأنها ببساطة لا تستحق التوقف · فهذا الخلود وهذا البقاء وهذا الأثر العظيم الذى لازال موجودا لا يمكن أن يكون نتيجة هلوسة · لانريد تضييع الوقت · وقد ترجمنا الفصل الذى وردت فيه هذه الأفكار عن الوحي وعلم نفس النبوة دون أن ننقص منه شيئا ونكتفي هنا بنقدنا للمنهج في حد ذاته ولم يمنعنا هذا من الخروج بأمور مفيدة ، فالمؤلف (وات) يحث الدارسين في مجـــال علم النفس الديني (دراســـة تجمعات المتدينين ومعرفة سلوكياتهم) على دراسة تجارب القديسين (والدراويش وما الى ذلك) ، لأن ذلك في رأيه يساعد على فهم تجارب الوحي عند الأنبياء ، وهنا نجدنا

في حالة اعتراض شديد ، فالوحي أمر مختلف تماما عن تجارب الصوفية وعلماء الدين ، فقد كان محمد ﷺ على وعي كامل بين ما يأتيه من خارج نفسه (من الله) وبين ما يصدر عنه كبشر ، او بتعبير آخر كان محمد ﷺ يفصل فصلا حادا وواضحا بين شخصه أو ذاته من ناحية وما هو من الله ، أو بين ما هو (قرآن) وما هو (حديث) .. الخ . انها النبوة . لكن علماء الدين أو القديسين أو الدراويش كثيرا ما يخلطون الأمور ، لذلك فهم في حاجة الى مراقبة سواء من جماعات دينية أخرى أو حتى من الناس العاديين ، خاصة في الأديان التي ليس بها اكليروس (طبقة رجال الدين) كالاسلام مثلا . فالأمور تختلط عند بعض علماء الدين (والقديسين والدراويش ... الخ) فيخلط (شعوريا أو لا شعوريا) بين أوامر الله وتوجيهاته من ناحية ، وفهمه الشخصي وأوامره هو من ناحية أخرى ، فيحدثنا مثلا (عن هاتف أتاه يقول له : ان لنا بابا في مصر يسمى الحسين .. وان الحسين على صلة دائمة به وبأسرته ، وانه سكن الى جوار الحسين الذى كان يقوم باسقاط الستارة من فوق شباك منزله حتى لا يكون ـ أي الحسين ـ بينه وبين الشيخ ستارة ..) (١) . هنا لابد أن يتدخل علماء الدين لتنبيه الشيخ ، وعندما يجتمع الشيخ بجني اسمه فينوس يخبره أنه سيعود الى القدس ليسدد تصويب أطفال الحجارة ، وبذلك يعين على عودة القدس ... (٢) . هنا لابد أن يقوم شيخ آخر بتنبيه الشيخ ، أو يقوم مسلمون آخرون (فليس في الاسلام اكليروس) بلفت نظر الشيخ الى حقيقة الأمور ، وأن كونه عالما جليلا فصيح اللسان لطيف الاشارة ، لا يعني أن يخلط بين ما هو شخصي وما هو غيبي ، كما لا يجوز أن يحدثنا عن أن الأموات يساعدون الأحياء ، ويحركون ـ بأرواحهم ـ مجريات الأمور ، فتلك عودة للوثنية ، وتلك دعوة لا تختلف عن (عبادة الأسلاف) في الديانات الوثنية التي لازال بعضها قائما حتى

(١) انظر كتاب (انا من اهل البيت) ص ٣٩ ـ ٤١ .

(٢) لقاء الشيخ مع الجن (في حوار مع الجن) ، جمع اسامة كرم ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٠ .

اليوم • وخطورة ما يصدر عن هؤلاء الشيوخ أو العلماء ، أنه يخلق رأيا عاما ، أو يخلق توجها باطنيا يعوق تسيير الأمور وفقا لمسارها الصحيح ، كما أنه يدعم الخرافة ، لذلك فهو فى حاجة الى اخضاعه للدراسة بمناهج علم النفس الدينى التى يتحدث عنها وات ، وسيكون شيئا رائعا أن يعلن الشيخ أنه لا يريد أن يدفن فى مقبرة الحسين رضي الله عنه ، أو قريبا منها ، حتى لا يعطل حركة العمران ، وحتى لا يفسد على المسلمين دينهم ، وحتى لا يكون قبره وثنا يعبد ، وقد دعا رسول الله ﷺ ألا يكون قبره وثنا يعبد •

والطريف أن الرسول ﷺ انتصر فى غزوة بدر ، ولم يحقق النصر المطلوب فى غزوة أحد ، وتفسير ذلك فى كتب السيرة لا يعدو أن يكون ذكرا للأسباب الواضحة الظاهرية للأمور ، ففى الغزوة الأخيرة لم يطع الجنود قائدهم ، وتركوا مواقعهم دون اذنه ، فكان ما كان • هذا لا يمنع من التحدث عن شد الله سبحانه من أزر المسلمين وأن الملائكة كانت الى جانبهم • ليبتعد علم النفس الدينى اذن عن الأنبياء . ليتناول العلماء والشيوخ والقديسين وتجمعات الرهبان فى كل ملة ودين ، ليساعدهم على الفصل بين ما هو ذاتى من ناحية ، وما هو من صلب الدين من ناحية أخرى •

★★★



قضية عثمان بن مظعون (رضى الله عنه)
وقضــــايا أخـــرى شبيهة

نفهم من الفصل الأول أن وات ذهب الى أن الوثنيــة العربيــة قبل الاسلام كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة أو أنها كانت في حالة احتضار ، وأنها تدنت الى مستوى السحر ، ولم يعد لها مضمون عقائدى ، وبطبيعة الحال فان التركيز على هذه الفكرة ذو مضمون تطورى ، فكأنه يريد القول ان التحول للاسلام بعد ذلك كان هو الخطوة المنطقية أو الطبيعية ، وفى فصوله الأخرى يشير الى كثير من الآيات القرآنية التى تفيد أن العرب كانوا يعرفون الله كموجود أسمى فوق كل الخلائق ، ولكنهم كانوا يشركون مع عبادته أربابا أخر . ويضيف أيضا أن الأفكار المسيحية واليهودية لم تكن بعيدة عن شبه الجزيرة العربية من نواح شتى ، كما لم تكن بعيدة - على نحو خاص - عن مكة والمدينة ، فهو يحدثنا عن الرحلات التجارية الى الشام البيزنطية (المسيحية) والى الحيرة الفارسية (التى انتشرت فيها أيضا المسيحية على المذهب النسطورى) والى الحبشة (المسيحية اليعقوبية) ويحدثنا عن قبيلة عذرة المسيحية ، وعن اليهود فى الجنوب وعن التجمعات اليهودية الصغيرة فى بعض الواحات ، وكيف أن بعضــهم ربما كانوا عربا تهودوا .. ولما كان الانسان ابن بيئته ، فهو يفترض أن الرسول ﷺ كان على علم بما يدور حوله ، ويرفض وات تماما أن الاسلام دين صحراوى فهو قد نزل أول ما نزل فى بيئة مالية معقدة هى بيئة تجار مكة الذين غلبت تحالفاتهم المالية ، تعصبهم القبلى ، ويضرب أمثلة على ذلك ويورد جداول تبين طبيعة هذه التحالفــات ، ويتتبع خطــوط التجارة ، ويربطها بالقوى السياسية الكبرى فى ذلك العصر : الدولة البيزنطية ، والدولة الفارسية ، والحبشة ، ويرى أن أهل مكة - وهم تجار - كانوا على وعى كامل بهذه الأوضاع السياسية لارتباطها بتجارتهم ، ويستنتج أن الرسول ﷺ كان أيضا على وعى بذلك ، ويضرب وات أمثلة بأشخاص كانوا حتى قبل الاسلام منهمكين فى البحث عن الدين الحق أو فكرة التوحيد ، ويسوق أمثلة منها ورقة بن نوفل .. والمؤلف لم ينكر

وجـود الحنفاء (جمع حنيف) الذين كانوا يتعبدون على دين ابراهيـم الخليل ، ولكنـه أيضا حدثنا عن عثمان بن الحويرث الذى قابـل قيصر الروم (الدولة البيزنطية) وتنصر أملا في أن يساعده الامبراطور ليكون ملكا على مكة . يريد وات أن يقول ، ان الجتنور بين الاسلام والمسيحية تحديدا لم تنقطع يوما ، وهو يؤكد في أكثر من موضع أنه لا يعنى بهذا أبدا عدم أصالة الاسلام ولكن الذى يعنيه أن الأفكار المسيحية واليهودية كانت موجودة بالفعل في البيئة العربية ، والا لما تناولها القرآن الكريم . وقد جعلت هذه الأفكار من (وات) مفسرا للحوادث على نحو غير مألوف ، فهو مثلا لا يتعرض لهجرة المسلمين الى الحبشة (الهجرة الأولى والثانية) ببساطة كما تتعامل المصادر الاسلامية ، ولا يكفيه القول انهم هربوا من اضطهاد أهل مكة لهم ، وانما يسوق أسبابا كثيرة ، منها ما يهمنا توضيحه في هذه المقدمة . انه يرى انه كان هناك خلاف بين المسلمين أنفسهم ، وأنه كانت هناك مجموعتان (فكريتان) احداهما على رأسها أبو بكر رضى الله عنه ، والأخرى على رأسها عثمان بن مظعون رضى الله عنه . فما حكاية عثمان بن مظعون رضى الله عنه ؟

يركز المؤلف على أن عثمان كان يميل للرهبنة أو الزهد الشديد ، وأنه كان صاحب اتجاه فكرى يتجه في هذا المنحى ، وربط بشكل أو بآخر بين هذا والهجرة الى الحبشة ، على أساس أن محمدا ﷺ بشخصيته الذكية اللماحة على حد تعبير المؤلف استشعر ما سيكون من خلاف في الاتجاهات بين اتباعه فحث بعضهم على الهجرة ، وبقى آخرون . هذا التحليل قد يكون موضع خلاف ، لكن الذى يهمنا هنا هو أن عثمان بن مظعون كان فصلا ذا اتجاه من نوع خاص ، وأنه بالفعل لم يكن شخصا عاديا ، وانما كان على رأس مجموعة ، ونفضـل هنـا الرجوع للمصادر الاسلامية مباشرة فنعرض ما ذكره ابن سـعد في الجزء الأول من كتابه (الطبقات الكبرى) وهو الذى خصصه للسيرة النبوية (١) .

(١) طبعة دار الفكر ، بيروت ، ص ٣٢٩ - ٣٢٤ .

لقد انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث وأبو سلمة بن عبد الأسد وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف حتى أتوا رسول الله ﷺ فعرض عليهم الاسلام وانبأهم بشرائعه فأسلموا جميعا في ساعة واحدة ، وذلك قبل دخول الرسول دار الأرقم · وكان عثمان بن مظعون من الباحثين عن الدين الحق حتى قبل الاسلام ، بل لقد حرم الخمر قبل الاسلام · وقال — أي قبل الاسلام — « أني لا أشرب شيئا يذهب عقلي ويضحك بي من هو دوني ويحملني على أن أنكح كريمتي من لا أريد » ·

وكان لعثمان بن مظعون اتجاه خاص نحو الابتعاد عن الممارسة الجنسية المعتادة بين الأزواج ، فقد أراد أن يختصي (يصبح مخصيا) ويسيح في الأرض ، فقال له رسول الله ﷺ : (أليس لك في أسوة حسنة ، فأنا آتي النساء وآكل اللحم وأصوم وأفطر · ان خصاء أمتي الصيام ، وليس من أمتي من خصى أو اختصى) ، ونفهم من الحديث أنه كان يريد أن يكون نباتيا يحرم اللحم على نفسه ، بالاضافة الى أمور أخرى تجعله — في الحقيقة — يكاد يدعو للرهبنة · ولم يوافقه رسول الله ﷺ على التبتل ، أي البقاء دون زوجة ، ومرة أخرى يذهب ابن مظعون للرسول ﷺ قائلا انه لايريد أن ترى زوجته عريته (بضم العين) ، أي عورته ، فيسأله رسول الله ﷺ مستنكرا : « ولم ؟ » ثم يقول له الرسول ﷺ : (ان الله جعلها لك لباسا ، وأهلي يرون عريتي) ، وكان عثمان بن مظعون قليل الاتيان لزوجته ، ولو شاء لامتنع · نقرأ في طبقات ابن سعد هذه الرواية بعد حذف الاسناد (دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي ﷺ ، فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها : ما لك ؟ فما في قريش أغنى من بعلك — أي زوجك — قالت : « ما لنا منه شيء ، أما ليله فقائم وأما نهاره فصائم » ، فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له ، فلقي رسول الله عثمان بن مظعون وقال له : « يا عثمان بن مظعون أما لك بي أسوة ·· ان لعينيك عليك حقا ، وان لجسدك حقا فصل ونم وصم وأفطر » ولكن الأثر تصحيح الرسول ﷺ هذه المرة لصالح زوجة عثمان بن مظعون ، اذ تقول الرواية انها ذهبت بعد ذلك لزوجات الرسول ﷺ وهي مسرورة فرحة « عطرة كأنها عروس » فقلن

لها : مه ؟ - أي ما هذا - قالت : - أصابنا ما أصاب الناس - تريد أن ابن مظعون قد أكرمها كما يكرم الزوج زوجته في ساعة رضا • لكن يبدو أنها مرة وانتهى الأمر ، فقد اتخذ عثمان بن مظعون بيتا (مستقلا) تقعد يتعبد فيه • فبلغ ذلك النبي فأتاه وطرق عليه الباب وقال له : (يا عثمان ، ان الله لم يبعثني بالرهبانية) وكرر مرتين أو ثلاثا ، ثم قال : (وان خير الدين عند الله الحنيفية السمحة) •

• •

ومع هذا ، فعثمان بن مظعون صحابي جليل ، هاجر الى الحبشة مرتين (أي الهجرتين) وحارب الى جوار الرسول في غزوة بدر ، وعن عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ قبل عثمان بن مظعون وهو ميت ، وسالت دموعه على خده وكبر عليه أربع تكبيرات ، وبكته زوجته وحزنت عليه ورأت في منامها أن له عينا في الجنة • وروى ابن سعد ايضا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قلل بعض الشيء من شأن ابن مظعون بعد وفاته ، على أساس أنه مات على فراشه ولم يقتل ، وقد اعتمد وات على هذه الرواية لتأكيد وجود اتجاهات مختلفة بين جماعتين : جماعة أبي بكر ومنها عمر ، وجماعة عثمان بن مظعون • هذا ما يتعلق بابن مظعون كما روته المصادر الاسلامية . هل نفهم من ذلك أن بعض الأفكار المسيحية لم تكن بعيدة عن البيئة العربية ؟ هل كانت هناك فعلا اتجاهات فكرية مختلفة في بواكير الدعوة بين أتباع رسول الله ﷺ ؟ هل لذلك علاقة بالهجرة للحبشة ؟ واذا لم تكن حالة عثمان بن مظعون هي الحالة الوحيدة ، فهل نفهم من هذا أن من بين المسلمين الأوائل من كان على ديانات سماوية سابقة على الاسلام ، أكثر من العدد الذي نعرفه ، وأنه جرى التركيز على الوثنية العربية فحسب — بعد ذلك — لاثبات الطفرة الحضـــارية الهائلة التي أحدثها الاسلام ؟ وهل هذا الاتجاه اتجاه صحيح ، أم أن الأفضل توضيح الحقيقة التي مؤداها أن الاسلام بالفعل كان يتعامل مع مختلف الديانات السـماوية ، بالاضـافة للوثنية العربية ، وكانت جميعا ممثلة في شبه الجزيرة العربية ، وفي مجتمعي مكة والمدينة ؟ ليس من هدفنا تقديم اجابات لهذه الأسئلة وانما نطرحها ليخلص القـــارىء بعد قراءته لهذا الكتاب بما يجده •

الأمن والمال والدولة والرسالة

لم يكن في مجتمع مكة قبل الاسلام ، ولا حتى بعد ظهوره (الى ما قبل فتح الرسول ﷺ لها) مؤسسة حكومية أو دولة أو كيان سياسى حاكم ، سوى اجتماع رؤساء العشائر وحلفائهم فيما يعرف بالملأ ، ولم تكن قراراته ملزمة الا اذا تم اتخاذها بالاجماع ، ومع هذا فقد كان الامن بمعناه الشكلي أو الظاهرى مستتبا الى حد كبير ، لا قتل ، لا سرقة .. الخ وحتى بعد اعلان الرسول لدعوته بكل ما تنطوى عليه ، فان أحدا لم يقتله ، بل لم يحاول قتله ، اللهم الا محاولة لم تتم فى أواخر المرحلة المكية ، ويرى المؤلف أن المسلمين لم يتعرضوا لاضطهاد شديد كذلك الذى نسمع عنه فى مجتمعات أخرى مارسته ضد المختلفين معها فى العقائد، ويرجع هذا الى التكوين العشائرى ، والى شبكة التحالفات الحديدية ، التى تجعل الشكل الخارجي يوحى بالأمن المستتب ، رغم ما ينطوى عليه هذا الشكل (الأمن المستتب) من ظلم وعدوان بل واجرام من نوع خاص ، .. انه مجتمع المكائد والمقالب والتآمر ، حيث يتحالف المتآمرون على تاجر فيفلسونه فكأنما قتلوه،أو يضعون من شأن شخص فلا يزوجونه، أو يهينونه فكأنما قتلوه .. ، لذا فقد بدت دعوة محمد ﷺ وكأنها دعوة ضد أمن مكة واستقرارها ، لأنها كانت دعوة تتغاضي عن الظواهر لتصل الى الجذور ، كانت دعوة راديكالية بمعنى من المعـــاني ، فاختل التوازن العشائرى ، بل واختل النظام داخل العشيرة الواحدة ، فأسلم الابن دون أبيه ، وأسلم الأخ دون أخيه ، .. الخ ، وبذلك انفرط العقد ، .. فكان لابد من احلال نظام جديد يسد هذا الفراغ ، فظهرت فكرة الأمة ، وتحول الانتماء الى الجماعة الإسلامية ، التى عوضت الداخلين الجدد عن الانتماء العشائرى ، وأصبح هناك التزام بشريعة ، وضبط سلوكى خوفا من الله وطمعا فى ثوابه .. وبعد ذلك فى المجتمع المدني كان للدولة عمد ونظام ، وأصبحت الدولة ــ ممثلة في الرسول وجماعة المسلمين ــ مسئولة عن الفرد ، تعينه على طلب الرزق، وتحل مشاكله الاجتماعية ، وتسأل عنه ان غاب .. ومن هنا كانت صلاة الجماعة تفوق صلاة الفرد لسبب اجتماعي وسياسي واضح ، وهو أن يتفقد المصلون من غاب منهم ، فكانت مؤسسة المسجد بمثابة حكم محلى يبلغ الحكومة المركزية ..

ولكن النظام العشائرى لم يكن هو التشكيل الوحيد الذى حفظ الأمن فى مكة (الأمن بمعناه الشـــكلى أو الظاهرى) ، فقد كانت هناك أيضا شبكة التحالفات المالية الصارمة التى اخترقت حتى روابط الدم (العشائرية) وتغلبت عليها ، لقد قدم لنا (وات) جداول بعضها مفصل بالتحالفات المالية ، وخلص - عن حق - بأنها فاقت أحيانا التحالفات العشائرية ، ولعل أبا لهب عم الرسول ﷺ أوضح مثال على ذلك ، فما كان ليؤذى ابن أخيه هذا الايذاء الا لتحالف مالى ، ومصاهرة مع عشيرة قوية مناوئة ، ونترك جداول وات تتكلم فليس من واجبنا نقلها فى هذه المقدمة مرة أخرى . وفى ظل التحالفات المالية الكبيرة يتعمق الأمن بمفهومه الشكلى ، فمن الذى يرفع رأسه أمام هذا الغول القادر على قطع مصدر رزقه ، والقادر - بماله - على عزله واهانته والتقليل من شأنه . والمال يساعد على شراء الرجال وحبك المؤامرات .. الخ . ورغم أن (وات) ليس شيوعيا كما ألمح هو فى كتابه ، الا أنه يستطرد قائلا انه فى ظل هذه التحالفات المالية ينتفى (الشرف) بمعناه العربى الأصيل ، ويضيع معنى (العيب) ولم يكن يهم هؤلاء الأثرياء المكيون كثيرا أن يوصفوا بأنه لا شرف لديهم ، فقد كانوا قادرين - عند الضرورة - على شراء الصمت أو المديح ، وتحولت قيم الكرم العربية الحقيقية على أيديهم الى مجرد تظاهر .. يقول وات اعتمادا على روايات عن أبى جهل ، انه لم يكن يضرب الا المسلمين الضعفاء الكائنة أوضاعهم خارج النظام العشائرى ، وبذلك - فيما يقول وات - تصرف بما لا تقتضيه قواعد (المروءة) أو (المروة) العربية . واعتبر وات هذا أمرا طبيعيا ، لأن التحالفات المالية لا تهتم بالضعيف ولا تسعى الا الى القوى .. انه مجتمع الجبناء الذى يحتاج الى رقابة من مؤسسات أخرى ، تأخذ منه (الحق) المعلوم ، للسائل والمحروم ، ومؤسسات أخرى تراقب (الكيد) الذى يدبره ، وهو تعبير لا يخرج عن كونه فى هذا السياق ، المضاربة ضـد مصالح المجموع ، .. لذلك تعرض وات كثيرا فى دراسته هذه الى أن الاسلام فى جانب منه كان دينا يدعو لمصالح المجموع ، ويدافع عن (المستضعفين) وافرد لمفهوم المستضعفين هؤلاء صفحات طوالا ..

واذا كانت التحالفات العشائرية تعطى مظهر (الأمن) ، فإن شبكة التحالفات المالية الحديدية تفعل الشيء نفسه لكن بشكل أقسى ، ولم يمنع الاسلام الجد والعمل والسعي لتحصيل المال ، لكنه وضع مؤسسة الزكاة والصدقات ، وحدد لالتزامات المسلم دوائر تتسع شيئا فشيئا ، فحقق الأمن من الجذور ومن الأعماق ، لا مجرد مظهر سطحي .

ومن مزايا (وات) أنه يفكر بصوت مسموع ويشرك معه في منهجه . لقد تساءل : هل معنى هذا أن الاسلام هو حركة المستضعفين ضد الأثرياء وذوي النفوذ ؟ ولم يجب الرجل اجابة عشوائية ، وانما أعد قائمة بأوائل المسلمين ، وراح يدرسهم فردا فردا من حيث عشائرهم ومدى قوتها ، ومن حيث أوضاعهم المالية ومدى رسوخها ، ليعرف ان كانوا كلهم « مستضعفين » Weak أم لا ، ورجع في هذا لأوثق المصادر الاسلامية ، فوجد أن عددا كبيرا منهم كانوا من عشائر قوية وكانوا من أصحاب الأموال الكثيرة ، وتركوا عز العشيرة وسطوة المال ودخلوا الاسلام . ويخلص وات من ذلك الى أن الاسلام دين للأغنياء والفقراء على سواء ، دين للأفراد وللعشائر على سواء . انه على حد تعبير وات دين بكل معنى وبكل ما تحمله كلمة الدين من معان ومضامين ، وانه في جانب منه أعاد مفهوم (الكرم) بمعناه النقي الخالص ، وأعاد مفاهيم المروءة أو المروة بجوانبها الايجابية ، ويرى وات أن فكرة وكالة صاحب رأس المال في ماله Stewardship وهي فكرة أوربية مؤداها ان الأثرياء لابد أن يكونوا بشكل أو بآخر وكلاء Stewards في أموالهم وليسوا مالكين لها ملكية مطلقة ، وانما لابد أن يحققوا بها سعادة الآخرين ـ بقدر ما ، ومبدأ الوكالة الغربي هذا قائم على أساس أن المجتمع شارك هذا الثري بشكل أو بآخر في تحقيق هذه الثروة ، فلولا الأمن الذي فرضه المجتمع ما حقق هذه الثروة ، ومن اشترى منه ، ومن باع له ... الخ كل هذا في ظل المجتمع .. لكن وات يقول لنا ان فكرة الوكالة هذه ليست فكرة أوربية وانما هي من بين جملة افكار أحياها الاسلام أو ردها الى أصلها العربي السليم (الفصل الثالث) . لاحظ أن وات ليس شيوعيا فليس كل من نظر منظورا اقتصاديا يوصف بهذه الصفة البشعة ، ويستشهد

وات ببعض ما قاله المستشرق لامانس من أن بدو الصحراء كانوا ينظرون لأموال شيخ القبيلة باعتبارها عزا لهم ، وأنهم يعتبرونه مستودعا للأموال امينا عليها depositaire وأن محمدا ﷺ قد أعاد شيئا من هذا المفهوم . كما أعاد فضيلة الكرم الى معناها الأصلى بعد تفريغها من الزيف والتفـــاخر .

وما كان التحالف المالى والعشـــائرى ليترك محمدا ﷺ ومن آمنوا برسالته ، وهذا يوضح قضية في الغاية من الأهمية وهو أن عدد المؤمنين برسالة محمد ﷺ طوال الحقبة الملكية كان قليلا ، وهنا يضيف (وات) بعدا جديدا للهجرة الى الحبشة ، وهي خوف محمد ﷺ على أصحابه من الردة ، ففي وسط هذه الشبكة المالية العشائرية المعقدة تظهر الأنياب (الزرق) والذبح بفتائل الحرير ، والتآمر والمكائد والاغراء بالمال .. وكانت قريش بارعة في ذلك كله ، اذ كانت تحارب غالبا بغير أفرادها ، وتحرض وهي بعيدة ، تماما كما يفعل التاجر الثرى الذى – في الغالب الأعم – لا يرتكب جريمة بنفسه ، ولا يمارس فعلا مخالفا للقانون ، الا من وراء ستار وبأيدى الآخرين ، لكنه قابع دائما وراء الستار . في هذا الجو خشى محمد ﷺ – وفقا لتحليلات وات – من ردة هذه القلة القليلة التى اتبعته في المرحلة المكية ، فكانت هذه احدى أسباب دعوته لبعض أصحابه للهجرة الى الحبشة ، بالاضافة لدوافع أخرى . انها أفكار وات قد نأخذ بها أو لا نأخذ ؛ لكنها جديرة بالتأمل .

« كل التاريخ تاريخ حديث »

عند قراءتى لكتب (وات) ، أتذكر على الفور قول الباحث الايطالى الشهير بنديتو كروتشه Croce (١٨٦٦ – ١٩٥٢) – الذى كتب عدة مباحث في فلسفة التاريخ – « كل التاريخ تاريخ حديث » وهو يعنى أن عزل الظاهرة التاريخية في زمانها ، يقطع الطريق على فهمها ، ولعل طريقة تناول وات لبعض الظواهر الاجتماعية عند تأريخه لأحوال مكة

وحياة محمد ﷺ – وهو ما سنتناول جانبا منها فى هذه الفقرة – تؤكد ذلك . فعلى سبيل المثال : أتظل قيم الانسان ومفاهيمه كما هى بعد تغير أوضاعه المادية ، أم أن هذه الأوضاع المادية أو الاجتماعية الجديدة تنسف كل ما مضى في لحة واحدة ؟ بمعنى هل احتفظ أهل مكة – وهم بدو فى الأساس – لكنهم استقروا بعد ذلك ، بقيمهم الأولى أم حوروها أو تحورت معهم ؟ اننا نفهم من الفصل السادس انهم ظلوا محتفظين بمبدأ صحراوى – كان غير مضر كثيرا فى الصحراء – وهو : « احتفظ بما يستطيع سلاحك الاحتفاظ به » . كان هذا مقبولا في الصحراء الواسعة ، وكان وضع اليد على مناطق المرآعى يضمن لمن يفعل ذلك طعاما لقطعانه ، وكان هذا أمرا مطلوبا الى حد ما .. لكنه عندما يطبق فى مجتمع مستقر تضيع أراضى الدولة ، ويصبح الأمن مجرد قشرة تنطوى على الحقد والضغائن ، بل وتصبح الاضطرابات والمناوشات أفضل من مثل هذا الأمن . وقيمة الكرم فى الصحراء ليست فضيلة فحسب وانما هى أمر ضرورى لاستمرار الحياة ، وقد مسخ أهل مكة هذه القيمة فأصبحت مجرد مظاهر ، والتماسك الأسرى أو القبلى مطلوب فى الصحراء ، لكن المصالح المالية طغت عليه فى مكة ، فأصبح مجرد شكل خال من المضمون ، فأنا لا أنفعل دفاعا عن قريبى أو ابن قبيلتى الا ازاء القبائل الأخرى ، أما بينى وبينه فاننى أسومه سوء العذاب .. الخ – فعندما يستقر البدو لا يتحولون الى حضر ببساطة وبمجرد استقرارهم ، وعندما يهاجر الفلاح الى المدينة لا يصبح مدنياً هكذا بمجرد انتقاله ، وعندما يتحرر العبد أو المملوك ، لا يصبح حراً – هكذا وببساطة – بمجرد عتقه . قضايا على هذه الشاكلة يسوقها وات فى مباحثه .

لكن ، أمعنى هذا أن كل المفردات التاريخية التى أوردها وات صحيحة ؟ هذا ما لا يمكن الجزم به ، وهناك معلومات نميل الى أنها غير صحيحة ، وقد علق الأخ حسين على بعض ما أورده وات فى المقدمة وفى الفصل الأول ، وأقررته على غالبها ، وقمت أنا بالتعليق على بقية فصول

الكتاب ، وتلك أيضا قسمتنا في الترجمة فقد ترجم الأخ حسين المقدمة والفصل الأول وجانبا من الفصل الثاني ، وقمت بمراجعة ترجمته الطيبة . ومع هذا ، فكل عمل لا يخلو من هنات ، فالكمال لله وحده .

ونظرا لأهمية الموضوع ودقته كان من المفيد كثيرا عرضه على أستاذ جليل متخصص في التاريخ الاسلامي ومقارنة الأديان ، فأسعدني كثيرا أن قام بمراجعته الأستاذ الدكتور أحمد شلبي ، وأبدى تعليقات محدودة يجدها القارىء مشفوعة باسمه .

وعلى الله قصد السبيل .

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



مقدمة

ليس من اللائق ان يظهر هذا الكتاب دون أن أؤدى دينا فى عنقى لذكرى أستاذى وصديقى ريتشارد بل ، Richard Bell أستاذ اللغة العربية في ادنبره سابقا ، فقد كان أول من أرشدنى أثناء دراستى للاسلام ، وفى الأعوام الأخيرة ، كان كلما استشرته فى مسالة أعطانى من وقته وعمله وحكمته بلا حدود . قرأ المسودة الأولى لهذا الكتاب ، وبالرغم من أنه لم يتقبل وجهه نظرى فيه قبولا تاما ، الا أنه قدم الكثير من الاقتراحات النافعة بالاضافة الى السماح لى برؤية كتاباته التى لم تكن قد نشرت . وقد أخذت معظم استشهاداتى القرآنية من ترجمته للقرآن ، بعد اذن الناشرين السادة ت.وت. كلارك T. & T. Clark

كما أن الشكر واجب أيضا للأستاذ هـ.أ.ر. جيب H.A.R. Gibb لمساعدته الكريمة وللزملاء فى ادنبره ، وبخاصة الدكتور بيير كاشيا Pierre Cachia لقيامه باعداد الكشاف ، ولمستر ج.ر. والش J. R. Walsh على تعليقاته النافعة وللمراجع التى قدمها .

ادنبره

و.م.و .

ديسمبر ١٩٥٢

تمهيد

١ ـ وجهة نظر

هذا الكتاب يهم ثلاث طوائف من القراء على الأقل : الذين يهمهم الموضوع كدارسين للتاريخ ، والذين يتناولونه لأنهم مسلمون أو مسيحيون ، وعلى أية حال فهذا الكتاب موجه أولا وبصفة رئيسية للمهتمين بالتاريخ . ولقد حاولت المحافظة على الحياد في المسائل اللاهوتية (الدينية) التي يدور حولها النقاش بين المسيحية والاسلام ، فمثلا ، لتجنب الجزم بما اذا كان القرآن كلام الله أم لا ، فقد تحاشيت استخدام التعبير « يقول الله » أو « يقول محمد » واستخدمت التعبير « يقول القرآن » ، ومع ذلك فانني لا أتبنى المنظور المادى بحجة التزامى بالنزاهة التاريخية ، فأنا أكتب كمؤمن بالتوحيد .

هذا الاتجاه الأكاديمى يعتبر بطبيعة الحال غير تام ، فمن حيث اتصال المسيحية بالاسلام ، فان على المسيحيين أن يتخذوا من محمد (عليه الصلاة والسلام) موقفا ، لابد أن يكون قائما على أسس دينية (لاهوتية) .

وأعترف أن كتابى ناقص من هذه الناحية ، ولكننى أقول انه يقدم للمسيحيين المادة التاريخية التى يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند تكوين الرأى اللاهوتى (الدينى) .

أما قرائى من المسلمين ، فانني أقول لهم شيئا مشابهـا . فقد حاولت ـ مع الالتزام بالمقاييس العلمية التاريخية الغربية ـ ألا أقول

شيئا يفهم منه رفض أى مبدأ من مبادىء الاسلام الاساسية ، الا لا يجوز أن تكون هناك هوة لا يمكن عبورها بين الثقافة الغربية والاسلام ، فاذا كانت بعض النتائج التى توصل اليها علماء الغرب لا يتقبلها المسلمون ، فربما كان السبب فى ذلك أن علماء الغرب لم يكونوا دائما مخلصين لمبادئهم العلمية وأن استنتاجاتهم تحتاج الى مراجعة ، حتى من وجهة النظر التاريخية البحتة . ومن الناحية الأخرى ، ربما كان صحيحا ذلك القول الذى مؤداه أن هناك مجالا لشىء من اعادة صياغة العقيدة الاسلامية ، بدون أى تغيير فى الأساسيات .

يشعر الدارسون للاسلام منذ فترة ، وبخاصة المهتمون بالتاريخ ، بالحاجة الى صياغة جديدة لحياة محمد (عليه الصلاة والسلام) . ولم يكن ذلك لاكتشافهم مادة جديدة ـ بالرغم من ان ليون كيتانى Leone Caetani مثلا عندما كتب عن محمد (عليه الصلاة والسلام) فى كتابه Annali dell' Islam (نشر عام ١٩٠٥) ، لم يكن قد اطلع على مجموعة ابن سعد لتراجم المسلمين الأوائل فى كتابه الطبقات الكبرى ـ وانما لتغير اهتمامات واتجاهات المؤرخين خلال نصف القرن الماضى ، فقد أصبحوا أكثر وعيا خاصة بالعوامل المادية التى يقوم عليها التاريخ ، وهذا يعنى أن المؤرخ من منتصف القرن العشرين ـ مع عدم اهمال الجوانب الدينية والفكرية للحركة التى بدأها محمد (عليه الصلاة والسلام) أو التقليل من شأنها ـ يريد أن يسأل أسئلة كثيرة عن الخلفية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وحتى أولئك الذين ينكرون (وأنا منهم) أن هذه العوامل هى وحدها التى تحدد مجريات الأحداث يعترفون بأهميتها . لهذا ، فان السمة الخاصة لهذه السيرة لمحمد (عليه الصلاة والسلام) هى أنها لا تنقب فى المصادر المتاحة بدقة أكثر فحسب ، بل انها تعطى اهتماما أكثر لهذه العوامل المادية وتحاول الاجابة عن أسئلة لم تثر من قبل .

٢ ـ ملاحظة عن المصادر

المصادر الرئيسية عن حياة محمد ﷺ هى أولا القرآن (الكريم) ، أو الكتاب الذى يضم الوحى الذى تلقاه من الله . وثانيا الأعمال التاريخية



لكتاب القرنين الهجريين الثالث والرابع . ومن المجموعة الثانية كانت الأعمال التى أتيح لى الاطلاع عليها :

١ - السيرة النبوية لابن هشام (ت ٨٣٣ م/٢١٨ هـ).

٢ - الجزء الخاص بحياة محمد (عليه الصلاة والسلام) فى تاريخ الرسل والملوك أو حوليات الطبرى ، (ت ٩٢٢ م/٣١٠ هـ) (المجموعة الأولى ، الأجزاء ٢ - ٤) .

٣ - المغازى أو تاريخ غزوات محمد (عليه الصلاة والسلام) للواقدى (ت ٨٢٢ م /٢٠٧ هـ) - وقد نشرت طبعة منقحة في bibliothea Indica بينما قدم فلهوزن Wellhausen ترجمة مختصرة منقحة فى كتابه محمد فى المدينة ، وهناك تنقيح آخر قيد الاعداد .

٤ - طبقات ابن سعد (ت ٨٤٥ م / ٢٣٠ هـ) ، كاتب الواقدى ، وهى مجموعة كبيرة تحتوى ، الى جانب مادة كثيرة عن محمد (عليه الصلاة والسلام) ، ترجمات كبار الصحابة والتابعين .

كما يجدر بنا أن نذكر أيضا مجموعات الأحاديث (أو الروايات المختلفة لأقوال وأفعال محمد (عليه الصلاة والسلام)) ، مثل صحيح البخارى ومسلم ومسند أحمد بن حنبل ، فان هذه الكتب تحتوى مادة تهم المهتم بالتاريخ بالرغم من أن اهتمام جامعى الأحاديث الآنف ذكرهم كان فقهيا بالمقام الأول . وتحتوى كتب التراجم التى ظهرت بعد ذلك وتتناول حياة الصحابة مثل أسد الغابة لابن الأثير (١٢٣٤ م/٦٣١ هـ) والاصابة لابن حجر (١٤٤٧ م/٨٥١ هـ) على مادة تساعد على فهم الأحداث . وهناك مؤلفون متأخرون كتبوا عن سيرة محمد (عليه الصلاة والسلام) ، ولكن لا يبدو أن أحدا منهم قد اطلع على أى مصادر أولية هامة أخرى غير التى استخدمها المؤلفون الذين ذكرناهم آنفا .

هذه الأعمال المتوافرة لنا حاليا اعتمدت على مصادر سابقة ، فأحسن وصف يمكن أن توصف به السيرة النبوية لابن هشام أنها رواية منقحة من

سيرة ابن اسحق (ت ٧٦٨ م/١٥١ هـ) . كما أن هناك من سبق ابن اسحق ، الا أن اسهامه فى كتابة سيرة محمد (عليه الصلاة والسلام) هو الأكثر أهمية وتأثيرا . وقد جمع ابن اسحق كل المعلومات التى كانت متاحة تقريبا بما فيها الشعر القديم ، ثم رتب مادته واختار منها ما جعله يكتب قصة مترابطة . وكثيرا ما كان يشير الى مصادره بالطريقة الاسلامية المعتادة (*) . وقد أضاف ابن هشام بعض الملحوظات التفسيرية ، ووجدت بعض الفقرات المفقودة فى طبعته فى أماكن أخرى ، ولكن لا نستطيع أن نجزم بما اذا كان هو المسئول عن هذا الحذف .

ولقد اعتمد الطبرى أيضا على ابن اسحق ولكن ليس بقدر ما اعتمد عليه ابن هشام ، وترجع أهمية الطبرى الى أنه لم يحاول صياغة الأحداث فى قصة مسلسلة ، وانما يذكر جميع أوجه الخلاف . فكان لديه عدد كبير من النصوص المستقلة التى تناولت أول من أسلم من الرجال ، فذكر بعضها انه على بن أبي طالب ، وقال آخرون انه زيد بن حارثة وقال بعضهم انه أبو بكر . أما ابن اسحق فقد ذكر وجهة نظر واحدة فقط مؤداها أن عليا بن أبى طالب هو أول من أسلم . وقد كان ضمن مراجع الطبرى رجل من الأوائل هو عروة بن الزبير (ت ٧١٢ م/٩٤ هـ) ، وقد ترك عروة مادة مكتوبة أوردها الطبرى ولم ترد فى أى مصدر آخر .

وتعتبر مغازى الواقدى مجالا قيما للمقارنة مع ابن اسحق ، لأن كلا منهما اعتمد على سلاسل اسناد مستقلة عن تلك التى اعتمد عليها الآخر ، كما أن سلاسل اسناد الواقدى أتم وان كانت تتناول الفترة المدنية فقط . ويعطى كاتبه ابن سعد روايات مختلفة فى عناصر كثيرة ، وان كانت مادته ــ رغم كثرتها ــ ذات قيمة تاريخية قليلة ، ونادرا ما يكون ابن سعد هو المصدر الوحيد فى موضوع ذى أهمية ، ومع هذا ، تعتبر سير الصحابة التى كتبها ثروة من المعلومات النافعة عن خلفية حياة محمد (عليه الصلاة والسلام) .

(*) يقصد الاسناد (المترجم) .

أما التراجم التي كتبها ابن الأثير وابن حجر عن الأشخاص الذين عرفوا محمدا (عليه الصلاة والسلام) فهي أكبر بكثير ؛ اذ تحتوى على حوالي ٢٠٠٠٠ ترجمة وبها كثير من الحقائق لم يذكرها ابن سعد ولكن يفيد منها في حياة محمد (عليه الصلاة والسلام) قليل .

تتضمن الأحاديث التي جمعها مسلم والبخارى وآخرون روايات مختلفة نوعا ما عن روايات ابن هشام والطبرى .

كتب علماء الغرب الكثير من النقد لهذه المصادر (المقصود تقويم المصادر) وبصفة خاصة الأحاديث النبوية ، ولا تزال ملاحظات سير وليام موير Sir William Muir عن هذه المصـــادر في كتابه Life .. تعتبر مقدمة مفيدة في هذا الموضوع (موضوع تقويم المصادر) ، ولكن أكثر الدراسات تفصيلا هي تلك التي كتبها كيتاني Caetani في كتابه حوليات الاســلام Annali dell' Islam ، وليس من الصعب تصـحيح مبالغتــه في الشــك أحيـــانا . وقد انتهى هنرى لامانس Henri Lammans في دراساته الى أن كاد يرفض تماما أحداث الفترة المكية . ولكن العلماء الذين جاءوا بعده يعتقدون بشكل عام أنه قد بالغ كثيرا في تشككه . وقد تعفينــا ملاحظات تيودور نولدكه Teodor Nöldeke في مقـــالته Die Tradition über das Leben Mohammeds (١) من الاستمرار في مناقشة آراء لامانس شديدة التطرف .

تدفعنا استنتاجات ج . شاخت الهامة والمؤسسة على أساس متين حول التراث الاسـلامى في كتـابه « أصـــول الشريعـة المحمدية » Origins of Muhamadan Jurisprudence ، الى أن نفـــرق بــين التراث الفقهى والتراث التاريخي ، وفي الحقيقة يمكن تطبيق أبحاثه

(١) Islam, V, 1914, pp. 160-170. Cf. also, Becker, Prinzipielles zu Lammans Sirstudien in Islam, IV, 263 ff.

جولدتسيهر Goldziher الخالدة في كتابه Muhemmedanischen Studien (الجزء الثانى) على التراث الفقهي ، بالرغم من أنها ليست كذلك تماما في المجال الشرعي ، اذ يبدو أن هناك بعض الأحاديث الموضوعة ، لكن في المجال التاريخي ـ بقدر ما يمكننا من فصل بين ما هو تاريخي وما هو تشريعي ، باستثناء بعض الحالات الخاصة ـ فان أفضل المؤرخين الأوائل عمدوا الى عزل هذه الأحاديث الموضوعة في تشكيل خاص بها (١) • ويعبر فرانتس بول Frants عن ذلك بقوله : « عند التعامل مع الحديث ، يجب على المرء أن يكون على حذر دائما عندما يكون هناك احتمال تحيز حزبي واضح ، ولا يسمح أن يضلله المظهر الذى يبدو أحيانا بريئا » (٢) •

وعلى أية حال ، فبعد أن يدرك الدارس الحديث اتجاهات المؤرخين القدامى ومصادرهم ، يصبح في مقدوره ـ الى حد ما ـ أن يتجاوز عن التحريف المحتمل ويقدم البيانات بصورة محايدة ، ويكون من نتائج معرفة المادة المتحيزة (الأحاديث الموضوعة وغيرها) قبول باقى المادة الصحيحة بشكل عام ، بالاضافة الى ذلك ، فان كثيرا من القضايا التى تهم مؤرخ منتصف القرن العشرين لن تتأثر بالانحياز الموجود في المصادر القديمة ، لهذا لن تكون هناك صعوبة كبيرة في الحصول على اجابة ويصبح أمامه ـ ولابد ـ أن يواجه صعوبات قليلة للوصول الى اجابات عن أسئلته من المصادر •

كذلك يجب ملاحظة أن من أبسط أساليب « التشكيل المتحيز » أو (الوضع) هو عزو الدوافع أو المحركات لأفعال خارجية • لهذا ؛ يجب أن يكون التمييز بين الأفعال الخارجية والدوافع المعلنة حاضرا في الذهن دائما • فالفاعل نفسه وأصدقاؤه سيدعون أفضل الدوافع وأكثرها مدعاة للمديح ، بينما يؤكدون أن دوافع أعدائهم مشينة ، ولكن قد يكون الخلاف قليلا حول بعض الأحداث وفي حدود ضيقة ، مثل تاريخ حدث •

---

(١) Muhammad, 374 .

(٢) Nöldeke, ZDMG, LII, 1898, pp. 16 f.

بالنسبة لحدث آخر . فعلى سبيل المثال ، لا ينكر أحد أن السيدة عائشة تركت المدينة قبل اغتيال الخليفة عثمان رضى الله عنه بقليل ، أما أن تكون دوافعها مقبولة أو غير مقبولة أو متعادلة (بمعنى أن مغادرتها فى ذلك الوقت كانت صدفة) ، فموضوع نقاش واسع .

لهذا ؛ فان على المؤرخ الحديث أن يسقط من اعتباره الدوافع المعلنة فى مصادره ويستنتج ما يراه من الدوافع ، على ضوء ما يعرفه من النمط العام لتصرفات الرجال .

هذا التمييز بين الفعل والدافع فى غاية الأهمية فى فترة ما بعد الهجرة ، ولكنه أيضا ينطبق على الفترة المكية فى حياة محمد (عليه الصلاة والسلام) وكذلك فى عصر ما قبل الاسلام . وان كان تاريخ فترة ما قبل الهجرة دائما غير واضح وكان هناك دائما احتمال وضع الأحداث . وربما كان التسلسل العقلى للأحداث شبيها بما يلى : الفاعل ، ولنسمه (أ) قام بالفعل ولنسم هذا الفعل (س) ، ولا يمكن أن يكون دافعه (ل) أو (م) ماذام هذان الدافعان (ل و م) لا يتفقان مع طبيعته ، لهذا لابد أن يكون دافعه هو (ن) لأن هذا يتفق مع طبيعة أفعاله المتفقة بالتالى مع طبيعة شخصه .

لهذا ، فعندما تناولت خلفية سيرة محمد (عليه الصلاة والسلام) والفترة المكية فى حياته ، كان منهجى قبول ما ورد فى التراث بصفة عامة ولكن مع العناية والتصحيح بقدر الامكان اذا كان هناك شك فى وجود أخبار موضوعة « تشكيل متحيز » ولا أرفضها اجمالا الا اذا كان هناك تناقض خفى : فعلى سبيل المثال ، لا يمكن تصور أن الأنساب التى ذكرها ابن سعد محض اختلاق ؛ فمن هذا الذى يكيد نفسه مشقة تأليف هذه السلسلة المعقدة ، ولماذا ؟ واذا كنا — ونحن لا نهتم بالأنساب — نعرف شيئا عن أجدادنا لجيلين أو ثلاثة ، فهل من الغريب أن نتصور أن العرب الذين كانوا يهتمون بأسلافهم اهتماما كبيرا يعرفون أجدادهم لستة أجيال أو ثمانية . أو حتى عشرة ؟ ولقد تعرف جون فلن أسر

John Van Ess غنى صبى فى العاشرة كان يعرف خمسة عشر من أجداده (١) ، وأكثر من ذلك ، فان ابن سعد يعطى انطباعا انه عالم دقيق فى الأنساب ، مدرك لصعوبة نقط الخلاف ، لهذا فهو أهل للثقة فيما ذكره من انساب حتى زمن قصير فى مكة • أما الانساب والمادة التاريخية السابقة على الاسلام فيجب أن تؤخذ بحذر أكثر ، كما أن هناك صعوبات خاصة بالنسبة للفترة المدنية ، نظرا لبقايا النظام الأمومى (نظام الانتساب للأم) Matrilineal System

هذا المنهج الذى شرحناه يتضمن نظرة جديدة عن علاقة المادة التاريخية التقليدية بالقرآن الكريم ، ولقد كان من المعتاد لفترة من الوقت التأكيد على أن القرآن هو المصدر الأساسى للفترة المكية ، فلا شك فى أن القرآن معاصر لهذه الفترة ، ولكن القرآن ، اذا استبعدنا صعوبة تحديد الترتيب الزمنى للأجزاء المختلفة فيه (ترتيبه حسب تاريخ النزول) وعدم وضوح كثير من النتائج المتعلقة بذلك ، لأن القرآن نزل مفرقا ومنجما Partial & fraygmentary فهو لا يعطى لنا الصورة الكاملة لحياة محمد (عليه الصلاة والسلام) والمسلمين فى الفترة المكية •

وما فعله كتاب سيرة محمد ﷺ من الغربيين فعلا هو أنهم افترضوا صحة الخطوط العريضة لصورة الفترة المكية كما وردت فى السيرة النبوية ، واستخدموها كاطار يدخلون فيه المادة القرآنية بقدر الامكان • ولكن المنهج الأفضل هو اعتبار القرآن والروايات التقليدية الأولى يكمل كل منهما الآخر فى صياغة تاريخ هذه الفترة . واذا كان القرآن يقدم أساسا الجانب الفكرى للمجموعة الضخمة من التغييرات التى حدثت فى مكة وحولها ، الا أنه يجب أيضا أن نضع فى اعتبارنا الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ـ اذا أردنا صورة متوازنة ، بل اذا أردنا أن نفهم الجانب الفكرى نفسه فهما سليما .

قد يبدو هذا الفكر من الناحية النظرية ثوريا ـ أو رجعيا ـ ولكننا سنرى أنه لا يمثل أى تغير مروع عند التطبيق الا فى فترة ما قبل الاسلام .

(١) Meet the Arab, London, 1947, p. 77.

وفى الحقيقة ، قد يبدو أحيانا أنني أقل التصاقا بالتراث من أولئك الذين يعتبرون من الناحية النظرية أكثر شكا فى الروايات التقليدية . وبصفة خاصة ، فان مبدأ التمييز بين الأحداث العامة والدوافع المعلنة وعدم قبول ما يقال عن الدوافع الا اذا تطابق مع نتائج الدراسة الدقيقة المستقلة للأحداث ـ يؤدى الى رفض كثير من تفاصيل روايات التراث كما فى حالة دراستنا للهجرة الى الحبشة مثلا .

ولقد تناولنا الأحاديث النبوية فى المرحلة المكية من ناحية المتن أو المحتوى ، ولم نعر الاسناد أو سلسلة الرواة اهتماما كبيرا . أما فى المرحلة المدنية ؛ فان دراسة الاسناد تساعد على تقييم الحديث ومدى موثوقيته كما تساعد على تقدير اتجاهاته ، أما فى فترة ما قبل الهجرة ، فان دراسة الاسناد لا يبدو أنها تؤدى الى نتائج ذات قيمة (*) ، والراوى الوحيد الذى تستحق رواياته الدراسة هو عروة بن الزبير ، وقد تناولنا « اتجاهاته » فى الملحق (و)



(*) لم يفرق أحد من رجال الحديث بين أهمية الاسناد فى الفترة المكية والفترة المدنية ـ (المترجم) .

الفصل الأول

الخلفيـــة العربيـــة

مع وجود المادة التاريخية التى أصبحت متاحة ، يمكننا أن نخصص على الأقل جزءا من هذا الكتاب لوصف الخلفية العربية لحياة محمد (عليه الصلاة والسلام) . وعلى هذا ، فان هذا الفصل له هدف محدد هو جذب الانتباه الى أهم سمات هذه الخلفية التى تساعد على فهم صحيح لسيرته وانجازاته .

ويعتمد هذا الفصـل ــ الى درجة كبيرة ــ على أعمال المستشرقين والرحالة الآخرين ، لهذا من المستحيل أن نقدم شكرا كاملا لمن نحن مدينون لهم (فهم كثيرون) .

اذا كنا نتحدث عن شبه الجزيرة العربية ، فان ما يهمنا منها هو الجزء المحيط بمكة والمدينة ــ الذى يطلق عليه أرض الحجاز ــ وبادية نجد المجاورة لها .

١ ــ الأسس الاقتصـادية

أول ما يتبادر الى ذهن الغربى عند سماع كلمة شـبـة الجزيرة العربية هو الصحراء والبدو ، لهذا فان الحديث عن اقتصاديات حياة الصحراء نقطة بداية مفيدة . وفى الواقع ، لم تلعب الصحراء دورا خلاقا

في نشوء مفهوم التوحيد عند محمد (عليه الصلاة والسلام) ، ومع هذا فقد كان للصحراء الدور الأول في ظاهرة الاسلام ككل . ومع ذلك ، فقد كانت مكة والمدينة كجزيرتين في بحر من الصحراء ، أو على الأصح كمناطق سهوب ، وكان لهما صلات اقتصادية وثيقة بالبدو وكان يسكنهما أحفاد للبدو لازالوا يحتفظون بكثير من العادات التي اكتسبها أسلافهم من الحياة في الصحراء ، لهذا لا مفر من أن نولي الصحراء بعض الاهتمام .

تعتمد حياة البدو على تربية الأنعام ، وبالذات الابل ، وفي سهوب شبه الجزيرة العربية يمكننا أن نميز عدة أنواع من الأرض لا يهمنا منها الا نوعان ، الأول هو تلك الأراضي التي تكون في الصيف قاحله رملية ، ولكنها في الشتاء ، بعد سقوط الأمطار – وهو الفصل الذي يسميه العرب الربيع (*) – يكتسي بنبات أخضر حلو المذاق وخاصة في الوديان ، مما يجعلها جنة للابل . ثم هناك المناطق التي تنمو فيها الأشجار المعمرة والشجيرات – بشكل طبيعي – أغلبها عطرى الرائحة . ويفسر هذان النوعان من الأرض الحاجة الى حياة الهجرة ، فبمجرد سقوط الأمطار (بالرغم من أنها غير منتظمة الى حد ما) ، تصبح الأرض التي من النوع الأول أفضل مرعى للابل ، ولكن عندما يضمحل هذا المرعى ويختفي بدخول الصيف ، يصبح على البدو أن ينتقلوا الى الأرض التي من النوع الثاني ، ويعتمد البدو عندما يكونون في النوع الأول من الأرض على الابل في الشراب والطعام ، أما عندما يكونون في النوع الثاني فهناك آبار ، وان كانت تستخدم عادة لشرب الابل أكثر مما تستخدم للاستهلاك الآدمي . وفي الحالتين يعتبر اللبن هو الوجبة الرئيسية للبدوى ، بالاضافة الى التمر الذي يحصل عليه من الواحات . كما انه يأكل اللحم بين الحين والآخر ، اما الحبوب فكانت ترفا مقصورا على الأغنياء والعظماء .

ويعتمد البدوى الى حد ما على الأراضي المأهولة بالسكان ، ولا يرى في السرقة أية جريمة ، سواء كانت بالاغارة على واحة أو على قافلة ،

(*) الكاتب يقرب المعنى للقرائه الأوربيين لاختلاف الفصول عن أوربا .

ولما كان البدوي عادة هو المقاتل الافضل في المناوشات التي تحدث أثناء عمليات السطو هذه ، فقد كان الزراع والتجار غالبا ما يلجاون الى احدى القبائل الصحراوية لحماية مساكنهم وأرضهم وقطعانهم ولتأمين قوافلهم في مقابل مال يدفعونه لهم ، وكانت هذه الأموال تمثل بالنسبة لكثير من البدو مصدرا منتظما للدخل ، وهكذا كان في مقدور البدوي أن يستمتع ببعض منتجات الحضر .

وفي المنطقة التي تهمنا كانت هنـــاك زراعة في الواحات وبعض المناطق المرتفعة في الجبال ، وكان المحصول الأساسي في الواحات هو التمر ، في حين كانت الحبوب المحصول الهام في المناطق الجبليه مثل الطائف . وكانت يثرب (التي عرفت فيما بعد بالمدينه) في زمان محمد (عليه الصلاة والسلام) واحة كبيرة ومزدهرة . وكان هناك عدد من المستعمرات الزراعية اليهودية مثل خيبر ، بينما كان الحال في مكة على العكس تماما ، اذ كانت الزراعة هناك مستحيلة تماما ، وهذه حقيقه يجب أن نتذكرها دائما • وكانت اليمن ــ وان كانت لا تدخل في نطاق اهتمامنا الحالي ــ بلدا زراعيا خصبا تستخدم فيها وســـائل الري الاصطناعي من قديم الزمان ، ومن المعتقد الآن أنها الموطن الأصـــلي للساميين أو على الأقل « بلد المنشأ » و « أول موطن منفصل » (١) • ومن المؤكد أن التراث العربي في فترة ما قبل الاسلام قد تضمن الكثير من ذكريات الأرض الخصبة في الجنوب . ولا شك أن هذه الصلة بالأرض الخصبة قد ساهمت في الثقافة العربية في زمان محمد (عليه الصلاة والسلام) ، ولكن لم تؤد دراسة هذا التأثير الى أي نتائج مؤكدة حتى الآن •

كانت مكة ، مسقط رأس محمد (عليه الصلاة والسلام) وموطنه لنصف قرن ، مدينة تجارية تقع في وسط صخور قاحلة ، وقد كان نمو مكة كمركز تجاري نتيجة وجود الحرم ، أو المنطقة الحرام ، حيث كان الناس يأتون اليها آمنين من أي تحرش ، كما كانت الظروف الجغرافية

(١) G. A. Barton, Samitic and Hamitic Origins, 271.

أيضا في صالحها ، فقد كانت تقع في ملتقى الطرق من اليمن الى الشام ومن الحبشة الى العراق ، لهذا كان البدو يأتون إلى مكة لتحصول على البضائع التي كانت تأتي مع القوافل من أركان المعمورة الأربعة ، وربما كان أهل مكة في البداية مجرد وسطاء وتجار تجزئة ولم يكونوا المستوردين أو أصحاب العمل المنظمين للقوافل ، ولكنهم في نهاية القرن السادس الميلادي كانوا يتحكمون في معظم التجارة بين اليمن والشام ، وهو طريق هام كانت تمر به بضائع الترف الهندية الى الغرب وكذلك اللبان والبخور من جنوب شبه الجزيرة العربية • وكانت الطائف تنافس مكة في التجارة ، ولكن من الواضح أن موقف مكة كان هو الأقوى •

كانت مكة أكثر من مجرد مركز تجاري ، فقد كانت مركزا ماليا ، ولا يبدو أن أحدا من الدارسين على علم اكيد بالتفاصيل مثل لامانس Lammans (١) ، ولكن من الواضح أن عمليات مالية على درجة لا بأس بها من التعقيد كانت تتم في مكة ، وكان زعماء مكة في زمان محمد (عليه الصلاة والسلام) رجال مال قبل كل شيء ، مهرة في ادارة شئون المال ، ذوى دهاء ، وكانوا مهتمين بأى مجال لاستثمار مربح لأموالهم من عدن الى غزة أو دمشق ، ولم يكن أهل مكة وحدهم الذين وقعوا في الشبكة المالية التي نسجوها ، ولكن أيضا كثير من كبار رجال القبائل المحيطة بها • وهكذا لم يظهر القرآن في جو الصحراء بل في جو اقتصادى مالى على درجة عالية من التعقيد •

بقيت نقطة أخرى ، هل كان ظهور دين جديد في الحجاز وانتشاره بعد ذلك بين العرب ثم انتقاله الى فارس والشام وشمال أفريقيا له ارتباط بأى تغير اقتصادى كبير ؟ تقول احدى الاجابات ان الجفاف المتزايد في البادية العربية وما أدى اليه من جوع كان الدافع الذى دفع العرب في طريق الغزو ، لندع الآن جانبا وبصفة مؤقتة مسألة التغير الاقتصادى ، ونكتفى بالقول بأنه ليس هناك دليل يوثق به على حدوث أى تدهور في الظروف المناخية للبادية ، وكانت الحياة فيها محتملة ، فقد سمعنا عن

(١) انظر : Mecque ، صفحة ١٣٥/٢٣١ وما بعدها ـ (المؤلف) •

أتباع لمحمد (عليه الصلاة والسلام) عادوا من الغزوات التى حدثت بعد وفاته خارج شبه الجزيرة العربية الى حياة الصحراء التى عشقوها . والانطباع العام الذى نشعر به هو أن البدو لم يعودوا الى أسوأ ما كانوا عليه من قبل . بل بالعكس صاروا أفضل مما كانوا نظرا للمنافع التى حصلوا عليها نتيجة للرخاء المتزايد فى مكة . ثم بعد ذلك ، مع الهجرة من شبه الجزيرة العربية فى فترة الفتوح ، لا شك أن الضغط على موارد الطعام قد قل عن ذى قبل .

وكانت هناك صناعات محلية صغيرة فى الحجاز ، وكان أغلبها لخدمة احتياجات البدو وسكان المدن ، وان كنا قد سمعنا عن منتجات جلدية كانت تصدر من الطائف ، ولكن من حيث منظور حياة محمد (عليه الصلاة والسلام) ليس لها الأهمية التى تجعلنا ندرسها كعامل مستقل .

٢ ـ السياسة المكية

كان هناك صراع دائم من أجل السلطة داخل هذا المجتمع التجارى فى مكة . وكانت المجموعات السياسية المشتركة فى هذا الصراع مرتبطة بدورها بعلاقات مع القبائل العربية التى تمر بها قوافل مكة ، وكذلك مع القوى العظمى التى كانت هذه القوافل تنقل البضائع الى أسواقها . بعض هذه الأمور معقد الى درجة كبيرة ، ولكن نظرا لأن محمدا (عليه الصلاة والسلام) كان منذ البداية رجل دولة الى حد كبير ، فمن الضرورى دراسة النقط الأساسية على الأقل .

(أ) المجموعات السياسية فى قريش

تعطى المصادر العربية الكثير من المعلومات عن الأسر والحزازات القبلية والتحالفات داخل قريش .

وقد بالغ بعض النقاد الغربيين في التأكيد على الجانب الأسطوري لهذه القصص ، وركزوا بشكل مبالغ فيه على مناقشة ما اذا كانت الشخصيات المذكورة في هذه المصادر أفرادا حقيقيين أم مجرد تجسيد للقبائل • وربما كانت هناك حقائق تاريخية أكثر مما ذكر في هذا النقد المتطرف ، ولكننا لا نعتزم أن نلمس هذا الموضوع الصعب هنا اذ انه يحول انتباهنا عن الحقيقة الهامة ، وهي أن هذه القصص تبين لنا كيف كانت قريش تدرك العلاقات بين الأسر والعشائر في زمان محمد (عليه الصلاة والسلام) ، وربما تكون بعض جوانب الموضوع قد حدث فيها تعديل نتيجة للأحداث التي وقعت فيما بعد ، مثل العداء بين العباسيين والأمويين الذي ربما يكون قد أثر على ما روى عن العلاقات بين بني هاشم وبني أمية • ولكننا نستطيع أن نثق في الصورة بصفة عامة •

وقدسية مكة قديمة جدا ، فبعد أن حكمتها قبيلة جرهم لفترة طويلة ، انتقل أمرها الى قبيلة خزاعة التي ارتبط بها بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة ، واحتفظت الأسر القديمة ببعض الامتيازات التي ربما كان لها سمة مقدسة مثل الاجازة Ijazah ، التي ظلت في يد بني صوفه Sufah ، ثم انتقلت السلطة من خزاعة وحلفائها الى قصي الذي استمد قوته في جانب منها من حلفاء من بني كنانة وقضاعة . وفي جانب آخر من توحيده لجماعات قريش المختلفة التي كانت حتى ذلك الوقت متفرقة وغير مؤثرة • وربما كان قصي المؤسس لمكة بعد أن كانت مجرد مخيم حول الحرم (*) •

كذلك ربما كان قصي هو الذي ميز بين قريش البطاح (أولئك الذين يعيشون حول الكعبة مباشرة) وقريش الظواهر (وهم الذين يعيشون في الضواحي) ، ولا شك أن هذا التمييز موجود ، ومن الطبيعي أن يفترض أنه يعود الى الرجل الذي خصص الأحياء في بداية بناء مكة • وتنتمي سلالة قصي بأكملها وكذلك سلالة جده العظيم كعب الى قريش

(*) ابن هشام جـ ١ ، ص ٧٨ •

البطاح • ويبين الجدول فى الصفحة ٧ (*) التفاصيل طبقا لقائمتى للمسعودى •

وقد كانت هناك تقسيمات أكثر تفصيلا لقريش البطاح ، ففى البداية خلف عبد الدار قصيا فى زعامته ، ولكن مع الزمن تحدت عائلة ابن عبد مناف ممثله فى ابنه عبد شمس عائلة عبد الدار بزعامة أحد أحفاده • وهكذا انقسمت مكة الى معسكرين متعاديين ، وانضم الى عبد مناف بنو أسد وبنو زهرة وتيم والحارث بن فهر ، بينما انحاز الى بنى عبد الدار قبائل مخزوم وسهم وجمح وعدى • بينما ذكرت الروايات ان بنى عامر بن لؤى ومحارب وهما من قريش الظواهر اعتزلا الفريقين • وعرف بنو عبد مناف وأحلافهم بالمطيبين ، وعرف بنو عبد الدار ومن معهم بالأحلاف • ويلاحظ أن التحالفات لم تتبع تماما الخطوط العائلية ، فقد انقسمت عائلة قصى الى فريقين ، عبد الدار فى مواجهة عبد العزى (= أسد) وعبد مناف ، كما كان باقى مرة فى مواجهة مخزوم • (وهذه حجة ضد القول بأن الصلات الأسرية هى المبرر للأحداث التى حدثت فيما بعد) وكاد الخلاف يؤدى الى قتال ، ولكن أمكن التوصل الى حل وسط احتفظ بمقتضاه بنو عبد الدار ببعض الامتيازات الاسمية الى درجة كبيرة ، بينما أعطى بنو عبد مناف أسباب السلطة ، وقد تحقق الطرفان من حجم المكاسب التى سيحصلون عليها اذا اتفقا ، وحجم الخسائر التى ستصيبهم اذا اختلفا •

قد يعتبر حلف الفضول تطويرا لحلف المطيبين وليس حلفا ضد الظلم كما ينظر اليه كيتانى Caetani ، ويقول المسعودى انه ـ أى حلف الفضول ـ كان نتيجة محاولة لمساعدة يمنى على استرداد دين له عند العاص بن وائل من بنى سهم ، وكان المشاركون فى الحلف عشائر هاشم والمطلب وأسد وزهرة وتيم وربما الحارث بن فهر (**) ، أى المطيبين بدون بنى عبد شمس وبنى نوفل • ثم نشب الخلاف بين نوفل

(*) من النص الانجليزى ، ص ٥٦ من هذه الترجمة •

(**) ابن هشام ، ٨٥ ـ ٨٧ •

وعبد المطلب بن هاشم وساند بنو المطلب عبد المطلب بن هاشم ، وهكذا نمت قوة بني عبد شمس ونوفل الى الدرجة التي جعلتهم في غنى عن حلفائهم (المطيبين) ، في حين رحب بنو هاشم والمطلب ، الذين كانت قوتهم في اضمحلال ، بوجود حلفاء لهم .

وتؤكد الرواية التي رواها ابن اسحق عن دعوة بني هاشم والمطلب بعد ذلك الى حلف الفضول هذا التفسير . وفي خلافة معاوية ، قام نزاع بين والي المدينة الوليد وهو ابن اخي معاوية وبين الحسين بن علي حول بعض أملاكه ، وأنهى الوليد هذا الخلاف لصالحه ، واعترض الحسين وقال انه يلجأ الى حلف الفضول ، فتلقى عروضا بالمساعدة من عبد الله بن الزبير (أسد) والمسور (زهرة) وعبد الرحمن بن عثمان (تيم) ، ولم يستطع الوليد مواجهة هذا التهديد باحياء حلف قديم ، حيث كان الرجال الذين ذكرناهم من بني هاشم وأسد وزهرة وتيم على الترتيب ، فلم يكن أمامه الا أن يتراجع . وفي زمن لاحق ، دل حوار دار بين الخليفة عبد الملك (من بني أمية أو عبد شمس) ورجل من بني نوفل على أن هاتين العشيرتين كانتا قد خرجتا من الحلف منذ زمن بعيد ، هذا ان كانتا قد دخلتا فيه أصلا ؟

وفي زمان بعثة محمد (عليه الصلاة والسلام) ، كان من الواضح انه قد حدثت تغيرات في الاتجاهات السياسية ، ولكن من الصعب أن نقول — على الأقل في المراحل التالية — الى أي مدى كانت هذه التغيرات بعيدة عن تأثير الاسلام والى أي مدى كانت من نتائجه . والموقف الذي أراه يتلخص فيما يلي :

المجموعة أ هي حلف الفضول القديم بدون بني أسد وباضافة بني عدي ، وقد يكون لهذا التغير علاقة ما بدخول عمر بن الخطاب في الاسلام ، ولكن الاحتمـــال الأقرب أن يكون نتيجة للتحـــالف بين عبد شمس والمجموعة جـ ، وذلك للعداء المرير الذي نشب بين بني عدي وبني عبد شمس ، وبالطبع كانت هناك عوامل اقتصـــادية . وكان انضمام المجموعة ب للمجموعة جـ لعدة أسباب ، فمن الواضح أن العلاقات بين

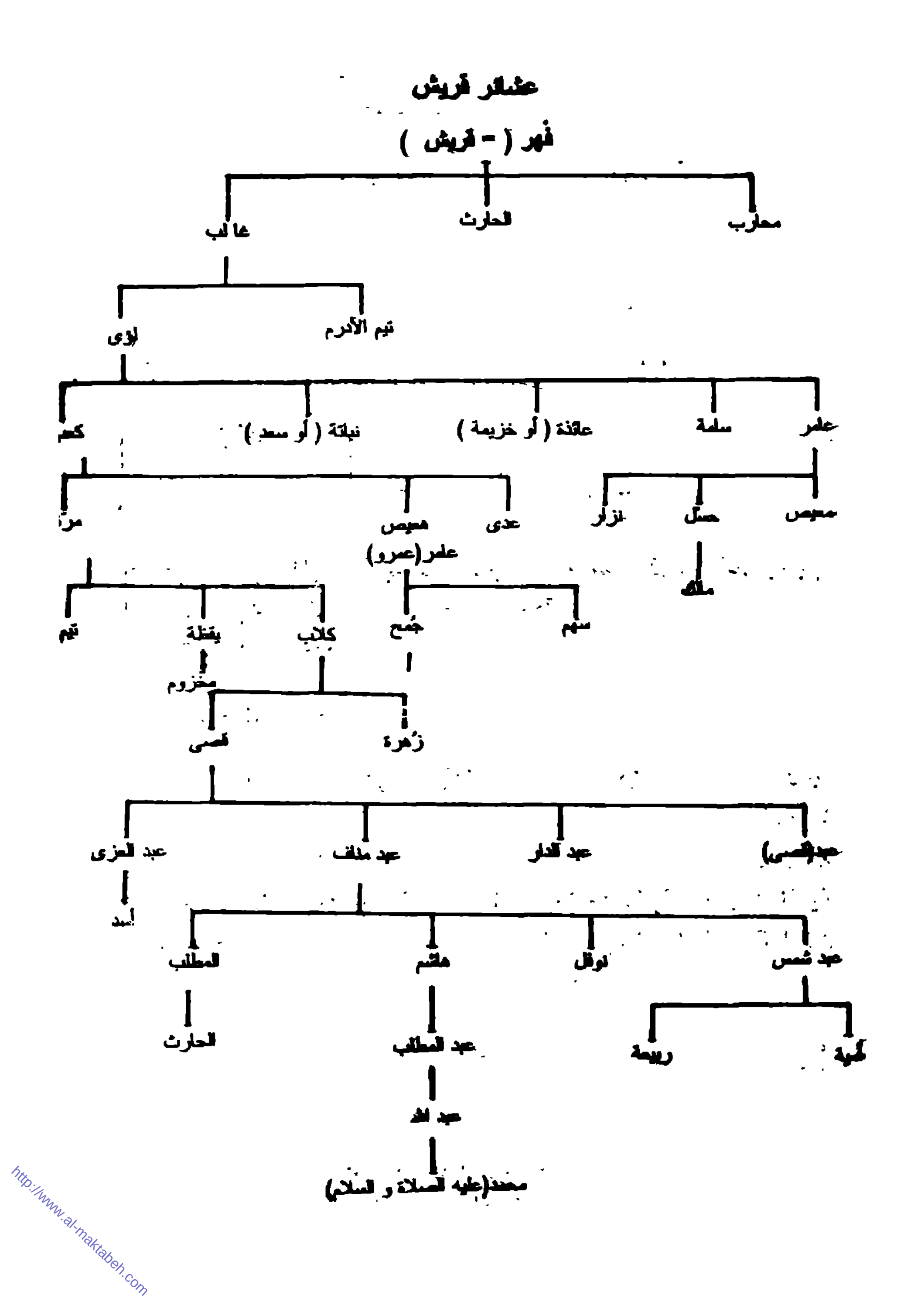
المجموعة ١	المجموعة ب	المجموعة جـ
هاشم	عبد شمس	مخزوم
المطلب	–	سهم
زهرة	نوفل	جمح
تيم	أسد	عبد الدار
الحارث بن فهر	عامر	–
عدى	–	–

بنى عبد شمس والمجموعة جـ كانت وثيقة ، ولا شك أن ذلك كان بسبب المصالح التجارية المشتركة ، أما المجموعة جـ فهى مجموعة الأحلاف القديمة بدون بنى عدى ٠

الأدلة الرئيسية التى تؤكد افتراض هذا التقسيم للعشائر هى :

١ ــ كان زعماء جيش المشركين فى غزوة بدر من المجموعتين ب و جـ باستثناء العباس (من بنى هاشم) ، وحتى أمر هذا مشكوك فيه ، اذ ربما يكون اسمه قد أضيف فيما بعد لاكساب ذريته مجدا (*) ، وقد روى أن افراد عشيرة طالب بن أبى طالب قد انسحبوا من المعركة ٠ ومن ناحية أخرى نرى أن بنى زهرة وبنى عدى لم يشتركوا فى هذه المعركة ، كما كان المشاركون فيها من أعضاء المجموعة (أ) قليلين ٠

(*) لا أرى أى مجد يشرف ذرية العباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام من اشتراك ابيهم العباس فى معركة بدر فى صفوف المشركين وهم ابناء عم الرسول ، كما ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ نهى المسلمين يوم بدر عن قتل عمه ٠ كما أنه أعلن اسلامه بعد ذلك وخرجت منه ذرية مسلمة منهم عبد الله ابنه الملقب حبر الأمة ــ (المترجم) ٠ وهناك اتجاه يرى أن العباس كان مسلما يكتم اسلامه يكون عينا للمسلمين لدى أعدائهم ــ (المراجع)


عشائر قريش
فهر (= قريش)
محارب
الحارث
غالب
تيم الأدرم
لؤى
عامر
سامة
عائذة (أو خزيمة)
نباتة (أو سعد)
كعب
معيص
حسل
نزار
مالك
عدى
هصيص
مرة
عامر(عمرو)
سهم
جمح
كلاب
يقظة
تيم
مخزوم
زهرة
قصى
عبد(قصى)
عبد الدار
عبد مناف
عبد العزى
أسد
عبد شمس
نوفل
هاشم
المطلب
أمية
ربيعة
عبد المطلب
الحارث
عبد الله
محمد(عليه الصلاة و السلام)

٢ ـ كان الذين سعوا فى انهاء مقاطعة بنى هاشم من بنى عامر ونوفل وأسد • كما ذكر معهم أيضا مخزومى ، ولكن ربما وقف هذا المخزومى ضد غالب عشيرته لأن أمه كانت من بنى هاشم •

٣ ـ كان الذين طلب محمد (عليه الصلاة والسلام) جوارهم بعد عودته من الطائف من بنى زهرة وعامر ونوفل • وليس منهم أحد من المجموعة (ج) •

٤ ـ كان المسلمون الأوائل الذين لم يهاجروا الى الحبشة أعضاء فى حلف بنى هاشم والمطلب وزهرة وتيم وعدى باستثناء حالتين (كانت ظروفهما غير عادية) ، وهذه حقيقة لها مغزاها حتى لو كان تفسيرها غير مؤكد •

(ب) ادارة الأمور فى مكة

يكاد يكون التنظيم الحكومى الوحيد فى مكة هو الملأ وهو تجمع من شيوخ العشائر وزعمائها • وكان هذا المجلس استشاريا فقط وليس له سلطة تنفيذية ، كانت كل عشيرة مستقلة عن غيرها ولها حرية التصرف فى أمورها • لهذا ، كانت القرارات المؤثرة التى يصدرها الملأ هى فقط التى تصدر بالاجماع • وكانت هناك بالطبع وسائل للتعامل مع الأقليات المتمردة ، وتعتبر مقاطعة العشائر لبنى هاشم والمطلب مثالا لكيفية ممارسة الضغط الاقتصادى والاجتماعى •

يكمن جزء كبير من قوة مكة فى قدرة شيوخها وزعمائها على توحيد فكرهم واضعاف المنافسات الثانوية لصالح المجموع • وتعتبر تسوية النزاع الذى نشب بين الأحلاف والمطيبين أحد الأمثلة على ذلك ، كما كان اعداد مكة للقتال بعد هزيمة بدر مثالا آخر • وبجانب هذا المجلس المركزى (الملا) ، لا شك أنه كانت هناك اجتماعات تعقد بين شيوخ العشائر المستقلة عند الضرورة لمناقشة الأمور ، كما حدث عندما جمع أبو طالب

بني هاشم وبني المطلب ليحثهم على الموافقة على حماية محمد (عليه الصلاة والسلام) .

كذلك ذكرت المصادر بعض المهام والوظائف ، منها مثلا النسيء (وهو حق تقرير متى يزاد في شهر قمرى ليتوافق مع السنة الشمسية). والسقاية (الاشراف على موارد الماء وتوفيرها للحجيج) والرفادة (اطعام الحجيج) واللواء (حمل العلم في الحرب أو تعيين من يحمله) ، ويكاد ذلك ان يكون ادارة محلية بالمعنى الذى نفهمه الآن أو كما فهمه الاغريق والرومان . وكانت هذه المهام تعتبر امتيازات لأصحابها ، وكان بعضها على الأقل يعطى أصحابها فرصة لجمع المال ، فبالنسبة للسقاية ، كان على الحاج أن يدفع مبلغا في مقابل استخدام ماء زمزم (لامانس Lammens ، مكة ، ٦٥) ، كما سمعنا عن ضرائب متنوعة كانت تجبى من الحجاج والتجار ، وان كان أسلوب جمعها غير واضح (*) .

(*) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ان جرهم بن قحطان الجرهمي كان نازلا باعلى مكة ... وكان السميدع سيد قطوراء نازلا بقومه أسفل مكة وكل منهما يعشر من مر به مجتازا الى مكة (اى ياخذ منه عشر ما معه من مال كضريبة) . وكان ذلك قبل قصي بمئات السنين ، كما كانت هذه التصرفات وغيرها سببا في رفض خزاعة لحكم جرهم لمكة فتمالات عليهم وقاتلوهم حتى اجلوهم عن مكة .

ثم ان قصيا كان أول من تولى السقاية والرفادة واللواء وجعلها مهام يتشرف بها من يحملها من بعده من ذريته . اما السقاية فلم تكن من زمزم لا في زمان قصي ولا بعده الى ما قبل مولد الرسول عليه الصلاة والسلام بقليل لأن عمرو بن الحارث سيد جرهم طمر زمزم عندما تاكد من هزيمته امام خزاعة .

وكانت السقاية بعد اعادة حفر زمزم الى عبد المطلب الذى حفرها ـ طوال حياته ، ثم صارت الى ابنه أبى طالب مدة ، ثم اتفق انه املق في بعض السنين : فاستدان من اخيه العباس عشرة الآف الى الموسم الآخر وانفقها ابو طالب فيما يتعلق بسقاية الحجيج في عامه . فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبى طالب شيء فقال لأخيه العباس : أسلفني اربعة عشر الفا ايضا الى العام المقبل أعطك جميع مالك ، فقال له العباس : بشرط ان لم تعطني تترك السقاية لى اكفلها ، فقال نعم ، فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبى طالب ما يعطى العباس فترك له السقاية فصارت اليه ثم انتقلت في ذريته الى ان اخذها للنصور (البداية والنهاية لابن كثير) .

وكان تأثير الفرد في مجريات الامور في مكة يقوم على أمرين : عشيرته وكفاءته الشخصية . وكانت قوة العشيرة تتناسب مع ثروتها بالرغم من أن الثروة في مثل هذا المجتمع التجاري كانت متحركة الى درجة كبيرة وتتغير تبعا لمدى الأعمال التي يمارسها الفرد والعشيرة ونجاحها ، وقد تكون البداية ثروة موروثة وعلاقات عمل ، ولكن كان تأثير الفرد في النهاية يعتمد أساسا على صفاته الشخصية : دهائه التجاري والاقتصادي ، سياسته مع العشائر والقبائل الأخرى ومع ممثلي القوى الكبرى ، وقدرته على فرض رئاسته على أقرانه في العشيرة والدوائر الأوسع . فلم تكن سيطرة أبي سفيان على سياسة مكة في بداية بعثة محمد (عليه الصلاة والسلام) لأنه كان متوليا منصبا له سلطة ، بل لأهمية عشيرته بني عبد شمس أو أمية وثروتها ولأنه كان يتمتع بالصفات التي ذكرناها . وكانت العشيرة الأخرى ذات السيادة في ذلك الوقت هي بني مخزوم ، ولذلك كان لأعضائها البارزين ـ مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل ـ دور هام في ادارة شئون مكة .

قد يكون من الطريف المقارنة بين مكانة أبي سفيان في مكة وبيركليس في أثينا . كانت الديموقراطية العربية أقل مساواة منها في أثينا . فقد كان كل فرد في العشيرة في مكة لا يمثل الا فردا واحدا ولم يكن هناك من يمثل أكثر من واحد ، ومع ذلك تمكن العرب بطريقة أو أخرى من ايجاد وسيلة لاختيار الأعضاء البارزين في العشيرة الذين يحضرون اجتماعات الملا .

وكان الملأ المكي أكثر حكمة ومسئولية من الاكليزيه ekklesia الأثيني ، ونتيجة لذلك كانت قراراته تتخذ بناء على الجدارة الحقيقية

= ونفهم من ابن كثير ان السقاية كانت بدون مقابل . اما الرفادة ، فقد ذكر ابن هشام والطبري وابن كثير ان قصيا جمع اهل مكة فقال لهم : انكم جيران الله واهل بيته الحرام ، وان الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم احق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم شرابا وطعاما أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه اليه فيصنعه طعاما للناس ايام منى ، فجرى ذلك من امره على قومه في الجاهلية حتى قام الاسلام ، ثم جرى في الاسلام بعد ذلك .

للرجال وسياساتهم وليست بناء على خطب رنانة تجعل أسوأ الأسباب يبدو أحسنها ، ومن ناحية أخرى كان الأثينيون يقدرون المبادىء الأخلاقية ويقبلون الرجل لأنه أمين ومستقيم ، بينما كان أهل مكة يهتمون بالمهارة العملية للرجل وقدرته على أن يكون زعيما فعالا ، وهذا يؤدى بنا الى موضوع القسم الثالث ٠

(ج) قريش والقبائل العربية

كانت النبالة والهيبة بين عرب الصحراء مسألة تتعلق بالقوة العسكرية الى درجة كبيرة ، فكانت الزعامة بين القبائل لمن يستطيع حماية أتباعه ، والثأر للاهانات أو الايذاء أو القتل ، وقد قيل فيما بعد ان قريشا سادة العرب وان الخلافة لا تكون فى غيرهم ٠ وفى صورته المطلقة ، ربما كان هذا الاعلاء لشأن قريش قراءة لأحداث العقد السابق للهجرة فى ضوء ظروف جدت فيما بعد ، ولكن حتى لو كانت هناك بعض المبالغة فى هذا التعبير ، فقد كان الاعتراف بقريش سيدة قبائل غرب شبه الجزيرة العربية وغرب وسطها ، أى بين القبائل ذات الصلة الوثيقة بها ، حقيقة لا جدال فيها ٠ فعلى أى أساس كانت هذه السيادة ؟

لم يستطع لامانس أن يدلل على صحة نظريته عن جيش المرتزقة من العبيد السود الا عن طريق لى الحقائق والشواهد ٠ ويبين التذييل (أ) بعض الأسباب التى تجعل هذه النظرية على غير أساس ٠ ومع ذلك ، فان وجود عدد من العبيد السود فى قريش حقيقة لا تنكر ، وكان بعضهم يستخدم فى القتال اذا لزم الأمر . كما أنه من الحقائق المعروفة أن قريشا جذبت الكثير من العرب من أبناء القبائل الأخرى الى مكة كحلفاء (مفردها حليف) ، وكان بعضهم يشارك فى التجارة والبعض الآخر من الفرسان قاطعى الطريق ، وهذا النوع على الأقل كان دائما مستعدا للقتال ٠ كما أنه من الحقائق المعروفة أن الأغنياء من تجار قريش كانوا راغبين عن القتال فى معركة بدر ، بالرغم من أنهم لم يكونوا جبناء وكانوا قادرين على الظهور بمظهر مشرف ، وكذلك أبلى المسلمون من قريش فى

بغير بلاء حسنا حتى لو كانت بطولات علي وحمزة متبالغا فيها الى درجة كبيرة ، وحتى لو كان الأنصار هم المقاتلين الأفضل من جميع النواحي .
لكل هذه الأسباب ، نرى أنه من الواضح أن رياسة قريش لم تكن بسبب براعتهم في القتال كأفراد .

كان سر مهابتهم قوتهم العسكرية التي يستطيعون أن يواجهوا بها أي خصم ، ولم تكن هذه القوة قوتهم وحدهم بل كانت قوتهم مع أحلافهم ، وقد تأسست هذه الأحلاف على أساس أعمالهم التجارية . فقد كانت القوافل الى اليمن والشام والبلاد الأخرى تتطلب خدمات من عدد كبير من البدو كأدلاء وحراس ورعاة للابل ... الخ . وقد يدفعون مبلغا من المال لزعيم قبيلة لضمان سلامة المرور في منطقة نفوذه ، أو للحصول على الماء أو أنواع أخرى من الزاد ، وهكذا كانت قبائل البدو تشارك في تجارة مكة ، وسرعان ما عرفوا من أين تؤكل الكتف ، فقد كان رخاء مكة رخاء لهم كما كانت خسارة مكة خسارة لهم ، وقد زاد هذا الشعور بالتكامل مع مكة عمقا بالمصاهرة التي كانت بين زعماء مكة والقبائل المختلفة ، وباشراك زعماء القبائل في تجارات مكة ذات رؤوس الأموال المشتركة .

ومن هذا نرى أن القول بأن أهل مكة كانوا يدفعون للرجال ليقاتلوا من أجلهم صحيح الى حد ما ، ولكن هؤلاء الرجال لم يكونوا بأية حال مرتزقة ، فلا وجه للمقارنة بينهم وبين الحرس السويسري أو الفرقة الأجنبية الفرنسية مثلا ، فقد كانوا جميعا عربا أحرارا دخلوا في أحلاف واتفاقيات مع قريش على أساس من الندية . وكان زعماء تلك الطائفة الغامضة التي يطلق عليها الأحابيش يعلنون آراءهم صريحة في مواجهة أهل مكة (١) ، وعندما هاجم البراد من بني بكر بن عبد مناة بن كنانة احدى القوافل ، وهي الحادثة التي أدت الى اشتعال حرب الفجار ، كان لا شك يعلم أن فعله هذا يسير في نفس الخط مع سياسة مكة وأن قريشا سوف تؤيده ، ولكن ربما كان تصرفه هذا نابعا من نفسه ولم يكن تنفيذا لأوامر أهل مكة .

---

(١) انظر التذييل ١٦ ، الفقرات : ١ ، د ، ج (المؤلف) .



كان للمال أهمية في المحافظة على مثل هذه الأحلاف ، ولكن المال وحده لا يكفي ، فرجال يمثل هذه الشخصية العنيدة حادة الطبع لا يمكن التعامل معهم الا بلباقة ودبلوماسية دائمتين ، وتتطلب هاتان الصفتان تحكما تاما فى مشاعر الانسان ، وقد كان هذا الأسلوب فى الحكم المتعقل الصبور ، أو ما أطلق عليه حلم قريش ، الذى مكنهم من المحافظة على أحلافهم . « وكانت هذه الحكمة السياسية ، التى اشرق فيها كل حلم قريش ، هي الضمان الذي به احتفظت مكة بسيادتها على جيرانها من البدو لسنوات طويلة قبل الاسلام » (لامانس ، مكة ، ١٧٧/٨١) (١) .

(د) سياسة مكة الخارجية

كانت مكة واقعة في دائرة اهتمام قوتين عظيمتين ، الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية وقوة ثالثة أقل وهى مملكة الحبشة ، وكانت الأسباب الأساسية التى جذبت انتباه الامبراطوريتين الي شبه الجزيرة العربية تجارية ، فكانت الامبراطورية البيزنطية ترغب فى الحصول على المواد الترفية من الشرق ، ولكن فارس كانت تسد عليها جميع طرق التجارة تقريبا ، البرية منها من الصين والهند (باستثناء الطريق الذى يمر شمال بحر قزوين) والبحرية من الهند وسيلان عن طريق الخليج الفارسى . وكانت فارس تكبد البيزنطيين أسعارا فادحة فى مقابل الحرير والتوابل فى زمن السلم ، أما فى زمن الحرب فكانت هذه البضائع تنقطع تماما ، ولكن كان هناك الطريق البرى عبر غرب شبه الجزيرة العربية الي الشام (وكان أيضا طريق البخور من جنوب شبه الجزيرة العربية) وطريق البحر الأحمر الذى لم يكن يستخدم كثيرا لسبب غير واضح .

كان جوستنيان Justinian ، الذى أدار السياسة البيزنطية تحت حكم جوستين Justin من ٥١٨ الى ٥٢٧ ثم صار هو الامبراطور

---

(١) بالاضافة طبعا الى اثر وجود بيت الله الحرام فى مكة وجوار قريش له فى ارساء القواعد مهابتها فى قلوب العرب .

حتى ٥٦٥ م ، حريصا على استعادة الممتلكات الرومانية فى الغرب ، لهذا اتبع سياسة التهدئة مع فارس الى درجة الموافقة على دفع جزيه سنوية للفرس لضمان السلام ٠ كما أسند الى أمير الغساسنة شبه المستقل والذى تقع امارته على حدود الشام منصبا رسميا فى الامبراطورية وعهد اليه بمهمة حفظ النظام بين قبائل البدو العربية التى تعيش على الحدود ونشر النفوذ الرومانى (البيزنطى) بقدر الامكان ، كذلك شجع جوستنيان على استخدام المسيحية كعامل يساعد على الوحدة والدخول فى طاعة الامبراطورية الرومانية ، واستطاع أن يصل الى نوع من التفاهم مع الحبشة ٠ ويروى ابن اسحق كيف استطاع رجل يدعى دوس ذا ثعلبان الهرب من ذى نواس فى الأحداث الدموية التى حدثت فى مملكة جنوب شبه الجزيرة (*) وذهب الى قيصر يستنجد به . وبدلا من مساعدته بشكل مباشر أرسل معه كتابا الى ملك الحبشة ٠

وربما كان هذا الخبر صحيحا بصورة أو أخرى ، ولكن على أقل تقدير يبين كيف فهم العرب العلاقة بين البيزنطيين والحبشة ، ولا شك أن جوستنيان قد وافق على غزو الحبشة لليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية حوالى ٥٢٥ م ، وبالرغم من أنه كان أرثوذكسيا ، الا أنه فضل وجود مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح هناك على كل من اليهودية أو النسطورية ، وكل منهما له صلات بالفرس (١) ٠

بعد وفاة جوستنيان ، تغيرت العلاقات بين الامبراطوريتين ودخل صراعهما القديم فى مرحلته النهائية ، ففى عام ٥٧٠ أو ٥٧٥ طرد الفرس الحبشيين من شبه الجزيرة العربية وأقاموا الادارة المفضلة لديهم ، وان لم تكن تحت السيطرة التامة لفارس . وحاول الفرس توجيه التجارة البرية من اليمن الى فارس بمساعدة أمراء اللخميين فى الحيرة (الذين كانوا يقومون بدور بالنسبة لفارس يشبه دور الغساسنة بالنسبة للبيزنطيين). وكانت حرب الفجار ومعركة ذى قار بسبب القوافل التى كانت تنقل

(*) وهى حادثة الاخدود التى ذكرها الله عز وجل فى سورة البروج ـ (المترجم) ٠

(١) انظر : A. Vasiliev, Justin the first, Cambridge (U.S.A.) 1950 283-299.

اللبان والبخور والمنتجات المحلية الأخرى (وربما بضائع من الحبشة) فضلا عن البضائع المستوردة من الهند • ومع ذلك ، فقد كان الكثير من التجارة يمر في طريق الساحل الغربي بدليل استمرار ازدهار مكة ، مما يدل على أن الفرس لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون السيطرة على هذا الطريق الى الغرب •

ماذا كان موقف مكة في هذا الصراع بين العملاقين ؟ ما السياسة التى سارت عليها ؟ ربما كانت هناك صداقة متوارثة مع البيزنطيين ، فقد ذكر ابن قتيبة معلومة تثير الدهشة تفيد أن قيصر قد ساعد (قصى) ضد خزاعة ، فاذا كان مفهوم ذلك أن قصيا قد تلقى المساعدة من الغساسنة أو بعض الحلفاء الآخرين للرومان ، فقد يكون ذلك صحيحا إلى درجة بعيدة • فمن المؤكد أن قصيا كانت له صلات ببنى عذرة ، وهى قبيلة مسيحية تعيش قرب حدود الشام ، وبالتالى ربما كانت تحت النفوذ البيزنطى ، وربما كان غزو قصى لمكة مرتبطا بنمو التجارة بين مكة والشام ، ويبدو أنه بعد قصى ظل الطريق بين اليمن ومكة فى أيدى اليمنيين لفترة من الزمن • وقد كان أحد التجار اليمنيين قد أحضر بضائع الى مكة عند انشاء حلف الفضول (حوالى ٥٨٠) (*) • فلو كان الاهتمام الرئيسى لمكة حينئذ هو التجارة الى الشمال ، فقد كان لابد من وجود علاقات طيبة بالبيزنطيين وحلفائهم •

وسهل غزو الحبشة لليمن الأمور على أهل مكة وذلك للعلاقات الطيبة التى كانت بين الحبشة والبيزنطيين ، وربما كانت هذه الفترة من السلام النسبى هى التي نمى فيها أهل مكة تجارتهم بدرجة كبيرة وأرسلوا فيها قوافلهم الى جميع الجهات ، وكانت النتيجة التى توارثتها الأجيال أن من أبناء عبد مناف الأربعة ، وطد عبد شمس علاقاته مع الحبشة ، ووطد هاشم علاقاته بالشام ، ووطد المطلب علاقاته باليمن ، ووطد نوفل

(*) بل كان هذا التاجر اليمنى هو سبب انشاء حلف الفضول كما ذكر المؤلف من قبل فى هذا الفصل — (المترجم) •

علاقاته بالعراق . وربما أخذت عشيرة مخزوم أيضا نصيبا من تجارة جنوب شبه الجزيرة العربية ، أو على الأقل كانت لهم اهتمامات بها فيما بعد ، ولكن لا شك في أن العلاقات مع الحبشة قد تدهورت فيما بعد نظرا لأن أبرهة نائب الملك قاد حملة ضد مكة كان غرضها الظاهرى هو تدمير الكعبة كي يحج العرب الى كنيسته التى بناها في الجنوب ، ويمكننا أن نخمن أن الاهتمامات التجارية قد اختلطت بالاهتمامات الدينية ، اذ ربما فزع أبرهة من النجاح التجارى المتزايد لأهل مكة ، الذين يفترض أنهم كانوا يحققون أرباحا لا بأس بها كوسطاء حتى بين الحبشة والبدو . وقد تحقق أبرهة من الدور الهام الذى تلعبه المنطقة المقدسة حول مكة فيما يمكننا أن نسميه « النظام المكى » . وربما كان هناك أيضا كنز في الكعبة أو حولها ، فاذا أريد الانقاص من قوة مكة وثروتها ، فانه يجب تدمير الحرم المكى ووضع حرم آخر مكانه كمركز لتجارة التجزئة لعرب الصحراء .

ذكر ابن اسحق كيف تفاوض عبد المطلب مع أبرهة ، وبينما نرى أن بعض ملامح هذه القصة (مثل قوله ان عبد المطلب كان كبير قريش وسيدها) هي بلا شك لتعظيم بني هاشم ، الا أنه ربما كانت حادثة المفاوضة صحيحة ولكن يجب أن تفسر على أنها حركة جماعية من مجموعة صغيرة من قريش (مع قبيلتي بنى الديل وهذيل) وقف فيها الجزء الرئيسى الذى من قريش موقفا متحفظا ، فاذا كان الأمر كذلك ، فمن المحتمل أن عبد المطلب كان يحاول الاستعانة بالأحباش ضد خصومه من قريش مثل بنى شمس ونوفل ومخزوم (*) .

وكان من الواضح أن بني عبد شمس ونوفل قد وضعا أيديهما على معظم التجارة مع الشام واليمن التى كانت قبل ذلك في أيدى بنى هاشم والمطلب ، وعلى هذا فان العشائر الأكثر ثروة كانت ترغب في سياسة

(*) قال ابن كثير في البداية والنهاية (دار الفد العربي الجزء ١ ، الصفحة ٥٨٢) :
قال ابن اسحق : ويقال انه كان قد دخل مع عبد المطلب على ابرهة يعمر بن نفاثة بن عدى بن الديل سيد بنى بكر وخويلد بن واثلة سيد هذيل فعرضوا على ابرهة ثلث اموال تهامة على ان يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم ذلك فالله اعلم اكان ذلك ام لا . انتهى كلام ابن كثير .

محايدة من الواضح أنها كانت أفضل لمصـــالحهم ، وذلك فى مواجهه سياسة عبد المطلب المؤيدة للحبشة • ولا نستطيع أن نؤكد ما اذا كان ابرهة قد وافق على مقترحات عبد المطلب أم أنه رفضها بعد أن تحقق من أنه ليس قويا بالدرجة الكافية • وعلى أية حال ، فقد فشلت الحملة فى الجزيرة العربية ولم تتحقق الأهداف الحبشية ، اذ دمر الجيش الحبشى بالطاعون فيما يظهر (*) •

أصبح الحياد أمرا أكثر أهمية لمكة بعد غزو فارس لجنوب شبه الجزيرة العربية بعيدا عن سيطرة الفرس ، ويبدو أن أهل مكة قد استفادوا من هذا الموقف فى زيادة قوتهم • وكانت حرب الفجار التى ربما بدأت بعد طرد الأحباش بفترة ، نتيجة لهجوم ــ لم تأمر به مكة ــ من أحد حلفائها على قافلة كانت فى طريقها من الحيرة الى اليمن عن طريق الطائف ، وهذا قد يعنى ، من الناحية الاقتصادية أن أهل مكة كانوا يحاولون اغلاق هذا الطريق تماما أو ضمان بعض السيطرة منهم عليه ، ونظرا لانتصارهم الواضح فى الحرب ، فانه يمكن افتراض أنهم قد حققوا أهدافهم •

فى ضوء هذه الخلفية ، يأخذ حلف الفضول الذى ذكرناه من قبل أهمية جديدة ، فان السبب المعلن ، وهو رفض أحد بنى سهم دفع ثمن بضائع اشتراها من تاجر يمنى ، وردود الفعل الواسعة لهذه الحادثة تدل على أنها قد أصبحت علامة على اتجاه جديد هام فى السياسة ، وباختصار كان هذا الاتجاه هو ذروة المحاولات التى قامت بها العشائر الأكثر ثروة لاستبعاد اليمنيين من تجارة الجنوب وتركيزها فى أيديهم ، وهنا يمكننا فهم رد فعل بنى هاشم وباقى العشائر المكونة للحلف ، فان هذه العشائر لم تكن قوية اقتصاديا بالدرجة الكافية التى تجعلهم يسيرون قوافلهم الى اليمن ، ولكننا نستطيع أن نفترض أنهم استفادوا من الصفقات التى كانوا يعقدونها مع التجار اليمنيين فى مكة ، فلو كانت القوافل الى اليمن تحت

(*) قال رب العالمين : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ★ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ★ وارسل عليهم طيرا ابابيل ★ ترميهم بحجارة من سجيل ★ فجعلهم كعصف مأكول » • (المترجم) •

السيطرة الكاملة لعشائر مثل بني عبد شمس وبني مخزوم ، فان العشائر الأصغر تفقد جزءا لا بأس به من تجارتها وربما لا يجدون بضائع ينقلونها شمالا الى الشام ، أو على أحسن الفروض يسمح لهم بالمشاركة في القوافل ولكن بالشروط التي يمليها التجار الأغنياء ، وبالتأكيد لن يترك لهم الا ربح ضئيل .

وتساعد حادثة عثمان بن الحويرث ، كما فصلها لامانس (مكة ٢٧٠ ـ ٩ / ٣٦٦ ـ ٧٥) على تصوير سياسة الحياد التي كانت عليها مكة ، فقد دخل عثمان في مفاوضات مع البيزنطيين أو عملائهم وحصل على وعد بالمساعدة . ولا شك في أن البيزنطيين كانوا يفكرون في شيء يشبه امارة الغساسنة ، في حين ذكرت المصادر أن عثمان كان يطمع في أن يكون ملكا على مكة ، وكان هذا جزءا من رد فعل البيزنطيين لغزو فارس للجنوب ، ويشير لامانس الى أن عثمان لم يعلن عن هدفه هذا بالطبع ، وانما كان يقول ان البيزنطيين سيغلقون الحدود ما لم تقدم لهم « هدايا » معينة ، وانهم وكلوا اليه مهمة جمع هذه الهدايا ، ولكن يبدو أن قول لامانس بعد ذلك ان عثمان قد استمال رؤوس بني أمية وبني مخزوم الى خطته هو مجرد افتراض أسسه على أنه لم يرد أي ذكر لمعارضتهم لذلك . ومن الواضح أن الحادثة التي قضت على خطة عثمان هي تحذير أحد أبناء عشيرته بني أسد ويدعى الأسود بن المطلب أبا زمعة له من أن يسعى للملك ، فمن الطبيعي أن يعترض الأغنياء على الوضع الخاص الذي كان سيحصل عليه عثمان نتيجة لخطته ، ولكنهم كانوا بالاضافة الى ذلك يرون أنه ليس من الحكمة الخروج عن سياسة الحياد ، وربما كانوا يشعرون بقوة مركزهم لحاجة البيزنطيين للبضائع التي يحملونها اليهم (لم يكن لرفض مقترحات البيزنطيين أي نتائج ذات قيمة فيما عدا سجن عدد قليل من الرجال لفترة من الوقت) . وفي هذه الظروف قاد بنو أمية وبنو مخزوم المعارضة ضد عثمان ، الأمر الذي ربما يعيد الحياة لحلف الفضول الذي كان بنو أسد أحد أعضائه ، وقد تجنبوا مثل ردود الفعل هذه باسناد القيادة لرجل من بني أسد . وليس من المنطقي أن نفترض ، كما فعل لامانس ، أن الدافع الوحيد للأسود هو الحسد ، فمن الواضح أنه كان على درجة لا بأس بها من

الثراء ، ولهذا فمن المحتمل أن المعارضة ضده كانت طبقا للسياسة العامة لزيادة الروابط مع البيزنطيين .

حدثت هذه الحادثة بعد حرب الفجار لأن عثمان بن الحويرث قد شارك فيها ، وبذلك يكون بيننا وبين اعلان محمد (عليه الصلاة والسلام) لرسالته عشرون عاما أو أقل ، وهي السنوات التي أكدت فيها الحروب الطاحنة التي نشبت بين الامبراطوريتين العظميين ، أهمية وقوف أهل مكة على الحياد . ونظرا لقلة المعلومات المتاحة ، فان الكثير مما يقال عن سياسات أهل مكة يخضع للحدس والتخمين . ولكن حتى لو كان الكثير من التفاصيل غير صحيح ، فانني أعتقد أن الصورة العامة معقولة ، وعلى ذلك فان محمدا (عليه الصلاة والسلام) قد ترعرع في عالم اختلطت فيه الأمور المالية في المستويات الرفيعة مع السياسات الدولية اختلاطا لا سبيل الى فصله .

٣ ـ الخلفية الاجتماعية والأخلاقية

(أ) التضامن القبلي والفردية

التماسك القبلي شيء ضروري للبقاء على قيد الحياة في ظروف المعيشة في الصحراء . فالانسان يحتاج الى المساعدة في مواجهة القوى الطبيعية وخصومه الآدميين . ولا شك في أن التجمعات القبلية وجدت قبل أن يصبح الانسان في الصحراء ولم تنشأ فيها . ولكن من المؤكد أن أهمية التكامل تأكدت في ظروف المعيشة الصحراوية . فكلما كانت الجماعة أكبر كانت أقوى ، وبالتالي أكثر نجاحا في التغلب على صعوبة المعيشة ، ولكن هذا لا يستمر الا الى درجة معينة يصبح من الصعب بعدها على الجماعة أن تتصرف كوحدة واحدة وبالتالي تتجه الى الانقسام ، وعلى هذا فان القبائل ليست كيانات دائمة ، ولكنها اما تتزايد وتنقسم واما تضمحل وتنتهي .

ويبدو ذلك واضحا فى عشائر مكة ، فان التسمية العربية الشائعة للقبائل أو العشائر أو العائلات هى « بنو فلان » أى أبناء فلان ، وفى فترة من تاريخ مكة كان اسم « بنو عبد مناف » يتردد كثيرا ، لكن بعد فترة من الزمن بطل استعمال هذا الاسم لأن هذه العشيرة نمت ثم انقسمت فأصبحنا نسمع أسماء « بنى عبد شمس » و « بنى هاشم » ... الخ ، حيث كان عبد شمس وهاشم ابنى عبد مناف . كذلك كانت أكثر الحروب دموية فى شبه الجزيرة العربية أيضا بين عشائر تربط بينها صلات قرابة ، ولا شك فى أن ذلك كان بسبب اضطرارهم للمشاركة فى مكان محدود للمعيشة .

كانت كل قبيلة رئيسية أو من قبائل الدرجة الأولى مستقلة عن باقى القبائل وليس لها أية أهمية سياسية تفوق القبائل الأخرى ، ولذلك فمن المقصود ، وغالبا ما كان ذلك يحدث بالفعل ، أن تجد نفسها قد اشتبكت فى قتال مع أية قبيلة مجاورة ، وفى مثل هذا الموقف الذى تكون فيه « يد الرجل ضد كل الرجال وأيدى كل الرجال ضده » ، يصبح أمن القبيلة — بل مجرد وجودها — متوقفا على قوتها العسكرية . فبالقوة وحدها يمكن حماية قطعان الماشية طالما أن شن الغارات هو « الرياضة القومية » للعرب .

يصور ثأر الدم مكانة التكافل القبلى ، وهذا أسلوب بدائى — ولكن ربما كان الأسلوب الوحيد فى ظروف المعيشة الصحراوية ، بعيدا عن المخترعات الحديثة ، للتأكد من أن الجريمة لا ترتكب بسهولة وبدون احساس بالمسئولية فتعتبر قبيلة القاتل مسئولة عن فعلته ، والعقوبة هى القصاص ، « حياة بحياة » ، وبصرف النظر عن الاتجاه الانسانى لأن تكون العقوبة أكبر من الجريمة ، فان هذه طريقة بسيطة للاحتفاظ بالقبائل فى نفس الدرجة من القوة النسبية .

تقوم القبيلة على أساس من القرابة ، سواء من ناحية الرجال أو من ناحية النساء . وقبل بزوغ الاسلام ، كانت المصاهرة ، على ما يبدو ، هى الأكثر انتشارا . وكان هناك أيضا ما يمكن أن يسمى « بالتكامل

المصطنع » نتيجة للأحلاف أو الجوار (الشكل الاصطلاحي لمنح الحماية) ولأسباب كثيرة ، كان الحليف او الجار يعامل كأحد أفراد القبيلة او العشيرة ، ويكون الحلف أو التحالف عادة بين أنداد ، ولكن هذا لا يمنع جماعة ضعيفة من أن تكون حليفة لقبيلة قوية للحفاظ علي وجودها ·

بينما كانت القبيلة أو تحالف القبائل يمثل أعلى درجات الوحدة السياسية ، كان العرب يدركون أيضا أنهم يمثلون وحدة بصورة أو أخرى ، وكانت هذه الوحدة على أساس من وحدة اللغة (وان كان هناك بعض الاختلاف بين اللهجات) ، والتراث الشعرى المشترك ، والعادات والأعراف والأفكار المشتركة وكذلك الاصل المشترك · وكانت اللغة هي الأساس الأصلى للتمييز بين العرب و « الأجانب » (العجم) ، وكذلك كان الحـــال بين الاغريق و « البرابرة » · وكانت الصحراء العربية والشامية هي الأساس الجغرافي للوحدة ، وغالبا ما كانت كلمة العرب تعني « البدو » · أما الأصل المشترك فكان ، على وجه التحديد ، من واحد من اثنين عدنان أو قحطان ، ولكن امتزجت الجماعتان بعد ذلك · وحتى لو كان هذا الأصل المشترك مجرد خيال ، كما يدعى بعض علماء الغرب (وربما كانوا مبالغين في الشك الى درجة كبيرة) ، فان مجرد وجود هذا الاعتقاد يتضمن بعض الاقرار بالوحدة . ولقد أصبح لهذا المفهوم عند العرب بأنهم أمة واحدة ، وما تبع ذلك من أنهم مميزون عن باقى الشعوب (وأعلى منهم) ـ أهمية كبرى في الفترة المدنية من حياة محمد (عليه الصلاة والسلام) ، حيث كان يتطلع الى درجة من الوحدة السياسية بين العرب لم يسبقه اليها أحد من القادة العظام في الجاهلية .

تنطبق مبادىء التكافل القبلي التي ذكرناها بصفة عامة على مجتمع مكة ، ولكن لم تكن الوحدة المؤثرة في زمان محمد (عليه الصلاة والسلام) هي قبيلة قريش ككل ولكن العشـــائر المســـتقلة ، ولايزال أمن الفرد وممتلكاته متوقفا على استعداد عشيرته للانتقام لقتله أو سرقته ، وقد يؤدى الامساك برجل بدون اذن زعيم عشيرته الى نزاع ، وكان هذا هو الحال في المدينة في السنين الأولى القليلة لهجرة محمد (عليه الصلاة والسلام) ، وكان هذا المبدأ أيضـا هو الذى مكنه من الدعـوة في مكة

بالرغم من المعارضة طالما كان بنو هاشم على استعداد لحمايته ، واذا أراد أحد من قبيلة أخرى أن يعيش في مكة ، وكان هناك الكثيرون في هذا الوضع ، فان عليه أن يكون حليفا لأحد كبار أهل مكة أو لاحدى العائلات الكبيرة ، وبالنظر الى سيادة قريش ، فان هذا الوضع يتضمن بعض الانتقاص من قدر الآخرين ٠

مع ذلك كله ، لم يكن التكافل القبلي أبدا مطلقا ، فأبناء القبيلة ليسوا أناسا آليين بل آدميين ينزعون الى الأنانية ، أو ما يسميها لامانس « الفردية » ، لهذا فمن الطبيعي أن يضع أحدهم مصلحته الشخصية فوق مصلحة القبيلة ، فكانت هناك دائما قلة من « المشاغبين » ، وهم الذين يثيرون المشاكل بغض النظر عما يكبده ذلك للقبيلة ، فكان على القبيلة أن تتبرأ منهم ، وكان أحدهم يطلق عليه الخليع (*) ٠

وبينما استمر التكافل القبلي في التحكم في تصرفات علية القوم ، بدأ نوع من الفردية في تفكيرهم في الظهور كما تدل على ذلك أشعارهم ، فحتى زمن معين ، بقدر ما عندنا من العلم ، كان الرجل يرضى باظهار مجد قبيلته ودوره في ارساء هذا المجد ، ولكن بدأ الاحساس بوجود الفرد مستقلا عن القبيلة في النمو وتبع ذلك مشكلة انتهاء وجوده المستقل عند الموت ، فما المصير النهائي للانسان ؟ وهل الموت هو النهاية ؟

عززت ظروف الحياة التجارية في مكة الاتجاه الى الفردية والبعد عن التكافل القبلي ، فبالرغم من أن النظام العام كان معتمدا على نظام العشيرة ، الا أنه كان في امكان عائلة واحدة ، أو حتى فرد واحد مع أقربائه أن يكون وحدة قادرة على الاستمرار في الوجود ٠ ولهذا ، كثيرا ما نرى رجالا يعارضون عشائرهم ، فأبو لهب (**) مثلا اتخذ من محمد (عليه الصلاة والسلام) موقفا خالف فيه باقي بني هاشم . كما جاءت المعارضة لعثمان بن الحويرث من عشيرته ، وكذلك أسلم أتباع محمد (عليه الصلاة والسلام) الأوائل بالرغم من معارضة عشائرهم بل حتى آبائهم ، ويبدو أن المشاركة التجارية كانت تعلو أحيانا على القرابات ٠

(★) اى الذى خلعته القبيلة بمعنى رفضته — (المترجم) ٠

(★★) وهو عم الرسول عليه الصلاة والسلام — (المترجم) ٠

في نفس الوقت كانت هناك ظاهرة جديدة هامة في مكة ، وهي ظهور الاحساس بالوحدة على أساس المصالح المادية المشتركة ، وكانت هذه الظاهرة ، وليس انتماؤهم الى قريش ، هي التي أدت الى ما حدث من صراع بين الأحلاف والمطيبين ، وكانت هذه الظاهرة أيضا هي التي أدت الى تناسي المنافسات وانشاء « حكومة ائتلاف » بعد هزيمة بدر . وأهمية ذلك في أنها تدل على ضعف روابط قرابة الدم ، وتدل على وجود فرصة لتأسيس وحدة أوسع نطاقا على أساس جديد .

وإذا أردنا أن نبحث عن تغيير اقتصادي مرتبط ببداية الاسلام ، فان علينا أن ننظر هنا (تعني كلمة « ارتباط » هنا شيئا يختلف تماما عن العلاقة بين الدين والنظريات الخاصة بالعوامل الاقتصادية كما ينادي بها الماركسيون) . فبزيادة ثروة مكة وقوتها ، انتقل اقتصادها من اقتصاد بدوي الى اقتصاد تجاري ورأسمالي . وفي زمان محمد (ﷺ) ، لم يكن قد حدث أي تغيير في الاتجاهات الاجتماعية والأخلاقية والفكرية والدينية للمجتمع التي كانت لاتزال تناسب الجزء الأكبر من المجتمع البدوي ، وكان التوتر الذي شعر به محمد (عليه الصلاة والسلام) وبعض معاصريه لاشك في النهاية نتيجة لهذا التناقض بين الاتجاهات الواعية للرجال والأسس الاقتصادية لحياتهم . وسنضطر الى الحديث عن هذا التوعك (الخلل) في الأمة بتفصيل أكثر فيما بعد (*) .

(*) لعل المؤلف استخدم كلمة التوتر Tention كترجمة لكلمة « الضيق » الذي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يشعر به نتيجة لموقف قومه من الدعوة :
— ولقد نعلم انه يضيق صدرك بما يقولون (الحجر ٢٧) .
— فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، انما انت نذير ، والله على كل شيء وكيل (هود ١٢) .
ومما ورد في الآيتين نرى أن ضيق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لرفض قومه الايمان برسالته وموقفهم المعاند من الدعوة : وقد يصدق استنتاج المؤلف بالنسبة للرافضين للدعوة ، اما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تكن له اي مصالح اقتصادية في أية مرحلة من حياته ، فأبوه كان فقيرا كما هو ثابت في مراجع السيرة ، حتى ان مرضعات بني سعد رفضن حضانته لعدم توقعهن فائدة كبيرة من وراء ذلك لفقر أبيه ويتمه ، وكان عمه أبو طالب الذي كفله بعد وفاة جده عبد المطلب أيضا فقيرا ، وعاش الرسول حياته كما وصفتها السيدة عائشة رضي الله عنها في قولها : كان يمر علينا الهلال بعد الهلال لا يوقد في بيتنا نار ، وانما نعيش على الأسودين : التمر والماء .

(ب) المثل العليا الأخلاقية

يمكن أن نطلق على المثل الأعلى الأخلاقى لعرب الصحراء ، طبقا لما قاله جولدتسيهر ، اسم المروءة • وقد أحسن ر • أ • نيكلســـون R. A. Nicholson وصفه عندما قال : « هى الشجاعة فى القتال ، والصبر عند المصيبة ، والاصرار عند الانتقام وحماية الضعيف وتحدى القوى » • هذه الفضائل هى فى الحقيقة الأمور المطلوبة لنجاح القبيلة فى صراعها من أجل البقاء في الصحراء • ومفهــوم الشجاعة عند العرب ليس هو نفس مفهــومها عندنا (*) ، فالعرب لا يؤمنون بالدخــول فى مخاطرات لا داعى لهــا ، فطالما أنه لم يستقر فانه يتحاشى مثــل هذه الأخطار والشدائد بقدر امكانه ، فحياة الصحراء قاسية بما يكفى وليست فى حاجة الى المزيد • وربما يفسر ذلك اعتبار الاصرار على الانتقام من الفضائل ، ففى كثير من الحالات قد يكون من الأسهل ترك الكلاب النائمة فى حالها ، ولكنها تكون علامة على الضعف وقد تؤدى الى اضمحلال نسبى فى القوة العددية للقبيلة • أما تحدى القوى فهو انعكاس للحقيقة التى تقول ان استمرار الوجود يتوقف على القوة العسكرية ، ومع ذلك فان القوى مستعد دائما لحماية الضعيف اذا اعترف الضعيف بسيادة القوى ، ويعتبر هذا الى حد ما حالة من حالات التعاون الانسانى ضد القوى الطبيعية وتساعد على زيادة قوة القبيلة القوية •

كان الكرم وحسن الضيافة من الصفات التى تثير الاعجاب الى درجة كبيرة فى حياة الصحراء ، ولا زالتا من الفضائل المشهورة عند العرب ، وكانت الكومة الكبيرة من الرماد أمام خيمة الزعيم علامة على درجة عالية من التميز •• لأن هذا يعنى أنه قد استضاف عددا كبيرا من الضيوف • وقد يكون مثل هذا التقليد الى حد ما نتيجة لحاجة الانسان للمساعدة من زملائه فى مواجهة قسوة الطبيعة ، ولكن ربما كان له معنى أكبر من ذلك • فالكرم صفة تثير الاعجاب حتى لو بلغت حد التبذير ، كما حدث مثلا عندما نحرت امرأة فقيرة بعيرها الذى لم تكن تملك غيره لاطعام عابر

(*) يقصد العالم الغربى – (المترجم) •

سبيل . وربما يكون هناك وجه شبه بين هذا الاستخدام المتساهل والسخى بحق للأشياء النادرة الوجود ، والاسراف فى شرب الخمر الذى يتفاخر به الشعراء . هل نرى فى هذين الأمرين مظهرا من مظاهر فضيلة « عدم التفكير فى الغد » ؟ من المحتمل أنه فى الحياة فى الصحراء اذا فكر الانسان فى جميع احتمالات الكوارث المخيفة وحاول أن يقى نفسه منها جميعا ، فانه يتحول الى حطام انسان فاقد لأعصابه وينتهى به الأمر اما الى فناء أو الى أن يترك الحياة فى الصحراء أو أن يتحول الى تابع لقبيلة أقوى . وفى الصحراء ، هناك الكثير من الأمور لا يمكن التوصل اليها « بالتفكير » ، فالظروف غالبا ما تكون غير مؤكدة ولا يمكن التنبؤ بها وشاذة تماما ، وعلى هذا فان توفير قدر من خلو البال من الهموم لهو الحكمة العالية ، ولا شك فى أن هذا هو السبب فى الاعجاب الشديد بفضيلة الكرم .

كان الوفاء والاخلاص أيضا من الفضائل الهامة . فمن الناحية المثالية ، كان على الرجل أن يكون مستعدا للاسراع الى مساعدة أحد أبناء قبيلته فور طلب المساعدة ، وعليه أن يتصرف فى الحال بدون انتظار معرفة تفاصيل الحدث . وكذلك على الفرد أن يكون مع القبيلة حتى لو لم يكن موافقا على قرارات شيوخها . ومرة أخرى ، بالرغم من أن الرجال لم يكونوا يترددون فى الاستيلاء على ممتلكات القبائل الأخرى ، الا أنه كان هناك قدر كبير من الاخلاص فى حفظ الأمانة ، ومن الأمثلة المشهورة فى ذلك السموءل بن عادياء الذى آثر أن يترك ابنه يقتله الجيش المحاصر على أن يفرط فى بعض الأسلحة التى تركها امرؤ القيس وديعة عنده ، وقد يعتبر هذا الموقف امتدادا للولاء المتوقع بين أفراد القبيلة وأولئك الذين بينهم وبينها تكافل مصطنع نتيجة لاتفاقيات .

ونتيجة لاستقلال شيوخ القبائل ، لم يكن فى الصحراء قانون أعلى يحكم الجميع ، وفى الحقيقة كان من المستحيل المحافظة على القانون والنظام فى المساحات الشاسعة للبادية العربية والشامية الا حيثما يوجد حاكم قوى وحكيم بدرجة غير عادية ، أو حيثما يكون للحاكم تفوق ساحق فى القوات والعتاد (مثل الطائرات والسيارات المصفحة فى مواجهة

البندقية والجمل) ، وسواء قبل الاسلام أو بعده ، لم يكن عند العرب أية فكرة مجردة عن القانون ، حتى التأثيرات الاغريقية لم تنجح فى ادخاله فى العلوم الاسلامية ، وبدلا من قانون أعلى للكون ، فان المسلمين يعتقدون في ارادة الله كحاكم للكون معبرا عنها بما يوحى من أوامر .

تستمد مكانة القانون والفكرة المجردة للصواب والخطأ الى حد ما من مفهوم الشرف ، شرف القبيلة أولا ثم شرف الفرد ، فكرم الضيافة وحفظ الأمانة كانا دليلين على وضع اجتماعى جدير بالاحترام ، بينما كان كل من البخل والجبن شيئا مشينا ، وكان القيم والمسجل للشرف هو الرأى العام ، ولهذا الرأى العام الذى كان يتكون من الشعراء وينعكس فيما يقولون قوة معينة ، وكان المسئولون يتضاءلون امام الأعمال التى قد تجلب لهم الخزى أو لقبيلتهم ، وتحتوى الأشعار القديمة على قدر كبير من المدائح لفضائل قبيلة وحسناتها ، وهجاء لرذائل قبائل أخرى وأخطائها .

ولقد لعبت المروءة كمثل أعلى دورا هاما فى حياة العرب ، فقد كانوا يحترمون الذين استطاعوا تحقيقه الى درجة ما ، والعائلات التى كان هذا الخلق من عادتها ، وكانت السلطة تتوقف الى حد كبير على مدى الاحترام الذى يحظى به الرجل ، وكان هذا بدوره يتوقف على صفاته الشخصية ، أو بمعنى آخر درجة مروءته ، ولم يكن مبدأ خلافة الابن الأكبر لوالده موجودا عند العرب لأسباب واضحة ، فلو كان الابن الأكبر للزعيم لا يملك الخبرة الكافية عند وفاة والده (وكثيرا ما كان يحدث ذلك) ، فان القبيلة لا تجازف بتعريض وجودها للخطر بتوليته الزعامة ، فالزعيم يجب أن يكون حكيما وذا حكم سليم على الأمور ، وهذه هى الصفات التى كان يتحلى بها عادة أكثر الرجال احتراما فى العائلة القائدة .

فى هذا الجانب من الامتياز الأخلاقى ، وفى قدرتهم على قبول ما يمليه عليهم ، توصل العرب الى مزيج من الأرستقراطية والمساواة ، أو قاعدة الأفضل مع الاعتراف بأن أفراد القبيلة متساوون .

وكما يقول أ٠ج٠ توينبي Toynbee ٠د حد في دراسته الممتعة عن البداوة : هي دورة العنف ، فالبداوة تلاحق الحياة الزراعية ، لأن تربية الضأن والجمال ٠٠ الخ لا يمكن تعلمها الا هناك ٠

والآن ، عندما جعلت دورة الجفاف المتكررة ـ في بدايتها التالية ـ الحياة أكثر صعوبة في الواحات ، ومن باب أولى في البادية ، عاد آباء الحضارة البدوية الى السهوب بجسارة لينتزعوا منها ليس مجرد زاد اضافي ، وانما أسباب العيش كلها ، وذلك في ظروف مناخية تجعل كلا من الصياد والزارع يريان في السهوب الحياة مستحيلة ٠

في كل ما ذكرناه هناك عملية انتقاء ، ففي البداية كان هناك عدد من الأفراد جربوا اسلوب حياة البادية ، ويمكننا أن نفترض أنهم كانوا مميزين بصفات مثل حب المغامرة والحرية ، ثم أدى الصراع الضاري من أجل البقاء الى عملية انتقاء ليس على أساس الصفات البدنية فحسب بل أيضا على أساس الصفات الأخلاقية ، اذ يتطلب النجاح في حياة الصحراء درجـــة عالية من التكافل وهذا مرتبط بدوره بدرجة عالية من احترام الشخصية وتقدير القيمة الانسانية ٠ ففي أتون الصحراء ، يحترق خبث الاتجاهات والأفعال الدنيا تاركا ذهب الأخلاق العالية ودستور العلاقات الانسانية الراقية وتقاليدها والمستوى العالي من التفوق الانساني خالصا نقيا ٠ وان من مباحث هذا الكتاب بيان أن عظمة الاسلام تعود الى درجة كبيرة الى انصهار هذا العنصر (*) مع بعض مفاهيم التوحيد في اليهودية والمســـيحية ٠

٤ ـ الخلفية الدينية والفكرية

(أ) تدهـــور الديانة القديمة

افضل دراسة بالانجليزية عن الديانة القديمة في شبه الجزيرة العربية تجدهــــا في المقـــالة التي كتبهـــا نولدكه Noldeke بعنـــوان

(*) يقصد المثل العليا الخلقية ـ (المترجم) ٠

« العـرب (القـدماء) » في دائرة معـارف الـدين والأخـلاق The Encyclopaedia of Religion and Ethics ، أما الدراسة المقننة فتتمثـل في كتـاب ج • فلهـوزن J. Wellhausen وعنـوانه Reste Arabischen Heidentums والمبنى أساسـا على كتـاب الأصنام لابن الكلبي وأضاف لامانس H. Lammens بعض الاضافات والتنقيحات في مقاله Lex Culte des Petyles et les procession riligieuses chez les Arabes Préislamites (Arabie, 101-79) • أما نظريات ديتلف نيلسن Dietlef Nielsen المنحرفة فهي – عادة – مرفوضة • وتسجل هذه الدراسات ما هو معروف عن عدد كبير من الآلهة والربات والطقوس المتبعة في عبادتهم • ونظرا لأن هذه المعلومات متفرقة ، وبصرف النظر عن أنها مخطوطات ، فانها تأتي من مصادر اسلامية ، مما يجعل فيها مجالا واسـعا للتخمين • ولن نتنـاول هذه الموضـوعات هنا بأية درجـة من التفصيل ، حيث انه من المجمع عليه أن الديانة الوثنية القديمة لم تكن مؤثرة نسبيا في زمان محمد (عليه الصلاة والسلام) •

كانت هذه الديانة نتيجة تطور استغرق وقتا طويلا • ومن الأشياء المشهورة التي عبدت من البداية الأحجار والأشجار • وفي بعض الأحيان لم تكن هذه الأشياء تعتبر آلهة ، بل كانت ينظر اليها على أنها مساكن الآلهة أو منازلهم ، ثم بعد ذلك نسبوا لها خصائص معنوية ، ربما كان ذلك بتأثير أجنبي ، وكان هناك اعتقاد بأن لهم صلة بأجسام سماوية (*) • ويبدو أن اعتقاد البدو في هذه الآلهة لم يكن على درجة كبيرة من الجدية ، ربما لأنها كانت في الأصل آلهة لمجتمعات زراعية ، ولكن مع المعارضة التي واجهها محمد (عليه الصلاة والسلام) في مكة ، يمكننا أن نتصور أن بعض الجماعات الصغيرة فيها – ربما أولئك المهتمون بطقوس دينية معينة – كانوا على درجة أعلى من التدين ، ومن ناحية أخرى استمرت بعض الممارسات مثل الحج الى الأماكن المقدسة في مكة وحولها • مما أدام احترام الحرم أو المنطقة المقدسة التي فيها مكة ، ولكن الانتهاكات التي

(*) الكواكب والنجوم – (المترجم) •

حدثت أثناء حرب الفجار وربما كانت علامات على ضعف العقيدة (١) • وفى الأزمة التى مرت بأهل مكة فى غزوة أحد أخذ أبو سفيان الالهتين اللات والعزى معه الى المعركة ضد المسلمين ، وهذا يذكرنا ببنى اسرائيل عندما كانوا يأخذون التابوت معهم فى معاركهم ، ويوحى بأن بقايا المعتقدات الوثنية فى شبه الجزيرة العربية قد انحطت الى مستوى السحر • وبهذا المعنى يبدو أن الكثير من الطقوس القديمة قد بقيت ، ولكن يمكن اعتبارها مجرد خرافة وليست دينا •

(ب) « الانســانية القبلية »

فى مقابل الدين القديم هناك ما يمكن أن نسـميه « الانســانية القبلية » ، وقد كانت هذه الانسانية القبلية هى الدين المؤثر عند العرب فى زمان محمد (عليه الصلاة والسلام) ، بالرغم من أنها كانت أيضا فى تدهور • وهذا هو الدين الذى نجده فى أشعار الجاهلية • فبالنسبة للشعراء ، كان ما يجعل للحياة معنى هو الانتماء الى قبيلة تستطيع أن تتفاخر بالأعمال الفذة التى تتطلب الشـجاعة والكرم والمشـاركة فيها بنفسه ، فمن وجهة النظر هذه ، فان تحقيق التفوق الانسانى بالعمل هو هـدف فى حد ذاته ، وفى الوقت نفسه غالبـا ما كان يساهم فى بقاء القبيلة ، وهو الهدف الآخر العظيم من أهداف الحيـاة • هذه هى « الانسانية القبلية » بمعنى أن أهميتها تأتى أساسا من القيم الانسانية أو من القوة أو من سلوك الرجال . ولكنها تختلف عن معظم الفلسفات الانسانية الحديثة ، فى أنها تعتبر القبيلة وليس الفرد محل هذه القيم • وسنرى (فى الفصل الثالث) أنه بينما لم يهاجم القرآن فى آياته الأولى الوثنية القديمة ، فقد قاوم هذه الفلسفة الانسانية فى مظهرها الدينى ، ومن ذلك يجب تمييز المفهوم الأخلاقى للانسانية ، أو المثل الأعلى الأخلاقى التى احترمه القرآن بصفة عامة •

---

(١) كلمة الفجار مشتقة من الفجر وهو منتهى الاجرام ، وقد أطلق العرب هذه التسمية على هذه الحرب لما حدث فيها من انتهاكات للمقدسات ومنها الأشهر الحرم •

بينما كان الايمان بالشرف وامتياز القبيلة هو محور الحياة البدوية، فقد كانت هناك خلفية فكرية لهذا الاعتقاد تستحق الملاحظة • فايمان العرب بالقضاء والقدر مشهور ، ولكن يبدو أنه ايمان محدود ، فانهم لا يعتقدون أن جميع أعمال الانسان مقدورة عليه وانما فقط بعض أمور حياته • ولقد ذكرت في موضع آخر أننا نجد في بعض الأحاديث المعترف بها أفكارا جاهلية في ثوب اسلامي ، وبصفة خاصة الأمور التي كانت تنسب الى الدهر أو القدر أصبحت تنسب الى الله بشكل مباشر أو غير مباشر •

فاذا كان الأمر كذلك ، فان الأمور الاربعة التي تنحصر داخلها الحياة الانسانية في حدود ضيقة بالقضاء والقدر هي : الرزق والأجل وجنس الطفل وسعادته أو شقاوه ، ولم يكن ذلك دينا ، فان القدر لم يكن معبودا ، بل كان نوعا من العلم لأنه كان أساسا اقرارا بحقائق ، ففي ظروف المعيشة في الصحراء ، تكون الأمور التي ذكرناها وراء قدرة عقل الانسان وحكمته ، فالرزق غير مستقر الى درجة كبيرة ، فربما تمتعت قبيلة بمطر غزير ومرعى خصيب ، بينما تحرم قبيلة مجاورة من كليهما ، والأمل في الحياة قليل ، اذ غالبا ما يأتي الموت فجأة وعلى غير توقع نتيجة صدام يحدث بالصدفة ، وحتى في أيامنا ، فاننا لا نستطيع بكل ما أوتينا من علم أن نتنبأ بجنس الجنين فضلا عن أن نتحكم فيه . » وكذلك فان التقلبات الحادة في الثروة أمر معتاد في الصحراء ، حتى ان خبرة العمل عند البدوي ليس فيها شيء غير متوقع » (*) •

وهكذا كان تحقيق المثل الأعلى للمروءة ، بالصورة التي كان عليها ، في اطار ثابت ، فمن المحتمل أن جريان دم نبيل في عروق أحدهم كان

(*) كتب المؤلف هذا الكلام قبل عام ١٩٥٣ وهو عام اصدار أول طبعة من هذا الكتاب ، ولكن بعد ابتكار أجهزة الموجات فوق الصوتية فقد أمكن معرفة جنس الجنين بدرجة لا بأس بها من الدقة وذلك بعد أن يكون جنس الجنين قد ظهر بالفعل ، أما علم الله فيعلم جنس الجنين قبل أن يخلق في الأشهر الأولى للحمل ـ (المترجم) •

يعتبر امرا يسهل القيام بأعمال نبيلة ، بالرغم من أن الصفات الخلقية للفرد لم تتوقف أبدا على نبل النسب وحده • ونتيجة للتكافل القبلى عند العرب لم تشغلهم مشكلة الحرية الفردية الا قليلا . ولكن من المحتمل ان يكون نمو الفردية قد أدى ، في زمان شباب محمد (عليه الصلاة والسلام) ، الى اضمحلال هذه « الانسانية القبلية » كقوة دينية حيوية • فحتى ذلك الحين لم يهتم الرجال كبير اهتمام بقدر الفرد طالما أن القبيلة باقية ، أما الآن فقد بدءوا يتساءلون عن المصير النهائى للانسان ، ولم يكن هناك طريق للانتقال من الانسانية القبلية الى الانسانية الفردية ، لأنه فى غياب الايمان بخلود الانسان لم يكن هناك شيء دائم بالنسبة للفرد ، أما فى حالة الانسانية القبلية ، فقد كان فى امكان الرجال أن يروا أن القبيلة باقية ، وكذلك وقبل كل شيء ، الدم الذى ربما كانوا يعتبرونه مصدر الصفات النبيلة للقبيلة . وفى مجال العقيدة ، يبدو أن المشكلة الرئيسية فى زمان محمد (ﷺ) كانت انهيار « الانسانية القبلية » ، فى مواجهة التنظيم الجديد للمجتمع الذى تتزايد فيه الفردية •

(جـ) ظهور الاتجاه نحو التوحيد

نوقشت العلاقة بين تعاليم الاسلام و « المصادر » اليهودية المسيحية الى درجة مثيرة للغثيان ، ولن نتناول هذا الموضوع هنا بأية درجة من التفصيل ، ولكن يستحسن أن نقول شيئا عن الزاوية التي يجب أن يناقش منها ، نظرا لأن اتجاه علماء الغرب كان غالبا غير صحيح لأنه يتضمن ـ أو يبدو أنه يتضمن ـ انكارا للمذاهب الدينية الاسلامية • وحتى من وجهة نظر أفضل علماء الغرب ، فان الدراسات الغربية للقرآن كانت غالبا غير صحيحة ، فقد ركزت على الجانب الأدبى ، ونسى أصحابها أن الجانب الأدبى ليس الا جانبا واحدا من جوانب الصورة . وأن الأعمال الأدبية فيها أيضا العمل الخلاق للشاعر أو الكاتب المسرحى أو القصصى ، ولم يثبت وجود الجانب الأدبى أبدا غياب الأصالة الخلاقة •

ويشبه الدين الأدب كما يختلف عنه أيضا ، ففى مقدورك أن تبين أن عاموس Amos أو حزقيال Ezekiel قد أخذا كثيرا من المفاهيم



ممن سبقوهما ، ولكنك اذا درستهما من هذه الناحية فقط فانك ستفقد الاحساس بأصالتهما وتفردية الوحى الالهى الذى جاء عن طريقهما ٠

ينظر المسلمون الى القرآن على أنه وحى الهى ، أو كلام الله ، ومن ناحية أخرى فان القرآن يتحدث بصراحة عن معتقدات الوثنيين العرب كما يتحدث عن بعض الأفكار التى مرت بخاطر محمد (عليه الصلاة والسلام) والمسلمين ، كما أن هناك آيات يمكن منها استنتاج مستقبل محمد (عليه الصلاة والسلام) ومعاصريه بدرجة عالية من اليقين ، وهذه الحقائق توحى بطريقة معالجة مسألة التأثيرات اليهودية المسيحية التى ترضى علماء الغرب بينما لا يكاد يقبلها المسلمون ، والمفروض أن تكون المرحلة الأولى هى السؤال : ماذا ذكر القرآن او تضمن عن معتقدات العرب فى زمان محمد (عليه الصلاة والسلام) ، سواء منها التقدمية المثقفة أو المتحفظة ؟ ثم بعد ذلك يمكننا أن نسأل الى اى مدى نستطيع أن نتتبع آثار التأثير اليهودى المسيحى ٠

تعطى الآيات الأولى للقرآن (١) انطباعا بأنها موجهة لقوم يؤمنون بالله ، وان كان هذا الايمان يشوبه الكثير من الابهام والارتباك ٠ وقد فسر القرآن كلمات غريبة اذا ذكرت وحدها لم يفهمها السامع مثل سقر والقارعة والحطمة وأمثالها ولكنه لم يفسر كلمات مثل رب أو اله ، ويدل التعبير « رب هذا البيت » (أى الكعبة) فى سورة قريش على أن المثقفين من أهل مكة كانوا يعتبرون أنفسهم عبادا لله ٠ وكلمة الله اختصار للتعبير « الاله » (*) كما يعنى تعبير هوثيوس hotheos فى الاغريقية ، ولكنه يفهم على أن المقصود به هو الاله الأعلى . ومن المحتمل أن الوثنيين فى مكة قبل زمان محمد (عليه الصلاة والسلام) كانوا يستعملون اسم الله للدلالة على الاله الرئيسى للكعبة ، كما كان الاله المعبود فى الطائف يسمى

---

(١) انظر الفصل الثالث الفقرة ٢ ـ (المؤلف) ٠

(*) الله اسم للخالق ، والالف واللام فيه أصلية وليست للتعريف ، وهو لا ينون ، ويعامل نحويا معاملة خاصة ، وذلك غير كلمة (اله) ـ (المترجم) ٠

اللات ، أى الالهة • فاذا كانت كلمة الله قد استخدمها اليهود والمسيحيون بنفس المعنى ؛ فان فرصة اختلاط الأمور تكون كبيرة ، ويكون الاحتمال الأرجح هنا أنه بينما آمن بعض أهل مكة بالله ، فانهم لم يروا أن معتقداتهم القديمة فى تعدد الآلهة تتعارض مع اعتقادهم فى الله حتى يرتضوها •

هذه الأحاسيس الداخلية بالتوحيد بين العرب لابد أنها نتيجة للتأثيرات المسيحية واليهودية بصفة أساسية (١) ، (*) ، فقد كان أمام العرب فرص كثيرة للاتصال بالمسيحيين واليهود ، فالامبراطورية البيزنطية ، التى كان العرب معجبين الى درجة كبيرة بقوتها وحضارتها

---

(١) انظر التنبيل ب ــ (المؤلف) •

(★) رسل الله محمد وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام أبناء ابراهيم ، وابراهيم كان خليل الرحمن موحدا مسلما كما يجب أن يكون الاسلام ــ ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين ★ شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم (النحل ١٢٠ ، ١٢١) وكذلك كان رسول الله اسماعيل عليه السلام موحدا التوحيد الصحيح السليم الذى لم تشبه شائبة لأنه كان رسولا •

ــ واذكر فى الكتاب اسماعيل أنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا (مريم ٥٤) •

وكان العرب من ذرية اسماعيل والقبائل الأخرى التى عاشت معهم فى مكة موحدين على دين ابراهيم عليه السلام ، وقد ذكرنا من قبل أنهم كانوا يحجون ويعتمرون بنفس المناسك التى نحج بها ونعتمر اليوم وذلك قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يلبون بنفس صيغة التلبية التى نلبى بها اليوم • واستمر الوضع كذلك حتى أدخل عمر ابن لحى عبادة الأصنام تقليدا لبعض قبائل الوثنية التى مر بها فى رحلة الصيف الى الشام فبدأ التحريف فى دين ابراهيم بادخال عبادة الأصنام معه ، وكان منطقهم انها تقربهم الى الله زلفى ــ ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى (الزمر ٣) •

وفى الآية التالية اثبت الله عز وجل لهم أنهم يعبدونه ولكنهم أشركوا بعبادته هذه الأصنام •

ــ وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون (يوسف ١٠٦) ولقد تكرر قول الله عز وجل :

ــ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله (لقمان ٢٥ ، الزمر ٣٨) •

ــ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله (العنكبوت ٦١) فهم يعرفون الله عز وجل ويزعمون عبادته ولكنهم جعلوا له شركاء من أصنامهم ، فالتوحيد اذن موجود عند العرب منذ عهد ابراهيم عليه السلام • والتوحيد فى الاسلام ايمان بالله واحد ليس كمثله شىء وليس فيه تعددية وليس له زوجة أو ولد •

وفى النهاية لا ننسى أن كلا من محمد وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام رسل الله عز وجل ودعوة الرسل كلهم واحدة وهى الدعوة الى التوحيد •

العالية ، كانت مسيحية ، وكذلك كانت الحبشة ، وحتى فى الامبراطورية الفارسية كانت المسيحية قوية ، والحيرة التى كانت ولاية تابعة للفرس ، وكان العرب على صلة وثيقة بها كانت قاعدة أمامية للكنيسة الشامية الشرقية أو النسطورية . ولا شك أن هذا المزيج من التوحيد والقوة العسكرية والسياسية والمستوى العالى للحضارة المادية قد أثر فى العرب تأثيرا كبيرا . وبالفعل ، فقد تحولت القبائل البدوية والمجتمعات المستقرة القريبة من هذه الدول الى المسيحية تدريجيا ، وحتى بعض التجار من أهل مكة الذين كانوا يرتحلون الى مدن الأسواق على الحدود للتجارة لم يكونوا بعيدين عن التأثر بما كانوا يرونه ، وكذلك كان هناك مسيحيون فى مكة ، تجارا وعبيدا ، ولكن ربما لم يكن تأثير هؤلاء الأفراد بالدرجة الكافية من الأهمية .

لم تكن فرص الاتصال باليهود كبيرة كما كانت بالنسبة للمسيحيين، ولكن ربما كانت بعض هذه الصلات حميمة ، وبخاصة فى المدينة حيث عاش اليهود والعرب الوثنيون جنبا الى جنب ، كما كان هناك أيضا عدد من القبائل اليهودية تعيش فى واحات فى شبه الجزيرة العربية وفى المناطق الخصبة من جنوبها ، اما لاجئين من بنى اسرائيل أو قبائل عربية اعتنقت اليهودية ، ولكن من الواضح أنه لم يكن هناك يهود فى مكة .

اذا تحدثنا عن التفاصيل ، نجد أن الجماعات اليهودية والمسيحية التى أثرت على العرب كان لها بلا شك الكثير من الأفكار الغريبة ، ولا نعنى بذلك هرطقة الشاميين الشرقيين (النسطوريين) أو أصحاب مبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح Monophysites الذى كان عليه باقى أهل الشام والحبشة ، فقد كانت تعبيرات علماء اللاهوت التابعين لهاتين الكنيستين معتدلة بالمقارنة بكثير من الأفكار الشاذة المستقاة من بشارات الأسفار المشكوك فى صحتها وما أشبه ، والتى يبدو أنها كانت منتشرة فى شبه الجزيرة العربية . ولا شك فى أن آيات القرآن التى تومىء الى أن الثالوث يتكون من الأب والابن ومريم العذراء انما هى نقد لبعض العرب

المســـيحيين اسما والذين كانوا يعتقدون ذلك (*) . أما فى الجانب اليهودي ، فان كثيرا من التفاصيل لم تأت أيضا من الكتب المقدسة بل من مصادر ثانوية مختلفة .

لانستطيع أن نستبعد تماما احتمال التأثر بالجماعات الموحدة غير اليهود والمسيحيين ولكنه كان في أحسن الأحوال ضئيلا ، فربما كانت هناك مجتمعات صغيرة تؤمن بتوحيد مؤسس على فلســفة اغريقية مثل الصابئة ، وقد يكون ذلك بعض التفسيرات المحتملة لبعض استخدامات كلمة « حنيف » (١) ، (**) . وهنا يمكنني أن أقول ببساطة انه ليست هناك اية أدلة صحيحة عن اية حركة متفق عليها نحو التوحيد ، واذا كانت هناك مثل هذه الحركة فمن المؤكد أنها كانت لدوافع سياسية مثل اعتناق عثمان بن الحويرث للمســـيحية ليكون الحاكم الوحيد لمكة بمســـاعدة البيزنطيين ، ومع ذلك فهناك قدر من الحقيقة فى الرواية التاريخية عن « الحنفاء » كباحثين عن دين جديد ، ففى الوضع الدينى لشبه جزيرة العرب ، وبصفة خاصة فى مكة ، الذى كان فى نهاية القرن السادس ، لا شك أنه كان هناك كثير من الرجال ذوى العقول الراجحة كانوا يشعرون بفراغ ويتوقون الى العثور على شيء يرضى أحتياجاتهم .

واخيرا ، يجب ملاحظة أنه قد حدثت بعض التعديلات فى الأفكار اليهودية ـ المسيحية حتى يمكن استيعابها فى المنظور العربى ، وقد رأينا

(*) اشارة لقوله تعالى : (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) المائدة / الآية ٧٣ .

(١) انظر التذييل ج (المؤلف) .

(**) قال ابن منظور فى قاموس لسان العرب : « الحنيف المسلم الذى يتحنف عن الأديان ، أى يميل الى الحق ، وقيل هو الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة ابراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وقيل هو المخلص ، وقيل هو من أسلم فى أمر الله فلم يلتو فى شيء ... وقال أبو عبيدة : من كان على دين ابراهيم فهو حنيف عند العرب ، وكان عبدة الأوثان فى الجاهلية يقولون : نحن حنفاء على دين ابراهيم فلما جاء الاسلام سموا المسلم حنيفا ... وقال الزجاجي : الحنيف فى الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن . فلما جاء الاسلام كان الحنيف المسلم » .

وكان الاختتان وغسل الجنابة والحج هو ما تبقى من الأصال من دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام ـ (المترجم) .

كيف انتقلت الأفكار القديمة المتعلقة بالدهر الى التعلق بالله ، وقد تغلغلت فكرة الاله في نفوس العرب ، الى درجة أن الوثنيين كانوا يقولون ان خرافتهم كانت أوامر من الله : « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » (الأعراف ٢٨) . وربما كان التفسير الديني لانسحاب أبرهة من مكة موجودا من قبل القرآن (حتى لو كان القرآن قد ذكر الحادثة) كما أن العلم بأن هودا وصالحا (*) كانا نبيين في عاد وثمود ربما كان مثالا سابقا للقرآن لتطبيق المفهوم اليهودي ـ المسيحي للنبوة . واذا كان مسيلمة بني حنيفة قد ادعى النبوة قبل محمد (عليه الصلاة والسلام) كما يقول البعض ، فان هذا يبين كيف كان لمفهوم النبوة جذوره (**) . وقد انعكس الاستيعاب في المنظور العربي في قبول

(*) تقع مدائن صالح في طريق قوافل الشام وكان العرب يرونها في ذهابهم وعودتهم ، ولا زالت هذه المدائن الى يومنا هذا خاصة البيوت المنحوتة في الجبل .

ـ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين (الشعراء ٤٩) فالعرب (واهل مكة بالذات) كانوا يعرفون مدائن صالح منذ أن كان هناك قوافل الى الشام ، كما ان الاحقاف وهى أرض عاد قوم هود تقع في جنوب شبه الجزيرة العربية فهى أقرب الى العرب من اليهود الذين كتبوا العهد القديم في فترة السبي في بابل ، فليس هناك أى مبرر للقول بأن العرب قد عرفوا صالحا وهودا عن طريق اليهود (ليس في العهد الجديد ذكر للأنبياء السابقين) خاصة وانه من المعروف ولع بحفظ أنسابهم وتاريخهم . كذلك نلاحظ أن الله عز وجل قال بعد ذكر قصة نوح عليه السلام :

ـ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا (هود ٤٩) .

بينما لم يذكر مثل هذا التعبير عند ذكر عاد وثمود ؛ مما يوحي بأن أخبارهما كانت معروفة للعرب ولو بصورة مجملة ـ (المترجم) .

(**) قال البخاري رحمه الله : « قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : ان جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته » . وكان قدوم مسيلمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تسع من الهجرة ، أى بعد ٢١ عاما من البعثة ، وكان ضمن وفد بني حنيفة ، وهذا دليل على أنه حتى قدومه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن قد ادعى النبوة . وقال ابن اسحق (وهو من المراجع الرئيسية التي اخذ عنها المؤلف) : « فلما انتهوا الى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ (أى ادعى النبوة) وتكذب لهم وقال : انى قد أشركت في الأمر معه (يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام) .

. أما صفة الكذاب فقد أطلقها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد أرسل مسيلمة رسالة الى الرسول يقول فيها : من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله . فرد ـ

المفاهيم اليهودية ـ المسيحية أو رفضها ، بالرغم من أنه من الصعب عادة أن نبين أن العرب كانــوا على علم بفكرة لم يرد لها ذكر ، وأنهم لهذا قد رفضـــوها .

لا يكاد يكون ضروريا ، لدراسة حياة محمد (عليه الصلاة والسلام)، تحديد الأهمية النسبية للتأثيرات اليهودية والمسيحية ، خاصة وأن كثيرا من التفاصيل موضع خلاف ، ولكن الضرورة الرئيسية هى أن ندرك أن مثل هذه الأشياء كانت منتشرة قبل مجيء القرآن الى محمد (عليه الصلاة والسلام) ، وأنها كانت جزءا من اعداده واعداد بيئته لرسالته .



= الرسول عليه الصلاة والسلام برسالة قال فيهـا : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب (المترجم) .

الفصل الثانى

بواكير حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) ودعـــوة النبـــوة

١ ـ نســـب محمد ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصى بن كلاب ... الخ · وكان قصى ـ كما رأينا ـ هو حاكم مكة القوى فى زمانه وورثت عنه سلالته كثيرا من سلطته ، الا أن السلطة تقسمت بينهم ـ شيئا فشيئا ـ كلما تزايد عددهم . والسؤال الأساسى المتعلق بحياة محمد ﷺ هو ما اذا كان آباؤه وأجداده على هذا القدر من الأهمية فى سياسة مكة كما تشير المصادر ، أم أن هذه الأهمية مبالغ فيها (كما يميل لذلك بعض الكتاب الغربيين) · فالعباسيون ـ مؤسسو الدولة العباسية ـ ادعوا الانتساب الى هاشم ، بينما الأمويون ـ مؤسسو الدولة الأموية ـ يدعون الانتساب الى أخيه عبد شمس · وقد تنـاول المؤرخون الذين عاشوا زمن الدولة العباسية تاريخ الأمويين بطريقة خالية من التعاطف ، فليس مستغربا ان هم أسبغوا على هاشم وأبنائه وأحفاده أهمية كبيرة ووضعوهم موضع الصدارة بطريقة قد لا تمثل حقيقة ما لهم من أهمية وصدارة · وعلى أية حال ، فان التدقيق فى المصادر يشير الى أن هذه المبالغة المشار اليها لم تكن حقيقة يمكن ادراكها · وعلى أية حال ، فالروايات المتعلقة بذلك قد تم عرضها ـ بلا شك ـ بروح التعاطف مع هاشم وبنيه وأحفاده ، لكن لا أســاس للافتراض بوجود قدر كبير من الأكاذيب أو التزييفات الخطيرة ·



ويظهر أن أبناء عبد مناف الأربعة الأساسيين قد فعلوا الكثير لتطوير تجارة مكة . فعبد شمس ذهب الى اليمن ، ونوفل ذهب الى بلاد فارس ، والمطلب ذهب الى الحبشة ، وهاشم ذهب الى الشام •

وربما كان هذا أساسا جيدا لثرائهم ، رغم أن آخرين بطبيعة الحال كان لهم أيضا أدوارهم فى هذه التجارة • وقصة أن عبد شمس قد تخلى لهاشم عن حقوق تقديم الطعام والماء للحجاج لأن هاشما كان أقل انشغالا بالرحلات التجارية ، ربما كان لها أســـاس من الحقيقة • فربما تحقق عبد شمس أن تجارة المسافات الطويلة تنطوى على مكاسب أكثر مما تنطوى عليه التعاملات الصغيرة مع الحجاج • وأيا ما كانت الأهمية النسبية لأى منهما (التجارة مع البلدان البعيدة ، والتعاملات التجارية مع الحجاج) ، فقد أضعف موت هاشم المبكر نسبيا فى غزة ــ سلالته والمرتبطين بها ــ عشيرة المطلب • وبعد موت هاشم أصبح المطلب ــ أخو هاشم ــ على رأس المجموعة كلها (عشيرتى هاشم والمطلب) لكن يبدو أنه لم يلعب دورا بارزا فى أمور مكة حتى أحضر ــ أى المطلب ــ ابن أخيه هشام وهو عبد المطلب من المدينة التى كان قد توقف فيها مع أمه .

وبعبد المطلب يبدو أن وضع العشيرة قد ازدهر مرة أخرى ، فحفره لبئر زمزم الى جوار الكعبة أظهره رجلا ذا همة ومبادأة • ورغم أن زمزم أصبحت بعد ذلك هى البئر المركزية لمكة وأسهمت فى زيادة أهمية الحرم ، فلا يبدو أن عمل عبد المطلب قد أظهر أنه كان زعيم مكة ، رغم أنه ارتبط بحق تقديم الماء للحجاج (السقاية) ذلك الحق الذى كان قد ورثه عن أبيه من خلال عمه •

وأفضل برهان يمكن تقديمه لمعرفة مكانته فى مجتمع مكة هو ما روى عن تزويجه لبناته . فصفية (أمها من عشيرة زهرة) تزوجت الابن الأول لحرب بن أمية (زعيم عبد شمس) وبعد ذلك عوام بن خويلد (من أسد) • وبالنسبة لبناته الأخريات ، فان عاتكة (أمها من مخزوم) تزوجت أبا أمية ابن المغيرة (من مخزوم) وابنته أميمة تزوجت من جحش حليف حرب بن أمية ، وأما أروى فتزوجت أولا عمير بن وهب ثم تزوجت رجلا من عشيرة

عبد الدار ، وتزوجت بره فى البداية من عبد رحم (من عشيرة عامر) ، ثم من أبى الأسد بن هلال (من مخزوم) وأم حكيم تزوجت من كريز من عبد شمس • ومعنى هذا أن عبد المطلب كان قادرا على تزويج بناته من بعض أفضل أسرات مكة وأكثرها قوة ونفوذا (١) .

والقول بأن عبد المطلب ، وحرب بن أمية كانا فى حالة تنافس على زعامة مكة قول مشكوك فيه مادمنا لا نجد تفاصيل عن ذلك فى المراجع ، ويبدو هذا القول انعكاسا لمنافسات حدثت بعد ذلك (يعنى أن مؤرخى العصر العباسى أسقطوا الحاضر على الماضى - المترجم) ، بالاضافة الى أن علاقات الزواج بينهما تظهر أنهما كانا على علاقة طيبة • والرواية المتعلقة بلقاء عبد المطلب بأبرهة أثناء حملة الفيل ربما تكون مقبولة بشكلها العام ، لكن باعتبار أن عبد المطلب كان فى مفاوضته تلك ممثلا لمجموعة صغيرة لا متحدثا باسم مكة كلها • وربما كانت كثرة التفاصيل فى الروايات المختلفة بمثابة محاولات لتقديم دوافع أو مبررات لسياسة عبد المطلب ، خاصة وأن حملة الفيل لم تسفر فى النهاية عن شئ ، وانتهت نهاية فاجعة بانسحابها ، ولا نستطيع أن نحكم ما اذا كان موقف عبد المطلب من حملة الفيل قد أثر فى نفوذه بمكة أم لا ، لأنه مات بعد ذلك بوقت قصير (*) • على أية حال ، فمعنى اتخاذه هذه السياسة من الحملة أن عشيرته أصبحت - نسبيا - فى وضع أسوأ •

وانتقلت زعامة بنى هاشم وبنى المطلب بعد ذلك لفترة وجيزة الى الزبير بن عبد المطلب ، وشهدت هذه الفترة حرب الفجار (بكسر الفاء) وحلف الفضول ، ولم يكن الزبير بن عبد المطلب شخصية بارزة فى هذه الأحداث • وكان حلف الفضول بمثابة تجمع للعشائر الضعيفة ، وقد لعب عبد الله بن جدعان (من تيم) دورا بارزا فى تشكيل هذا الحلف مادام الاجتماع قد عقد فى بيته ، وقد كان عبد الله بن جدعان من بين شخصيات مكة البارزة فى بداية حرب الفجار (٢) •

---

(١) ابن سعد ، ٨ ، ٢٧ - ٣٢ •

(*) اذا كان الرسول قد ولد عام الفيل ، فان وفاة عبد المطلب كانت بعد ذلك بثمانى سنوات - (المراجع) •

(٢) A. P. Caussin de Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes avant Islamisme, Paris, 1847-8. 1, 300-305 from Aghani.

وشخصية أبى طالب أقل غموضا من شخصية الزبير بن عبد المطلب فقد أصبح أبو طالب زعيما للعشيرتين هاشم والمطلب لفترة بعد عقد حلف الفضول حتى موته قبل الهجرة بثلاث سنوات . ومع أن أبا طالب كان رجلا محترما كزعيم للعشيرة الا أن أمور عشيرته كانت ـ بشكل واضح ـ غير مزدهرة ، وكان يشار اليه كراعى ابل فى الصحراء ، وكانت هذه الاشـارة عامرة بالازدراء (٣) • ويبدو أن هذه الاشـارات كانت لارضاء بنى العباسى فى الأساس ، الذين كانوا يحسون بالغيرة من بنى هاشم • ونظرا لظروف الفقر المحيط بأبى طالب ، أخذ محمد ﷺ ابنه عليا ليعيش معهم ، ولا شك أن هذه الأوضاع راجعة فى جانب منها الى نقص كفاءات أبى طالب ، وفى جانب آخر لتدهور أحوال العشيرة ، ذلك التدهور الذى كان قد بدأ قبل موت عبد المطلب مرتبطا باستدعائه لمقابلة أبرهة •

وكان عبد الله والد محمد ﷺ أخا شقيقا لكل من الزبير وأبى طالب، وكان يعمل فى تجارة القوافل مع الشام كسائر أفراد الأسرة ، ومات عن عمر صغير نسبيا فى المدينة وهو فى طريق عودته من رحلة تجارية الى غزة (٤) ، وربما حدث هذا قبيل وقت قصير من ولادة محمد ﷺ •

أما أم محمد ﷺ فهى آمنة بنت وهب من عشيرة زهرة من قبيلة قريش ، وكانت أمها من عشيرة عبد الدار وكان جدها لأمها من عشيرة أسد • وعلى هذا ، فقد كان محمد ﷺ مرتبطا برباط القربى بعدد من الأسرات الرئيسية فى مكة •

وبشكل عام ، فان الانطباع الذى نخلص به هو أن عشيرة محمد ﷺ أصبحت مرة أخرى فى الصدارة عند تناول أمور مكة ، لكن قبل بعثة محمد ﷺ بثلاثة قرون كان نفوذها فى حالة تدهور ، وأصبحت الآن ـ قبيل البعثة ـ لا تعدو أن تكون عضوا بارزا بين مجموعة العشـائر الضعيفة والفقيرة • ورغم أن افرادا فى العشـيرة استمروا فى العمل بالتجارة مع

---

(٣) الأزرقى ، تحقيق فستنفلد ، ٧١ ، ٤ •
(٤) ابن سعد ، ١ ، ١ ، ٦١ •

الشام (أو على الأقل لم تكن مشاركتهم فى هذه التجارة بقدر كبير) لكن ربما لم يشاركوا بقدر كبير مع عبد شمس ومخزوم ، وربما لأسباب تجارية فان عشيرة هاشم والمطلب كانت على استعداد للتصرف بغير ود ازاء هاتين العشيرتين الثريتين (عبد شمس ومخزوم) رغم أنه ربما كان هناك ما يشير الى أن محمدا ﷺ قد اقترب منهما ؛ اذ ان ابنته زينب تزوجت رجلا من عبد شمس (ابن خالتها) ٠

٢ ـ مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وسنواته الأولى

ولد محمد ﷺ فى عام الفيل ـ عام حملة أبرهة غير الناجحة على مكة ، وكان ذلك فى حوالى سنة ٥٧٠ م تقريبا ٠ وكان ميلاده بعد وفاة أبيه ، فكفله جده لأبيه عبد المطلب ٠ وكان من عادة الطبقات العليا فى مكة أن تدفع بأبنائها الى حاضنات من القبائل البدوية حتى ينمو الطفل فى جو الصحراء النقى فيغدو قوى البنية ٠ وهذا ما حدث مع محمد ﷺ طوال عامين أو أكثر ، فقد رعته حليمة السعدية ، وهى امرأة من بنى سعد ابن بكر من قبيلة هوازن ٠

وتوالت الصعاب على الطفل اليتيم فماتت أمه وهو فى السادسة من عمره وبعد ذلك بعامين مات جده ، فكلفه عمه أبو طالب الذى اصطحبه معه فى تجارته الى الشام ، ونشبت حرب الفجار (بكسر الفاء) ومحمد بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره ، ويقال انه قام بدور صغير فى هذه الحرب الى جانب أعمامه ٠ وربما كان حاضرا أيضا عند تشكيل حلف الفضول ، وفى وقت لاحق (بعد البعثة النبوية) صرح محمد ﷺ أن هذا الحلف كان شيئا طيبا ، وكان هدف الحلف هو اقرار مبادىء العدالة ضد الممارسات الظالمة لبعض القبائل القوية والغنية ، وهو هدف قريب جدا من بعض جوانب تعاليم القرآن (الكريم) ٠

تلك هى الحقائق الأساسية عن محمد ﷺ قبل زواجه ، وذلك من وجهة نظر المؤرخين الذين يركزون على الحقائق الموضوعية (الدنيوية) ،

ومع ذلك فثمة جدال حول بعض هذه النقاط . وعلى أية حال ، فهناك أيضا حكايات كثيرة تصوره على أنه كان شخصية ذات أبعاد غيبية theological character فى هذه المرحلة المبكرة من عمره . وهناك طائفة من المؤرخين الذين لا يؤمنون بالغيبيات يكادون يجزمون بعدم صحة هذه الروايات ، لأنها تشير الى أمور من المنطقى أن نتوقع الاشارة اليها بعد أن أصبح نبيا ، وهو ما لا نجد اشارة اليه . لكن المؤكد أن هذه الروايات تعبر عن شيء بالنسبة للمسلمين المؤمنين . وبالتالى فهى حقيقية بالنسبة لهم ومناسبة لاطالة حياة نبيهم ، وربما كانت أيضا تعبيرا عما كان يمكن أن يراه كل ذى عينين ان كان حاضرا وقت حدوثها . وسيكون كافيا أن نقدم أشهر هذه الروايات بنص كلمات ابن اسحق :

« كانت حليمة بنت أبى ذؤيب من بنى سعد ، مرضعة رسول (ﷺ) تروى كيف كانت تبحث عن الرضعاء هى وزوجها وصبى لها صغير . خرجت من أرضها مع بعض نساء من بنى سعد بن بكر طلبا للرضعاء ، قالت : كانت سنة شهباء (*) لم تترك شيئا ، فخرجت على أتان (**) لى سمراء مصفرة (***) ومعنا شارف (****) والله ما تبض بقطرة (*****) وما ننام ليلنا ذلك أجمع من صبينا ذاك يبكى من الجوع ، ما نجد فى ثديى ما يغنيه ولا فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك فلقد أذمت بالركب (******) حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا . فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله (ﷺ) فنأباه ، اذا قيل انه يتيم تركناه وقلنا ماذا عسى أن تصنع الينا أمه ، انما نرجو المعروف من أبى الولد ، فأما أمه وجده فماذا عسى أن يصنعا الينا ، فلم نكن نرغب فيه . فوالله ما بقى من صواحبى امرأة الا أخذت رضيعا غيره ، فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجى : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع ، لأنطلقن الى

(*) جدباء ليس فيها مطر .
(**) انثى الحمار .
(***) فى رواية ابن اسحق قمراء يعنى بيضاء بياضا فيه كدرة .
(****) ناقة مسنة هرمة .
(*****) ليس فيها قطرة لبن .
(******) اتت بما يذم عليه من تخلف وتمهل - (المترجم) .

ذلك اليتيم فلآخذنه ، فقال : لا عليك أن تفعلي ، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة . فذهبت فأخذته ، فوالله ما أخذته الا أنى لم أجد غيره ، فما هو الا أن أخذته فجئت به رحلى فاقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب أخوه (تقصد ابنها) حتى روى ، فأخذ كل منهما كفايته ثم ناما ولم نكن ننام من بكاء صبينا ، وقام صاحبى الى شارفنا تلك فاذا انها لحافل فحلب منها ما شرب وشربت حتى روينا ، فبتنا بخير ليلة فقال صاحبى حين أصبحنا : يا حليمة ، والله انى لأراك أخذت نسمة مباركة فأجبته : والله انى لأرجو ذلك . ثم خرجنا راجعين الى بلادنا وركبت أتانى حاملة الصبى ، فوالله لقطعت أتانى بنا الركب حتى ما يتعلق بها حمار ، حتى ان صواحبى ليقلن : ويلك يا بنت أبى ذؤيب ، انتظرينا ، أهذه أتانك التى خرجت عليها معنا ؟ فاقول : نعم والله انها لهى ، فقلن : والله أن لها لشأنا . حتى قدمنا أرض بنى سعد وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فان كانت غنمى لتسرح ثم تروح شباعا لبنا (بضم اللام وسكون الباء) فنحلب ما شئنا وما حوالينا أو حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن ، وان أغنامهم لتروح جياعا حتى انهم ليقولون لرعاتهم : ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبى ذؤيب فاسرحوا معهم ، فتروح أغنامهم جياعا ما فيها قطرة لبن ، وتروح أغنامى شباعا لبنا تحلب ما شئنا ، فلم يزل الله يرينا البركة تتعرفها حتى بلغ سنتين من العمر وفطمته ، فكان يشب شبابا لا تشبه الغلمان ، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاما جفرا (*) ، فقدمنا به على أمه ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رأته أمه قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى فاننا نخشى عليه وباء مكة ، فوالله ما زلنا بها حتى قالت نعم فسيرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة ، فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة فى بهم (**) لنا جاء أخوه ذلك يشتد ، فقال : ذاك أخى القرشى جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاه فشقا بطنه وهم يبحثون عن شيء بداخله ، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائما منتقعا لونه ، فاعتنقته واعتنقه أبوه وقلنا له : ما شأنك يابنى ، قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، أضجعانى وشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه

(*) اى شديدا قويا ـ (المترجم) .

(**) جمع بهمة وهي لولاد الضـأن والمعز والبقـر ، ولعـل المراد هنـا صغـار الغنم .

ثم رداه كما كان ، فرجعنا به معنا . فقال أبوه : يا حليمة ، لقد خشيت أن يكون ابنى قد أصيب فانطلقى بنا نرده الى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف منه ، فاحتملنا فقدمنا به على أمه ، فقالت ما ردكما به ياظئر (*)؟ فقد كنتما عليه حريصين ، قلت : ان الله قد أدى عنا وقضينا الذى علينا وقلنا نخشى الاتلاف والأحداث ، نرده الى أهله ، فقالت : ما ذاك بكما فاصدقانى شأنكما ، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره ، فقالت : أخشيتما عليه الشيطان ؟ كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل ، والله انه لكائن لابنى هذا شأن ، ألا أخبركما خبره ؟ قلنا بلى . قال حملت به فما حملت (**) حملا قط أخف منه ، فاريت فى النوم حين حملت به كأنه خرج منى نور أضاءت له قصور بصرى فى الشام ، ثم وقع معتمدا على يديه رافعا رأسه الى السماء ، فاتركاه عنكما ، وصاحبتكما السلامة الى بلادكما (***) .

وقال ابن اسحق : حدثنى ثور بن يزيد عن أحد العلماء لا أظنه أحدا غير خالد بن معدان الخلاعى أن بعضا من أصحاب رسول الله (عليه الصلاة والسلام) قالوا له : أخبرنا عن نفسك قال نعم ، أنا دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام (٥) ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام واسترضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا فى بهم لنا خلف خيامنا أتانى رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوءة ثلجا ، فأضجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى

(*) أى يا مرضع .

(**) أى فما حملت امرأة حملا قط أخف منه ، فحذفت كلمة امرأة جريا على عادة العرب فى فصاحتهم حيث يحذفون الكلمة المفهومة ضمنا فانه من المعروف والثابت فى جميع كتب السيرة أن رسول الله ﷺ ليس له اخوة لا أشقاء ولا من الأم ، وأن كلا من أبيه وأمه كان بكرا حين تزوجا ، وعلى هذا لا يمكن أن تكون التاء هنا للمتكلم وانما للغائب - (المترجم) .

(***) رواية ابن اسحق كما ذكرها ابن كثير فى البداية والنهاية مع اثبات الزيادات التى رواها المؤلف ولم ترد فى رواية ابن كثير . وهناك اختلافات بسيطة بين رواية ابن كثير ورواية المؤرخين الاسلاميين الآخرين - (المترجم) .

(٥) انظر سورة البقرة ، ١٢٩ وما بعدها .

فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها ، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى اذا أنقياه رداه كما كان ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزنني بعشرة فوزنتهم (*) ، ثم قال : زنه بمئة من أمته ، فوزنني بمائة فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزنني بألف فوزنتهم ، فقال : دعه عنك ، فلو وزنته بأمته لوزنهم (٦) (**) .

قال ابن اسحق : ثم ان أبا طالب خرج فى ركب تاجرا الى الشام . فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير صب (***) به رسول الله (ﷺ) فيما يزعمون ، فرق له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبدا ، أو كما قال ، فخرج به معه ، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام (****) وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له ، وكان اليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهبا(*****)، اليه يصير علمهم عن كتاب فيها ، فيما يزعمون ، يتوارثونه كابرا عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ، وكانوا كثيرا ما يمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا قريبا من صومعته ، صنع لهم طعاما كثيرا ، وذلك ، فيما يزعمون ، عن شيء رآه وهو فى صومعته ، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ فى الركب حين أقبل وغمامة تظلله من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه ، فنظر الى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وانهصرت (******) أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أمر بطعام فصنع ، ثم أرسل اليهم فقال : انى صنعت لكم طعاما يا معشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، كبيركم وصغيركم وعبدكم وحركم ، فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى ان لك لشأنا اليوم ، ما كنت

(*) اى كان وزنى اثقل منهم – (المترجم) .

(**) قال ابن كثير : وهذا اسناد جيد قوى – (المترجم) .

(٦) ابن هشام ، ١٠٣ – ١٠٦ .

(***) اى تعلق به واظهر الشوق – (المترجم) .

(****) وهى غير البصرة التى فى العراق – (المترجم) .

(*****) اى منذ زمن بعيد – (المترجم) .

(******) اى اندفعت ومالت – (المترجم) .

تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلون منه كلكم ، فاجتمعوا اليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة ، فلما رآهم بحيرى لم ير الصفة التي يعرف ويجدها عنده (في كتابه) ، فقال : يا معشر قريش · لا يتخلفن احد منكم عن طعامي ، قالوا : يا بحيرى ، ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتيك الا غلام وهو أحدثنا سنا فتخلف في رحالنا ، قال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم · فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى ان كان للؤم منا أن يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام اليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم · فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظا شديدا ، وينظر الى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام اليه بحيرى وقال له : يا غلام ، أسألك بحق اللات والعزى الا اخبرتني عما أسألك عنه ، وانما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما ، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له : لا تسألني باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما ، فقال له بحيرى : فبالله الا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، فقال له : سلني عما بدا لك ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسول الله ﷺ يخبره ، فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته (في كتابه) ، ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده (في كتابه) . قال ابن هشام : كان مثل طبعة المحجم (*) · قال ابن اسحق : فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ، قال : ابني ، قال : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال : فانه ابن أخي ، قال فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به ، قال صدقت ، ارجع بابن أخيك الى بلده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليمسنه منهم شر فانه كائن لابن اخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع

(*) كأس الحجام ـ (المترجم) ·

به الى بلاده ، فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام (٧) (*) .

٣ ـ زواج محمد (عليه الصلاة والسلام) من خديجة

يعتبر زواج محمد (عليه الصلاة والسلام) من خديجه بنت خويلد ابن أسد نقطة تحول فى الجزء الأول من حياته ، وتقول الروايه التقليديه أن خديجة (رضى الله عنها) لما سمعت عن أمانة محمد (عليه الصلاة والسلام) وصدق حديثه وكرم أخلاقه ، عرضت عليه أن يخرج لها فى مال تاجرا الى الشام ، وكانت قد تزوجت مرتين وكان آخر زوجيها من بنى مخزوم ، ولكنها كانت الآن تتاجر فى مالها الخاص عن طريق عمال تستأجرهم · ولقد سرت خديجة (رضى الله عنها) بما فعل محمد (عليه الصلاة والسلام) وبلغ اعجابها بشخصيته أن عرضت عليه الزواج منها فوافق · ويقال انها كانت فى الأربعين من عمرها (**)فى ذلك الوقت ، بينما كان محمد (عليه الصلاة والسلام) فى الخامسة والعشرين ·

وربما كان عمر خديجة مبالغا فيه ، فقد ذكرت المصادر أسماء سبعة ولدتهم لمحمد (عليه الصلاة والسلام) ، وهم : القاسم ورقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله (الطيب) والطاهر (٨) ، وقد مات الصبية جميعا صغارا ، وحتى لو كان السبعة قد ولدوا فى سنوات متتالية كما يذكر أحد رواة ابن سعد ، فان هذا يعنى أن عمرها (رضى الله عنها) كان قد بلغ الثامنة والأربعين قبل أن تلد الابن الأخير ، وهذا أمر مستحيل

(★) رواية ابن اسحق كما ذكرها ابن كثير فى البداية والنهاية مع اثبات الزيادات التى أوردها المؤلف ولم يذكرها ابن كثير ـ (المترجم) ·

(٧) ابن هشام ، ١١٥ ـ ١١٧ ·

(★★) هذا قول حكيم بن حزام ، ولكن ابن عباس رضى الله عنهما يقول ان عمرها كان ثمانية وعشرين عاما عندما تزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام ، رواهما ابن عساكر ـ (المترجم) ·

(٨) ابن سعد ، ج ١/١ ، ٨٥ · (الصحيح أن أولاد الرسول ستة لا سبعة ابنان هما : القاسم وقد ولد قبل الاسلام ، وبه كان الرسول يكنى والطاهر وقد ولد بعد الاسلام ويسمى أيضا الطيب وأربع بنات كما ذكر فى الأصل ـ (المراجع) ·

بأية حال (*) ، ويعتبر أمراً غير عادى بالدرجة التى تجعله يستحق التعليق ، بل انه من الأمور التى يمكن اعتبارها معجزة ، ومع ذلك فلم ترد كلمة تعليق واحدة فيما كتبه هشام أو ابن سعد أو الطبرى .

من وجهة نظر المجتمع المكى ، كان محمد (عليه الصلاة والسلام) قد وضع قدمه على أول درجة على الأقل من درجات النجاح الدنيوى . وربما لم تكن خديجة (رضى الله عنها) من الثروة كما يقال عنها أحيانا ، ولكننا نستطيع أن نفترض أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) قد اصبح لديه رأس مال يكفيه للحصول على نصيب متوسط من الأعمال التجارية (٩) .

ولا يعنى عدم وجود أخبار عن أنه سافر الى الشام مرة ثانية أنه لم يذهب ، مع الوضع فى الاعتبار أنه من الممكن دائما أن يكلف آخرين بالاشراف على تجارته ، كذلك يجب أن نتذكر دائما احتمال أن يكون التجار قد استبعدوه من مجالسهم ، ومن معظم العمليات المربحة . ومع ذلك ، فمن المحتمل أنه لم يستبعد تماما ؛ لأنه كان قادرا على أن يزوج ابنته زينب لأحد أفراد عشيرة عبد شمس ، هو ابن أخت خديجة (رضى الله عنها) ، والتى لا شك فى أنه كان لها دور بارز فى هذه الزيجة ، كما أن خطبة ابنتيه الأخريين لابنى أبى لهب ، الذى ربما كان ينظر اليه على أنه الزعيم التالى لبنى هاشم ، تدل على أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) كان ينظر اليه أيضا على أنه أكثر شباب بنى هاشم رجاء .

(★) من المعروف طبيا أن المرأة التى عاشت حياة زوجية سليمة وتكررت ولادتها يمكنها أن تستمر فى الانجاب الى سن متأخرة ، ولكن من المعروف طبيا أيضا أن المرأة المرضع لا تحمل عادة ، وعلى هذا فان الفترة بين الحملين لن تقل عن عامين حتى يتم فصال الطفل . فالقول بأن السيدة خديجة كانت تلد كل عام قول مشكوك فيه طبيا ، والأقرب الى التصديق أن يكون كل عامين ، فتكون الفترة التى انجبت فيها الأبناء السبعة ١٤ عاما (السنة ١٢) فلو كانت تزوجت وهى فى الأربعين كما يقول حكيم ابن حزام لكان عمرها فى الحمل الأخير ٥٤ عاما على الأقل وهو أمر مستبعد الى درجة كبيرة كما يقول المؤلف ، وبذلك يكون قول عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن عمرها كان ٢٨ عاما اقرب الى التصديق . والله اعلم ـ (المترجم) . ثم انها لو كان عمرها عند الزواج اربعين لما كان ينتظر أن تخطب لنفسها شابا عمره ٢٥ سنة لأنه فى هذه الحال فى عمر أولادها ، فما كان شرفها يسمح لها بذلك ـ (المراجع) .

(٩) للأزرقى ، ٢٠٤٧١ ـ (المترجم) .



فى الوقت الذى لا نستطيع فيه أن نتوقع أن تكون امرأة تاجرة من أهل مكة فى القرن السادس (*) غافلة عن العوامل المادية ، فان لدينا الكثير من الأسباب التى تجعلنا نعتقد أن خديجة (رضى الله عنها) قد أدركت بعضاً من قدرات محمد (عليه الصلاة والسلام) الروحية ، وأنها انجذبت اليها • ومن المؤكد أنها لعبت دورا هاما فى الأوقات الحرجة من حياته ؛ وذلك بتشجيعه على الاستمرار فى طريقه كنبى • بالاضافة الى ذلك ، كان ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد رجلا ذا عقلية دينية دعته فى النهاية الى أن يكون مسيحيا (١٠) ، ويكاد يكون من المؤكد أن خديجة قد تأثرت به ، وربما يكون محمد (عليه الصلاة والسلام) قد اكتسب بعضا من الاهتمام بنبوءاته •

كانت الأعوام التى تبعت زواج محمد (عليه الصلاة والسلام) سنين اعداد للمهمة التى تنتظره • ومع ذلك ، فليس لدينا من المعلومات ما يمكننا من اعادة تصور عملية الاعداد ، وأفضل ما يمكننا عمله أن نستدل على هذه العملية مما حدث فيما بعد • فهناك مثلا آيات فى سورة الضحى يبدو أنها تشير الى تجارب محمد (عليه الصلاة والسلام) الأولى :

(ألم يجدك يتيما فآوى ،

ووجدك ضالا فهدى ،

ووجدك عائلا فأغنى) •

من هذه الآيات يمكننا أن نتصور أن احدى مراحل هذا الاعداد كانت معرفة أن يد الله تعينه بالرغم من المحن التى مرت به • وستأتى اشارات أخرى عن هذه السنين المجهولة فى سياق الحديث •

(*) يقصد الميلادى - (المترجم) •

(١٠) انظر التعليل جـ (المؤلف) •

٤ ـ الدعـوة للنبـوة

(أ) رواية الزهـرى

فى سن الاربعين ، طبقا لما جاء فى كتب السيرة ، بعث الله محمدا (عليه الصلاة والسلام) بالنبوة وبدأ نزول الوحى عليه • وأفضل بداية هى رواية الزهرى مع ذكر ما رواه عن الفترة أو انقطاع الوحى • ولم نذكر هذه الرواية هنا ، كما فعلنا مع رواية ابن هشام ، لنعطى تتابعا متسلسلا ، وانما لنضم مقتطفات من المادة الأصلية كما وصلت للزهرى • ليس فى النص الأصلى كما وصل الينا تقسيم ، وانما أدخلنا بعض التقسيم للتوضيح ، وقد وضعنا هذا التقسيم فى الفواصل التى فى المادة التى كتبها الزهرى عند تغير الراوى .

(أ) ••• سمعت النعمان بن رشيد يروى عن الزهرى عن عروة عن عائشة (رضى الله عنها) أنها قالت : (أول ما بدىء به رسول الله (ﷺ) من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح) •

(ب) ثم حبب اليه الخـلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه (يتعبد؟) الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع (*) الى أهله ويتزود لذلك (**)، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه (***) الحق وقال : يا محمد ، أنت رسول الله •

(جـ) قال رسول الله (ﷺ) : (كنت واقفا فجثيت (****) منه رعبا ، فرجعت ترجف بوادرى (*****) فرجعت الى خديجة فقلت زملونى

(★) نزع الشخص الى أهله : حن اليهم واشتاق (المعجم العربى الأساسى) ـ (المترجم) •

(★★) تقصد لهذه الخلوة ـ (المترجم) •

(★★★) جاء بغتة على غير موعد ـ (المترجم) •

(★★★★) جثا : جلس على ركبتيه ـ (المترجم) •

(★★★★★) البوادر جمع بادرة ، هى لحمة بين المنكب والعنق ـ (المترجم) •

زملونى الى أن ذهب عنى الروع) . فجاءنى (*) فقال : (يا محمد ، أنت رسول الله) .

(د) قال (أى محمد عليه الصلاة والسلام) ، (لقد عزمت أن أتردى من رءوس شواهق الجبال) ولكنه ظهر لى وقال : (يا محمد ، أنا جبريل وأنت رسول الله) .

(هـ) ثم قال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء (أو « ماذا أقرأ ») ، قال (أى محمد عليه الصلاة والسلام) : (فأخذنى فغطنى (**) حتى بلغ منى الجهـد ثلاث مرات ثم قال : « اقرأ باسـم ربك الذى خلق ») فقرأتهـا (***) .

(و) ثم جئت خديجة فقلت : (ما لى ؟ أى شىء عرض لى ؟ وأخبرتها بأمرى) قالت : (أبشر ، كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتصـدق الحـديث وتـؤدى الأمانة وتحمل الكـل (****) وتقـرى الضيف) (*****) وتعين على نوائب الحق) (******) .

(ز) ثم أخذتنى (*******) الى ورقة بن نـوفل بن أسد وقالت : اسمع من ابن أخيك ، فسألنى فأخبرته بما رأيت ، قال : هذا الناموس

(★) يقصد الملك — (المترجم) .

(★★) أى خنقنى — (المترجم) .

(★★★) فى النص الذى رواه البخـارى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها تأتى هذه الفقرة (هـ) بعد قولها : ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء .

فى حين ان الفقرة التى ذكرها المؤلف قبلها (الفقرة د) تصف الفترة التى انقطع فيها الوحى وهى بعد أحداث الفقرة هـ بزمن على ما أجمعت عليه معـظم الروايات التى يعتد بها . ولسبب لا يعلمه الا الله عكس المؤلف ترتيب الأحداث ووضع الحديث الذى كان رسول الله ﷺ يتحـدث فيه عن انقـطاع الوحى قبـل الفقـرة التى تصف أول نزول الوحى — (المترجم) .

(★★★★) أى تعطى صاحب العيلة (كثرة الابنـاء) ما يريحـه من ثقل مؤنة عياله (البداية والنهاية) — (المترجم) .

(★★★★★) تكرم الضيف بالطعام والمأوى — (المترجم) .

(★★★★★★) تعين من وقعت له نائبـة فى خير فتقوم مع صاحبهـا حتى يجد سدادا من عيش (البداية والنهاية) — (المترجم) .

(★★★★★★★) يتجه اكثر العلماء الى أن السيدة خديجة هى وحدها التى ذهبت الى ابن عمها ورقة ، وما كان الرسول ليذهب اليه فى مثل هذه الاحوال ليركن الى قول البشر — (المراجع) .

الذى أنزل على موسى بن عمران ، يا ليتني فيها جذعا (*) ، يا ليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك ، قلت : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، انه لم يأت أحد بمثل ما جئت به الا عودى ، وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا (**) .

(ح) كان أول ما نزل الى من القرآن بعد اقرأ : (ن * والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وان لك لأجرا غير ممنون * وانك لعلى خلق عظيم * فستبصر ويبصرون) و : (يا أيها المدثر * قم فأنذر) ، و : (والضحى * والليل اذا سجى) (١١) .

(ط) قال الزهرى : ثم فتر الوحى عن رسول الله (ﷺ) حتى حزن النبى (ﷺ) حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى بنفسه تبدى له جبريل فقال : (يا محمد ، انك رسول الله حقا) فيسكن لذلك حاله وتقر نفسه فيرجع .

(ى) كان النبى (ﷺ) يحدث عن فترة الوحى ، قال : (فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى قبل السماء فاذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجثيت منه فرقا (**) حتى هويت الى الأرض ، فجئت أهلى فقلت : زملونى زملونى) .

(ك) فدثرناه فأنزل الله تعالى : (يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر) .

(ل) أضاف الزهرى : كان أول ما نزل عليه من الوحى : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، الى : علم الانسان ما لم يعلم (العلق ١ ـ ٥) (١٢) .

(*) شابا قويا ـ (المترجم) .

(١١) تاريخ الطبرى ، ١١٤٧ وما بعدها .

(**) أى رعبا ـ (المترجم) .

(١٢) الطبرى ، ١١٥٥ .



ذكر الزهرى ، المعروف ايضا بابن شهاب ، روايه اخرى للفقرتين (ى) و (ك) تبدا هكذا : « قال جابر بن عبد الله الانصارى ، سمعت رسول الله (ﷺ) يحدث عن فترة الوحى قال : فبينما أنا امشى » ، وتتجنب هذه الرواية تغير المتحدث من الفقرة (ى) للفقرة (ك) وذلك بقوله ﷺ : (فدثرونى) ، أى وضعوا دثارا على ، وهذه الرواية لها أهميتها لأنها رواية عن جابر تجعل سورة المدثر هى اول الوحى (*) (١٣) .

من الواضح أن الفقرات من (أ) الى (ح) متصلة الاحداث فى رواية الزهرى ولكن ليس من الضرورى أن تكون كلها عن السيدة عائشة (رضى الله عنها) ، وربما كان قطع ابن اسحق لرواية عائشة بعد أول جملة فى الفقرة (ب) بسبب تفضيله لروايات أخرى لما (بكسر اللام) تبقى ولا يعنى هذا بالضرورة انقطاع الأصل عند هذه النقطة ، ومع ذلك فليس هناك فائدة كبيرة فى مناقشة هذا الاسناد . وبدلا من ذلك أقترح دراسة الأدلة العقلية لهذه الفقرات ، وبالذات دراسة ما يمكن أن نسميه « السمات » المختلفة للروايات .

(ب) رؤى محمد (عليه الصلاة والسلام)

ليس هناك أى سبب وجيه يجعلنا نتشكك فى النقطة الاساسية فى الفقرة أ ، وهى أن بداية النبوة كانت « الرؤيا الصادقة » ، وهذه الرؤى تختلف تماما عن الأحلام ، وقد ذكرت الرؤى أيضا فى الفقرتين (ب) و (ى) [بصرف النظر عن ظهور جبريل فى (د) و (ط)] . ويؤكد ما ورد فى (أ) ما نعرفه من سورة النجم ، ولكن يمكن أيضا معرفته من ملاحظات محمد (عليه الصلاة والسلام) . وقد ذكرت رؤيتان فى القرآن :

(*) عن جابر رضى الله عنه : سمعت رسول الله يحدث عن فترة الوحى ، فسورة المدثر أول ما نزل بعد فترة انقطاع الوحى ، أما أول ما نزل من القرآن فى غار حراء فكان كما ثبت فى صحيح البخارى عن السيدة عائشة أنها بداية سورة العلق : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » الى قوله تعالى : « علم الانسان ما لم يعلم » ــ (المترجم) .

(١٣) الطبرى ١١٥٥ وما بعدها .

(والنجم اذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحى يوحى * علمه شـــديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى الى عبده ما أوحى ...) .

(ولقد رآه نزلة أخرى * عند ســـدرة المنتهى * عندهـــا جنة المأوى * اذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى) (١٤) .

والتفسير المعتاد لهذه الآيات عند المسلمين أن المرئى كان جبريل ، ولكن هناك أسبابا تدعونا الى أن نظن أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) قد فسرها فى الأصل على أنها رؤية لله ذاته ، فان جبريل لم يذكر فى القرآن الا فى المدينة ، والتعبير « عبده » فى الآية ١٠ لابد أنه يعنى عبد الله كما يجمع المسلمون ، ولكن ذلك يجعل التركيب اللفظى غير منسجم الا اذا كان الله هو المعنى بالأفعال (*) .

كذلك فان الجملة التى فى نهاية الفقرة (ب) وهى قول الزهرى : « حتى فجأه الحق وقال ... » لها أهمية مشابهة ، لأن كلمة « الحق » من أساليب الاشارة الى الله (**) ، وكذلك يمكننا أن ننظر الى الفقرة (جـ)

---

(١٤) السورة ١/٥٣ ـ ١٨ .

(*) ليس هناك خلاف بين المسلمين فى أن رؤية الله عز وجل فى الدنيا مستحيلة .

(**) الحق من أسماء الله الحسنى . ولكن كلمة « حق » لها معان متعددة من أراد معرفتها فليرجع الى أحد قواميس اللغة العربية ، مثل لسان العرب أو المعجم العـربى الأساسى . ومن معانيها التى تهمنا فى هذا المقام : هو الشىء الثابت الذى لا شك فيه مثل قول الله عز وجل : (انه لحق مثل ما انكم تنطقون) .

فقول السيدة عائشة : « حتى فجأه الحق وقال .. » يعنى فجأه الأمر الحق الذى ليس فيه شك وهو الوحى من الله ، كما أنه قال : (يا محمد انت رسول الله) ولو كان الذى جاءه هو الله كما يظن لقال : (أنت رسولى) . وفى رواية البخارى عن الســيدة عائشة انها قالت : (حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقـال ...) فهذه الرواية لحديث السيدة عائشة ، وهو نفس الحديث الذى رواه الزهرى بصيغة مختلفة وأورده المؤلف ، دلالة واضحة على معنى كلمة « الحق » لأنها قبلت : « فجاءه الملك » . فالحق هنا كما قال ابن حجر العسقلانى فى شرحه لصحيح البخارى هو (الأمر الحق) ، أو كما قال آخرون هو (الدين الحق) .

بنفس الطريقة ، لأن النص يقول : « فجاءني وقال » ، وكذلك فان بعض روايات جابر في شرح سورة النجم تقول ، على لسان محمد (عليه الصلاة والسلام) : « فنوديت فنظرت بين يدي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر شيئا ثم نظرت الى السماء فاذا هو على العرش .. » (١٥) (*) .

ربما كان هذا هو تفسير محمد (عليه الصلاة والسلام) الأصلي لهذه الروايات (**) ، الا أنها لم تكن بأية حال التفسير النهائي ، لأنه يتناقض مع ما ورد في سورة الأنعام ، الآية ١٠٣ : « لا تدركه الأبصار » (***) ، ومع ذلك ، فان سورة النجم ، بالرغم من أنها تحتمل هذا التفسير ، الا أنه يمكن أيضا النظر اليها بطرق أخرى ، فان التعبير « من آيات ربه الكبرى » لا تعني رؤية الله بالطبع ، ولكن يمكن فهمها على أنها تعني أن ما رآه محمد (عليه الصلاة والسلام) كان علامة أو رمزا لمجد الله وجلاله . كما توحي الآية ١١ « ما كذب الفؤاد ما رأى » والتي

---

(١٥) صحيح البخاري ، وانظر أيضا :
A. Bell, Mohammad's Call, in MW, xxiv, 1934, pp. 13-19.
وانظر أيضا :
Nöldeke — Schwally, I, 23 & Ahrens, Muhammad, 39 f.

(★) لم يقل أحد من المسلمين المتقدمين والمتأخرين أن قول رسول الله ﷺ « هو » مقصود به الله . فاذا كان « هو » من أسماء الله الحسنى ، فانه في نفس الوقت ضمير اشارة للغائب . وفي رواية أخرى لجابر بن عبد الله يقول فيها نقلا عن رسول الله ﷺ : « فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض » وهي تدل صراحة على أن الذي رآه الرسول عليه الصلاة والسلام هو جبريل وليس الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا .

(★★) هذه الروايات عن بدء الوحي وظهور جبريل عليه السلام للرسول عليه الصلاة والسلام ليست رؤى منامية كما يشير اليها المؤلف وانما كانت في اليقظة لانها لو كانت رؤى منامية لما فزع منها رسول الله ﷺ كما ذكر .

(★★★) يتحدث المؤلف عن رسول الله ﷺ كما لو كان يفسر القرآن برايه هو ، ونسى انه قال منذ اسطر قليلة ان سورة النجم تقول : (وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى) . ولم يعلم ان رسول الله ﷺ قال : من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد اخطأ (رواه ابو داود والترمذي والنسائي) . وقال ايضا : من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار (رواه ابو داود) . ولم يرد في اي من التفاسير التي رجعت اليها وهو تفسير القرطبي والفخر الرازي والالوسي وابن كثير أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد فسر آيات سورة النجم على أن المرئي هو الله ثم عاد فأنكر ذلك — (المترجم) .

ربما أضيفت فيما بعد (*) (١٦) ؛ بتطور آخر فى هذه النظرية ، بمعنى أنه بينما أدركت العينان العلامة أو الرمز ، أدرك القلب الشيء المرموز ·

فاذا كان محمد (عليه الصلاة والسلام) قد فسر الرؤية فى البداية على أنها رؤية الله مباشرة ، فان هذا يتضمن أنه بالرغم من أن تفسيره لم يكن دقيقا تماما الا أنه لم يكن مخطئا فى الأساسيات (**) ، وربما كان يحسن بنا أن نترجم الآية بحيث نقول : « لم يخطىء القلب فيما رأى الانســـان » . وبهذه الطريقة يمكننا أن نتفادى أن يكون المرئى هو جبريل (***) ، وهو أمر مخالف للتاريخ ، كما يمكننا أيضا أن نتفادى التناقض مع النظرة الاسلامية فى أن محمدا لم ير الله (١٧) ·

هذا التفسير المنهجى للرؤية ليس له أهمية كبيرة بالنسبة لحياة محمد (عليه الصلاة والسلام) بقدر ما له أهمية فى تطوره الدينى · وسنتناول ذلك عند حديثنا عن « أنت رسول الله » .

(يرى كارل آرنز (١٨) Karl Ahrens أن التعبير « رسول كريم » (التكوير ، ١٩) هو الذى ذكر من قبل باسم « الروح » . ويدلل

---

(١٦) Bell, translation of Quran, od hoc.

(*) من المعروف ان القرآن نزل منجما ، أى متفرقا ، على مدى ثلاث وعشرين سنة هى مدة بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام · لهذا ، فان الايات التى تضمها سورة واحدة قد تكون نزلت على فترات زمنية طويلة · وهناك من الســور المكية ما فيه آيات مدنية والعكس · وفى سورة النجم ـ وهى مكية ـ آية نزلت فى المدينة هى قول الله عز وجل . « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ·· » الآية (الآية ٣٢) · ولكن لم يرد فى طبعات المصاحف القديمة ولا فى التفاسير التى رجعت اليها ما يشير الى أن الآية ١١ بالذات وهى قول الله عز وجل : « ما كذب الفؤاد ما رأى » قد أنزلت فى وقت لاحق لنزول الايات العشر التى سبقتها ، وقول المؤلف « ربما أضيفت فيما بعد » يدل على عدم التأكد من هذا الزعم الذى نقله عن ترجمة بل Bell للقرآن كما ذكر فى هامش كتابه ـ (المترجم) ·

(**) هذا الكلام مرفوض اسلاميا جملة وتفصيلا للأسـباب التى ذكرت فى التعليقات السابقة ـ (المترجم) ·

(***) المعول عليه هو النص العربى ، لا الترجمة الانجليزية التى قد لا تكون دقيقة ـ (المترجم) ·

(١٧) حديث عن عائشة فى صحيح البخارى ، ٦٥ فى ٥٣/١ ·

(١٨) Muhammad, 41.

على ذلك بأنه لا ذكر لاسم جبريل في السـور المكية وانما ذكرت « الملائكة » بالجمع فقط مثل « تنزل الملائكة والروح فيها » (القدر ، ٤) ، وأيضـا « نزل به الروح الأمين » « الشـعراء ، ١٩٣) ، وهذا الرأى يتوافق مع وجهة النظر التي ذكرتها هنا) ٠

(جـ) الاختلاء في حراء ، التحنث

ليس هناك ما يدعو الى الشك في أن محمدا (ﷺ) كان يذهب الى حراء ، وهو تل على مسافة قريبة من مكة ، سواء كان ذلك مع عائلته أو بدونها ٠ وربما كان ذلك وسيلة للهروب من حرارة مكة في موسم متعب لمن كانوا لا يسـتطيعون الذهاب الى الطائف (*) ، وتبين التأثيرات اليهودى ـ مسيحية مثل الرهبان ، أو بعض التجارب الشخصية ، الحاجة والرغبة في العزلة ٠

المعنى الدقيق لكلمة التحنث ، وكذلك اشتقاقها ، غير مؤكد بالرغم من أنه من الواضح أنها تعني نوعا من الرياضة التعبدية ، وربما كان أفضـل الآراء هو ما ذكره هـ ٠ هيرشفيلد H. Hirschfeld (١٩) أنها مشتقة من الكلمة العبرية تحنوت أو تحنوث ، والتي تعني التعبد لله ٠ ومع ذلك فربما تأثر المعنى بالأصل العربى ، فان كلمة حنث (بكسر الحاء وسكون النون) تعنى الرجوع فى قسم أو عدم القدرة على الوفاء به ، وذلك يعتبر بصفة عامة خطيئة ٠ وبالتالى فان كلمة « تحنث » تعنى « فعل ما يخرج به من الخطيئة أو الجريمة » ، وهكذا قد يكون استخدام كلمة « تحنث » هنا دليلا على أن مادتهـا قديمة وأنهـا بهذا المعنى أصيلة (٢٠) ٠

(★) ذكر ابن اسحق عن عبد الملك بن عبد الله بن أبى سفيان بن العـلاء بن حارثة قال : وكان رسول الله ﷺ يخـرج الى حـراء فى كل عـام شـهرا من السـنة يتنسك فيه ، وكان من نسك قريش فى الجاهلية ، وكذلك روى عن عبـد الله بن الزبير مثل ذلك ٠ مما يدل على أن هذا كان من عادة المتعبدين فى قريش أنهم يجاورون فى حراء للعبادة ـ (المترجم) ٠

(١٩) New researches into the Composition & Exegesis of the Quran. London, 1902, p. 10. Supported by C. J. Lyall in JRAS, 1903, p. 780.

(٢٠) وهذا يناقض رأى كيتانى ٠ Caetani, Ann, i, p. 222, n. 2.

ربما نستطيع أن نتصور هذا الملخص لما حدث قبل النداء الأول لمحمد (عليه الصلاة والسلام) وما نزل فيه من الوحي · لا شك أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) كان مدركا منذ شبابه لبعض المشاكل الاجتماعية والدينية في مكة . ولا شك أيضا أن وضعه كيتيم جعله أكثر ادراكا للانحرافات التي في المجتمع · ومن الناحية الدينية ، يمكننا أن نفترض أنه كان يدين بالتوحيد المبهم الذى كان عليه أغلب المتنورين من أهل مكة · ولكن لا بد أنه كان ، بالاضافة الى ذلك ، يتطلع الى نوع من الاصلاح في مكة · وكان كل شيء حوله يوحى بأن هذا الاصلاح يجب أن يكون دينيا ، وفي هذا الاطار الفكرى كان من الواضح أن يتعمد محمد (عليه الصلاة والسلام) السعى الى الوحدة ليلجأ الى الأمور الالهية ويؤدى بعض العبادة ، ربما طلبا للتكفير عن الخطايا · وربما سبقت بعض الممارسات الدينية هذه (الخلوة) ولكننا لا نعرف شيئا عنها · وتذكر الروايات التقليدية أن الرؤى أتت أثناء الخلوة ، ولكن التواريخ المقارنة للأحداث المختلفة في بعثة محمد (عليه الصلاة والسلام) ليست مؤكدة بصفة عامة · فأحيانا يقال ان الظهور (*) لم يكن متوقعا ، وفي أحيان أخرى يبدو أن خديجة (رضى الله عنها) ، لم تكن بعيدة (**) ·

(د) « أنت رسول الله »

وردت جملة « أنت رسول الله » أربع مرات في الفقرات (ب) ، (جـ) ، (د) ، (ط) من حديث الزهرى · قالها جبريل في المرتين الأخيرتين ، وفي المرة الأولى قالها « الحق » ، وفي الثانية ذكر بصيغة الغائب « فجاءنى » ، وتختلف الملابسات في الحالات الأربع ، فهل هذه مجرد روايات أربع لحادثة واحدة ولكن اختلفت الألفاظ بطريقة أو أخرى ؟ ونظرا لأن جبريل لم يذكر في القرآن الا بعد فترة طويلة ، فان ذكره في

(*) يقصد ظهور الملك للرسول عليه الصلاة والسلام ـ (المترجم) ·

(**) يقصد لم تكن بعيدة عن توقع ما حدث للرسول عليه الصلاة والسلام ـ (المترجم) ·

هذه المرحلة المبكرة مشكوك فيه (*) . ظاهريا يمكننا أن نصنف هذه الأخبار صنفين على الأقل : (ب) وربما معها (جـ) تصفان النداء الأصلي له بأنه رسول ، بينما يبدو أن (د) ، (ط) كانا تأكيدين لذلك ليطمئن في وقت كان فيه قلقا .

اذا كانت الفقرة (ب) تشير الى النداء الأصلي ، فما العلاقة بينها وبين الرؤى ؟ لقد جاء وصف الرؤية الأولى في سورة النجم في آية تفند اعتراضات معينة أثارها أهل مكة ضد الموثوقية في الوحي الذى نقله محمد (عليه الصلاة والسلام) اليهم ، ومعنى ذلك أنه كان قد أعلن بعض ما أوحى به اليه على الأقل وربما اكثر . فالحديث عن الرؤية في هذا السياق يبين انه لابد أن يكون للرؤية علاقة بتلقى الوحى ، ومع ذلك فليس هناك ما يدل على ان الرؤية قد صاحبها تلقى آيات معينة ، بل اننا اذا ناقشنا أكثر من آيتين نجد أن ذلك مستحيل . ويبدو أن النتيجة العامة للرؤية شيء اكثر عمومية مثل التأكيد على أن هذه الآيات كانت رسائل من الله . وربما التأكيد أيضا على أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) قد أمر باعلانها ، وهذا يعنى الافتراض المسبق بأن محمدا (عليه الصلاة والسلام) قد تلقى الوحى بالفعل عدة مرات . ولكنه لم يكن واثقا من حقيقة طبيعة هذه الكلمات التى جاءت اليه ، أما الآن فقد أخبر بذلك وجاءه التأكيد . أو يمكننا أن نعتبر الرؤية نداء كى يلتمس الوحى ، وربما كان محمد يعرف شيئا عن طرق استقرائه (**) . ولكن الرأى الأول أكثر احتمالا بصفة عامة ، ويتفق مع هذا الرأى وجهة النظر (٢١) التى تقول

(★) الحديث الذى يشير اليه المؤلف رواه الزهرى عن السيدة عائشة رضى الله عنها . والسيدة عائشة لم تروِ الأحاديث عن رسول الله الا بعد وفاته ﷺ اى بعد ٢٣ عاما من الأحداث التى يعلق عليها المؤلف ، وهى مدة كافية لأن يعلم الرسول ان الملك الذى جاءه فى حراء كان جبريل ، وبالتالى يخبر السيدة عائشة بهذا الخبر الذى روته عنه . فليس هناك اذن اى ارتباط بين عدم ذكر اسم جبريل فى السور الأولى من القرآن وبين ذكره فى هذا الحديث ، لأن الفاصل الزمنى بينهما طويل .

(★★) عندما انقطع الوحى عن الرسول ﷺ حزن حزنا شديدا وكاد يقتل نفسه كما سبق أن أورد المؤلف (لا داعى للادعاء بأنه كاد يقتل نفسه . فالرسول لا يفكر فى هذا الاتجاه) . ومعنى هذا أن الوحى يأتيه فجأة . (المترجم) .

(٢١) Mohammed's Visions, R. Bell.

ان ما ألهم به أو أوحى اليه به كان « الخط العملي للهدى » الذى كان يتبعه بالفعل . فاذا كان الهدف من الرؤية شيئا عاماً ، فان هذا يناسب تماما الفقرة ب . من المحتمل أن تكون الكلمات « أنت رسول الله » لم تكن كلاما خارجيا ، بل ربما لم تكن حتى كلاما تخيليا ، وانما كلام ذهني ، بمعنى أنه لم يسمع بأذنيه ولا حتى تخيل نفسه يسمع ، وانما كانت هذه الكلمات نوعاً من الاتصال الذى أتاه من غير كلمات (٢٢) . بل ربما صيغت الكلمات بعد الرؤية الفعلية بزمن طويل .

هل يمكن تكرار مثل هذه التجربة ؟ ان ذلك ليس مستحيلا . وربما يتضمن الاقتران بين رؤيتين في سورة النجم بعض التشابه في المضمون ، ومن ناحية أخرى لم يذكر الوحى في الرؤية الثانية وانما ينظر اليها دائما على أنها تشير الى الجنة . لا تقدم الفقرات (جـ) ، (د) ، (ط) الكثير من المساعدة . فالأخيرتان لا تعتبران نداء لمحمد (عليه الصلاة والسلام) بقدر ما أنهما اعادة التأكيد له وتذكيره بالنداء الأصلي . ومن الطبيعي أن نفترض أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) كان يتذكر الرؤية الأولى في الأوقات التى كان يشعر فيها باليأس . وربما كان التفكير فيها يلمع في عقله في اللحظات الحرجة ويعزوها الى قوة عليا ، ومهما كانت الحقائق حول هذه الذكريات فانها ليست في أهمية التجربة الأصلية .

(هـ) « اقــرأ »

هناك روايات عديدة لحديث نزول الوحي بسورة العلق ، ذكرت احداها في الفقرة هـ المروية عن الزهرى . في هذه الرواية نفهم قول محمد (عليه الصلاة والسلام) « ما أقرأ » ردا على قول الملك « اقرأ » على أنه يعنى « لا أستطيع القراءة » ، ويؤكد ذلك الرواية الأخرى التى تقول : « ما أنا بقارىء » (٢٣) (لا أستطيع القراءة) وتمييز ابن هشام

---

(٢٢) انظر القسم الخامس وكتاب Graces of Interior Prayer للمؤلف بولان A. Poulain ، لندن ١٩٢٨ ، صفحة ٢٩٩ .

(٢٣) البخارى ، ٦٥ ، وسورة العلق (٩٦) .

بين « ما اقرأ » و « ماذا اقرأ » حيث لا يعنى التعبير الأخير الا « ماذا سأقرأ » ، وهذا المعنى أيضا هو المعنى الأكثر ملاءمة للتعبير « ما أقرأ » . ويكاد يكون من المؤكد أن أهل الحديث المتأخرين قد تجنبوا المعنى الطبيعى لهذه الكلمات ليعززوا الاعتقاد بأن محمدا (عليه الصلاة والسلام) لم يكن يستطيع الكتابة ، وهذا الاعتقاد جزء من اثبات الطبيعة المعجزة للقرآن . وتتطلب رواية الحديث عن عبد الله بن شداد فى شرح الطبرى (٢٤) ، اذا كان المتن صحيحا ، ان تؤخذ كلمة « ما » بمعنى « ماذا » لأنها مسبوقة بحرف « الواو » (*) .

تنتمى كلمتا « قرأ » و « قرآن » الى مجموعة المفردات الدينية التى أدخلتها المسيحية فى شبه الجزيرة العربية ، فكلمة قرأ تعنى « تلا بوقار نصا مقدسا » ، وأما كلمة « قرآن » فهى الكلمة السريانية « كريانا queryana » التى تعنى « القراءة » أو « درس من الكتاب المقدس » (٢٥) (**) .

ونستطيع أن نفترض أن الفعل « اقرأ » يعنى فى هذه السورة « اتل من الذاكرة » ، أى ما قد بلغ اليه بأسلوب خارق للطبيعة . لمن يتلو محمد (عليه الصلاة والسلام) وفى أية مناسبة ؟ لم تناقش الأحاديث هذا السؤال بوضوح . والتفسير الأكثر ملاءمة أن يتلو محمد (عليه الصلاة والسلام) ما أتاه كجزء من صلاته لله (عز وجل) . وهذا المعنى يطابق الاستخدام السريانى للكلمة كما يؤكده أن المسلمين لازالوا يقرءون سورة أو سورا فى صلاتهم أو عبادتهم . ويلاحظ فى رواية عبد الله

---

(٢٤) الجزء ٣٠ ، الصفحة ١٣٩ ، وتختلف قليلا عما ورد فى الحوليات . الجزء ١ ، الصفحة ١١٤٨ . (المؤلف) .

(*) ان واو العطف هنا عطفت (ما) على كلمة تعنى (ماذا) وبالتالى أصبح معنى (ما) ايضا هو (ماذا) وجعل لها مقابلا انجليزيا هو What .

(**) اللغة العربية من ضمن مجموعة اللغات السامية ، وهذا التشابه فى الكلمات من باب (المشترك) بين اللغات السامية ولا يعنى بالضرورة ان لغة اخذت من الأخرى . أما عن تأثير المسيحية واليهودية فى العرب قبل الاسلام فقد كان لكلا الدينين وجود ، وكان بعض العرب على المسيحية أو اليهودية . وقد تعرض القرآن الكريم لهذه الأديان .

(٢٥) Bell, Origin, 90 f., Nöldeke - Schwally, i, 82.

ابن شداد المشار اليها سابقا ، أن الاجابة على السؤال : « ماذا أقرأ ؟ » لم تكن كما وردت فى معظم الروايات الأخرى « اقرأ باسم ... » وانما « بسم ... » فقط ، هل يمكن أن يكون ذلك ارهاصا (*) بالبسملة ؟

لا توجد اعتراضات ذات قيمة لما اتفق عليه العلماء المسلمون من أن هذه السورة هى أول ما أوحى من القرآن . ولا توجد آيات يمكنها أن تعارض سورة العلق بأية فرصة من النجاح (٢٦) ، ومن الطبيعى أن نتوقع أن الأمر بالعبادة هو أول ما يأتى بالنظر الى الاتجاه العــام للرســالة الأساسية للقرآن (٢٧) . وجه الأمر « اقرأ » الى محمد (عليه الصلاة والسلام) وحده ، وبالرغم من أنه لا توجد صعوبة فى أن يتسع الأمر ليشمل أتباعه الذين يقتدون به ، الا أننا نستطيع أن نتصور أن مبدأ وجود أتباع له لم يخطر بباله عندما أوحيت اليه هذه السورة ، أى أنها قد تنتمى الى مرحلة سبقت دعوته للآخرين . كما لا نستبعد ، بالطبع ، امكان تلقى محمد (عليه الصلاة والسلام) لرسائل أخرى لم يعتبرها من القرآن ، مثل « أنت رسول الله » التى وردت فى الحديث .

(و) سورة المدثر ، الفترة

هناك حديث عن جابر بن عبد الله الأنصارى أن الآيات الأولى من سورة المدثر كانت أول الوحى ، وقد يبدو ذلك مناسبا لأن فيها « قم فانذر » ، وهذا القول يبدو كما لو كان أمرا للقيام بمهمة الرسول ، وكان يمكن أن تكون هذه الآيات أول الوحى لو أن محمداً (ﷺ) قد بدأ الدعوة العلنية فجاة وبدون فترة اعداد ، ولكن لو وجدت هذه الفترة الاعدادية ، وكان فيها وحى ، فان هذا يعنى أن سورة المدثر لا يمكن أن تكون أول الوحى ، ولقد رأينا أن « اقرأ » لا تستلزم بالضرورة الدعوة العامة . ولكن من ناحية أخرى ، فان استمرار وجود هذا الحديث ، بالرغم من الاتفاق العــام منذ زمن بعيد أن ســـورة العلق هى أول

(*) ارهاصات : اشارة غيبية تصدق فيما بعد (المغنى الكبير) — (المترجم) .

(٢٦) Bell, Origin, 90 f ; Cf. Nöldek-Schwally, i, 82.

(٢٧) انظر الفصل الثالث .

الوحي (*) ، يعطي احساسا بأن فيه قدرا من الحقيقة ، وأكثر الآراء احتمالا أنها تحدد بداية الدعوة العلنية .

هناك دلائل قوية في الأحاديث على أن هناك تميزاً بين الدعوة العلنية (**) والدعوة السرية . كتب ابن اسحق (٢٨) : « ثم أمر الله نبيه ، بعد ثلاث سنين من البعثة ، بأن يعلن ما جاءه منه وأن يسمع الناس كلمة الله ويدعوهم اليها » . وقد أخبرنا في موضع آخر أن الوحي كان يبلغ الى محمد (عليه الصلاة والسلام) على لسان اسرافيل لمدة ثلاث سنين قبل السنين العشر التي كان الوحي يأتيه فيها على لسان جبريل (٢٩) (***) .

وتوصف بداية السنين الثلاث أحيانا بمجيء النبوة وبداية السنين العشر بمجيء الرسالة (٣٠) . ونظرا للاجماع الكبير على هذا الحديث والاحتمال القوي لصحته ، يمكننا أن نقول انه كان هناك فرق بين المرحلتين اللتين مرت بهما دعوة محمد (عليه الصلاة والسلام) ، وأن التواريخ الواردة صحيحة تقريبا ، ولكن من الصعب أن نقول ما طبيعة الفرق بالضبط ، لأن المسلمين الأوائل دخلوا في الاسلام ، كما يقال ، في الفترة الأولى .

(*) يتجه المفكرون المحدثون الى الجزم بان آيات سورة العلق كانت أول ما نزل من القرآن الكريم ، ولم يفهم الرسول منها ماذا يطلب منه حتى نزلت سورة المدثر وفيها أمر بأن يبدأ الدعوة (قم فانذر) فشرحت سورة المدثر ما كان خافيا — (المراجع) .

(**) الصحيح أن الدعوة العلنية بدأت عندما نزل قوله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » (سورة الحجر ، الآية ٩٤) — (المراجع) .

(٢٨) ١٦٦ ، ٠٩ هـ ، وأيضا حوليات الطبري ١١٦٩ (المؤلف) .

(٢٩) الطبري ، ١٢٤٨ وما بعدها .

(***) قال الامام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي عن داود بن أبي هند عن عامر الشعبي أن رسول الله ﷺ نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته اسرافيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل القرآن ، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة ، عشرا بمكة وعشرا بالمدينة ، فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة — (المترجم) .

(٣٠) Caetani, Ann. I, 218-220.

يزيد الأمر تعقيدا بوجود الفترة ، أو انقطاع الوحي ، كما ذكرنا في الفقرة (ط) ، واذا قارنا ما ذكر في الفقرتين (ى) و (ك) مع رواية الزهرى عن جابر (٣١) برواية نفس الحديث عن جابر التي رواها يحيى ابن أبي كثير (٣٢) ، يبدو واضحا أن الزهرى قد أدخل « الفترة » ليوفق بين هذا الحديث والقول بأن سورة العلق كانت أول ما جاء . ومع ذلك ، فان هناك دليلا آخر على حدوث « الفترة » ، فان ابن اسحق يجعلها قبل نزول سورة الضحى (٣٣) (*) ، واحتمالات حدوث مثل هذه التجربة أمر قائم ، ولكن من غير المحتمل أن تكون قد استمرت ثلاث سنين كما يقال أحيانا ، وربما كان هذا الرقم نتيجة للبس بين هذه الفترة وفترة الدعوة السرية . وتشير هذه الاعتبارات الى أنه ربما كانت هناك فترة انقطاع في ممارسة محمد (عليه الصلاة والسلام) الدينية ، ولا يعتبر ظن الزهرى (والذى آخذ به) أنها كانت قبل بدء الدعوة العامة مباشرة دليلا قويا ؛ ولكنها محتملة جدا .

تؤخذ كلمة « مدثر » عادة على أنها تعني « مغطى بدثار » (أو دثار (بدال مفتوحة) ، فاذا كان هذا المعنى صحيحا فان فعل ذلك له علاقة ما بتلقي الوحي ، فربما يكون ذلك لحث الوحي أو ، وهو الأكثر احتمالا ،

---

(٣١) الطبرى ، ١١٥٥ وما بعدها .

(٣٢) ابن هشام ، ١٥٦ .

(٣٣) ابن هشام ، ١٥٦ .

(★) ورد ذكر فترة انقطاع الوحي في أحاديث رواها البخارى عن السيدة عائشة (وهو الذى رواه أيضا الزهرى ويتناوله المؤلف بالدراسة والتحليل) وابن شهاب عن جابر بن عبد الله ونصه : (قال جابر بن عبد الله وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه (يعني الرسول عليه الصلاة والسلام) : بينا انا أمشي اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني زملوني فأنزل الله : يا أيها المدثر قم فأنذر ... الآيات من ١ ـ ٥ من سورة المدثر . فحمى الوحي وتتابع .

نرى من هذا الحديث أن جابرا رضى الله عليه عندما قال ان أول ما نزل من الوحي هو أول سورة المدثر كان بعد فترة انقطاع الوحي وليس أول ما نزل مطلقا ، وذلك مطابق لما ورد في الروايات الأخرى من وقوع فترة انقطاع الوحي .

لحماية المتلقى الآدمى من خطر التجلى الالهى (٣٤) (*) ، ومن ناحية أخرى طورت ألفاظ معينة ــ بشكل مجازى ــ فكرة (التغطية) فأصبحت تطلق على شخص غامض أو غير مشهور · وهذا المعنى لا ينطبق على محمد ﷺ . فهو وفقاً لمعايير أهل مكة لم يكن ــ نسبياً ــ شخصاً قليل الأهمية ·

هذه الصورة التى كوناها توضح اذا ما سقنا هذه التفاصيل غير المؤكدة فى سياق واحد ــ أن مسار الأمور كان كالتالى أو شيئا قريبا منه : كانت هناك مرحلة يمكن أن نطلق عليها مرحلة الاعداد (اعداد محمد ﷺ لتحمل مهام النبوة) ، وقد استمرت هذه المرحلة ثلاث سنين ، وفى هذه المرحلة كان قد بدأ يتلقى وحيا من نوع ما · وفى الأحاديث التى ورد فيها ذكر اسرافيل ما يفيد أن محمداً ﷺ كان يسمع صوتا ولا يرى جرما (٣٥) (**) ، ويمكن أن نرجع القسم الأول من سورة العلق وسورة الضحى الى هذه المرحلة ، وقد يكونان (جزءا سورة العلق والضحى) أيضا من نوع الوحى ذى الطبيعة الخاصة (الموجه لمحمد ﷺ خاصة) الذى لم يعتبره محمد ﷺ جزءا من القرآن الكريم (كيف هذا ؟ هذه غير مفهومة ، واذا كان الأمر كذلك فلم نجد آيات السورتين فى مصاحفنا ؟ ــ المترجم) · وعند نهاية هذه السنين الثلاث ، كانت الفترة (وهو المصطلح الذى يعنى انقطاع الوحى) ، وقد يكون الانتقال من خصوصية الوحى (أى توجيهه للرسول ﷺ دون تكليفه بابلاغه) الى عموميته (أى توجيهه لمحمد ﷺ وتكليفه بابلاغه الى أهل مكة) هو الوقت المناسب للرؤى ، ففى هذه الفترة الانتقالية خاطب الوحى محمداﷺ باعتباره (رسول الله) ، وفى هذه المرحلة الانتقالية نزلت سورة المدثر (رغم أن ارتباطها بالرؤى فى الروايات المتداولة لا يعد برهانا كافيا بسبب الانفصال الذى يحول بيننا وبين فهم طبيعتها المركبة) ويمكن للمرء أن يتوقع أن محمدا ﷺ تكلم فى المسائل الدينية مع أصدقائه المقربين خلال فترة الاعداد ، لكنه أمر غريب

---

(٣٤) انظر تولدكه ــ شفالى ، ١ ، ٩ ؛ وفلهاوزن Reste ١٢٥ ·

(*) لا هذه ولا تلك ، فالوحى لا يستحث ولا يستحضر برغبة الانسان ، ولو كان الأمر بهذه البساطة لما حزن الرسول عليه الصلاة والسلام لانقطاع الوحى · أما الاحتمال الثانى ، فهو بعيد لأننا الله سبحانه عندما تجلى للجبل جعله دكا ، كما فى قصة سيدنا موسى كما وردت فى القرآن الكريم ·

(٣٥) الطبرى ، ١٢٦٩ ، ٥ ·

(**) يقصد التفاصيل لا المسار العام للحوادث ·



أن يكون هناك نقاش قبل تكليف محمد ﷺ بابلاغ الدعوة (سرا أو جهرا) لأهل مكة . لهذا ؛ فهناك شك فى كثير مما ينسب الى هذه المرحلة (مرحلة الاعداد) فى الروايات التقليدية .

(ز) خـــوف محمــــد ويأســـه

وفى نصوص منقولة عن الزهرى اشارات متتالية الى مشاعر الخوف وما شابهها عند محمد ﷺ . ويمكن تمييز تجربتين خاضهما الرســول ﷺ . الأولى الخوف من تجربة الوحى ، والثانية يأسه الذى أدى به الى التفكير فى الانتحار (*) .

أما الخوف من الاقتراب من عالم الغيب Divine ، فله جذور عميقة فى الوعى لدى الشعوب السامية ، وهناك شواهد على ذلك فى التوراة . والروايات التى تذكر هذا تبدو معتمدة فى الأساس على شرح كلمات سورة المزمل :

(يا أيها المزمل (١) قم الليل الا قليلا (٢) نصفه أو انقص منه قليلا (٣) أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا (٤) انا سنلقى عليك قولا ثقيلا (٥) ..) الخ ، السورة ٧٣ (المزمل) .

وهذا يعنى أن المفسرين الذين أتوا بعد ذلك لم يكونوا يعتمدون فى عزوهم الخوف الى محمد ﷺ الا على النص القرآنى . والانتقال المربك بين (زملونى) و (المدثر) يبين أن تفسير (المزمل) لم يكن فى الأساس مرتبطا بقصه اعلان محمد ﷺ لنبوته ، وأن التفسير اعتمد ــ فقط ــ على السياق . ومن ناحية أخرى ، فانه ان بدا طبيعياً لهؤلاء المفسرين المتأخرين زمنا أن يشرحوا (المزمل) بهذه الطريقة ، فهذا الخوف من بداية الوحى لا بد وأن يكون قد انتشر (بين الناس) ، وأن محمدا ﷺ نفسه قد شارك فى انتشاره . هذا كله ما يمكننا قوله .

(*) تكررت فكرة الانتحار فى كلام المؤلف وهى فكرة مرفوضة تماما ، فالرسول ﷺ لم يعـرف اليأس وان كان يتطلع الى المزيد من المعرفة ، وفى هذه الرحلة وجدت الدعوة الفردية وهى دعوة الأصفياء حول الرسول ــ (المراجع) .
(زاد المعاد ، جـ ١ ، ص ٢٠) .

والشعور باليأس يمكن أن يكون موازيا لما حدث لأنبياء العهد القديم ، وما حدث في حياة القديسين ، فالقديسة تريزا (من أفيليا Avelia) كتبت تقول : « الكلمات ، بتأثيراتها والتأكيدات التي تحويها تقنع الروح في اللحظة أنها آتية من الرب ، وعلى أية حال ، ففي ذلك الوقت ، الذي هو الآن ماض ، يظهر الشك ، فيما اذا كانت هذه الكلمات تأتي من الشيطان أو من الخيال ، رغم أنه عند سماع هذه الكلمات ، لم يكن الانسان ليشك في صدقها بحيث تكون ـ أي تريزا ـ مستعدة للموت دفاعا عنها » (٣٦) .

وعلى أية حال ، ففكرة الانتحار يمكن ـ بشق النفس ـ عزوها الى محمد ﷺ ، فمادام النبي لم يذكر ذلك عن نفسه فمن الصعب أن نعزوها اليه ، فهذا تجاوز في شرح سورة الضحى :

(والضحى (١) والليل اذا سجى(٢) ما ودعك ربك وما قلى(٣) وللآخرة خير لك من الأولى (٤) ولسوف يعطيك ربك فترضى (٥) ألم يجدك يتيما فآوى (٦) ووجدك ضالا فهدى (٧) ووجدك عائلا فأغنى (٨) فأما اليتيم فلا تقهر (٩) وأما السائل فلا تنهر (١٠) وأما بنعمة ربك فحدث (١١)) .

وأكثر من هذا ، فان فترة اليأس قد تكون متلائمة مع الروايات التي تحدثنا عن (الفترة) وهي المدة التي انقطع فيها الوحي عن الرسول ﷺ . وعلى هذا ، فان ذلك يعطينا ـ فيما يبدو ـ بعض المعلومات الحقيقية عن محمد ﷺ .

(ح) خديجة وورقة بن نوفل يشدان من أزر محمد (ﷺ)

ليس من سبب يجعلنا نرفض الرواية القائلة ان خديجة قد شدت من أزر محمد ﷺ ، فمن الواضح أن محمدا كانت تنقصه في هذه المرحلة الثقة بالنفس (*) ، فالصورة العامة لا يمكن أن تكون مبتدعة رغم أن

(٣٦) Interior Castle, Sixth Mansion, iii, 12. quoted from Poulain, Graces of Interior Prayer, 304 f.

(*) هذا التعبير مرفوض ، فثقة الرسول ﷺ بنفسه وبربه كانت واضحة دائما وفي أصعب الأحوال كغزوة أحد ـ (المراجع) .

التفاصيل قد يكون لحقتها اضافة نتيجة الاستنتاج الخاطىء أو بفعل التخيل .

وشد أزر ورقة بن نوفل لمحمد كان بالاضافة لجهود خديجة أمرا مهما . وليس هناك سبب قوى يدعونا للشك فى صحة العبارة التى وردت بها كلمة (الناموس) على لسان ورقة . فاستخدام هذه الكلمه غير القرآنية ـ بدلا من كلمة التوراة القرآنية ـ دليل على صحة هذه الرواية . ومن ناحية أخرى ، فان بقية الرواية تبدو لشرح موقف ورقة الذى لم يتحول للاسلام رغم تصديقه لمحمد ﷺ ، ولسبب قريب من هذا كانت الرواية التى جعلت محمدا يقابل ورقة أفضل من تلك التى جعلته لم يقابله . وأكثر من هذا ، فبعض الروايات تجعل موت ورقة بعد بعثة محمد بعامين أو ثلاثة ، وأخرى تزيدها الى أربعة (٣٧) .

وكلمة الناموس ـ عادة ما ينظر اليها على أنها من الكلمة اليونانية نوموس Nomos (٣٨) التى تعنى الشريعة أو الكتاب الموحى به ؛ وبالتالى فهى ملائمة تماما للحديث عن موسى (كما ورد فى حديث ورقة) فملاحظة ورقة اذن كانت موجهة لمحمد ﷺ عند تلقيه الوحى ، وربما كانت هذه الملاحظة تعنى أنه مادام محمد قد تلقى هذا الوحى فانه مثل موسى وعيسى وأن ما نزل عليه مماثل للتوراة والانجيل ، أو على الأقل على الدرجة نفسها أو من النوع نفسه . وهذه الفكرة التى ذكرها ورقة قد تشير أيضا الى أن محمدا لابد أن يكون مؤسسا أو مشرعا لأمة (أو لجماعة أو لمجتمع Community) . واذا كان محمد فى مرحلة تردد ـ وهذا ما يبدو معقولا ـ فان هذا التشجيع الذى لاقاه لابد أن يكون ذا أهمية عظمى فى تطوره الداخلى (نموه النفسى) .

وثمة صعوبات طفيفة فيما يتعلق بترتيب الحوادث ، فالآيات الأخيرة من أول ما نزل من الوحى (... الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) والتى تشير بتأكيد غالب لوحى سابق ، عادة ما يفسر المسلمون آية (الذى علم بالقلم) على أنها تعنى الذى علم الانسان كيف يستخدم القلم ، لكن هذا التفسير لا يوجد ما يدل عليه خاصة اذا كان محمد ﷺ

(٣٧) Caetani- Ann, i, pp. 238, 260.

(٣٨) Ibid, p. 222, n. 6.

لا يعرف القراءة والكتابة · والآن ، فمن بين الرجال الذين عرفناهم مع محمد ﷺ فان ورقة كان على صلة وثيقة بمحمد وكان معروفا بدراسته للأناجيل (٣٩) · فهذه الآيات القرآنية الآنف ذكرها (اقرأ ···) كانت تذكر محمدا ﷺ عند قراءتها بما هو مدين لورقة بن نوفل به · انه لأمر مغر أن نفكر أنها نتيجة ملاحظة ورقة عن الناموس لكن هذا يتطلب وحيا قبل سورة اقرأ لتكون أساسا لهذه الملاحظة · ومن الأسهل أن نفترض أن محمدا كان على صلة متتابعة بورقة بن نوفل منذ فترة مبكرة سابقة على الوحي · والأفكار الاسلامية اللاحقة قد تكون اختلطت الى حد كبير بأفكار ورقة ، كعلاقة الوحي الذى نزل على محمد ﷺ بالوحي الذى نزل على موسى وعيسى (عليهما السلام) ·

خـــاتمة

وعلى هذا ، فهناك الكثير مما هو غير مؤكد حول الظروف المحيطة بنزول الوحي على محمد ﷺ فالتمحيص الدقيق للروايات الأولى يصل بنا الى صورة عامة يمكنها أن تكون محل ثقتنا ، لكن حتى بالنسبة لكثير من التفاصيل خاصة التواريخ النسبية للظواهر المختلفة ، فانها لا بد أن تبقى غير مؤكدة ·

٥ ـ اشكال وعي محمد ﷺ بنبوته

منذ القى كارليـــل Carlyle محاضرته عن محمد ضمن سـلسلة محاضراته عن الأبطال والبطولة ، أصبح الغرب على وعي بوجود أساس طيب للاعتقاد فى اخلاص محمد ﷺ (٤٠) · فاستعداده لتحمل الاضطهاد فى سبيل معتقداته ، وسمو الرجال الذين آمنوا برسالته والذين اعتبروه قائدا لهم ، وعظمة ما تمخضت عنه جهوده من انجازات ـ كل هذا يبرهن على تكامله الأساسي (نظرته الكلية) · لقد تصور الغرب محمدا دجالا أثار من القضايا أكثر مما قدم من الحلول ، وأكثر من هذا فلا أحد من عظماء التاريخ لاقى من الغبن والظلم فى الغرب مثلما لاقى محمد ﷺ ، فالكتاب

(٣٩) ابن هشام ، ١٤٣ ·

(٤٠) Tor Andrae, Mohammad, the man and his faith, London 1936, pp. 63, 69, 229, 233, 259, 268 ; W. Thomson in MW. xxxiv, 1944, pp. 129 f.

الغربيون يكادون يكونون منذفئين على الاعتقاد في كل امر يشين محمدا ﷺ ، فاذا ظهر لهم تفســير كريه لفعل يبدو معقولا ومنطقيا مالوا الى تصديقه . وعلى هذا ، فاذا كان علينا أن نفهم محمدا ﷺ ككل متكامل ، وأن نصحح الأخطاء التي ورثناها عن الماضي فلابد أن نؤمن باخلاصه وصدقه الا اذا ثبت العكس ، ويجب ألا ننسى أن البرهان الأخير (النتيجة النهائية) تتطلب استقامة أكثر بكثير ممـا يتطلبه استعراض المعقـولية (القابلية للتصديق) . فنظريات الكتاب الغربيين التي تفترض افتراضا مسبقا أن محمدا ﷺ غير صادق لن نناقشها كنظريات ، ومع هذا فسنناقش هنا الأدلة التي سيقت للدلالة على عدم صدقه .

واذا كان الأمر كذلك ، فاننا نكون قد حللنا المعضلة على قدر الطاقة فيما يتعلق بصدقه واخلاصه ﷺ ، ويجب أن نميز بين القرآن والشعور الواعي العادي لمحمد ﷺ مادام هذا الفصل يعد أمرا ضروريا بالنسبة له . ومن البداية لابد أن محمدا ﷺ قد ميز بشكل واضح بين ما يأتيه وحيا ــ كما يعتقد ــ وبين ما ينتجه عقله الواعي . أما كيف كان يميز بينهما ، فهذا أمر غير واضح تماما ، لكن الحقيقة التي صنعها محمد ﷺ مؤكدة كأي شيء في التاريخ . اننا لا نستطيع بأي درجة معقولة أن نتخيله يقحم آيات من تأليفه بين الآيات الموحاة اليه (الآيات الآتية اليه من مصدر خارج عن شعوره كما يعتقد) . وعلى أية حال ، فربما يكون محمد ﷺ قد فعل شيئا في الوحي المنزل عليه كاعادة ترتيب الآيات الموحى بها ، وربما يكون قد حاول أن يصـــوب النص اذا أحس أن النص الموحى به يحتاج الى اصلاح (*) ، ويعتقد أهل السنة بالناسخ والمنسوخ ، أي أن هناك آيات قرآنية نسختها آيات أخرى .

أما شرح كيف كان محمد ﷺ يفصل بين ما يوحى اليه وما هو من عنده ، فمسألة أخرى ، ولأن مناقشة ذلك تتطلب الخوض في مسائل لاهوتية (متعلقة بعلم الكلام عند المسلمين) فلن نناقشها هنا . وهناك

(*) ان كان المقصود اصلاح أخطاء كتاب الوحي فلا بأس ، لكن أيصلح نبي ما انزل ربه عليه ؟ وكان الرسول ﷺ عندما يتلقى وحيا يلقيه في الحال على كتاب الوحي لتدوينه اما افكاره الخاصة فلا يفعل معها ذلك ــ (المراجع) .

ثلاث وجهات نظر فيما يتعلق بالوحي النازل على محمد ﷺ نوردها كالتالى :
يعتقد المسلمون السنة أن القرآن الكريم وحى تماما (من مصدر علوى تماما) انه كلام الله غير المخلوق (رغم أن الأحبار المكتوب بها القرآن ، والأصوات والخط على الورق ... كل ذلك مخلوق) .

ويعتقد الباحثون الغربيون العلمانيون (غير المؤمنين بالغيبيات Secularists) أن جانبا من محمد ﷺ مسئول عن القرآن الكريم ، وهذا الجانب ــ الموجود فى شخصية محمد ــ يختلف عن عقله الواعى .

ووجهة النظر الثالثة الرئيسية هى أن القرآن الكريم هو من خلق الله سبحانه (فكرة خلق القرآن الكريم) ولكنه نتج ــ من خلال ــ شخصيه محمد ﷺ ، وبهذه الطريقة فى التفكير تكون ملامح معينة أو خواص معينة من القرآن الكريم يمكن عزوها ــ أساسا ــ لبشرية محمد ﷺ . وهذه هى وجهة نظر المسيحيين الذين يؤمنون باحتواء القرآن الكريم على جانب من الحقيقة الالهية Divine truth . بالنظر الى وجهات النظر الثلاث هذه ، فاننى أحاول أن أكون محايدا مادامت هذه الوجهات من النظر تتضمن قضايا خارج نطاق عمل المؤرخ . سأحاول ــ متخليا بذلك عن الكياسة ــ أن اتحدث بأسلوب لا ينكر أية عقيدة من عقائد المسلمين ، لذا فسأقول (ان القرآن يقول) ولن أقول (ان محمدا يقول ناسبا بذلك آيات القرآن الى محمد ﷺ) . ومن ناحية أخرى ، فعندما أشير الى آية قرآنية فلن أربط هذه الاشارة بأية وجهة نظر من وجهات النظر الآنف ذكرها ، وانما ساقول عبارة (كما يقول المسلمون) أو عبارة شبيهة ، فهذا لن يسبب اى ارباك .

أما وقد فصلنا الآن بين الأمور التاريخية والأمور اللاهوتية (المتعلقة بعلم الكلام) ؛ فانه يصح للمؤرخ أن يضع فى اعتباره الشكل الدقيق (المحدد) لوعى محمد ﷺ بتجربة الوحي هذه (تجربة نزول الوحى عليه أو تجربة تلقيه الوحى) كيف بدا الوحى له ؟ وكيف وصفه ؟ تلك حقائق تاريخية موضوعية حتى لو كانت مرتبطة بوعى محمد ﷺ وحتى لو كان وصفه لها ربما ارتبط بوجهات نظره السابقة . والنقطة الأولى الجديرة بالملاحظة هى أن الرؤى الموصوفة فى سورة النجم تعد استثناء من ذلك ،



نظرا لطريقة وصفها الخاصة · وعلى هذا ، فلابد لنا من البحث فى مصادر أخرى عن الشكل العادى (أو الأشكال) فيما يتعلق بوعى محمد ﷺ بنبـــوته .

وســـيكون من المفيـــد فيما يتعلق بهذه النقطة أن نقـدم بعض المصـــطلحات الفنية التى استخدمها بولين A. Poulain فى مبحثه The Graces of Interior Prayer فسيكون هذا كافيا لأغراض بحثنا الآن · ميز بولين عند مناقشته لجوانب التجربة الدينية التى أطلق عليها : الوحى الكلامى أو الكـلام المنزل Locution والرؤى Visions ـ بين نوعين : خارجى exterior وادخـلى interior · فالوحى الكلامى من النوع الخارجى يتكون من كلمات تسمعها الأذن ، رغم أن هذه الكلمات لم تصدر بطريقة طبيعية (من فم مثلا) ، وكذلك الأمر بالنسبة للرؤى الخارجية exterior vision أو الرؤى العينية Ocular فهى رؤى لأشياء مادية (أو ما يبدو كذلك) يتم ادراكها بالعيون البشرية · والرؤى فى سورة النجم تدخل فى هذا النوع ـ أى أنها رؤى خارجية exterior . أما الوحى الداخلى بالكلمـات interior locution ، فيقســمه بولين الى : تخيلى imagenative وعقـــلى intellectual ، أمـا التخيـــلى فيتم تلقيـــه مباشرة دون مرور بالأذن اذ يمكن أن نقول انه وصل عن طريق حاسة الخيـــال imaginative sense · وأما العقلى ، فهو توصـــيل بسيط للأفكار دون استخدام كلمات ، وبالتالى لا صلة له بأية لغة محددة (٤١) . وقـــد تكـون الرؤى الداخليـــة interior visions مثـــل ذلك ، أى اما تخيلية واما عقلية (*) · ويمكننا الآن الاستعانة بهذه الأدوات لدراسة القرآن الكريم والروايات المتداولة حول الوحى ·

لقد كانت (كيفية) الوحى موضوعا للمناقشة بين العلماء المسلمين · ويذكر السيوطى فى كتاب الاتقان (٤٢) خمس كيفيات مختلفة ، وجمع

---

(٤١) Op. cit., 299 ff. naw, 16

(*) لم يطبق بولين تقسيماته هذه على تجربة محمد ﷺ ، لكن من يحـاول ذلك هو وات نفسـه ·

(٤٢) طبعة القاهرة ، ١٣٥٤ ، صص ٤٤ وما بعدها ·

الباحثون من مصادر أخرى كيفيات تبلغ عشرا (٤٣) • وعلى أية حال ، فمعظم هذه الأنواع لم توجد الا في حالة واحدة أو حالات قليلة • ولا شك أن الأنواع (الكيفيات) الرئيسية هي تلك التي وردت في سورة الشورى :

(وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم (٥١) وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم (٥٢)) السورة ٤٢ (الشورى) •

فالحالة الأولى كما تبينها الآيتان السابقتان هو أن يتحدث الله بالوحي • والاسم (وحي) والفعل (أوحى) يترددان بكثرة في القرآن الكريم في سياق لا يفيد أن الوحي تم من خلال اتصال لفظي مباشر ، وقد درس رتشارد بل Bell استخدام الاسم (وحي) والفعل (أوحى) وخلص الى أنه في الآيات القرآنية التي نزلت أولا ، لا يعني الوحي الاتصال اللفظي أو التوصيل اللفظي لنص الوحي ، وانما يعني أفكارا تقذف في عقل شخص من مصدر خارج نفسه ، بحيث يصلح معها أن نستخدم الكلمات الانجليزية Suggestion أو prompting أو inspiration (٤٤) وفي معظم الحقبة المكية كان الوحي من عمل الروح Spirit باذن من الله (٤٥) :

(وانه لتنزيل رب العالمين (١٩٢) نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك لتكون من المنذرين (١٩٤) بلسان عربي مبين (١٩٥) •••) السورة ٢٦ (الشعراء) •

فلم يرد ذكر الملائكة حاملين الرسالة الى النبي الا في مرحلة أخرى (٤٦) •

---

(٤٣) Nöldeke-Schawlly, I, 22 ff.

(٤٤) Muhammad's Vision MW, XXIV, 1934, 145-54, esp. 148.

(٤٥) الآيات في المتن ، وانظر أيضا :
Ahrens, Muhammed, 41 f.

(٤٦) أوردنا الآيات في المتن •

(ما تنزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذن منظرين (٨))
السورة رقم ١٥ (الحجر) ٠

(ليلة القدر خير من الف شهر (٣) تنزل الملائكة والروح
فيها باذن ربهم من كل أمر) السورة ٩٧ (القدر) ٠

(المترجم : من الواضح أن المؤلف قد أخرج هذه الآيات عن سياقها ، فآية سورة الحجر مسبوقة بالآيتين التاليتين : (قالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون (٦) لو ما تاتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين (٧) ٠٠) فكانت الآية رقم ٨ الآنف ذكرها ردا على طلبهم ، وفي آية سورة القدر ليس هناك اشارة الى نزول الملائكة فحسب) ٠ وأكثر من هذا ، ففي الحقبة المكية ليس هناك ذكر ـ على قدر ملاحظتي ـ لسماع النبي ما أنزل عليه ٠ وربما ، لذلك ، يجب أن نتصور أن الروح يأتي بالرسالة الى قلب محمد ﷺ أو عقله بطريقة ما غير التحدث اليه (٤٧) . وهذا بالتأكيد وحي كلامي داخلي interior locution وربما كان من النوع العقلي أقرب منه الى النوع التخيلي ، ومن المفترض أنه لم يكن مصحوبا باية رؤى ولا حتى عقلية ، لأن ذكر روح Spirit يعطينا انطباعا بشرح التجربة على المستوى الفكرى وليس وصف جانب منها ٠ وربما كانت بعض الروايات مرتبطة بهذه (الكيفية) الأولى ٠ وعلى هذا نجد في الحديث الثاني فى صحيح البخارى المنسوب الى عائشة رضى الله عنها :

« حدثنا عبد الله بن يوسف قال اخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ان الحارث ابن هشام رضى الله عنه سال النبى ﷺ : كيف ياتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : (أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فاعى ما يقول) قالت عائشة

(٤٧) I. 2 ولم نفهم معنى هذه الاشارة ـ (المترجم) ٠

رضى الله عنهـا : (وقد رأيته ينزل عليـه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا) صحيح البخارى / جـ١ / باب كيف كان بدء الوحى الى رسـول الله / ص ٦ .

وتوجد بعض التفاصيل التشبيهة بما دار فى هذا الحديث فى آخر حديث الافك :

« ... فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى يوم شات ، فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى : يا عائشة احمدى الله فقد برأك الله ، فقالت لى أمى قومى الى رسـول الله .. فانزل الله تعالى ان الذين جاءوا بالافك عصبة ... الخ » (٤٨) .

صحيح البخارى / حديث الافك / صحيح البخارى بحاشـية السندى ، جـ ٢ (دار احياء الكتب العربية ص ١٠٥) .

واذا نحينا جانبا الملك الذى يأتى فى هيئة بشرية ، فان ما هو موصوف فى الحديث ينطبق على الحالة (الكيفية) الأولى ، فلا شك أن سماع الصلصلة (صوت الجرس) يعد تجربة تخيلية (*) ، لكن ليس هناك أى ذكر لسماع موجود ما يتكلم كما أنه ليس هناك أى ذكر لسماع كلمات منطوقة ، ولا حتى من باب التخيل . بل على النقيض من ذلك ، فاننا نفهم من الحديث أنه فى نهاية التجربة يبدو ــ ببساطة ــ أنه وجد كلمات الوحى فى قلبه . انه من الواضح تماما ــ وفقا للمصطلحات التى شرحناها آنفـا ــ أننـا ازاء وصف لوحى كلامى من النـوع العقلى . intellectual locution

---

(٤٨) البخارى . زز ـ ١٥ (اوردنا النص من الطبعة المشار اليها فى المتن) .
(المترجم) .

(*) الكلمة هنا لا تحمل المفهوم الدارج عن تصور ما لا وجود له فى الواقع . فقد طبقها بولين على القديسين المسيحيين بمعنى مختلف ــ (المترجم) .

أما كيفية الوحي الثانية ، فهي ان يتحدث الله سبحانه من وراء حجاب ، والاشارة الأساسية لهذا النوع من الوحي ، ربما لتأكيد تجربة محمد ﷺ الأولى ، كما هو وارد في الفقرة ب التي نقلناها آنفا عن الزهري (حيث أتاه الحق وقال له : انك رسول الله يامحمد) · وعبارة (من وراء حجاب) تفيد أن المتكلم لم يظهر (أو لم تكن هناك رؤية) وهذه الحقيقة (حقيقة وجود متحدث) بالاضافة الى ذكر كلام أو حديث تتضمن أن هناك كلمات مسموعة ، وبالتالي فالوحي هنا من النوع الكلامي التخيلي (*) imaginative locution (أو أنه حتى وحي من مصدر خارجي exterior locution) · وبعض السور المبكر جاء بها الوحي بهذه الطريقة (الكيفية) التي لم ترد كثيرا في الروايات ، وبالتالي فهي ليست شائعة ، وعلى هذا يمكننا أن نفترض أن الوحي المبكر (في بداية نزوله) تم أيضا بالكيفية الأولى · ومن المعقول أن يكون نزول الوحي بالكيفية الثانية (السماع والحديث) قصد به وصف تجربة موسى ·

والحالة (أو الكيفية) الثالثة هي أن يرسل الله سبحانه رسولا فيوحي عن طريق هذا الرسول الى نبيه ما يشاء ، وقد ذهب الباحثون المسلمون في وقت لاحق الى أن هذا الرسول هو جبريل ، وذهبوا الى أن تلك هي الكيفية المعتادة للوحي منذ البداية · ومن ناحية أخرى ، فان الباحثين الغربيين لاحظوا أن جبريل لم يذكر بالاسم في القرآن (الكريم) حتى المرحلة المدنية (٤٩) وهناك كثير في القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ يعارض الأقوال المنتشرة بين الباحثين المسلمين ، وهذا يعني أن وجهات النظر المتأخرة زمنا جرى اضفاؤها على الوحي في مرحلته الأولى . وعلى أية حال ، فهناك احتمال أيضا أن يكون نزول الوحي عن طريق جبريل كان

(*) المؤلف يستخدم مصطلحات بولين التي طبقها على القديسين المسيحيين ، كما انه يصف تجربة موسى عليه السلام بالمصطلحات نفسها ، لكن المسالة الجوهرية هي ان كل هذا لا ينطبق عليه المنهج العلمي السليم ، سواء بالنسبة لموسى عليه السلام او محمد ﷺ ، لسبب بسيط وهو أن امكانية الدراسة المعملية او المادية او حتى التحليلية غير متوافرة · اننا نتحدث عن انبياء لا عن تجربة بشرية عادية · راجع مقدمة المترجم ·

(٤٩) ٢·٩٩·٢ : ٤٦٦٦ (لم نفهم معنى هذه الاشارة المرجعية) ـ (المترجم) ·

شائعا أيضا خلال الحقبة المدنية • وفي مثل هذه الحالات ، فان الوحي - ربما كان - من النوع الكلامي التخيلي (*) imaginative locution لكنه كان - بلا شك - مرتبطا برؤية لجبريل ، وقد تكون هذه الرؤية عقلية أو تخيلية • أما الاشارة الى نزول جبريل على هيئة رجل فذلك وحي من النوع التخيلي (**) (وهو غير الهلوسة كما يشير المؤلف بعد ذلك - ولا يميل المسلمون الى استخدام مثل هذه المصطلحات عند الحديث عن النبوة) والشكل الدقيق أو الكيفية الدقيقة للوحي لم تكن ذات أهمية قصوى عند علماء الدين ، سواء منهم المسلمون أو المسيحيون • **أما التأكيد على أن رؤى محمد ﷺ والوحي الكلامي الذي يتلقاه مجرد هلوسة - كما يحلو لبعض الكتاب أحيانا أن يقولوا - فان مثل هذه الأقوال تجعل الأحكام الدينية (اللاهوتية) مفرغة تماما من الوعي ، لذا فهي أقوال تتسم بالجهل المخجل الذي يدعو للشفقة - جهل بالعلم وسلامة العقل ، وهو حكمنــا على بــولين poulain ، وعلى اللاهوت الصوفي الغامض الذي يمثلونه** • فسواء كانت الرؤى والكلام المسموع من مصدر خارجي أو تخيلي أو عقلي فلا يوجد معيار لصدقها أو سلامتها ، الا أن الوحي المتلقى من مصــــدر خارجي أكثر تأثيرا في المتلقي ، وان كان الوحي العقلي - بمعنى من المعاني - هو الأعلى والأرقى فالعقل أعلى مرتبة من الحس • وهذه القضية ذات أهميــة كبيرة لطلبــة علم النفس الديني وسيكون - بلا شك - من المفيد عقد مقارنة بين جوانب ظاهرة الوحي عند محمد ﷺ والظواهر المشابهة عند القديسين المسيحيين والصوفية • وعلى أية حال ، فبالنسبة لعلماء الدين والمؤرخين نجد أن النقطة الأساسية هي أن محمدا ﷺ كان يفصل فصلا كاملا بين ما يوحى اليه من ناحية ، وأفكاره الخاصة من ناحية أخرى •

وعلى النحو نفسه ، فالظواهر المادية المصاحبة لتلقي الوحي غير ذات أهمية بالنسبة للباحثين في الجوانب الدينية رغم أهميتها للمؤرخ •

(*) رغم ان المؤلف - نقلا عن بولين - قد استخدم هذا المصطلح الذي قد لا يعني ما توحيه كلمة الخيال في استخدامها الدارج ، الا أن المسلمين ، وغير المسلمين ، لا يقبلون استخدام مثل هذه المصطلحات عند اطلاقها على الأنبيـاء ، بل وعلى الصالحين والأوليـاء •• الخ - (المترجم) •

(**) استخدام مثل هذه العبارات لا يعني نفي الوحي ، كما يوضح الكاتب في سطور تالية بعد ذلك - (المترجم) •

وغالبا ما يركز أعداء الاسلام على أن محمدا ﷺ كان مصابا بالصرع epilepsy ، وبالتالى فان رسالته الدينية غير صحيحة • والحقيقة ، أن الأعراض المصاحبة للوحى عند محمد ﷺ ليست هى أعراض الصرع ، فالصرع يؤدى الى انهيار القوة البدنية والعقلية ، بينما كان محمد ﷺ فى كامل قواه العقلية والبدنية ، وفى كامل ملكاته • لكن بفرض أن هذا الزعم صحيح ، فان البراهين عليه زائفة تماما وقائمة على مجرد الجهل والتخبط ، فمثل هذه الظواهر المصاحبة للوحى لا تصلح برهانا نعتمد عليه فى رفض الوحى أو قبوله •

وسيكون أمرا شائقا أن نعرف ما اذا كان محمد ﷺ لديه أية طريقة لحث الوحى على النزول عليه (٥٠) • اننا لسنا متأكدين مما اذا كان وضع نفسه فى دثار (*) يحقق هذا الغرض والأكثر معقولية أن الوحى ينزل على غير توقع • وأخيرا — على أية حال — فمن الممكن أن يكون محمد ﷺ قد طور بعض التقنيات (الأساليب) للاستماع الى الوحى (**) ، ربما من خلال قراءته القرآن الكريم قراءة هادئة بالليل • خاصة عندما كان يشك فى اكتمال الوحى • وقد تكون هذه طريقة لاكتشاف الآيات الضائعة • ولابد أن التفاصيل المتعلقة بهذا الأمر ستظل محل تخمين ، ويبدو مؤكدا أن محمدا ﷺ كان لديه أسلوب أو آخر لتصحيح (أو تنقيح) النص القرآنى باكتشاف الصيغة الصحيحة لما أوحى اليه ناقصا أو غير صحيح • ومرة أخرى ، فان كان هذا صحيحا ، فان محمدا ﷺ كان فى بعض الأحيان يستحث الوحى على النزول ••

٦ — التتابع الزمنى لوقائع الحقبة المكية

لا أحد التفت الى التواريخ الدقيقة التى تجرى فيها الأحداث التى بدت وقتها بسيطة ولحظية ، لكن فى وقت لاحق عندما أصبح الناس

---

(٥٠) Ahrens Muhammad, 37, J. C. Archer, Mystical Elements in Mohammad, New Haven, 1924, pp. 72, 76, & c.

(*) طبعا لا ، وانما باللجوء الى الله والابتهال اليه ، كما حدث بالنسبة للآيات التى نزلت مبرئة السيدة عائشة (فى حديث الافك) — (المترجم) •

(**) لا يعدو معنى العبارة الا أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد يلجأ للدعاء والتوسل الى الله طلبا لنزول الوحى لحل مشكلة واجهته أو اجابة سؤال استعصى عليه — (المترجم) •

مهتمين بالتواريخ تضاربت الأقوال وبذل الباحثون المسلمون جهودا مضنية للوصول الى صيغة تاريخية مترابطة . وعلى أية حال ، لقد بذلوا جهودا فيما يتعلق بالعناصر الرئيسية ، بينما قدموا لنا تواريخ مختلفة وغير مؤكدة بالنسبة لأحداث ووقائع أخرى . ومسألة التواريخ ليست حيوية لفهم حياة محمد ﷺ ، ويمكن الحصول على القليل (من حيث الترتيب الزمنى للأحداث) بمحاولة التمعن فى روايات الكتاب المسلمين المعتمدين فى الموضوع ، سواء بالتمعن فى مضامين الروايات أو ظواهرها .

يقول كيتانى Caetani الذى بحث هذا الموضوع بعناية لأن مبحثه يأخذ شكل حوليات ـ ان الكتاب المسلمين متفقون فى أربع نقاط (٥١) :

١ ـ ظل محمد ﷺ يدعو لرسالته سرا ـ طوال ثلاث سنين ـ صحابته المقربين ، ولم يبدأ الدعوة العلنية الا عند نهاية هذه الفترة .

٢ ـ الهجرة الى الحبشة فى العام الخامس ، أى بعد عامين من الجهر بالدعوة .

٣ ـ بدأت المقاطعة التى واجهها بنو هاشم ، بعد الهجرة الى الحبشة واستمرت عامين أو ثلاثة .

٤ ـ مات أبو طالب وخديجة بعد نهاية المقاطعة ، وقبل الهجرة بثلاث سنين (الهجرة فى ٦٢٢ للميلاد) .

وقد ناقش كيتانى ما هو أكثر من هذا ، فذكر أننا لو حسبنا المدة الزمنية بين الهجرة والمقاطعة ، وبين المقاطعة وموت أبى طالب لوجدنا أنها تصل ـ على الأقل ـ الى اثنى عشر عاما . وعلى هذا ، فقد أنشأ كيتانى قائمة التواريخ التالية ، رغم أنه كان ميالا للظن أن الأحداث ربما وقعت قبل هذه التواريخ :

---

(٥١) Ann, i, p 219.

٦١٠ نزول الوحى ·

٦١١ بداية الدعوة الجهرية ·

٦١٤ دخول دار الأرقم ·

٦١٥ الهجرة الى الحبشة ·

٦١٦ بداية مقاطعة بنى هاشم ·

٦١٩ نهاية المقاطعة ، موت خديجة ، مـــوت أبى طالب ، ذهاب الرسول ﷺ الى الطائف ·

٦٢٠ أول مسلمى المدينة ·

٦٢١ بيعة العقبة الأولى ·

٦٢٢ بيعة العقبة الثانية ، الهجرة ·

وهذه التواريخ تعد دليلا كافيا لمعظم اغراض بحثنا · وترجع أهميتها الأساسية الى أنها تجعلنا نتحقق من أن انتشار الاسلام فى مكة طوال فترة ما قبل الهجرة كان عملية بطيئة ، الا أن قلة المصادر وشحها يعطينا احساسا كاذبا بأن الأمور تجرى سراعا ·



الفصـــل الثـــالث

الرســـالة الأصـلية
(جـوهر الرســالة)

١ ـ فى تاريخ نزول القرآن (الكريم)

بمجرد أن نبدأ السؤال : ما الرسالة الأصلية للقرآن (الكريم) ؟ حتى يواجهنا السؤال التـالى : ما أول ما نزل منـه ؟ ومن الطبيعى أن يكون اعتمادنا فى الاجابة عن هذا السؤال الأخير على المصادر الاسلامية الأولى . ولدينا قدر جيد من المعلومات المتاحة عن أسباب نزول عدة آيات مختلفة ، الا أن هذه المادة يعوزها الإكتمال ، كما أنها تحوي تناقضا بين بعضها وبعضها الآخر (التعبير لا يعنى أكثر من أن الروايات مختلفة ـ المترجم) . والســـؤال الأخـير ربمـا لا يكون بالخطورة نفسها التى عليها السؤال الأول ، خاصة فيما يتعلق بالسور التى نزلت فى المرحلة المكية . وقد توصل الباحثون المسلمون الذين أتوا فى فترة متأخرة الى قدر من الاتفاق حول الســور المكية والســور المدنية وكذلك فيما يتعلق بالآيات . وبالنسبة لغالب النص القرآنى الذى نزل فى الحقبة المكية ليس هناك ذكر لأسباب النزول ، وأكثر من هذا فان كثيرا من الأسباب (الأحداث أو المناسبات) ليس لها تواريخ دقيقة محددة . وعلى هذا فرغم أن المواد المتاحة عن أسباب النزول مقبولة بشكل عام ، الا أنها وحدها لا تكفى لتقـــديم اجـــابات لكثير من الأسئلة التى يثيرها الباحثـــون الغربيـــون .



وقد قدم الباحث الألمانى تيودور نولدكه Theodor Nöldeke فى كتابه تاريخ القرآن (نشر لأول مرة سنة ١٨٦٠) معيارا آخر اضافيا • لقد وجد نولدكه أننا اذا درسنا الآيات الطـــوال وقارناها بالروايات التقليدية عن أسباب النزول ، وجدنا أن السور المجمع على نزولها أولا تحوى آيات قصارا ، والسور المجمع على نزولها آخرا تحوى آيات طوالا ــ غالبا • وعلى هذا ، فان نولدكه قدم فرضا علميا مؤداه أننا نستطيع أن نحدد ما اذا كان النص القرآنى الذى بين أيدينا نزل فى المرحلة الأولى أو المرحلة المتأخرة ، بناء على طول الآيات أو قصرها • وبناء على هذا المعيار ، رتب نولدكه سور القرآن (الكريم) فى أربع فترات زمنية ، ثلاث مراحل مكية ومرحلة مدنية ، وقد قبل الباحثون الغربيون هذا التقسيم الذى قدمه نولدكه ــ بشكل عام ، واعتبروه دليلا لدراساتهم •

وبعد نولدكه ، تقدم رتشارد بل Richard Bell بخطوة أخرى فى ترجمته للقرآن الكريم ودراساته الملحقة بترجمته ، والمنشورة ســـنة ١٩٣٧ ــ ١٩٣٩ (١) • فالروايات الاسلامية ــ دائما ــ توافق على أن معظم السور تحوى آيات نزلت فى فترات مختلفة • وقد حاول بل Bell فى ترجمته الآنف ذكرها أن يقسم كل سورة الى مكوناتها الأصلية ، كما حاول أن يضع تاريخا لبعض الآيات المنفصلة (أى أنه لم يضع تواريخ متوالية لنزول الآيات) • ومهما يكن الرأى النهائى فى تفاصيل هذا العمل ، فالذى لا شـــك فيه هو أن هذا العمـــل يعتد نقطـــة البـــدء لأية دراســـة أخرى عن تسلسل نزول dating القرآن (الكريم) ، ولقد قبل بل Bell المعيار الذى وضعه نولدكه كمعيار مضبوط (معيار طول الآيات أو قصرها) وان كان من رأيه أن هذا المعيار فى حاجة الى بعض التعديل ليتناسب مع آيات بعينها بالنظر لمحتواها (المعانى الواردة بها) • ويبدو أن هذا العمل كان صحيحا خاصة فيما يتعلق بالحقبة المدنية ، لكن كثيرا من النتائج التى خلص بها بل Bell من مباحثه تلك ليست جميعا مؤكدة طالما أن اختلاف وجهات النظر مسألة قائمة •

---

(١) R. Bell, The style of the Quran, in Transactions of the Glasgow University Oriental Society, XI, 9-15, esp. 14 f.

وعند النظر للرسالة الأصلية للقرآن الكريم (جوهر رسالته) لابد أن يكون المرء حذراً على نحو خاص عند استخدام معايير (أو دلالات) المحتوى القرآني . فاذا كان على المرء أن يقول ان سورة كذا وسورة كيت لا يمكن أن تكون من أوائل السور لأنها تشتمل على فكرة الحساب بعد الموت ، ثم يواصل حديثه قائلا ان فكرة الحساب بعد الموت لم تكن من الأفكار المبكرة ، لأنها لم ترد في السور الأولى .. فان مثل هذه الحجج يجعلنا ندور في دائرة مفرغة . فلكي أصل الى أقصى درجات الموضوعية ، فإنني أقررت بما ذكره نولدكه عن أوائل السور المكية وما أقره بل Bell عن أوائل السور المدنية . ومن خلال هذه المجموعة من السور (مجموعة أوائل ما نزل) نحيت جانبا الآيات التي تشير الى معارضة لمحمد ﷺ والقرآن الكريم ، وركزت على الباقي ، أعني حيث لا يشير الوحي الى معارضة . والمبدأ هنا أنه قبل أن تستطيع المعارضة الظهور ، كان هناك جانب من الرسالة يميل الى اثارة المعارضة كما لابد أنه حدث .

فالسور والآيات التي نحن بصددها (موضع البحث) هي :

سورة العلق (٩٦) / مكية / الآيات من ١ الى ٨ .

سورة المدثر (٧٤) / مكية / الآيات من ١ الى ١٠ .

سورة قريش (١٠٦) / مكية / وآياتها أربعة .

سورة البلد (٩٠) / مكية / الآيات من ١ الى ١١ .

سورة الضحى (٩٣) / مكية / وآياتها ١١ آية .

سورة الطارق (٨٦) / مكية / الآيات من ١ الى ١٠ .

سورة عبس (٨٠) / مكية / الآيات من ١ الى ٣٢ باستثناء الآية ٢٣ .

سورة الأعلى (٨٧) / مكية / الآيات من ١ الى ٩ ، و ١٤ و ١٥ .

سورة الانشقاق (٨٤) / مكية / الآيات من ١ الى ١٢ .

سورة الغاشية (٨٨) / مكية / الآيات من ١٧ الى ٢٠ .

سورة الذاريات (٥١) / مكية / الآيات من ١ الى ٦ .

سورة الطور (٥٢) بعض آياتها .

سورة الرحمن (٥٥) وآياتها ٧٨ آية . (٢) .

انه من المعقول أن بعض هذه الآيات نزلت بعد ظهور المعارضة للمرة الأولى ، لكن مادام مما لا يتعارض مع المنطق نزولها قبل ظهور المعارضة فقد رأيت الا أعير هذا الاحتمال بالا . فالجوانب المختلفة لرسالة الاسلام متضمنة في أوائل ما نزل من القرآن . وعلى هذا ودون حاجة لمزيد من اللغط ado (السفسطة) ساعتبر هذه الآيات حاوية على جوهر رسالة القرآن ، وعلى كيرجما Kerygma النبوة بمعناها الأصلي . والآن دعونا نبحث في الملاحظات الأساسية لهذه الكيرجما (المحتوى القرآني الذي يوضح هدف الرسالة) .

٢ ـ المحتوى القرآني لأول ما نزل من القرآن (الكريم)

(أ) خلق الله للانسان ولطفه به

موضـوع السورة رقم ٥٦ (العلق) التي ينظـر اليها ـ بشكل عام ـ على أنها أول ما نزل من القرآن الكريم ـ هو خلق الله سبحانه للانسان ـ انها اعلان من الله سبحانه بقوته ولطفه ـ وأنه سبحانه يوحي للانسان (بمفهوم الوحي عند اليهود والمسيحيين) بأسرار ما لا يراه (ما لا يعلمه) . وفيما يلي نص الآيات المعبر عن المعاني الآنف ذكرها :

(اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الانسان من علق (٢)
اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الانسان
ما لم يعلم (٥) ..) .

وخلق الانسان وهدايته مسألة أشار اليها القرآن الكريم في آيات أخرى متعددة :

---

(٢) لقد انقل بل Bell بعض الايات وأضافها بعد ذلك .

(لقد خلقنا الانسان فى كبد (٤) أيحسب أن لن يقدر عليه أحد (٥) ... ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين (٦) وهديناه النجدين (١٠) ..) السورة ٩٠ (البلد) .

وموضوع الخلق يبدو مفصلا فى السورة رقم ٨٠ (عبس) :

(قتل الإنسان ما أكفره (١٧) من أى شيء خلقه (١٨) من نطفة خلقه فقدره (١٩) ثم السبيل يسره (٢٠) ثم أماته فأقبره (٢١) ثم اذا شاء أنشره (٢٢) ..) .

وبداية السورة رقم ٨٧ (الأعلى) تتناول الخلق أيضا :

(سبح اسم ربك الاعلى (١) الذى خلق فسوى (٢) والذى قدر فهدى (٣) والذى أخرج المرعى (٤) ..) .

والسورة رقم ٥٥ (الرحمن) تتناول فى آياتها الأولى مسألة (الخلق) و (الهداية) معا :

(الرحمن (١) علم القرآن (٢) خلق الانسان (٣) علمه البيان (٤)) .

وقد ورد فى السورة رقم ٩٣ (الضحى) فى الآيات من ٣ الى ٨ ما يشير الى اللطف الخاص والكلام الخاص الذى شمل الله به محمدا ﷺ ، ومن المفترض أن الآيات تتعرض للحياة الأولى محمد ﷺ :

(ما ودعك ربك وما قلى (٣) وللآخرة خير لك من الأولى (٤) ولسوف يعطيك ربك فترضى (٥) ألم يجدك يتيما فآوى (٦) ووجدك ضالا فهدى (٧) ووجدك عائلا فأغنى (٨) ..) .

وبالاضافة لهذا نجد التأكيد الوارد فى السورة ٨٧ (الأعلى) :

(سنقرئك فلا تنسى (٦) الا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى (٧) ونيسرك لليسرى (٨) ..) .

والسورة رقم ١٠٦ (قريش) تحث قبيلة قريش على عبادة رب البيت (الكعبة) الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف . والسورة رقم (٨٠) (عبس) توضح كيف يرسل الله المطر الذى يروى الأرض فتنتج حبا وعشبا وعنبا وزيتونا ونخيلا وغير ذلك .

(والأرض وضعها للأنام (١٠) فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام (١١) والحب ذو العصف والريحان (١٢) ..) السورة رقم ٥٥ (الرحمن) .

ولأن الله سبحانه هو واهب الموت والحياة للبشر لذا فانه كما منح البشر المرعى ، فانه يحيله جافا ، ففى السورة رقم ٨٧ (الأعلى) نقرأ :

(والذى أخرج المرعى (٤) فجعله غثاء أحوى (٥) ..) .

وأخيرا فالسورة رقم ٨٨ (الغاشية) (٣) تحدثنا عن الله سبحانه كخالق للابل والسماء والجبال والأرض :

(أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت (١٧) والى السماء كيف رفعت (١٨) والى الجبال كيف نصبت (١٩) والى الأرض كيف سطحت (٢٠) ..) .

وفى الوقت نفسه نجد فى أوائل السورة رقم ٥٥ (الرحمن) (٤) نجد اشارة الى خلق الأبدان والبحار وكل الكائنات ، ونصل لذروة عظمة الله فهو يخلق ولا أحد يخلق سواه :

(كل من عليها فان (٢٦) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام (٢٧) ..) .

وعلى هذا ، فهناك عدد كبير من الآيات تتناول هذا الموضوع : لطف الله سبحانه وقوته . حقا ان مسألة لطف الله وقوته هى الى حد بعيد أبرز

---

(٣) Bell, op. cit. . لكن المترجم رجع للمصاحف المتداولة .

(٤) كما وضع لها بل تاريخ نزول تقريبيا Bell, op. cit.

معالم الرسالة في الآيات السريعة التي نزلت في وقت مبكر (في أوائل ما نزل من القرآن الكريم) ولم يتناول القرآن الكريم مسألة إثبات وجود الله سبحانه ، وانما تعرض لذاته باعتبار وجوده أمراً معروفاً لمحمد ﷺ ومعروفا أيضا لأولئك الذين يتلقون الرسالة ، الا أن ذلك كان على نحو غامض أو مبهم ، وأصبح (بعد نزول القرآن) أكثر دقة ووضوحا بعزو كل الأحداث المختلفة اليه سبحانه ، وهذا يجعلنا نميل الى تأكيد أن فكرة الله (سبحانه) قد انتقلت الى العرب من الفكر التوحيدي في اليهودية والمسيحية • وعلى أية حال ، فمادامت القدرة التي كان يعروها الوثنيون العرب لآلهتهم كانت - كما هو مفترض - محدودة جدا فهم لم يكونوا ينظرون لله سبحانه كنظير أو مثيل لآلهتهم وانما باعتباره (سبحانه) أعظم منها على نحو ما ، ومع هذا فلم تكن أفكارهم هذه لتكون فكرة كافية عن عظمته وقدرته على التدخل في شئون البشر • وعلى هذا ، فانه يجب أن نقدر مدى أهمية الأفكار القرآنية في تصحيح الفهم الخاطىء للعرب عن الله سبحانه ، كخطوة أولى •

وربما كان ما هو أكثر مدعاة للدهشة أن أوائل ما نزل من القرآن ليس فيه اشارة الى توحيد الله سبحانه Unity of God ، باستثناء ما ورد في السورة ٥١ (الذاريات) ، الآية رقم ٥١ :

(ولا تجعلوا مع الله الهاً آخر انى لكم منه نذير مبين (٥١)) •

وربما كانت هذه الآية اضافة متأخرة للسورة (٥) • انها تبدو وكأنها تكرار لفكرة معروفة بالفعل • لأنها اذا كانت فكرة جديدة لجرى التركيز عليها بشكل أوضح • وبطبيعة الحال ، فليس هناك في أوائل ما نزل منه ما يناقض عقيدة التوحيد ؛ لكن ما هو مهم وشائق أيضا انه في أوائل ما نزل من القرآن ، ان لم يكن هناك تركيز على توحيد الله ، فليس هناك أيضا شجب للوثنية • وبعبارة أخرى ، فان هدف النص القرآني الذي نزل في فترة مبكرة كان محدودا • أنه كان

---

(٥) Bell, op. cit.

يهدف الى تطوير جوانب فكرة الايمان بالله على نحو ايجابي ؛ واضعا في الاعتبار ان الايمان بالله مسألة كانت موجودة بالفعل بين أهل مكة دون أن يكونوا على وعي بأن هناك تناقضا بين الايمان بالله من ناحية ، واشراك آلهة أخرى معه .

(ب) الكل راجع الى الله ليوفيه حسابه

مرة أخرى سنبدأ بسورة العلق (السورة رقم ٩٦) التي تنص آيتها الثامنة على العودة لله (ان الى ربك الرجعى) وهي تعني ان هناك حسابا بعد الموت (٦) ، وتشير السورة ٧٤ أيضا الى الحساب :

(فاذا نقر في الناقور (٨) فذلك يومئذ يوم عسير (٩) على الكافرين غير يسير (١٠) ..) .

واذا كانت كلمة (الرجز) في الآية الخامسة راجعة لكلمة روجزا Rugza السريانيــة والتي تعني الاثم أو ما يقـابل الكلمة الانجليزية Wrath (٧) وهي الكلمة التي اسـتخدمت في ترجمة العبـارة الواردة في انجيل متى (فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى المعمودية قال لهم يا أولاد الأفـاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي ..) . لقد استخدم المترجمون كلمة Wrath للتعبير عن الغضب في هذه العبارة الانجيلية . نقول اذا كانت الكلمة المستخدمة في الآية الآنف ذكرها (رجز) هي المستخدمة في هذا النص الانجيلي ، فاننا نظن أنها ذات علاقة بأمور الآخرة (اليوم الآخر) . وارتبط الحساب في الآخرة أيضا بالنشور ، أي بعث الانسان من موته ليكون حيا مرة أخرى :

(ثم أماته فاقبره (٢١) ثم اذا شاء أنشره (٢٢)) السورة رقم ٨٠ (عبس) .

(٦) Bell, op. cit.

(٧) Ibid, Bell, Origin, 88.

ونقرأ أيضا في السورة رقم ٨٦ (الطارق) الآية (٤) :

(ان كل نفس لما عليها حافظ (٤) ٠٠) .

ويقابل حافظ هنـــا الكلمـــة الانجليزية Watcher (في ترجمات معاني القرآن الكريم التي بين أيدينا ، يقابل كلمة حافظ Protector ـ المترجم) سواء أكان المقصود بحافظ (حافظ) هنا ، الله سبحانه ذاته ، أم الملك الموكل به تسجيل افعاله .

وفي السورة ٨٤ (الانشقاق) وهي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم وصف مفصل ليوم الحساب :

(اذا السـماء انشقت (١) وأذنت لربهـا وحقت (٢) واذا الأرض مدت (٣) وألقت ما فيها وتخلت (٤) وأذنت لربها وحقت (٥) يا أيهـــا الانســـان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه (٦) فأما من أوتي كتابه بيمينه (٧) فسوف يحاسب حسابا يسيرا (٨) وينقلب الى أهله مسرورا (٩) وأما من أوتي كتابه وراء ظهره (١٠) فسوف يدعو ثبورا (١١) ويصلى سعيرا (١٢) ٠٠) .

واذا نحينا جانبا ما ورد في السورة رقم ٥١ (الذاريات) الآية الخامسة وما بعدها ، والسورة رقم ٥٢ (الطور) الآية السابعة وما بعدها (سنتعرض لهذه الآيات بعد ذلك) ، فليس هناك في الآيات القرآنية التي نزلت أولا (أول ما نزل من القرآن) اشـــارات أخرى مباشرة ليوم الحساب ، الا اذا كان وصف محمد ﷺ بانه « نذير » ينطوي أيضا على معنى الحساب في الآخرة .

والنقطة الأولى الجديرة بالملاحظة أن فكرة اليوم الآخر في هذه الآيات الأولى لم تكن تحوي الا قليلا أكثر من أن يوم الحساب هذا يعاقب فيه المسيء ، ويثاب فيه المحسن ، فلم تكن هناك تفاصيل مرعبة أو مبالغ فيهـا Lurid details ، تلك التفاصـــيل التي حفلت بها صـور اليوم

الآخر بعد ذلك (٨) . لذا ، فاننا نرفض بدون تردد كل ما ذهب اليه الباحثان بوهل Frants Buhl وتور أندريا Tor Andrae ، اللذان كان من رأيهما أن الخوف من العذاب الذى سيلقاه الآثم أو الملعون (أو المشرك) كان هو المحرك الأساسى لحياة محمد ﷺ الدينية خلال الحقبة المكية المبكرة : فاذا نظرنا الى كل السور التى أدرجها نولدكه ضمن قائمتيه (السور التي نزلت فى الحقبة المكية الأولى ، والسور التى نزلت فى الحقبة المكية الثانية) ؛ لكان من المعقول جدا أن نقول انه (فوق كل شيء ، كان التفكير فى العذاب الذى سيحيق بالملعون أو العاصى هو الذى زوده بالطاقة وحفز حركة روحه ، فأدى ذلك الى مثل هذه النتائج العظيمة) (٩) . وعلى أية حال ، فاننا اذا قصرنا النظر على مجموعة الآيات والسور القليلة التى اتضح أنها أول ما نزل ، لصرفنا النظر عن النتيجة المذكورة آنفا واعتبرناها غير معقولة .

ومن ناحية أخرى ، فانه يبدو غير صحيح أن نقول ان أول اشارة قرآنية للحساب لا تعنى أى شيء فيما يتعلق بالايمان بالأخرويات (الحياة بعد الموت) وان المسألة لا تعدو أن تكون عذابا لحظيا (مؤقتا) ، فمجموعة الآيات الأولى (التى تعتبر أول ما نزل) التى ندرسها تحوى عدة أمثلة على الايمان بالأخرويات ، لكن ليس فيها بالضرورة آيات تشير الى عذاب يحيق بالمشركين خاصة (١٠) واذا ترجمنا للانجليزية الآية السادسة من السورة ٥١ (الذاريات) والآية السابعة من السورة ٥٢ (الطور) على التوالى ، لخرجنا بمعنى أن العذاب مؤقت :

(وان الدين لواقع (٦) ..) .
The Judgement is about to fall

(ان عذاب ربك لواقع (٧) ..) .
Punishment of thy Lord is about to fall

الا أنه من خلال السياق – على أية حال – نفهم أن كلمة واقع التى قد تعنى (على وشك الوقوع about to fall) قد لا تكون اشارة الى

---

(٨) Bell, Origin, 85.
(٩) Buhl, Muhammad, 127.
(١٠) Bell, Translation of Quran, p. 690

قرب حدوث الحساب أو العقاب في المستقبل القريب ، وانما اشارة الى حقيقة هذا العقاب وكونه أمرا مؤكدا سيحدث فى وقت من الأوقات فى مستقبل غير محدد ، فلنقرأ الآية الخامسة من السورة ٥١ (الذاريات) والآية الثامنة من السـورة ٥٢ (الطور) لندرك سياق الآيتين اللتين استشهدنا بهما آنفا :

(انما توعدون اصادق (٥) ..)

(ما له من دافع (٨) ..) .

ومن المؤكد أن السور المكية فيها الكثير عن عقاب الله سبحانه لأهل مكة بانزال المصائب المؤقتة (الدنيوية) عليهم ، كالمصائب التى نزلت على من كانوا قبلهم ممن غضوا أنبياءهم ، لكن لارتباط هذا العذاب برفض رسالة النبى ﷺ فربما كان مرتبطا بالوضع فى مكة بعد أن تطور عن فكرة العقاب فى بداية البعثة النبوية . حقا ، ان الآيات التى ناقشناها لتونا (٥١/٥ ، ٥٢/٧) بتأكيدها على حتمية الحساب وكونه لا مفر منه ، تبدو مرتبطة بالمرحلة الثانية لمعارضة المشركين للنبى حين أعلنوا تشككهم فى الحساب بما فيه من ثواب وعقاب . وربما كان مما يستدعى الانتباه أنه يكاد يكون مفهوما أن الحساب الدنيوى (المؤقت) مقتصر على العقاب ، أما الحساب الأخروى فيتبعه ثواب وعقاب كما فى سورة الانشقاق التى أوردناها آنفا .

(ج) استجابة الانسان ـ شكر وعبادة

نظرا للطف الله سبحانه ، فان على الانسان أن يكون شكورا ممتنا عابدا . والامتنان هو اعتراف داخلى باعتماد الانسان على خالقه الواحد القوى اللطيف . أما العبادة ، فهى التعبير الظاهرى عن الاعتماد على الله والاعتراف بلطف الله وقوته (سلطانه) . وتشير الآية ١٧ وما بعدها من السورة رقم ٨٠ (عبس) الى الكفور (غير الممتن وغير الشاكر) .

﴿ قتل الانسان ما أكفره (١٧) من أى شىء خلقه (١٨) من نطفة خلقه فقدره (١٩) ثم السبيل يسره (٢٠) .. الخ ﴾ .

واسم الفاعل من الفعل (كفر) هو كافر unbeliever وهو غير الممتن وغير الشاكر لله ، وغير المعترف بفضل الله ، وبالتالى فهو الذى يرفض رسوله ، وعلى هذا فالآية العاشرة من السورة ٧٤ (المدثر) :

﴿ فذلك يوم عسير (٩) على الكافرين غير يسير (١٠) .. ﴾ .

تشير الى الكافرين باعتبارهم غير الشاكرين أو غير الممتنين لله (وفقا للسياق) .

ويستخدم القرآن الكريم كلمتى (طغى) و (استغنى) للاشارة الى عدم الامتنان لله والشكر له (١١) ، كما فى السورة ٩٦ (العلق) . الآية ٦ وما بعدها :

﴿ كلا ان الانسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى (٧) .. ﴾ .

والمعنى الأصلى لكلمة (طغى) مرتبط بسيل الماء الجارف ، ثم انتقل المعنى فاستخدم مجازا ليعنى تجاوز الحد ، دون النظر للاعتبارات الأخلاقية والدينية خاصة ، ودون أن يسمحوا لشىء بايقافهم لأنه لا حدود لثقتهم بأنفسهم . لذا ، فيكاد يكون مقبولا ترجمة هذه الكلمة القرآنية لتعنى بالانجليزية (to be presumptuous) أو (to act presumptuously) لأن الكلمة تتضمن عدم وضع الخالق فى الاعتبار أو حتى انكار وجوده .

ان هذا هو الاتجاه الذى ربما اتخذه أثرياء مكة مادامت الآيات التى أوردناها آنفا تشير الى الثقة فى الثروة أو الاعتماد على الغنى . وكلمة (استغنى) تستعصى على الترجمة لأنها تشير الى الثروة وعدم الاعتماد على الله معا . (الثروة والاستقلال Wealth and independence) ، وقد أعطاها Lane مقابلا انجليزيا هو (free from want) ، لذا فقد

---

(١١) E. W. Lane, Arabic-English Lexicon, S.V.

وردت فى القرآن الكريم لتشير الى الامتلاك الفعلى للثروة وأكثر من هذا تشير الى الاتجاه الروحى السائد بين الاثرياء . وفى الايه الثامنه من السورة ٩٢ (الليل) :

(وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) ..) .

يمكن نقل معنى (استغنى) (*) للانجليزية كالتالى :
Prides himself in Wealth

وذلك لأنه بسبب القوة المالية شعر أهل مكة بأنهم مستقلون عن أية قوة عليا ، (فى غنى عنها) (١٢) .

ويجد الامتنان لله والاحساس بفضله والشكر له تعبيرا له فى العبادة ، وتشير السور الأولى الى عدة أوامر متعلقة بالعبادة ، بعضها موجه لمحمد ﷺ نفسه ، كما فى السورة ٧٣ (المزمل) :

(يا أيها المزمل (١) قم الليل الا قليلا (٢) نصفه أو انقص منه قليلا (٣) أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا (٤) ..) .

ومن النصوص القرآنية المبكرة ، سورة قريش (السورة رقم ١٠٦) وهى تخاطب أهل مكة بشكل عام :

(لايلاف قريش (١) ايلافهم رحلة الشتاء والصيف (٢) فليعبدوا رب هذا البيت (٣) الذى أطعمهم من جوع (٤) وآمنهم من خوف (٥) ..) .

وثمة نص قرآنى آخر ، ربما نزل بعد سورة قريش بفترة وجيزة يشير الى العبادة ، ونعنى به الآية ١٤ وما بعدها من السورة رقم ٨٧ (الأعلى) :

(قد أفلح من تزكى (١٤) وذكر اسم ربه فصلى (١٥) ..) .
Prospered has he who ... Makes mention of the name of his Lord and prays.

(*) فى الترجمة الانجليزية التى بين ايدينا (عبد الله يوسف على) :
استغنى = Thinks himself self-sufficient (المترجم) .

(١٢) Bell, op. cit.

لقد كانت العبادة ملمحا مميزا لأتباع محمد ﷺ منذ البداية ، وهو نفسه كان قد انخرط في أعمال عباديه حتى قبل نزول الوحي عليه ، وقد التزم المسلمون الأوائل بصلاة الليل لفترة من الزمن (١٣) ، كما هو واضح في سورة المزمل ، وقد وجه المعارضون لمحمد ﷺ جهودهم في بداية الأمر ضد العبادة :

(أرأيت الذي ينهى (٩) عبدا اذا صلى (١٠) ..) السورة ٩٦ (العلق) .

ومن ناحية أخــرى نجد أنه في الروايات المتداولة المتعلقة بآيات الغرانيق التي دست في سورة النجم (السورة رقم ٥٣) ، نجد أن علامة الايمان بنبوة محمد ﷺ هي التعبد وفقا لطريقته في التعبد (الصلاة) . وبشكل عام ، فان ذلك يجب أن يجعلنا نحاول نسيان فكرة العبادة الشائعة في الغرب التي تعتبر جوهرها شعورا ذاتيــا Subjective وربما يوصف بمعنى حضور الله . أما العرب ، فهم أكثر ارتباطا بالجوانب الموضوعية Objective للعبادة خاصة معنــاها أو مغزاها . فبالنسـبة لأهل مكة ، فلكي يسجدوا لرب البيت كما يسجد محمد ﷺ فقد يكون عملهم هذا شبيها بذلك العمل الذي توقف حين كان أنصار حزب المحافظين يرفع كل واحد منهم وردة حمراء يوم الانتخاب ، أو بفعل الاشتراكيين الســـابقين الذين كان الواحد منهم بدوره يتباهى بوردة زرقاء . ورغم أن التشبيه هنا ذو مضمون سياسي الا أنني لا أقصد القول بأن الاسلام ليس دينا ، فالاسلام دين بكل تأكيد ، لكن قد تكون أفكار الغرب عن الدين هي التي يعتريها قصور .

(د) استجابة الانسان لله سبحانه — السماحـة والكرم والتطهر

وعلى أية حال ، فليس بالعبادة فقط يستجيب الانســان للطف الله وفضله وانما بأفعال أخرى فاضلة ethical activity (١٤) . انه لأمر

(١٣) سورة المزمل .
(١٤) ٢٣/٨٠ .

شـــائق ومهم أن نتعرف على القيم الاخـــلاقيه التي يغرسها القرآن (الكريم) .

اننا نجد في بعض الآيات الأولى التي نتناولها بالدراسة في هذا الفصل - كلمة (تزكى) وهي كلمة غامضة شيئا ما . ففي السورة رقم ٨٠ (عبس) يتلقى محمد ﷺ توبيخا من ربه لأنه صرف اهتمامه لرجل ثرى مهم أكثر مما اهتم برجل أعمى ، على أنه - محمد ﷺ - لا يدرى فلعل هذا الأعمى يزكى أو يذكر فتنفعـــه الذكـــرى (يزكى purify himself) وحتى اذ لم يزك هـــذا الرجـــل الثـــرى does not purify himself فلن يضـــار محمـــد ﷺ شيئا لأن من يزكى فانمـــا يزكى لنفســـه prospered has he who purifies himself (١٥) . ان مفهـــوم الكلمـــة معقد بعض الشيء وقد ناقشنا ذلك في الملحق رقم (د) بهذا الكتاب . أما هنا فلابد من ايراد النتائج التي وصلنا اليها . ودليلنا الى ذلك هو الملاحظة التي أوردها الشارح ابن زيد (١٦) ان (التزكى) في القرآن الكريم تعني (الاسلام) الذي يعني تطهير النفس باسلامها لله سبحانه وتعالى . ويبدو أنه عند التفسير ينحو المفسرون نحو ذلك ، لكن هناك اختلافا طفيفا فيما يتعلق بالمعنى الدقيق الذي نتناوله هنا . فكلمة تزكى في المرحلة المكية (وربما في بداية المرحلة المدنية) ترد في النص القرآني بالمعنى نفسه لجذر الكلمة بالعبرية والآرامية والسريانية . انها اذن تعني (التطهر الخلقى) وهي فكرة غامضة وصلت للعقل العربي من خلال تاثيرات يهودية ومسيحية ، في مقابل (التطهر الطقسى) أو (التطهر الشـــعائرى) ، أو (التطهر بممارســـة عبادات بعينها ritual purity الموجود في العقائد الوثنية العربية ، وفي مقابل التطهر المادى physical (كالاستحمام وغســـل اليدين .. الخ) . وعادة ما يكون هذا التطهر الخلقى مرتبطا بالحياة الأخرى ويجعل المرء يفكر في نوعيات هذه الحياة (الروحية أو الخلقية أساسا) ، حيث يحظى الانسان بالسعادة الأبدية (بالجزاء الخالد) . ويكاد يكون معنى التطهر الخلقى مساويا لما نقصده

---

(١٥) راجع النص القرآني ٨٧/١٤ ، ٩١/٩ وما بعدها .
(١٦) تفسير الطبرى ، ٧٩/١٨ .

بالصلاح والاستقامة والتقو righteousness or uprightness، وفى بعض الاحيان ـ ربما فى أغلب الأحيان ـ نجد الكلمة أيضا لا تعنى أكثر من ان يتخذ المرء من (الصلاح والتقوى) هدفا له وشعارا فى الحياة. ان الكلمة ـ على هذا ـ وصف لما يمكن مقارنته بأسلوب الحياة الذى اتبعه محمد ﷺ قبل البعثة ، مع تركيز على الجوانب الخلقية .

ما تفاصيل ذلك ؟ وما المحتوى الخلقى لهذه العقيدة فى شكلها الأصلى ؟ اننا لا نجد الكثير مما يساعدنا فى قائمة أسماء المسلمين الأوائل . ونحن نجد توجيهات لمحمد ﷺ (رغم أن هذه التوجيهات قد تكون لغيره) ، ففى السورة رقم ٩٠ (البلد) نقرأ :

(فلا اقتحم العقبة (١١) وما أدراك ما العقبة (١٢) فك رقبة (١٣) أو اطعام فى يوم ذى مسغبة (١٤) يتيما ذا مقربة (١٥) أو مسكينا ذا متربة (١٦) ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة (١٧) أولئك أصحاب الميمنة (١٨) ..) .

وفى السورة رقم ٩٣ (الضحى) نقرأ :

(ألم يجدك يتيما فآوى (٦) ووجدك ضالا فهدى (٧) ووجدك عائلا فأغنى (٨) فأما اليتيم فلا تقهر (٩) . وأما السائل فلا تنهر (١٠) وأما بنعمة ربك فحدث (١١) ..) .

لابد اذن أن نخطو خطوة أخرى ، وفيما يلى أمثلة مما ورد فى السور التى أوردها نولدكه باعتبارها نزلت فى المرحلة الأولى ، والتى اعتبرها بل Bell أيضا من السور المكية المبكرة أو المكية عامة . وسنوردها كاملة هنا لأنه من الأهمية بمكان أن نصل الى انطباع كامل عن هذه الآيات .

السورة الأولى وفقا لترتيب نولدكه التى تعبر عن هذه المعانى الخلقية هى سورة الهمزة (السورة ١٠٤) الآيات من ١ الى ٣ :

(ويل لكل همزة لمزة (١) الذى جمع مالا وعدده (٢) يحسب أن ماله أخلده (٣) ..) .

والنص القرآني التالي ، وهو أيضا من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ، يمكن أن نجعل له عنوانا هو (الطريقان) (١٧) :

(فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله اذا تردى (١١) ..) السورة ٩٢ (الليل) .

وتشير السورة ٦٨ (القلم) في الآيات من ١٧ الى ٣٣ الى قصة رجال قرروا جمع ثمار بستانهم في يوم بعينه دون أن يجعلوا للفقراء نصيبا منه وأصبحوا فلم يجدوا ثمارا واكتشفوا أنهم من الطاغين .

(انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين (١٧) ولا يستثنون (١٨) فطاف عليهم طائف من ربك وهم نائمون (١٩) فأصبحت كالصريم (٢٠) فتنادوا مصبحين (٢١) أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين (٢٢) فانطلقوا وهم يتخافتون (٢٣) أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين (٢٤) وغدوا على حرد قادرين (٢٥) فلما رأوها قالوا انا لضالون (٢٦) بل نحن محرومون (٢٧) قال أوسطهم الم أقل لكم لولا تسبحون (٢٨) قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين (٢٩) فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون (٣٠) قالوا يا ويلنا انا كنا طاغين (٣١) عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون (٣٢) كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٣٣) ..) .

---

(١٧) Bell, op. cit.

وفى سورة النجم (رقم ٥٣) نقرأ هذه الآيات :

(ارأيت الذى تولى (٣٣) واعطى قليلا وأكدى (٣٤) أعنده علم الغيب فهو يرى (٣٥) أم لم ينبأ بما فى صحف موسى (٣٦) وابراهيم الذى وفى (٣٧) ..) .

والمعنى نفسه نجده فى سورة العاديات (رقم ١٠) :

(ان الانسان لربه لكنود (٦) وانه على ذلك لشهيد (٧) وانه لحب الخير لشديد (٨) أفلا يعلم اذا بعثر ما فى القبور (٩) وحصل ما فى الصدور (١٠) ان ربهم بهم يومئذ لخبير (١١) ..) .

وفى سورة الفجر (٨٩) نجد تأنيبا للانسان على سلوكه :

(كلا بل لا تكرمون اليتيم (١٧) ولا تحاضون على طعام المسكين (١٨) وتأكلون التراث أكلا لما (١٩) وتحبون المال حبا جما (٢٠) ..) .

وفى سورة الحاقة (٦٩) نقرأ هذا الوصف لرجل كان لا يؤمن باليوم الآخر :

(انه كان لا يؤمن بالله العظيم (٣٣) ولا يحض على طعام المسكين (٣٤) فليس له اليوم هاهنا حميم (٣٥) ..) .

وقد قدمت لنا سورة الذاريات (٥١) ــ من ناحية أخرى ــ وصفا للأتقياء كالتالى :

(كانوا قليلا من الليل ما يهجعون (١٧) وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) وفى أموالهم حق للسائل والمحروم (١٩) ..) .

وعلى النحو نفسه نقرأ فى السورة (٧٠) (المعارج) وصفا لمن يدخل جهنم لأنه جامع للثروة بخيل بها :



(كلا انها لظى (١٥) نزاعة للشـــوى (١٦) تدعو من أدبـر وتولى (١٧) وجمع فأوعى (١٨) ٠٠) ٠

ان محتوى هذه الآيات ـ بالاضافة لشـــجب الكفر بالله ورسله ورسالاته ـ يتصل بالجانب الأخلاقي ٠ ان الآيات تشير ـ ببساطة ـ الى أنه أمر طيب أن نطعم الفقراء والمحرومين ، وانه لأمـر سيء أن نجمع المال لأنفسنا ٠ وأكثر من هذا ، ان هذا هو المحتوى الأخلاقي الوحيد للسور التي درسناها (باعتبارها أول ما نزل من القرآن الكريم) اذا استثنينا من ذلك الاشارة للمطففين (العابثين بالكيل والميزان) (*) في سورة المطففين ، والاشارة لعدم العفة في سورة (**) المعارج ، وهذه الآيات ربما نزلت في المرحلة المكية المتأخرة والمدنية على التوالي (١٨) والاشارة الى قتل الأطفال في السورة ٨١ (التكوير) وهي مسألة خطيرة وليست عادية أبدا (***) تجعلنا أمام حقيقة مثيرة ومربكة ، وتعد معضلة ذات أهمية كبيرة لفهم طبيعة الكيرجما القرآنيـــة Quranic Kerygma (المقصـــود خواص المحتوى القرآني) ٠ فالجانب الخلقي (الأخلاقي) المتعلق بالوصـــــايا decalogue (الكلمـــة الانجليزية المستخدمة تعني الوصـــايا العشر) لا وجود لها غالبا ، فليس هناك اشـــارة الى احترام الوالدين واحترام الحياة ، والزواج والملكية ، والصدق في الشهادة ـ في بواكير ما نزل من القرآن ، كل ما في الأمـر هو النهي عن تمني أو اشـــتهاء ما في أيدي الآخرين ، فالقيم الأخلاقيـــة في أول ما نزل من القرآن الكريم مرتبطة بالسخاء والبخل ٠٠ وهي امور يمكن أن ينظر اليها الغـــرب باعتبارها اشـــياء غير مفروضة او من قبيل النوافل أو زائـــدة عمـا هو مطلوب من الانســـان Supererogation ٠

(*) (ويل للمطففين (١) الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون (٢) واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون (٣) ٠٠) السورة ٨٣ (المطففين) ٠

(**) (والذين هم لفروجهم حافظون (٢٩) الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين (٣٠) ٠٠) السورة ٧٠ (المعارج) ٠

(١٨) Bell, op. cit.

(***) (واذا الموءودة سئلت (٨) باي ذنب قتلت (٩) ٠٠) ٠

(هـ) مهمة محمد

بعض الآيات التى تناولناها لتونا هى بمثابة أوامر موجهة بشكل أساسى لمحمد ﷺ نفسه ، لكنها تمتد لتشمل اتباعه ايضا ، لكن هناك آيات موجهة له وحده لتحدد مهمته وحده ٠٠ وهذه المسألة غير واضحة فى أوائل ما نزل من القرآن (وفقا للقائمة التى أوردناها فى هذا الفصل) ، رغم ان وجودها غير منكور ، فمسألة نبوته أو وضعه كنبى ظهرت كمسألة تتمحور حولها الآيات بعد ذلك . وفيما يلى نذكر الآيات الموجهة للنبى ﷺ ويمكن أن تعنى ايضا أتباعه ، وأخرى موجهة له فحسب :

(يا أيها المدثر (١) قم فأنذر (٢) ٠٠) السورة ٧٤ (المدثر) ٠

(فذكر ان نفعت الذكرى (٩) ٠٠) ٠ السورة ٨٧ (الأعلى) ٠

وكلمتا (أنذر) و (ذكر) (بتشديد الكاف وكسرها) تعنيان بالانجليزية warn و remind ، كما نجدهما أيضا فى صيغة اسم الفاعل (نذير) (*) و (مذكر) (بتشديد الكاف وكسرها) ٠ وكلمة (أنذر) قريبة تماما من الفعل الانجليزى Warn الذى يعنى العمل المنطوى على اخبار شخص بأمر خطير أو مضر أو مرعب ليتخذ الحيطة أو الحذر ٠ واستخدام كلمة (أنذر) فى أوائل ما نزل من القرآن الكريم يعنى أن فكرة الحساب فى اليوم الآخر كانت موجودة بشكل أو بآخر فى الدعوة الاسلامية منذ البداية .

ونظرا لأهمية الحساب فى الآخرة والجزاء فى الدنيا فى أواخر الحقبة المكية ، فليس غريبا أن ترد كلمة (نذير) أكثر من أربعين مرة فى القرآن الكريم ، كما وردت كلمة (مذكر) مرة واحدة . وقد قدم لنا لين Lane (١٩) شرحا للاستخدام القرآنى لكلمة (ذكر) كالتالى :

(*) صيغة مبالغة تعامل معاملة اسم الفاعل « منذر » ٠

(١٩) Arabic-English Lexicon, S.V.

(يذكر الثواب والعقاب ، يحذر الله سبحانه ويحث ، يحثهم على الطاعة ، ويقدم لهم النصائح الطيبة ويذكرهم بنتائج أعمالهم ، وبما ينقى القلب ويجعله رقيقا ‥) ومضمون الكلمة الانجليزية remind يشتمل على أن الشخص المخاطب (بفتح الطاء) يعرف بالفعل شيئا عن الله واليوم الآخر ، لكن للكلمة العربية استخدامات أوسع فالمعاجم العربية التى رجع اليهـا لين Lane توضـح أن remind الانجليزية لا تـركز على المفاهيم السابقة ٠

نخلص من هذا الى أن أوائل ما نزل من القرآن الكريم حدد مهمة محمد ﷺ بلفت نظر الناس الى ما ذكرناه آنفا فى الفقرتين (أ) و (ب) ـ

٣ ـ العلاقة الوثيقة بين الرسالة والأحـوال المعاصرة

ما قلناه على سبيل التفسير لهدف ومضـمون أوائل ما نزل من القرآن ينطلق من منطلق معقول جدا ، وهو أن الرسـالة (الكيرجما Kerygma) كانت مرتبطـة على نحـو خاص بمكة فى ذلك الوقت ٠ ومهمتنا الآن هى الاجابة عن هذا السؤال : كيف كان ذلك ؟ لقد ألقى الفصل الأول الضوء على أوضاع مكة ، لكن ما نعلمه من خلال التاريخ التقليدى للعصر الجاهلى ، ومن خلال الأشعار أمر مهم لابد من الحاقه بهذه الدراسة ، لندرك تشخيص الأمراض الاجتماعية كما عبرت عنها رسالة القرآن (الكريم) نفسه ٠ لذا ، فمن الملائم أن نناقش التشخيص والعلاج فى الوقت نفسه تحت رءوس أقلام أربعة : الجانب الاجتماعى ، والأخلاقى والعقلى والدينى ٠

(أ) الجـانب الاجتمـاعى

كان الاتجاه العام ـ كما اتضح فى الفصل الأول ـ ينحو نحو تفكك التضامن الاجتماعى ، ونحو ازدياد النزعة الفردية ٠ ومن بعض الجوانب

• كانت التنظيمات القبلية والعشائرية لاتزال قوية ، وان كان بعض الناس لم يكونوا يترددون فى غض الطرف عن الروابط العشائرية : وكان هذا هو الوضع فى مكة خاصة ، ذلك لأن الحياة التجاريه فى مكة قد أسرعت بظهور الفرديه حيث المصالح الماليه والماديه هى اساس المشاركه ، مثلها فى ذلك غالبا مثل العلاقات القبلية والعشائرية blood relationship ، فتجمع الثروات الضخام ـ وهو ما اشار اليه القرآن الكريم على أنه الشغل الشاغل لكثير من أهل مكة ـ يعد علامة على هذه الفردية • والحكاية ذات المعنى الرمزى عن أصحاب الجنة (البستان) التى أشرنا اليها آنفا (فى السورة رقم ٦٨/ الآية ١٧ وما بعدها) تمثل عملية تحالف لاحراز الاحتكار فى مجال من المجالات واغلاق فرص النجاح أمام المنافسين ، فليس هناك فى الآيات ما يشير الى أن هؤلاء الملاك للبستان كانوا من عشيرة واحدة •

وبينما يبدو من غير المعقول أنه كان فى مكة زيادة فى عدد الفقراء ذوى الفقر المدقع ، الا أنه من المحتمل أن تكون الفجوة بين الأثرياء والفقراء كانت قد اتسعت فى نصف القرن الأخير ، فالقرآن الكريم يشير الى زيادة الوعى بالفرق بين الأغنياء والفقراء ـ أو ربما يجب أن نقول : بين الأغنياء من ناحية وغير الأغنياء والفقراء من ناحية أخرى ، ومن الواضح أيضا أن الأغنياء لم يكونوا يعبأون بالفقراء وغير ذوى النفوذ ، حتى من بين أفراد العشائر التى ينتمون اليها • وربما كانت الاشارة الى الأيتام تفيد أنهم كانوا لا يعاملون معاملة حسنة من أقربائهم الأوصياء عليهم ، وفى سورة عبس (رقم ٨٠) صورة لمحمد ﷺ تبين أنه ـ للحظة ـ قد جارى العرف السائد فى مراعاة الأثرياء وذوى النفوذ وعدم الاهتمام بالآخرين •

كل هذا لابد أن يعني افتقاد روح الجماعة (أو معنى الجماعة the sense of community) فالانسان حيوان اجتماعى يصبح غير سعيد اذا لم يكن له جماعة ينتمى اليها • فالأساس أو المبدأ الجديد الذى أصبح سائدا فى الجماعة هو الذى تجلى فى المصالح المادية لكن هذا لم يكن بديلا مرضيا للعلاقة العشائرية أو القبلية Kinship by blood ، لكنه قد يؤدى الى تحالف كبير (كونفدرالية كبيرة) كالتى تكونت لتاليف

حملة لحصار المدينة فى السنة الخامسه للهجرة . لكن هذا التحالف القائم على المصالح كان دائما عرضة للتفسخ بمجرد أن يحس أن مصالحه متعارضة مع مصالح الجماعة ككل . كما أن مثل هذا التحالف قد يكون مفيدا فى القضايا الكبرى والأعمال التجارية الضخمة والسياسات ، لكنه أقل اقناعا فى الحياة اليومية لمن هم أقل شأنا . وفى هذا الجو ، اختفى معنى الأمن فى العيش فى أحضان الأقرباء ، وبذلك كان هناك فراغ أمنى ظل شاغرا بعد تقطع أواصر القبيلة والعشيرة (فى مكة) .

والآيات القرآنية الأولى (وفقا للقائمة التى أوردناها فى هذا الفصل) لم تقدم سوى تنبيه للعلاج الحقيقى لهذا الوضع ، أعنى أنها ركزت على أن الأساس الجديد للتضامن الاجتماعى انما يكمن فى الدين . وربما كان التركيز على واجبات الكرم (المقصود الاحسان الى الآخرين) مقصودا به تخفيف حدة المشاكل ، فلابد من تقديم المساعدة المادية للفقراء (رغم أن هذا بلا شك ، لم يكن الهدف الأساسى للكلام) ولابد أن يتوقف النظر للمال كقاسم اجتماعى كبير ، فالأثرياء — الى حد ما — لابد أن يعتبروا أنفسهم (وكلاء stewards) فى ثرواتهم ، أكثر من أن يعتبروا أنفسهم مالكين لها ملكية مطلقة . ومبدأ الوكالة هذا Stewardship — كما يسميه الغرب فى بعض الأحيان — يعنى أن الانسان الذى حصل ثروة لا يجب أن يستخدمها لسعادته ومتعته فحسب وانما — الى حد ما — لسعادة مجتمعه ، هذا المعنى الكامن فى مبدأ (الوكالة) الغربى يظهر واضحا فى سورة المعارج (٧٠) :

(والذين فى أموالهم حق معلوم (٢٤) للسائل والمحروم (٢٥) ..) .

فما يأخذه السائل والمحروم حق recognized right . ومن ناحية أخرى لم يحاول الاسلام أن يستعيد النظام القديم المبنى على التضامن القبلى فقد استقر مبدأ وعى الفرد بفرديته ، وكان لابد أن يكون مقبولا ؛ كما كان لابد من وضعه فى الاعتبار ، فقد قدم لنا القرآن الكريم اليوم الآخر على أنه يوم يحاسب فيه كل فرد عن عمله ، وفى السورة ٨٢ (الانفطار) :

(يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله (١٩) ٠٠).

أى أنه فى هذا اليوم لا يكون لأحد سلطة أو نفوذ لنفع الآخر أو ضره . ونقرأ فى السورة ٣٥ (فاطر) :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ، انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه والى الله المصير (١٨) ٠٠) ٠

لكن لابد أن نذكر أنه فى السور المدنية حيث تكون المجتمع الاسلامى ، كان هناك تركيز على مسئولية الفرد تجاه أقربائه :

(٠٠٠ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب (١٧٧) ٠٠) ٠

(ب) الجانب الأخلاقى

لا تتناسب مثل المروة البدوية مع المجتمع التجارى ، فالقيم التى تؤدى للنجاح فى مثل هذا المجتمع ليست الشجاعة فى القتال والصبر على المكاره ، والاصرار على الثأر وحماية الضعيف وصد القوى ، وانما قد يكون أول ما تتطلبه بعض الارتباط بأمور القوافل ، ثم لن تسير الأمور بعد ذلك فى المسار الخاطىء ، لكن اذا ترجم مبدأ (الاصرار على الأخذ بالثأر) ليصبح بمعنى التصدى لارجاع الحق لصاحب الحق ، فهناك مسألة وراء ذلك ، ليس من المعقول أن يفعل التاجر ذلك ، فالنجاح فى مضمار التجارة والمال مرتبط باهمال الضعيف وتوثيق عرى الصداقة مع القوى (نظريا فى حدود المعاملات المستقيمة) ٠ فالفضيلة البدوية المتمثلة فى حفظ الأمانة كانت بالتأكيد أمرا مهما ؛ لأن حدا أدنى من الاستقامة فى العمل التجارى يعد أمرا ضروريا لتكوين الثقة التى هى بمثابة شحم

يساعد على ادارة عجلة الأعمال التجارية ، وحلف الفضول (٢٠) يبدو أنه كان تنظيما الهدف منه مواجهة ممارسات اتسمت بقلة الذمة وانعدام الضمير . والانشغال بالأعمال المالية الكبرى ـ مرة أخرى ـ لا يعني بالضرورة الكرم ، بل قد يعني العكس مادام رجال المال يحاولون دائما زيادة أرصدتهم المالية (كما يشير القرآن الكريم) ، ومن ناحية أخرى فان الحاجة للاحسان (اعانة الآخرين) في مدينة مثل مكة ربما كان أمرا مهما كالحاجة اليه في الصحراء .

فالاعتراف بمثل المروة كان بمفهوم شرف القبيلة وكان ـ على نحو أقل ـ بشرف الفرد المنتمي للقبيلة . وكانت قوة الاعتراف بمبدأ شرف القبيلة في الرأي العام متجذرا ، وكان التعبير عن الرأي العام وصياغة قيمه ـ في الأساس ـ مهمة الشعراء . وفي ظروف الصحراء قد نتوقع أن القبائل الأقوى أمثلة مقبولة للمروة ، وان هذه القبائل لابد وأن تكون قادرة على حث الشعراء على مدحها ، سواء أكانوا شعراء من داخل القبيلة أم في خارجها . لكن بزيادة الثروات الضخام في مكة ـ يظهر ان الرأي العام لم يعد يوضع في الاعتبار كثيرا ، حتى بالنسبة للرأي العام لدى العرب عموما . فالثروة قادرة دوما على شراء مديح الشعراء عند الضرورة ، لكن الانطباع الذي يخرج به المرء هو أن ذلك لم يكن ضروريا (ليس هناك مبرر لدفع الأموال طلبا لمدح الشعراء) ، فلم يكن أهل مكة يقيمون وزنا كبيرا للشعر . وربما كان تشعب سلطة أثرياء مكة عظيما منتشرا مما دفع الى استحسان أفعالهم (أو على الأقل الى الكف عن نقدهم) ، رغم أن مدحهم لم يكن أمرا يتسم بالصدق .

ما ذكرناه لتونا هو في جزء منه استنتاج من الحقيقة التي مؤداها أن أفعال الكرم التي أشار القرآن الكريم الى أنها كانت تنقص أهل مكة ، كانت أفعالا ينظر اليها البدو باعتبارها شيئا جديرا بالاحترام . ففضيلة الكرم ـ التي هي نقيضة للشح أو البخل ـ كانت جزءا من المثل العليا العربية القديمة . فكما ذكر لامانس Lammens أنه « من بين أفكار

(٢٠) انظر الفصل الأول / الفقرة (٢) .

البدو .. أن الثرى (صاحب الثروة) يبدو لهم ببساطة كمستودع للثروة (حافظ لها أو أمين عليها dépositaire) انه واضع يد بشكل مؤقت على ثروته ، وأن مهمته هى توزيعها عند الضرورة على أفراد قبيلته .. انها وسيلته لاظهار كرمه وفداء الأسرى ودفع ثمن المديح الذى يقدمه الشعراء (٢١) » .

وقد يكون هذا القول عرضة للنقد على أساس أنه يغفل ذكر أن وضعية سيد القبيلة أو شيخها داخل القبيلة تتيح له فرصا لزيادة ثروته . وتركيز القرآن الكريم على الاحسان والصدقة .. الخ يعنى أن قيم الكرم كانت قد انهارت فى مكة ، أو لم يعترف بها كقيم مهمة ، فقد كان سلوك أثرياء مكة من النوع الذى كان يعتبره أهل الصحراء سلوكا غير شريف ، لكن لم يكن هناك فى مجتمع مكة ما يجعلهم يشعرون بالخجل منه (لأنه هو الطابع العام للسلوك فى مكة) لقد كانت المثل العليا القديمة قد أصبحت مهجورة تماما .

وكانت استجابة القرآن الكريم لهذا الوضع ذات أبعاد مختلفة . فبتركيزه على السخاء والكرم (المقصود الصدقة والزكاة ..) انما يحيى جانبا من جوانب المثل القديمة عند العرب ، ولا يبنى من فراغ وانما يبنى على قواعد أو أسس كانت موجودة بالفعل فى الروح العربية . وأكثر من هذا ، فقد كانت روح السماحة والكرم ذات صلة بالظروف فى مكة (المقصود أن الاشارة اليها تثير أمورا ذوات صلة بالأوضاع فى مكة) . وفى الوقت نفسه ، فان القرآن الكريم ربط بين روح السماحة والكرم (المقصود الزكاة والصدقات ... الخ) بالثواب والعقاب فى الحياة الأخرى . فالبخلاء الممسكون سيلقون عذابا أبديا . ولم يكن لهذا تأثير بطبيعة الحال اذا لم يكن الناس مؤمنين باليوم الآخر ، لكن – الى حد ما – كان هناك شيء ما قد تم افرازه كان قادرا على سد الفجوة الناشئة عن انهيار الوازع القديم ، وظهور وازع جديد مختلف فى مجتمع الفردية an individualistic Society.

(٢١) Berceau, 253, cf. 211, 239.

وعلى أية حال ، فالمسألة لم تكن بسيطة ، انها ليست مجرد احياء للمثل البدوية القديمة وانما كانت انتاجا لمثل عليا أخلاقية جديدة تتناسب وحاجات الحياة المستقرة • فكان انقاذ ما يمكن انقاذه جزءا من المهمة لكنه أصغر أجزائها • فكثير مما هو جديد سيكون مطلوبا أيضـا ، وقد تناول القرآن الكريم هذا الجزء الأكبر في بواكير ما نزل منه بتمهيد الطريق لايجاد قيم أخلاقية جديدة ، أعنى أوامر الله ورسوله التى عن طريقها ستحل هذه القيم الجديدة . وقد وجه القرآن الكريم أوامره في شكل مبادىء أو قيم عامة ، دون التعرض للتفاصيل : وكون هذه القيم الجـديدة التى يبثها القرآن الكريم ما هى الا أوامر من الله سبحانه ، فان ذلك يشكل وازعا جديدا للالتزام بها : هذا الوازع الذى ارتبط بالحساب فى اليوم الآخر ، لقد حل هذا الوازع فى بعض الحالات محل أى وازع قديم .

وصـعوبة هذه المهمة الجديدة تتضح بالنظر الى القدر فى مفهوم (التزكى) • فالمعنى الأصلى للتزكى ـ فيما يبدو ـ قريب من معنى الصلاح والتقوى ، وربما انطبق معنى الكلمة على الانسان الذى يؤمن بالمبدأ الذى مؤداه أن قدر الانسان النهائى أو مصيره النهائى معتمد على القيم الأخلاقية التى يطبقها فى حياته • وعلى أية حال ، فان هذا المفهوم لم يكن مفهوما عربيا محليـا ، وبدأ بالتـدريج يختفى من القرآن الكريم (المقصود أنه ورد فى أوائل مانزل من القرآن ولم ينزل فى أواخر ما نزل منه) وحلت محله فكرة اسلام الوجه لله أو التسليم بقضاء الله وقدره • وحتى اذا كان هناك تركيز شديد على الجانب الأخلاقى للتزكى بالقول ان هذه الكلمة تعنى الصلاح والتقوى ، فان اهمالها (عدم نزولها بعد ذلك) يعد مثالا على الصعوبة الكامنة فى ايجاد مفاهيم جديدة يمكن أن تتجذر بنجاح وتلتحم بعمق فى القيم المحلية (العربية) عميقة الجذور •

(ج) الجانب العقـلى

الجوانب العقلية للمسائل التى واجهت العرب أيام محمد ﷺ أقل أهمية ، لكن لا ينبغى اهمالها تماما ، فهناك نقطتان مهمتان يجب وضعهما فى الاعتبار •

الأولى أن أهل مكة كانوا على وعى كامل بقدرات الانسان لكنهم نسوا خلق الانسان (بفتح الخاء) ، وكانت النظرة البدوية على وعى كبير أيضا بقوة الانســـان ، لكنها نظرة خفف من غلوائها اعتقادهم فى القضاء والقدر ، واذا تناولنا التراث الاسلامى باعتباره دالا بعض الشيء على النظرة الجاهلية (٢٢) (النظرات التى كان سائدة قبل ظهوره ـ أى الاسلام) ، فهناك أربعة أمور خارج سيطرة الانسان : الرزق ، وساعة الوفاة ، والسعادة والشقاء (فى الحياة الدنيا) ، وجنس المولود (ذكر أم أنثى) ، وخارج هذا فللانسان أن يفعل ما يشاء ، ان فى استطاعته أن يمارس كل ما تنطوى عليه كلمة (المروة) خارج هذه الأمور الاربعة التى لا يد له فيها وسواء تصرف وفقا لما تقتضيه مبادىء المروة أم لا ، فان هذا يتوقف عليه هو (على الشخص نفسه) ، وعلى ميراثه (من أجداده) ، وان كان هذا العنصر الأخير غير محدد بما فيه الكفاية كما أنه مرتبط بما لا دخل للانسان فيه ٠ وعلى أية حال ، فهذه الحدود للقدرة البشرية التى اعترف بها البدو لم تكن واضحة تماما فى مكة ، فالقوة المالية يمكنها أن تعوض كثيرا مما يترتب على نقص المطر ، والمجاعة يمكن معالجة نتائجها بالاستيراد ٠ ومرة أخرى ، فقد كان من اليسير طوال جيل أو جيلين اعتبار امتلاك ثروة كبيرة أمرا مرتبطا بالسعادة ، بل قد تبدو الثروة قادرة على مد أجل الانسان ، وهكذا كانت هناك مبالغة فى تقدير قدرة الانسان وسلطانه وطغيانها على الحياة العقلية فى مكة ٠

والنقطة الثانية المهمة لا تبعد عن النقطة الأولى التى ذكرناها لتونا بل انها شديدة الارتباط بها ، فحقيقة أن زعماء مكة ـ الذين كان فى حوزتهم أكبر قدر من السلطة السياسية ـ لم يكونوا أمثلة بارزة للمروة ، ولابد أن هذا قد أثار شكوكا عقلية لدى المفكرين فى ذلك العصر ـ شكوكا حول جوهر المروة كقيمة ، وربما أيضا أثار شكوكا حول أثر الوراثة فى انتقال المروة أو على الأقل القدرة على تحمل قدر كبير منها ٠ ومثل هذه الأفكار تقوض الأساس النظرى للتضامن القبلى وتشـــجع التطور نحو الفردية ٠

---

(٢٢) انظر الفصل الأول ، الفقرة (٤) ٠



وفيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة ، فان أوائل ما نزل من القرآن الكريم لا يشير اليها الا قليلا غير أنه ربط بين بعض جوانب المروة ـ خاصه الكرم ـ وثواب الله سبحانه في الآخرة . وهناك ما يمكن قوله عن مسألة القضاء والقدر فقد كان الوثنيون ينسبونها للزمن أو (الدهر) ، بينما نسبها الاسلام لله سبحانه . وقدرة الله سبحانه وكونه خيرا تتجلى فى انباته للنبات الذى هو رزق ، والله سبحانه هو الذى خلق الانسان . وجعله ذكرا أو أنثى ، والله هو الذى يميت ويحيى ، وفى الآخرة فانه سبحانه هو الذى يهب الانسان سعادة أبدية أو يزج به في عذاب دائم .

(د) الجوانب الدينية

الجوانب الدينية لقضايا مكة قبل الاسلام مرتبطة بقضايا حياتهم ، بمعنى أنه من خلالها يجدون معنى للحياة وأهمية لها . لقد وجد الدين البدوى القديم معنى للحياة في الشرف ، وبدرجة أقل في فكرة استمرار القبيلة ، فالقبيلة هي تجسد للشرف ـ وكانت الفكرة عن القبيلة هى الأكثر قابلية للتطبيق . وهذا الاتجاه الدينى القديم كان قد تحطم فى مكة بسبب تطور الاتجاه الفردى وازدياده وبسبب ضعف الرأى العام وقلة أهميته كأساس لاحراز الشرف ، وبسبب عدم كفاية فكرة المروة التى كانت أساسا للشرف . وفى مكة ، لم يكن هناك مثل أعلى جديد ، فقد حلت فكرة التفوق بالاستحواذ على الثروة بدلا من الشرف ، ونتج عن هذا مجموعة قيم أخرى مرتبطة بها . وكانت هذه الأفكار تمثل مثلا (بضم الميم والثاء) ودينا ربما لم يكن يرضى الا قلة من الناس وعلى امتداد جيل أو جيلين ، فلم يكن ذلك يرضى مجتمعا كبيرا على المدى الطويل . فالناس سرعان ما يدركون أن هناك أشياء لا يمكن شراؤها بالمال . وفى أفضل الأحوال فانهم يستطيعون ـ فقط ـ أن يجدوا معنى وأهمية فى كونهم أثرياء ، ان هم غضوا الطرف عن حقائق أخرى غير سارة كالمرض والموت خاصة الموت المبكر . ففى أى مجتمع مهما كان حجمه توجد أمور غير سارة تتجمع لتقتحم عنوة حياته ، خاصة حياة الأثرياء منهم ، هذا اذا نحينا الفقراء الذين يجدون صعوبة فى نسيان انهم أقل حظا من الناحية المالية . ان

الاضطراب العائد الى عدم كفاية هذا الدين (دين عبادة المال) ربما شعر به بشكل حاد متوسطو الثروة (غير الأثرياء جدا) ، فهؤلاء كان لديهم من الوقت كي يتأملوا وكي يكونوا على بعض الوعي بحدود ما يقدر عليه المال ، أو بتعبير آخر قصور سلطان المال ٠

ويشير القرآن الكريم فى أوائل ما نزل منه الى ثقة قريش المفرطة فى المال باعتبارها خطيئة حاقت بها ، واعتبر - أى القرآن الكريم - ذلك وحده كافيا للادانة ٠ فالثقة فى الثروة تجر وراءها المبالغة فى الثقة بالنفس وتجر الانسان الى نسيان اعتماده على الله ، أو حتى انكار ذلك ٠ ولكى يذكر القرآن الكريم الانسان أنه مخلوق ، فقد جعله يتحقق من أن كثيرا من الأشياء التى تسبب له السعادة - بما فيها المال - انما هى فى الحقيقة ملك لله تعالى ، فتحدث القرآن الكريم عن خلق الله للانسان وتزويده بكل ما يجعل السعادة فى الحياة أمرا ممكنا ، وذكر الانسان بأنه سيعود الى الله فالى الله المصير ٠ لقد حض القرآن الكريم على شكر الله وعبادته والاعتراف بفضله والاعتماد عليه ، وأن يتخلى الانسان عن الاعتماد المبالغ فيه على الثروة ، وكان ذكر اليوم الآخر بمثابة تحذير للانسان من أن مصيره النهائى بين يدى الله وليس بين أيدى البشر ٠

وفى مقابل كل هذا لابد أن نحاول فهم التركيز على قيم الكرم ، فمثل هذه القيم لها أثرها الاجتماعى والاقتصادى لكن يكاد يكون مؤكدا أنها لم تكن أهم جوانبها ٠ لقد كان ذكرها بمثابة اعادة تأكيد على قيم (المروة) ، وكان هذا أمرا مهما ، لكن كانت هناك أمور أخرى أيضا ٠ لقد كانت هناك ممارسات عملية بمعزل عن الثروة ، وكان هناك تعبير خارجى عن هذا الاتجاه الجديد الداخلى (العميق) لابد من وجوده لتقوية الفكرة الكامنة وراءه ٠٠ لكن من المؤكد أنه بمرور الوقت ، فان هذه الأفعال المتعلقة بالكرم أصبحت مرتبطة بشىء ما راسخ وعميق الجذور فى قلب العربى ٠ لقد أصبحت أفعال الكرم (المقصود الصدقات والزكاة ٠٠ الخ) كنوع من التضحية (تقديم الأضحيات) ، لاسترضاء القوى الأقدر لاتقاء غضبها وكسب رضاها ٠ انها استمرار لما كان يفعله آباؤهم وأجدادهم

الوثنيون من تقديم أضحيات للآلهة الوثنية . انه من الصعب ان تقول الى اى حد كانت هذه الفكرة ماثلة فى عقول المسلمين الأوائل ، لكن يمكن القول بصعوبة انها كانت حاضرة فى الوعى ، اذا نظرنا للتطورات التى حدثت بعد ذلك والتى شجع عليها القرآن الكريم ، واذا كان الأمر كذلك فان أفعال الكرم هذه (زكاة وصدقات .. الخ) التى تحض على تقديم أضحيات كان لها مكان عميق فى قلوب المسلمين الأوائل ، ولابد أنها أصبحت تعبيرا أكثر تقدما عن اعتماد الانسان على قوى عليا (المقصود عني الله سبحانه) .

أما والأمر كذلك ، فان التعاليم الظاهرة فى أول ما نزل من القرآن الكريم تبلغ ذروتها فى بيان قوة الله سبحانه وكونه خيرا ، وكونه خالقا عادلا ، وفى حث الانسان على الاعتراف بذلك والتعبير عن اعتماده على الله سبحانه .

٤ ـ مزيد من التأمل

(أ) الظروف الاقتصادية والدين

تشخيص الأوضاع فى مكة كما قدمها لنا القرآن الكريم تشير الى أن الاضطرابات والمشاكل القائمة وقت نزوله كانت ـ فى الأساس ـ دينية . وقد افترضنا فيما ذكرناه آنفا أن ظهور الاسلام كان ـ على نحو ما ـ مرتبطا بالتغير من حياة البداوة الى الاقتصاد التجارى mercantile economy . أهناك تعارض بين المنظورين ؟ أم يمكن التوفيق بينهما ؟

ان السؤال يثير قضايا أساسية ، لكن من منطلق عقيدة التوحيد والايمان بوجود الله Theism لابد من التعرض للنقاط التالية : التغير الاقتصادى لم يحدث فى فراغ ، وانما فى مجتمع له بالفعل تكوينه الاجتماعى والاخلاقى والعقلى والدينى . ولمراضه أو علله راجعة للتشابك أو التداخل الناتج عن هذا التغير ، بالاضافة الى أسباب أخرى سابقة عليه .

(أى سابقة على هذا التغير) وبتعبير آخـر ، فان هذه الاضطرابات وتلك العلل ، ما هى الا نتيجة فشـــل الانســـان فى التكيف مع التغيرات الاقتصادية بسبب اتجاهات معينة ظل محتفظا بها من فترة ما قبل التغير . لقد أدت الظروف الاقتصادية الجديدة الى زيادة ثقة الانسان فى نفسه دون يعى أنه مخلوق ، وأدت الى زيادة الفردية دون أن يعى ضرورة المثل الأخلاقية العليا يوازن بها طموحه الفردى ، وبدون نظرة دينية جديدة تعطى الفردية معناها ٠

فالمسألة اذن هى اعادة تكييف الانسان مع الظروف الاقتصـــادية المتغيرة ، وهذا يتطلب التعاون الواعى بين البشر ، وما أتى به القـرآن الكريم يفترض أنه أعطاهم تحليلا للموقف سيجعلهم يعيدون تكييف أنفسهم فى ضوئه ٠ ويقدم لنا القرآن الكريم تحليلا للموقف غير مفصل لكنه كاف للأغراض العملية كما أنه بمثابة دليل للعمل ٠ لقد كان المظهر الذى سرعان ما ظهر نتيجة هذه الاضطرابات الاجتماعية وعدم التكيف هو الانانية التى اتصف بها البعض ، والتى أدت بهم الى استغلال الظروف الجديدة لتحسين أوضاعهم على حساب رفاقهم وانتكسوا فراحوا يفخرون بقدراتهم البشرية وفشلوا فى التعرف على الله سبحانه . ان القرآن الكريم يذكر الانسان أن هناك عوامل أخرى أهملها أو أنكرها وهى أنه فى غدوه ورواحه معتمد على قوة أعلى منه ، وأن هناك موتا وحياة أخرى فيها حساب ، أو ان أردنا التعبير بطريقة مختلفة راح القرآن الكريم يذكرهم بوجود محيط زاخر بالمعانى والأهمية فيما وراء الزمان والمكان ٠

لقد صور القرآن الكريم علل العصر باعتبارها راجعة فى الأساس لأسباب دينية رغم تياراتها الكامنة ذات الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية ، وبالتالى فان علاجها لا يمكن الا بوسائل ــ فى الأساس ــ دينية ٠ واذا نظرنا الى نجاح جهود محمد ﷺ ، فلابد أن نحكم بأنه رجل جسور لأنه ناقش حكمة القرآن ٠

(ب) أصـــالة القرآن الكريم

يجب ــ فى رأيى ــ أن ننظر للمحتوى القرآنى على أنه عامل خلاق طرأ على الموقف فى مكة (المترجم : الكاتب يتحدث عن أوائل ما نزل

من القرآن الكريم) ، مهما كانت نظرتنا نحن الأوربيين اليه من الناحية اللاهوتية • لقد حل بالتأكيد مشكلات ولقد قضى على توتر كان البعض يسعى للتخلص منه ، لكنه من المستحيل أن ننتقل من هذه المشاكل أو القضايا أو التوترات الى المحتوى القرآني (العقيدة القرآنيه Kerygma) ونحن غير مسلحين سوى بالتفكير المنطقي والاستدلال العقلي • فمن وجهة نظر العلمانيين الأوربيين (الذين لا يضعون العوامل الدينية أو الغيبيه في اعتبارهم عند تحليل مثل هذه الموضوعات) ، ربما أمكن القول ان محمدا ﷺ عندما كان يسمع من مصادر معتادة أفكارا بعينها ، فانه كان يتحقق أنها حل للمشكلات التي يواجهها ، ومن خلال التجربة والخطأ استطاع بالتدريج أن يبني نظاما • لكن حتى من خلال هذه النظرة العلمانية لا يمكن شرح مسار الحوادث بطريقة مقنعة . لقد حل القرآن الكريم مشـــاكل اجتماعية وأخلاقية وعقلية ، لكن ليس دفعة واحدة وانمـــا على مراحل وبتدرج غير محســـوس • قد يقول العلمانيون انه لمن محض الصدفه ولأسباب ثانوية أن محمدا راح يتردد عبر الأفكار التي اعتقد أن فيها حل المشاكل الأساسية في عصره ، وان ذلك ليس أمرا بعيدا عن المعقوليه • ان هذا القول لا هو مبني على الملاحظة والمشاهدة والتجربة حتى نقول انه تفكير علمي ، ولا هو تفكير صارم أو دقيق بما فيه الكفايه بحيث نقول انه ينطبق على المحتوى (الكيرجما) القرآني . ان المؤكد أن محمدا ﷺ لم يدخل في مسألة التحليل المجرد للوضع القائم كما نفعل نحن هنا . وبالنسبة للعلمانيين ، فان أفضل وصف هو (الحدس) أو (البديهة) مع خيال خلاق ، أو شيء كهذا • واني أحاول أن أقف على الحياد بين رأي هؤلاء العلمانيين من ناحية وما يقوله المسلمون من أن هناك عاملا الهيا ، أو سببا الهيا لتفسير الأحداث Divine irruption • •

وعلى أية حال ، فان هذا العامل لم يكن منفصلا عن الوسط الذي ظهر فيه • فكما اتضح من الفقرات السابقة ، لقد كان متلائما مع ظروف مكة حوالي سنة ٦١٠ للميلاد فلم يكن الوحي باللغة العربية فحسب ، لكنه أيضا كان في كثير من جوانبه عربيا في تكوينه رغم أنه نص لا يوجد نص في الأدب العربي يشبهه تماما • وفوق كل هذا ، فقد صيغ الوحي في

مصطلحات تعبر عن المفاهيم والصيغ الفكرية للعرب المعاصرين ونظرة اهل مكة • فمن غير العربى يختار الجمل دون غيره من مخلوقات الله للدلالة على عظمة الله سبحانه (٢٤) ؟ والصفات الأخرى التى يشير بها القران لقدرة الله سبحانه هى ـ بلا شك ـ متناسبة مع العرب خاصة • وأعمال الكرم التى يحث القرآن الكريم عليها تتمشى مع المثل البدوية القديمة •

انه لامر بديهى أن يبدأ أى مصلح بمخاطبة الناس كما هم (واضعا فى اعتباره اقدارهم الموجودة فعلا) . ويمكن شرح ذلك بطريقه سلبيه اذا اعتبرنا انه لم يكن هناك نقد للربا فى السور المكية • فاذا كان النظام المالى الذى تطور فى مكة هو المصدر الأساسى للمتاعب ، فلم لم يكن هناك نقد للربا فى أوائل ما نزل من القرآن الكريم ؟ (فى الكيرجما القرآنية كما ظهرت فى الآيات والسور الأولى) • لكن حتى لو سلمنا بصحة اسم الشرط فى الجملة السابقة (كون الظروف الاقتصادية هى المصدر الأساسى للمتاعب) ، فكيف نتجنب السؤالين التاليين : كيف كان يمكن نقد نظام الربا ؟ وكيف كان يمكن تمرير « نقد نظام الربا » الى أهل مكة ؟ اننا لن نعدم عندئذ أن يقول قائل ان الربا ليس شيئا سيئا ، لأنه لم يكن هناك مفهوم مجرد لما هو (صحيح) وما هو (خطأ) فى الاستشراف العربى (الاستشراف نوع من توقع نتائج أمر ما) • فقد كان الأقرب الى فهمهم هو (الشرف) و (ما يتنافى مع الشرف) ، لكن مفهوم الشرف ونقيضه كانا مرتبطين بالمثل الأخلاقية التقليدية ، ووفقا لهذه المثل فلا شىء يعاب فى الربا فى حد ذاته ، أو بتعبير آخر قد يرى أهل مكة فى هذه المرحلة المبكرة من الدعوة أن الربا لا يتعارض مع الشرف بمفهومهم التقليدى له ، وحتى اذا كان الشرف بمفهومه التقليدى مازال قائما ، فقد كان قد فقد كثيرا من قوته فى مكة • فلم تكن هناك قاعدة ـ اذن ـ فى الاستشراف المكى لقبول فكرة نقد الربا فى هذه الفترة المبكرة • ولم توجد هذه القاعدة الا عندما تم تكوين المجتمع الاسلامى الجديد القائم على أوامر الله سبحانه ثم تجلت فى القرآن الكريم ، فعندها كان يمكن أن يكون الأمر الالهى (لا ربا) أساسا من أسس هذا المجتمع ، وحتى عندما تم تطبيق

---

(٢٤) القرآن الكريم ١٧/٨٨ •

هذا الأمر فى المدينة فقد كان موجها أساسا ضد اليهود (٢٥) (*) · هذا التركيز على الاستمرار أو التواصل بين القرآن الكريم ، والاستشراف العربى القديم ، قد يبدو متناقضا مع ما ذكره جولدتسيهر Goldziher ، فى الفصل الأول من كتابه الشهير Muhammedanische Studien والذى تناول فيه (المروة) و (الدين) مع أنه ليس لدينا ما ندفع به ضد كتابات جولدتسيهر · الا أن التناقض – على أيه حال – ليس كاملا . ان هناك بعض التناقض بين ما دعا اليه محمد ﷺ على أسس قرآنية من ناحية والتراث العربى القديم – بشكل واضح · ولو لم يكن الأمر كذلك ، لما كانت هناك معارضة عنيفة له · وعلى أية حال ، فان المرء بوسعه أن يميز بين الدين من ناحية والجوانب الأخلاقية المستقيمة فى المروة . فالجانب الدينى – هو ما أطلق عليه عادة النزعة الانسانية humanism – يتكون من الثقة فى الانسان وانجازاته وفى الاعتقاد فى أن معنى الحياة يتجلى فى الامتياز الانسانى ، وهذا ما هاجمه القرآن الكريم بوضوح وبلا شك · أما الجوانب الأخلاقية الخالصة (التى أضعها فى اعتبارى عادة عند الحديث عن المروة) ، فهى مثل أخلاقية تشمل الشجاعة والصبر والكرم والاخلاص وما الى ذلك ، فهذه لم يهاجمها القرآن الكريم ، بل لقد انتقد أهل مكة لأنهم لم يضعوها فى اعتبارهم ·

وعندما يمعن القارىء فى الفصل الذى كتبه جولدتسيهر ، فانه يكتشف جوانب ضعف مختلفة · فبيانه عن التناقض بين المروة والدين يتضمن ثلاثة أمور : ففى مواجهة الأخذ بالثأر دعا محمد الى الصفح والغفران ، ووضع الاسلام قيودا على الحرية الشخصية خاصة فيما يتعلق بالخمر والنساء ، وفرض الاسلام الصلاة وهى بالتأكيد تتضمن توجها يتناقض بعمق مع حب البدو للاستقلال · ولا خلاف حول هذا الأمر الأخير ، فهو الجانب الدينى للمروة · وعلى أية حال ، فالتوضيحات الأخرى

---

(٢٥) Muhammad at Medina, 296 f.

(★) هذا التخصيص بجعل تحريم الربا موجها لليهود تخصيص لا دليل عليه ، فالربا هوجم فى القرآن الكريم بوجه عام · قال تعالى : « يمحق الله الربا » (البقرة ٢٧٦ ، وكان العباس عم الرسول يعمل بالربا – (المراجع) ·

غير مرضيه • فالتغييرات المتعلقة بالزواج وشرب الخمر ، ربما لا تكون راجعه الى عوامل اسلاميه وانما الى الاختلاف بين حياة البادية وحياة الاستقرار ، بينما تعاليم العفو عن الأعداء التي ذكرها جولدتسيهر في أفضل أوجهها تشير الى العفو عن الأقرباء المقربين • أما العفو عن الآخرين في نطاق المجتمع الاسلامي فتشير اليه آيات أخرى (*) • ومن قبيل الموازنة مع الاتجاهات العربية القديمة ، فان على المرء أن يعتبر من هو خارج الجماعة الاسلامية عدوا مادام المجتمع الاسلامي قد حل محل القبيلة أو العشيرة كوحدة اجتماعية • وعلى هذا ، فمن الناحية الأخلاقية الصرفة نجد أن فكرة الانفصال العميق العريض بين الاسلام والجاهلية هي فكرة ضعيفة •

وأخيرا ، هناك قضية العلاقة بين القرآن الكريم والمفاهيم اليهوديه المسيحية • دعنا نحاول أن نضع هذا السؤال في منظور صحيح • القرآن الكريم عامل فعال في حياة أهل مكة • ولكي نناقش (المصادر) فان هذه مسألة تشبه الى حد ما مناقشة(مصادر)هاملت التي ألفها شكسبير • سنجد في غالب الأحوال أن (مصادر) هاملت هي حيث حصل شكسبير على بعض خصائص مسرحيته . ان هذه المصادر لا تشرح لنا أصالة شكسبير الابداعية ، كما أنها لا تزيل الشكوك حولها ان كانت قائمة • وحتى اذا لم يكن هذا التناظر مقبولا من كل جوانبه لأن المناظرة أو الموازنة لابد أن تكون عن علاقة المصادر بعمل من تاليف محمد ﷺ ، ولم يكن القرآن الكريم في رأى المسلمين من انتاج محمد ﷺ وعلى هذا لابد من استبعاد هذه الفكرة • فاذا صدقنا محمدا ﷺ ، فان القرآن الكريم ليس نتاج عقله الواعي ، وفي هذه الحالة من الأفضل أن يربط بين القرآن الكريم وعقول الذين يخاطبهم ، ونعني بهم محمدا ﷺ نفسه والمسلمين الأوائل وأهل مكة عامة • وفي هذا السياق يمكن للمرء أن يسأل : الى أى مدى كانت الأفكار القرآنية المناظرة للأفكار اليهودية المسيحية ـ كانت بمثابة اشارات لأفكار كانت حاضرة بالفعل في عقول الناس قبل أن تصلهم رسالة القرآن ؟ ان السؤال على هذا النحو يتيح للدارس الغربي

(*) اشار المؤلف للآية ٣/١٢٨ والآية ٢٤/٢٢ ولا علاقة لهما بالسياق ، فهناك اذن خطأ لعله مطبعي في النص الانجليزي ـ (المترجم) •

المهتم بموضوع (المصادر) أن يناقش بشكل عملي كل النقاط التي يريد مناقشتها دون ان يكون معارضاً للعقيدة الاسلامية • وسيكون من الملائم أن نتعامل على حـدة مع كل من العنصرين التاليين : (١) الأفكار الاساسية و (٢) المادة التوضيحية والأفكار الثانوية •

ففي مجال الأفكار الأساسية ، كفكرة الله (سبحانه) ويوم الحساب ، فان القرآن الكريم نفسه (وكذلك الباحثين الغربيين) يشير الى ان الأفكار القرآنية في هذا الصدد متشابهه الى حد كبير مع أفكار اليهودية والمسيحية • آلا يعني هذا أن القرآن الكريم غير أصيل وأنه لا يمثل عاملا خلاقا ؟ الحق أن هذا القول غير صـحيح بالمرة • فهذا التماثل identity يرجع الى أن الذين خاطبهم القرآن (الكريم) بمن فيهم محمد ﷺ نفسه ، كان بعضهم متآلفا بالفعل مع هذه الأفكار عن الله سبحانه ويوم الحساب ، لكن ربما لم تكن على درجه كافية من الوضـوح • لقد بدأ القرآن هنا بالتعامل مع الناس كمـا هم أى بالأفكار التي كانت لديهـم بالفعل ، علم يكن أى يهودي أو مسيحي يتكلم العربية بقادر على احراز النجاح الذي حققه محمد ﷺ ، لو وقف بين أهل مكة وراح يكرر الأفكار اليهـودية والمسيحية • لقد كان سيبدو غريبا بينهم ، أما القرآن الكريم فقد خاطبهم عن الأفكار اليهودية المسيحية على نسق التفكير العربي وبفكر كان بالفعل حاضرا في عقول المتنورين منهم . ان أصالة القرآن الكريم تظهر في أنه قدم لهم مزيدا من التفاصيل عن أفكار كانت موجودة عندهم ، وكذلك مزيدا من الدقة والتحديد ، كما قدم لهم ما جعلهم يركزون على شخصيه محمد ﷺ ومهمته كرسـول لله سبحانه ، وكانت فكرة الوحي والنبوة بالتأكيد أفكارا يهودية مسيحية ، فأن نقول ان الله سبحانه يوحي كلماته من خلال محمد ﷺ ليس – على أية حال – الا مجرد تكرار لما حدث في الماضي ، لكنه جزء من عامل فعال .

ويتعرض أوائل ما نزل من السور والتي ناقشناها آنفا – بشكل جوهري – للأفكار الأساسية للعقيدة الاسلامية ، وليس من أحد من متنوري العصر بمن فيهم محمد ﷺ نفسه ، الا ولديه فكرة عنها • وتصبح القضية أصعب اذا تناولنا المادة التوضيحية التي استخدمها القرآن الكريم مثل

قصص الأنبياء . فما أورده القرآن من قصص للأنبياء قريب مما ورد فى المصادر اليهوديه والمسيحيه - عادة ليس من الأسفار المعتمدة فى العهدين القديم والجديد ، وانما من الاعمال المنسوبه الى الربيين (الاحبار) ، ومن الكتابات الابوكريفيه الملحقة بالعهد الجديد . وفى مثل هذه الحالات يجد الباحثون الغربيون صعوبة فى مقاومة الاغراء فى أن يصلوا الى نتيجة مؤداها أن القرآن الكريم من عمل محمد ﷺ وأنه ﷺ يكرر القصص التى سبق أن سمعها . لكن المسلمين لهم وجهة نظر أخرى .

عندما قبل المسلمون الأوائل محمدا ﷺ كنبى أصبحوا مهتمين بأخبار الأنبياء السابقين ، وكذلك كان محمد ﷺ مهتما مثلهم وراحوا يبحثون عن أخبارهم بقدر استطاعتهم . وبالتالى ، فقد ازداد رصيدهم من المعلومات بالتدريج ، وقد انعكس هذا فى القرآن . وبعض آيات القرآن نفسه تشير الى أن المادة التوضيحية (قصص الأنبياء) كانت معروفة :

(هل أتاك حديث الجنود (١٧) فرعون وثمود (١٨) ..) الآية ١٧ / السورة ٨٥ (البروج) .

وفى الوقت نفسه ، فهناك آية أخرى تشير الى أنه ليس كل التفاصيل كانت معروفة حتى لمحمد ﷺ نفسه :

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم ...) الآية ٤٤ / السورة ٣ (آل عمران) .

وعلى أية حال ، فهنا يجب أن نتذكر أن الفصل بين الحقيقة المجردة من ناحية ودلالاتها من ناحية أخرى ، وهو ما يأخذ به مفكرو الغرب ، ليس أمرا واضحا تماما فى الشرق . ربما كان محمد ﷺ قد عرف الحقائق المجرده فى سور وآيات تشير الى قصص مريم وعيسى وزكريا ويوحنا (عليهم السلام) . وكان محمد ﷺ يعلم بالفعل عنهم شيئا ، لكنه ربما لم يكن يدرك معنى الحقائق المجردة وأنه كان مطلوبا أن يعلم مزيدا من المعلومات عنها (أى عن دلالات هذه القصص) . ان المهمة الأساسية لهذه القصص -

وفقا لمصطلحات الباحثين الغربيين – هى تحويل معناها لا مجرد الاخبار بحقائقها المجردة ، لكن فى الشرق العربى حيث لا يهتم الناس بهذا الفصل بين الحقيقة ومعناها ، كان يكفى أن يسميها القــــرآن الكريم (أنبــاء) ، أى أخبار أو معلومات information .

هذا ما يمكن أن نتصور أن يقوله المسلم وهو يحاول اقناع الغربى الذى لم يقتنع بمعجزة أن القرآن أصلى وليس مجرد تكرار . وما أورده المسلمون من تفسير ربما كان أفضل كثيرا مما اعتاد الغربيون ترديده • وعلى أية حال ، فان هذه المسألة مسألة (لاهوتية) أو (دينية) أكثر منها تاريخية . كل ما يهم المؤرخ هو أن يلاحظ أن هناك شيئا ما أصيلا فى الاستخدام القرآنى لقصص الأنبياء ، وفى اختياره للنقاط التى يركز عليهـــا •



الفصل الرابع

أول من أسلم

١ ـ الروايات المتداولة عن المسلمين الأوائل

لأن النبالة (الشرف) في الاسلام تقوم ـ نظريا ـ على خدمة قضية المجتمع الاسلامي ، فان المسلمين في عصور لاحقة نظروا باحترام وتصديق لمعظم دعاوى أجدادهم بخدمة قضية هذا المجتمع (أو الجماعة) ، لذا فالروايات المتداولة عن أوائل المسلمين يجب النظر اليها بتدقيق ، واذا وجدنا قولا عن واحد من هؤلاء منسوبا الى أحد سلالته أو المعجبين به مؤداه أنه كان من بين المسلمين الاثنى عشر الأوائل ، فلابد أن نستنتج ونحن مطمئنون أنه كان في الخامسة والثلاثين من عمره .

هناك اتفاق عام على أن خديجة كانت هي أول من آمن بزوجها (محمد ﷺ) ورسالته ، لكن هناك خلافات حادة بشأن أول من أسلم من الرجال . وقد أورد الطبري (١) مقتطفات كثيرة من المصادر ، وترك القارىء يقرر بنفسه مختارا بين ثلاثة مسلمين : علي ، وأبي بكر ، وزيد ابن حارثة . وبالفعل ، فان القول بأن عليا هو أول من أسلم قول صحيح ، لكنه وفقا لما يراه الكتاب الغربيون ، مسألة لا معنى لها لأن عليا كان في التاسعة أو العاشرة من عمره حين أسلم ، كما كان من أسرة النبي ﷺ ، والقول بأن أبا بكر هو أول من أسلم قد يكون أيضا صحيحا ، وان اختلف معنى اسلامه عن اسلام علي رضي الله عنه اختلافا كبيرا لأن أبا بكر ـ على

---

(١) Ann, 1159-1168.

الأقل وقت الهجرة الى الحبشة ـ كان هو أهم مسلم بعد الرسول ﷺ ، لكن قد تكون الروايات الأولى قد أرجعت فترة اسـلامه الى مدة أقدم . والحقيقة المطلقة تشير الى أنه ربما كان زيد بن حارثة هو أول رجل أسلم ، لأنه كان عتيق محمد ﷺ ولارتباطه بالنبى ارتباطا شديدا ، لكن وضعيته المتواضعة تجعل اسلامه ليس بأهمية اسلام أبى بكر (٢) .

تشير الروايات (٣) الى أن مجموعة مهمة دخلت الاسلام بفضل جهود أبى بكر . والرجال الخمسة بالاضافة لعلى بن أبى طالب كانوا صحابة من الطبقة الأولى عنـد موت عمر بن الخطاب ، وقد رشحهم لتولى الخلافة بعده (أن يختاروا من بينهم خليفة له كما هو معروف ـ المترجم) ، ومن المستبعد أن هؤلاء الخمسة كانوا قد أتوا للرسول مجتمعين قبل موت عمر رضى الله عنه بعشرين عاما فى مرحـلة مبكرة جدا من تاريخ الاسلام . وهؤلاء الخمسة هم : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله . وبالنسبة لعبد الرحمن بن عوف يقال انه أسلم فى الوقت نفسه الذى أسلمت فيه مجموعة كان على رأسـها عثمان بن مظعون (٤) ، وقد أورد الطبرى مزيدا من الروايات عن ابن سعد تشير الى أربعة رجال آخرين يقال انهم رابع أو خامس من أسلم ، وهم : خالد بن سعيد ، وأبو ذر ، وعمرو بن عبسه Abasah (لعله عنبسه / المترجم) والزبير .

ورغم وجود أساس للشك فى الروايات المتعلقة بأوائل المسلمين الا أن قائمة المسلمين الأوائل التى أوردها ابن اسحق (٥) ، قد تكون مقبولة الى حد كبير . والجدير بالملاحظة ، أن هذه القائمة تضم أسماء أناس لم يحققوا شهرة فى أزمنة لاحقة ، وان احتلوا الصدارة مع بداية ظهور الاسلام . ومن هؤلاء : خالد بن سعيد بن العاص الذى كان أبوه تاجرا

---

(٢) انظر الملحق (د) . Nöldeke, ZDMG, 52, 18-21.

(٣) الطبرى ، نفسه ، ١١٦٨ ، ابن هشام ، ١٦٢ .

(٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٣ ، ج ١ ، ٢٦٨ وما بعدها .

(٥) ابن هشام ، ١٦٢ ـ ١٦٥ ، وقد رقمها : Caetani in: Annal, I, 236 f.

كبيرا في مكة في ذلك الوقت ، وسعيد بن زيد بن عمرو الذى كان ابوه يبحث عن الدين الصحيح قبل نبوة محمد ﷺ ، ونعيم النحام الذى ربما كان أحد زعماء عشيرة عدى لكنه لم يهاجر للمدينة حتى السنة السادسة للهجرة . وعلى قدر علمي ، فان كل اولئك الدين وصفهم ابن سعد بأنهم دخلوا الاسلام قبل أن يدخل محمد ﷺ بيت الارقم موجودون في هده القائمة ، وهناك ايضا واحد أو اثنان يصف ابن سعد ـ عادة ـ الواحد منهم بأنه (قديم الاسلام) . ولأن ابن اسحق لم يذكر دار الأرقم ، فربما يكون قد رجع لمصادر مختلفة عن تلك التى رجع اليها ابن سعد . وعلى هذا فقائمته تضم ما اتفقت عليه روايتان .

وسيكون من المفيد عند استعراضنا لحياة المسلمين الأوائل أن ننقل هذه الفقرات المنسوبة للزهرى (٦) ، والتى تفيد أن رسول الله ﷺ دعا

---

(٦) ابن سعد ١ ، ١٣٣ .

النص بلغة ابن سعد ، ص ١٣٦ في طبعة دار الفكر :

« دعا رسول الله ﷺ الى الاسلام سرا وجهرا ، فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول ، فكان اذا مر عليهم فى مجالسهم يشيرون اليه ان غلام بنى عبد المطلب ليكلم من السماء ، فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التى يعبدونها دونه ، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فشنفوا لرسول الله ﷺ عند ذلك وعادوه .

اخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى ابراهيم بن اسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما أنزلت : « وأنذر عشيرتك الاقربين » (١) : صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال : « يا معشر قريش ! » فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، فاقبلوا واجتمعوا فقالوا : ما لك يا محمد ؟ قال : « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟ » قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط ، قال : « فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد يا بنى عبد المطلب يا بنى عبد مناف يا بنى زهرة » ، حتى عدد الافخاذ من قريش ، « ان الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وانى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا الا أن تقولوا لا اله الا الله » ، قال : يقول أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى : (تبت يدا أبى لهب وتب) (٢) السورة كلها .

اخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى ابن موهب عن يعقوب بن عتبة قال : لما اظهر رسول الله ﷺ الاسلام ومن معه وفشا أمره بمكة ودعا بعضهم بعضا ، فكان أبو بكر يدعوا ناحية سرا ، وكان سعيد بن زيد مثل ذلك ، وكان عثمان مثل ذلك ، وكان عمر يدعو علانية ، وحمزة بن عبد المطلب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، فغضبت قريش من ذلك ، وظهر منهم لرسول الله ﷺ الحسد والبغى ، واشخص به منهم رجال فبادوه وتستر آخرون .

للإسلام سرا وجهرا وهناك من استجاب لله ممن أراد الله هداهم من الشباب وضعاف الناس الذي يكون من امن بالله كثيرين، وان كفار قريش لم ينتقدوا ما قاله الرسول ، وعندما مر بهم وهم جلوس في مجموعات أشاروا اليه قائلين : (هذا هو الفتى من عشيرة عبد المطلب الذي يقول ان الخبر يأتيه من السماء) واستمر ذلك حتى انزل الله قرآنا ينعرض للاوثان التي يعبدونها من دون الله وينعرض لمصير اباتهم الذين ماتوا على الكفر . ومن هنا (منذ حدث ذلك) بداوا يكرهون رسول الله ﷺ ويعادونه .

وأحد أهداف استعراضنا لاوائل المسلمين ان نحاول اكتشاف المعنى الدقيق لعبرة (احداث الرجال) و (ضعفاء الناس) التي وردت بالنص ، وبالتالي فسنركز على عمر هؤلاء المسلمين الأوائل ووضعياتهم الاجتماعيه · وسنتعرض لهم كطبقتين منفصلين · وقد ذكر ابن سعد عدة أشخاص كانوا من بين (المستضعفين) وهذا يعنى ان هؤلاء يشكلون طبقة صغيرة محددة (٧) ، ومن ناحية اخرى فان بعض الشباب (أحداث

---

(٧) ابن هشام ، ٢٦٠ ، وانظر أيضا القرآن الكريم ، السورة ٢٨ (القصص) ، الآية ٥ :

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين) ·

النص كما ورد فى ابن هشام فى الطبعة التى بين أيدينا (طبعة مكتبة الايمان : ص ٢٨) :

« ·· قال ابن اسحاق : وكان رسول الله ﷺ اذا جلس فى المسجد ، فجلس اليه المستضعفون من اصحابه ـ خباب ، وعمار ، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية ابن محرث وصهيب ، وأشباههم من المسلمين ، هزئت بهم قريش ، وقال بعضهم لبعض هؤلاء أصحابه كما ترون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء اليه ، وما خصهم الله به دوننا فأنزل الله تعالى فيهم (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ··· » · لكنها ليست الاشارة الوحيدة فهناك اشارات أخرى منها :

« ·· ذكر عدوان المشركين على المستضعين ممن أسلم بالأذى والفتنة : قال ابن اسحاق : ثم انهم عدوا على من أسلم ، واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ، ويعصمه الله منهم :

الرجال) الذين التفوا حول الرسول ﷺ كانوا من بين أكثر الأسر نفوذا في مكة ، ومن هنا فلا يمكن أن نطلق عليهم (ضعفاء) ٠

٢ ـ استعراض للمسلمين السابقين

لخصنا فى الملحق (هـ) المعلومات الأساسية عن المسلمين الأوائل ومناوئيهم ، وهدفنا الآن أن نعلق على هذه المعلومات وأن نلفت الانتباه للأمور المهمة ٠ فمادام الموقف الاجتماعى للمرء يقوم على وضعه بين عشيرته وعلى وضع عشيرته فى المجتمع (الجماعة) ككل ، فمن المرغوب فيه أن نتعرض لكل عشيرة بشكل مستقل ٠ وحيثما كانت المعلومات التى نسوقها قائمة على ما ورد فى الملحق (هـ) أو مستقاة من كتاب الطبقات لابن سعد ، فلن نشير فى الهوامش الى اسم المرجع لأن ذلك سيكون مفهوما ضمنا ٠ أما ترتيب العشائر هنا ، فسيكون على نسق ما ورد فى آخر الفقرة الثانية من الفصل الأول ٠

هاشـــم

لقد ناقشنا فيما سبق (الفصل الثانى ـ الفقرة ـ ١) وضع عشيرة هاشم فى المجتمع المكى وملنا الى أنه فى فترة زعامة عبد المطلب كان وضع العشيرة مهزوزا ، وبصرف النظر عن النبى محمد ﷺ وأفراد أسرته بمن فيهم على وزيد بن حارثة ـ فقد كان الداخلون الأوائل للاسلام من عشيرة هاشم هم : جعفر بن أبى طالب وحمزة بن عبد المطلب ٠ وبالنسبة لحمزة ـ عم النبى ﷺ فرغم أنه كان فى مثل عمر النبى ﷺ تقريبا ، فربما كان

= ما لقيه بلال وتخليص أبى بكر له : وكان بلال ، مولى أبى بكر رضى الله عنهما ، لبعض بنى جمح ، مولدا من مولديهم ، وهو بلال بن رباح ، وكان اسم امه حمامة ، وكان صادق الاسلام طاهر القلب ، وكان امية بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجه اذا حميت الظهيرة ، فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ؛ فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد ٠

قال ابن اسحاق : وحدثنى هشام بن عروة عن أبيه ، قال : كان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك ، وهو يقول : أحد أحد ؛ فيقول : أحد أحد والله يا بلال ٠٠ » ٠

محترما كمحارب الا أنه من الممكن أنه لم يكن يحصل عملا كبيرا في مجالس شورى العشيرة ، ويتضح تدني وضع حمزة وجعفر في العشيرة اذا عرفنا أن كلا منهما تزوج من قبيلة خثعم البدوية ، بينما أبو لهب الذي ربما أصبح زعيما للعشيرة بعد موت أبي طالب وناوأ محمدا ﷺ مناوأة مريرة — فقد كان قادرا على الزواج من ابنة حرب بن أمية ، الذي كان في وقت من الأوقات زعيما لبني عبد شمس وواحدا من أقوى رجال مكة .

المطلب

لقد أصبحت هذه العشيرة كما هو ظاهر ضعيفة جدا وكانت معتمدة اعتمادا كبيرا على بني هاشم . وكان لدى عبيدة بن الحارث عشرة أبناء الا أنه أنجبهم جميعا من جوار . وكان مسطح فقيرا — وربما توفي أبوه ، لأنه كان يتلقى عونا من أبي بكر الذي كانت أمه أختا لأم مسطح . وكان عبيدة الذي يكبر محمدا ﷺ ببضع سنين واحد أكبر المسلمين سنا — أول من أسلم في هذه العشيرة ، والمسلمون الآخرون في بدر كانوا اخوته وابن عمه (مسطح) الذي ربما يكون أيضا قد تأثر بقرابة أمه بأبي بكر . وقد حارب جزء من هذه العشيرة ضد محمد ﷺ في غزوة بدر لكن لم يكن أحد منهم من البارزين بأية حال من الأحوال .

تيم

لم يكن لهذه العشيرة أيضا غير دور قليل في شئون مكة ، وفي شباب محمد كان زعيمها (شيخها) هو عبد الله بن جدعان ، ذلك لأن الاجتماع الذي تم فيه تشكيل حلف الفضول كان قد عقد في بيته ، وسمعنا أيضا عن لقاء محمد ﷺ بأبي جهل هناك(٨) ، وربما يكون عبد الله بن جدعان قد مات قبل الآن ، وأن ابنه عمرو الذي قتل وهو يحارب ضد المسلمين في بدر لم يكن له الأهمية نفسها التي كانت لأبيه . وكان لأبي بكر بعض النفوذ بين عشيرته عند تحوله للاسلام ، لكنه لم يكن من القوة بمكان يجعله يحول عددا كبيرا من عشيرته الى الاسلام . وكانت ثروته قوامها ٤٠ ألف درهم عندما أسلم ، مما يدل على أنه لم يكن تاجرا كبيرا (٩) . والمسلم الآخر الذي

---

(٨) ابن هشام ، ٨٥ ، ٤٥١ ، وانظر أيضا ص ٣٢ من النص الانجليزي .

(٩) Lammens, Mecque, 226,228 (322-4).

أسلم في فترة مبكرة من هذه العشيرة (تيم) هو طلحة وكان أصغر سنا من أبي بكر بكثير ، وكان من فرع آخر من العشيرة • وكان أحد أعمامه وابن اخيه لازالا على الوثنية وقتلا في غزوة بدر ، وكان مرتبطا بقوافل التجارة مع الشام • وكان على علاقة حميمة بأبي بكر الذى أخذه لمقابلة محمد ﷺ فاعلن إسلامه • أما اسلام صهيب بن سنان فيبدو أنه كان حالة مستقلة منفصلة عن اسلام الاثنين الآنف ذكرهما ، فهو بيزنطي التعليم ان لم يكن أيضا بيزنطي (رومي) الميلاد ، وصلته الوحيدة بتيم هو أنه كان في وقت من الأوقات عبدا لعبد الله بن جدعان • وكان صهيب صديقا لعمار بن ياسر حليف بني مخزوم الذي كان له بدوره ارتباطات بيزنطية • وكان لصهيب من الثروة ما أسال لعاب المشركين طمعا ، وكانت عشيرة تيم اما غير قادرة على حمايته واما غير راغبة في ذلـــك •

زهـــرة

وكانت عشيرة زهرة تبدو أكثر رخاء وازدهارا من العشـــيرتين السابقتين (تيم والمطلب) • وكان لبعض فروعها علاقات تجارية تعمقت بالزواج من عشيرة عبد شمس ، فأم سعد بن أبي وقاص كانت حفيدة أمية بن عبد شمس • وكان عبد الرحمن بن عوف قبل أن يسلم قد تزوج من بنات عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وأخيه شيبة • ومرة أخرى نجد أن مخرمة بن نوفل من عشيرة زهرة كان واحدا من الزعماء الذين يقفون على قدم المساواة مع أبي سفيان صاحب القافلة التى ارتبط ذكرها بغزوة بدر • وكانت هذه العشيرة في وضع غريب على الأقل منذ موقفها من زيارة محمد ﷺ للطائف (عندما طلب محمد ﷺ منها الحماية) وحتى بعد غزوة بدر ، كان الزعيم الحليف هو الأخنس بن شريق (*) • وقد مات

(★) يشير الى رفض ابن شريق حماية الرسول عند دخوله مكة بعد عودته حزينا من الطائف • وهذا نص ما أورده الطبري ، جـ ١ ، ص ٥٥٥ •

• ثم قدم رسول الله ﷺ مكة • وقومه أشد ما كانوا عليه من خلاف وفراق دينه ، الا قليلا مستضعفين ممن آمن به •

وذكر بعضهم أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الطائف مريدا مكة مر به بعض أهل مكة ، فقال له رسول الله ﷺ : هل أنت مبلغ عني رسالة ارسلك بها ؟ فقال : نعم ، قال : =

- الآن الأسود بن عبد يغوث الذى كان فيما مضى (*) شخصية بارزة .

والشخص الأساسى الذى تحول للاسلام كان عبد الرحمن بن عوف (المقصود من عشيرة زهرة) ، وكانت سنه وقت الهجرة ثلاثة وأربعين عاما وحقق شهرة كرجل أعمال ماهر . وهناك رجل منهم آخر أسلم مبكرا . وينتمى الى فرع آخر من العشيرة (بنو عبد مناف بن زهرة) وهو سعد ابن أبى وقاص الذى يقال انه أسلم وهو فى السابعة عشرة من عمره . ووفقا لاحدى الروايات فإن أبا بكر هو الذى أحضره الى النبى محمد ﷺ ولكن رواية أخرى تذكر أنه أتى محمدا ﷺ مع عثمان بن مظعون ، ثم

= انت الاخنس بن شريق ، فقال له : يقول لك محمد : هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟ قال : فأتاه ، فقال له ذلك ، فقال الاخنس : ان الحليف لا يجير على الصريح . قال : فأتى النبى ﷺ فأخبره ، قال : تعود ؟ قال : نعم ، قال : ائت سهيل بن عمرو ، فقل له : ان محمدا يقول لك : هل انت مجيرى حتى ابلغ رسالات ربى ؟ فأتاه فقال له ذلك قال : فقال ابن بنى عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب . قال : فرجع الى النبى ﷺ فأخبره ، قال : تعود ؟ قال . نعم ، قال : ائت المطعم بن عدى ، فقال له : ان محمدا يقول لك هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالات ربى ؟ قال : نعم ، فليدخل ، قال : فرجع الرجل اليه ، فأخبره ، وأصبح المطعم بن عدى قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه ، فدخلوا المسجد فلما رآه أبو جهل ، قال : أمجير أم متابع ؟ قال : بل مجير ، قال : فقال : قد أجرنا من أجرت ، فدخل النبى ﷺ مكة وأقام بها ... » .

وفى الوقت نفسه كان من رأى الأخنس بن شريق عدم الدخول فى حرب مع محمد ﷺ فى غزوة بدر ، وفيما يلى نص ما أورده الطبرى ، جـ ٢ ، ص ٢٩ :

« .. فقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى - وكان حليفا لبنى زهرة وهم بالجحفة : يا بنى زهرة ، قد نجى الله لكم أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرمة ابن نوفل ؛ وانما نفرتم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا بى جبنها وارجعوا ، فانه لا حاجة بكم فى ان تخرجوا فى غير ضيعة ؛ لا ما يقول هذا - يعنى أبا جهل - فرجعوا ، فلم يشهدها زهرى واحد ؛ وكان فيهم مطاعا . ولم يكن بقى من قريش بطن الا نفر منهم ناس ، الا بنى عدى بن كعب ، لم يخرج منهم رجل واحد ، فرجعت بنو زهرة مع الأخنس بن شريق ، فلم يشهد بدرا من هاتين القبيلتين أحد . ومضى القوم .. » .

(المترجم) :

(*) أورد الطبرى (جـ ١ : ص ٥٤٤) فى هذا السياق :

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : حدثنا أحمد بن المفضل ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى : أن ناسا من قريش اجتمعوا ، فيهم أبو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ؛ فى نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا الى أبى طالب فنكلمه فيه ؛ فلينصفنا منه ، فيأمره فليكف عن شتم آلهتنا ، وندعه وإلهه الذى يعبد ؛ فانا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شىء فتعيرنا العرب ؛ يقولون : تركوه ؛ حتى اذا ما مات عمه تناولوه ... » .

اخضر سعد أخويه تباعا ليعتنقوا اسلامهم ثم الرسول . عامر بن أبي وقاص ، وعمير بن أبي وقاص ، وربما أحضر أيضا مسعود بن ربيعة ذلك الحليف الغامض (المقصود الذي لا نعرف عنه الكثير) : لكن الجدير بالملاحظة أنه كان لسعد بن أبي وقاص أخ آخر هو عتبة بن أبي وقاص ، كان واحدا من أربعة تعاهدوا قبيل غزوة أحد على قتل محمد ﷺ أو أن يقتلوا دونه . وقد يكون عبد الله بن مسعود ، حليف بني عبد الحارث بن زهرة وهو الفرع الذي منه عبد الرحمن – تبعه في دخول الاسلام (أسلم بعده) ، وربما يكون قد ذهب حظنا اسلامه بشكل مستقل (دون أن يصحبه أحد). ويقال انه قابل محمدا ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه ، بينما كان يرعى قطعان عقبة بن أبي معيط (من بني أمية بن عبد شمس) . وهذا الوضع (رعي القطعان) قد يدل على أنه كان شابا ولا يدل بالضرورة على فقره ، لأن سنه وقت الهجرة كانت أكثر قليلا من ثمانية وعشرين عاما ، ولابد أن صلته بعبد شمس لم تكن مغفلا عنها (أو كانت موضوعة في الاعتبار) . وقد حقق مكانة عالية في الاسلام واعتبر على رأس مجموعة مكونة من اخيه عتبة وحفيد ابن أخيه وعبد الله بن شهاب ، وقريبه عمير بن عبد عمرو ذي اليدين . ولم يكن الحليف خباب بن الأرت مرتبطا ارتباطا وثيقا بأي من الذين سبق ذكرهم . وكان رجلا فقيرا وكانت أمه خاتنة وكان هو حدادا . ومعنى ذلك أنه لم يكن في جوار أحد (لم يكن في حماية أحد) . لقد عانى كثيرا نتيجة اسلامه . ويشترك المطلب بن أزهر واخوه طليب مع عبد الرحمن بن عوف في جد واحد (*) . وهذا ، بالاضافة الى حقيقة أن امهما كانت من بني المطلب قد زاد من أهميتهما (أعطاهما ثقلا) . وكان المقداد بن عمرو – حليف الزعيم القديم الأسود بن عبد يغوث وابنه بالتبني – في الحبشة كواحد من المسلمين المهاجرين اليها ، لكنه لم يغادر المكيين الا بعد الهجرة ببعض الوقت ، وان كان ذلك على أية حال قبل غزوة بدر (١٠) ، وربما كان غنيا ويقال انه كان يمتلك في غزوة بدر

(*) هذا صحيح فهو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحرث بن زهرة ، وجد المطلب بن ازهر واخيه طليب هو عبد عوف . (الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٢٧ . ج ٣ ، ص ٨٧) طبعة دار الفكر – (المترجم) .

(١٠) ابن هشام ، ٤٢٦ .



حصبانا . وكان شرحبيل منفصلا عن كل هؤلاء ، وكان مرتبطا أكثر بسفيان بن معمر ، وعشيرة جمح .

عدى

كان بنو عدى فيما مضى ينتمون الى الأحلاف وسنلاحظ أن أمهات مسلمى عدى كن فى الغالب من سهم وجمح ، بينما كانت أم عمر نفسه مخزومية ، وقد غيرت عدى مواقفها فى حوالى ذلك الوقت ربما لأن عبد شمس التى كانت بينها وبينهم عدواة مريرة قد اقتربت – أى عبد شمس – من مخزوم والأحلاف (١١) . وربما كان الوضع العام لبنى عدى فى حالة تدهور أيضا ، فكون معمر بن عبد الله كان هو المسئول الأول عن مناهضة الاحتكار والتصدى له فمعنى هذا أن عدى كانت قد استبعدت من رابطة المحتكرين الأقوياء . فلا أحد من بنى عدى – باستثناء عمر – كان ذا أهمية كبيرة فى مكة ، فابو عمر بن الخطاب وجده نوفل كانا من رجالات العشيرة البارزين ، اذا وضعنا فى اعتبارنا عدد حلفائهم ومعاملة الخطاب لزيد بن عمرو (١٢) وكان للخطاب على الأقل زوجة واحدة من مخزوم . وربما كان أول من دخل الاسلام من بنى عدى هو سعيد بن زيد بن عمرو الذى كان أبوه واحدا ممن انشغلوا بالبحث عن الدين الحق قبل الاسلام ، وانخرط فى أداء شعائر دينية خاصة تتصف بالزهد (قبل الاسلام) . وربما يكون قد ترك تأثيره فى المتحالفين الستة الذين ذكروا باعتبارهم المسلمين الأوائل . وثمة مسلم آخر سابق للاسلام هو نعيم بن عبد الله النحام الذى تعود أن يطعم فقراء العشيرة كل شهر . وربما كان شيخا (زعيما) للعشيرة طوال ست سنين أثناء الحقبة الاسلامية ، لأنه رغم اعتناقه للاسلام فى وقت مبكر ، فانه لم يهاجر فى الفترة التى هاجر فيها محمد ﷺ . وربما كان عمر بن الخطاب هو شيخ العشيرة أو على الأقل – وهذا مؤكد – واحدا من زعمائها ، ورغم أنه أسلم بعد فترة قليلة من اسلام الذين ذكرهم ابن اسحق فى قائمته ، الا أن

---

(١١) انظر ، ص ٧ فى النص الانجليزى .

(١٢) ابن هشام ، ١٤٧ .

اسلامه كان خطوة عظيمة للجماعة الاسلامية . وكان عمر بلا شك متأثرا باسلام سعيد بن زيد ابن ابن عم أبيه ، وزوجة سعيد ، أخت عمر ، وعثمان بن مظعون (*) ، نسيبه brother in law والمتحالفين مع أسرته ، وربما كان الانهيار الاقتصادي الذي كانت تعانيه عشيرته قد لعب دورا على نحو غير شعوري .

الحارث بن فهر

كانت مضارب هذه العشيرة على الخط الفاصل بين قريش البطاح وقريش الظواهر ، وربما يكون وضعها في حالة تحسن ، لكنها لم تكن عشيرة ذات أهمية كبيرة ، فلم نسمع عن رجل ذي شأن من بين مشركيها ؛ وكانت تحالفاتها عن طريق الزواج خارج العشيرة مع عشائر ضعيفة ، مثل عامر وزهرة . وأهم المسلمين الأوائل منها هم : أبو عبيدة بن الجراح ، وسهيل بن بيضاء ، والأول (أبو عبيدة) كان صديقا لعثمان بن مظعون ، وربما كان الثاني (سهيل) هو الصديق الشاب لأبي بكر رضي الله عنه .

عامر

عامر عشيرة أخرى تقطن المنطقة الواقعة بين قريش البطاح وقريش الظواهر ، ويبدو أن وضعها قد تحسن زمن الهجرة ، وكان وضعها يسمح لها بالتزاوج مع هاشم ونوفل بل وحتى مخزوم . وكان رجلها المهم حتى غزوة بدر على الأقل هو سهيل بن عمرو . وجدنا أمر مهم لأن الفردين الوحيدين من العشيرة المدرج اسماهما في قائمة المسلمين الأوائل ، هما الشوام : حاطب ، وسليط ، وأكثر مسلمي هذه العشيرة شهرة هو ابن أم مكتوم الذي كانت أمه من بني مخزوم .

(*) في الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ، ص ٣٢٤ في ترجمة قدامة بن مظعون أخي عثمان أنه كان من بين زوجات قدامه صفية بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب (طبعة دار الفكر ، بيروت) — (المترجم) .

أسـد

كانت عشيرة أسد قد زادت أهميتها بشكل واضح ، وتحللت عن ارتباطاتها القديمة بحلف الفضول لتدخل في دوائر المال والتجارة بشكل واسع . وكان من بين مشركي مكه المشاهير من هذه العشيرة : زمعة بن الاسود ، وابو البختري ، ونوفل بن خويلد ، وحكيم بن حزام وقد تزوج زمعه من بني مخزوم وتزوج نوفل من بني عبد شمس . ومن الواضح ان الزبير كان هو الوحيد من بين أوائل من دخل الإسلام من هذه العشيرة ، وكان في السادسة عشرة من عمره فحسب ولا يمكن أن يكون له تاثير في عشيرته ولا حتى في فرع خويلد الذي هو من فروع أسد ، وربما كانت قرابته لخديجة عن طريق أبيه ، وقرابته لمحمد ﷺ عن طريق أمه - جعلت تحوله للاسلام أمرا سهلا . والآخرون الذين هاجروا للحبشة يبدو أنهم كانوا أعضاء صغارا في الأسر الرئيسية .

نـوفل

يبدو أن هذه العشيرة لم تكن كبيرة العدد ، لكن شيوخها (قادتها) كان لهم نفوذ كبير ربما بحكم قرابتهم من عبد شمس . لقد عملوا مع بني مخزوم لكنهم لم يكونوا تابعين لهم ، فقد كانوا قادرين على أن يكون لهم طريق مستقل . والمسلم الوحيد الذى ذكره ابن سعد من هذه العشيرة - ولم يكن من السابقين الأوائل للاسلام - كان حليفا للعشيرة وأسلم معه عتيقه (*) (عبده المعتق - بفتح التاء) .

عبـد شمس

تنازعت عبد شمس ومخزوم على مكان الصدارة في مكة ، لكن كليهما تحققا أن المجال الواسع للمصالح المشتركة ، لا يستدعي المنافسة ذات الأبعاد المفرطة في المرارة . وبعد غزوة بدر ، كان أبو سفيان بن حرب

(*) هما عتبة بن غزوان ، وعتيقه خباب . الطبقات الكبرى ، ج ٢ ، صص ١٠٩ - ١١٠ - (المترجم) .



هو المواطن الأول فى مكة (الزعيم المكى) ، نظرا لمقتل عدد من شيوخ مخزوم فى هذه الغزوة . لكن فى بواكير البعثة المحمدية كان أبو أحيحة سعيد بن العاص قد أحرز أيضا قدرا كبيرا من القوة (١٣) والنفوذ ، وحتى موتهم فى بدر كان عقبة بن أبى معيط وابنا ربيعة : عتبة وشيبة – كانوا فى المقدمة (من السابقين) .

وكان المسلمون الأوائل من هذه العشيرة هم : عثمان بن عفان ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وخالد بن سعيد (أبو أحيحة) وأسرة خليفه جحش ، عبيد الله ، عبد الله ، وأبو أحمد . وكان أبو حذيفة وخالد ابنين لشيخين (رجلين زعيمين أو ذوى مكانة) ، لكن كون أمهما من كنانة – وهى قبيلة كانت علاقتها غير قوية بقريش – جعل مكانتهما متدنية فى أسرتيهما . ولم يكن آباء عثمان بن عفان المباشرون ذوى مكانة بارزة . وربما كان عثمان أيضا يغار من أقربائه الأغنى منه والأكثر نفوذا . وقبل الهجرة بعشر سنين ، كان عمر عثمان حوالى ثلاثين عاما ، وكذلك كان عمر أبى حذيفة وهو العمر الذى أصبح فيه تراؤهما المنتظر أمرا واضحا نسبيا . وكون جدة عثمان رضى الله عنه لأمه كانت أختا لوالد محمد ﷺ هو الذى مهد الطريق لاسلامه . ولم تكن أسرة جحش مرتبطة ارتباطا مباشرا بأى ممن ذكرناهم آنفا لكنها كانت متحالفة مع حرب ، والد أبى سفيان وكانت أمهم ابنة أخرى لعبد المطلب . وكان أفراد هذه الأسرة من أوائل المسلمين وهاجروا الى الحبشة ، وهناك تحول عبيد الله الى المسيحية . ومعظم حلفاء عبد شمس الآخرين الذين أسلموا قبل غزوة بدر ربما يكونون قد تأثروا بهذه الأسرة .

مخـــزوم

كانت مخزوم كما هو واضح لنا المجموعة السياسية السائدة فى مكة قبل غزوة بدر ، وكان أبو جهل على وجه التحديد هو قائد المعارضة ضد محمد ﷺ . وكانت مخزوم كثيرة العدد وكان آل المغيرة منهم بالذات هم

(١٣) Lammens, Mecque, index.

الأكثر قوة ونفوذا (المغيرة هو جد أبي جهل) وكان الاثنان الرئيسيان اللذان أسلما في وقت مبكر من بني مخزوم هما : أبو سلمة ، والأرقم وكلاهما حفيدا أخوى المغيرة . وربما كان الأرقم ـ رغم أنه كان شابا ـ على رأس أسرته ، لأنه كان قادرا على فتح بيته ليكون مقرا للمسلمين . وكان لأبي سلمة أخ قتل مع من قتل من المشركين في غزوة بدر ، كما كان له ابنا عم التحقا به عندما هاجر للحبشة . وبصرف النظر عن هذا ، فمن الصعب أن نفهم كيف ظلوا في عشيرتهم ، أما الثالث الذي تحول للاسلام فهو عياش وكان ابن عم أبي جهل كمـــا كان اخا لأبي جهل من أمه Uterine brother ومع أنه ذهب للمدينـة مهاجـرا ، الا أن أبا جهل حثه على العودة الى مكة . وكان شماس الذي هاجر للحبشة وقاتل في بدر ينتمي الى فرع آخر في العشيرة لا نعرف عنه الكثير . ويمكن أن نعتبر عمار بن ياسر حليف أبي حذيفة بن المغيرة أيضا من مخزوم . وكان أبوه قد استقر في مكة ، ولا شك أن صلتهم بقبيلتهم قد انقطعت . وكان ذا صلة بالمسيحية من خلال الزوج الثاني لأمه ؛ وهو عتيق من أصول يونانية ، وعلى هذا فمن المفترض أنه مسيحي . ويبدو أن هذه الأسرة كانت متدينة صادقة الايمان .

سـهم

كانت سهم من أكثر العشائر قوة ، وقد كان حلف الفضول موجها على نحو ظاهر ضدهم في المقام الأول ، واليهم لجأت عدي طلبا للمساعدة عندما عجزوا عن مواجهة بني عبد شمس (١٤) . وقد ورد ذكر العاص ابن وائل ، والحارث بن قيس بن عدي من بين أعتى أعداء محمد ﷺ . وعلى أية حال ، بدا زعيما سـهم هما : منبه بن الحجاج وأخوه نبيه (بنون مضمومة وباء مفتوحة) . والوحيد من هذه العشيرة من بين أوائل المسلمين هو خنيس بن حذيفة بن قيس الذي كان متزوجا بالفعل من ابنة عمر بن الخطاب ، وكانت أسرته من الفروع غير المهمة في العشيرة . والجدير بالذكر أيضا ، اتجاه أبناء الحارث بن قيس : فسـتة منهم هاجروا للحبشـة

(١٤) الأزرقي ، ٤٧٢ .

كمسلمين ـ لكن واحدا منهم على الأقل ـ هو الحجاج ـ (١٥) ارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين وحارب ضد المسلمين في غزوة بدر وأسر . ثم اعتنق الاسلام مرة أخرى . ويمكننا أن نخمن أنه بعد وفاة الحارث وجدت أسرته نفسها في موقف صعب .

جمح

كانت هذه العشيرة أيضا قوية ، وان كانت لا تضارع في قوتها عشيرة سهم . وكانت زعامتها في أيدي أسرة خلف بن وهب وعلى رأسها أمية ابن خلف ، وبعد ذلك كان على رأسها وهب بن عمير بن وهب بن خلف . وكان عثمان بن مظعون واحدا من بين أكثر أوائل المسلمين أهمية ، وربما كان على رأس أسرة حبيب بن وهب أخو خلف . والآخرون المدرجون في قوائم أوائل المسلمين كانوا هم : أخويه ، عبد الله ، وقدامه ، وابنه السائب ، وابناه أخته : معمر بن الحارث ، وحاطب وخطاب (أو خطاب ـ بالحاء) ، وسنذكر عن عثمان تفاصيل أكثر بعد ذلك ، اذ يبدو أنه كان يعتقد التوحيد ، كما كان ميالا للزهد والتقشف حتى قبل أن يقابل محمدا ﷺ .

عبد الدار

كان عبد الدار في وقت من الأوقات الابن المفضل من بين أبناء قصي (بضم القاف) وقد احتفظ نسله بمزايا كحمل اللواء ، لكنهم الآن (عند ظهور الاسلام) ليس لهم في أمور مكة الا القليل . ولم يكن مصعب الخير (ابن عمير) بالتحديد هو أول من أسلم من بني عبد الدار ، وربما ساعد على تحول مصعب للاسلام صداقة عامر بن ربيعة حليف والد الخليفة عمر ، وقد أسر أخوه في غزوة بدر اذ كان يحارب الى جوار المشركين .

بقي أن نوجز بعض النقاط التي يجب أن نخلص بها من هذا العرض . انه يمكن أن نقسم المسلمين الأوائل الى ثلاث طبقات كالتالي :

---

(١٥) انظر الملحق (ز) H .

١ ـ الأبناء الأصغر سنا في الأسر ذوات الحيثية

ويمكن اعتبار خالد بن سعيد خير ممثل لهذه الطبقة (الفئة) ، لكن هناك عديدون غيره . انهم شباب من أسرات ذوات نفوذ من عشائر قوية ، كانوا اقرباء للمتحوذين على السلطة في مكة الذين تزعموا المعارضة ضد محمد ﷺ . والجدير بالذكر أنه في غزوة بدر كان هناك أمثلة على أخ واخيه ، وأب وابنه ، وعم وابن أخيه ، كان أحدهما يحارب الآخر ، اذ كان أحدهما الى جانب المسلمين والآخر الى جانب المشركين .

٢ ـ رجال ـ غالبهم شباب ـ من أسرات اخرى

هذه المجموعة غير منفصلة انفصالا حادا عن المجموعة السابقة لكن لأننا رجحنا كفة الميزان ناحية العشائر الأضعف ، وللفروع الأضعف في العشائر الرئيسية ، فاننا نجد بين المسلمين رجالا ذوى نفوذ كبير في عشائرهم أو أسراتهم ، فهناك واحد أو اثنان كانا من كبار السن نسبيا مثل عبيدة بن الحارث الذي كان في الحادية والسبعين من عمره عند الهجرة ، لكن غالب المسلمين الأوائل ربما كانوا تحت الثلاثين عندما دخلوا الإسلام ، وكان واحد أو اثنان فوق الخامسة والثلاثين .

٣ ـ رجال ليس لهم ارتباطات عشائرية قوية

هناك أيضا مجموعة صغيرة نسبيا كانوا بالفعل خارج النظام العشائري أو القبلي رغم ارتباطهم الاسمي بهذا النظام . اما لأن العشيرة لم تعترف بدعوى الرجل انه حليف لها (ربما كما حدث لخباب بن الارت مع بني زهرة) ، أو أنه كان ضعيفا جدا بحيث لم يعطه أحد حماية فعالة . وليس مما يثير الدهشة أن بني تيم لم تحم العبيد الذين حررهم أبو بكر ، مادامت لم تحم أبا بكر نفسه وطلحة عندما ربطوا بينهما ربطا مخزيا . وآخرون يذكر ابن سعد انهم اعتبروا ضعفاء ، منهم : صهيب بن سنان ، وعمار بن ياسر اللذان كانا حليفين لبني تيم ثم لبني عبد شمس .

ولا يشكل الحلفاء طبقة (فئة) منفصلة ، فهذا الصنف أو التحالف لا يعني دونية أحد الطرفين ، وانما يعني مساعدة متبادلة وحمايه . وعلى أية حال ، فبالنظر الى وضع قريش المؤثر بين العرب ، فان من يتحالف معها اذا اقام في مكه فانه عادة ما يأخذ اكثر كثيرا مما يعطي ، وبهذا المعنى فهو تابع . وبطبيعة الحال ، فان وضع الشخص المتحالف كان يتوقف على ما يفعله مستغلا قدراته . وبشكل عام ربما كان الحلفاء في مستوى قريب من مستوى الأسرات الأقل أهمية في العشيرة ، ولكن الأخنس بن شريق كان لفترة زعيما في بني زهرة ، وكان آخرون على قدر نسبي من الثراء ، وقد تزاوجوا بحرية مع قريش ، ومعظم الحلفاء الذين دخلوا الاسلام كانوا يعدون من الطبقة الثانية ، أما من اعتبر منهم من الطبقة الثالثة فذلك لأسباب عرضية .

هناك اذن تفسير واضح لعبارة (أحداث الرجال) التي وصف بها المسلمون الأوائل وهي تعني أنهم شباب ، وكذلك لعبارة (المستضعفين) أو (ضعاف الناس) ، فعبارة أحداث الناس تنطبق على الفئتين الأوليين اللتين ذكرناهما آنفا ، و (ضعاف الناس) تنطبق على الفئة الثالثة ، والتي ذكرناها آنفا أيضا . وقد شرح ابن سعد لفظ (المستضعفين) قائلا انهم الذين لا عشيرة لهم تحميهم (١٦) ، ولابد أن الزهري قد أخذ أيضا بهذا المعنى . ومن المقبول أن تنطبق كلمة (ضعيف) على أولئك الذين أسلموا من العشائر والأسرات قليلة النفوذ ، وفي هذه الحال فقد تشير الى الفئتين الثانية والثالثة .

والنقطة الاكثر اهمية التي تظهر من عرضنا هذا هي أن الاسلام الشاب كان في جوهره حركة شبابية كما ركز على ذلك الكاتب المصري عبد المتعال الصعيدي (١٧) ، فالغالبية العظمى من الذين قد سجلت اعمارهم كان الواحد منهم اقل من اربعين عاما عام الهجرة ، وبعضهم كان اقل من الأربعين بكثير ، وكان كثيرون منهم قد أسلموا قبل الهجرة بثماني

---

(١٦) جـ ٣ ، ٦١٧ ، ابن هشام ٢٦٠ ؛ خباب ، عمار ، ابو فكيهة ، ياسر ، صهيب .

(١٧) شباب قريش ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

تحتل أو أكثر . وثانيا أنه لم يكن حركة تمثل المحتسين down and outs الذين هم نفاية المجتمع أو الطفيليين hangers-on الذين ليست لهم أنساب قبلية أو عشائرية ، أولئك التائهين في مكة . انه ـ أي الاسلام ـ لم يتلق دعمه من الطبقات الدنيا من قاع المجتمع وانما من أوساط الناس تقريبا الذين أصبحوا على وعي بالتفاوت بينهم وبين أولئك المتربعين على القمة ، والذين بدءوا يشعرون أنهم كانوا معدمين under privileged . ولا يمكن التعبير عن الاسلام كحركة للذين يملكون haves ضد الذين لا يملكون have nots ، وانما الأقرب الى الصحة أنه كان حركة نضال بين الذين يملكون والذين امتلكوا منذ وقت قريب nearly hads .

٣ ـ اللجوء الى الاسلام

بعد أن كونا ـ الى حد ما ـ فكرة عن نوعية الرجال الذين تقبلوا الاسلام ، دعنا ندرس بتفصيل أكثر دوافعهم الى ذلك بقدر ما نستطيع . يخبرنا ابن اسحق (١٨) في نص له معروف جيدا عن أربعة رجال راحوا يبحثون في الحنيفية أي دين ابراهيم ، وبصرف النظر عن هذه الفصول السابقة ، فانه قدم لنا أساسا للاعتقاد بأن هذا الاتجاه نحو التوحيد الغامض كان قد بدأ ينتشر قبل الاسلام (١٩) . ومع أن القرآن (الكريم) لم يذكر لنا مثل هذه الأمور وانما بدأ بداية جديدة تماما ، الا أن الاسلام في الحقيقة كان بمثابة قلب أو مركز تعلق حوله أصحاب هذه الأفكار التوحيدية الغامضة ـ فأحد الرجال الأربعة الذين ذكرهم ابن اسحق وهو عبيد الله بن جحش تحول للاسلام وهاجر الى الحبشة (وقد تحول للمسيحية في الحبشة) ، وابن رجل آخر من هؤلاء الأربعة ، وهو سعيد بن زيد بن عمرو كان أيضا من بين أوائل من أسلموا . ومرة أخرى ، فان عثمان بن مظعون رغم أنه لم يرتبط بالمجموعة التي ذكرناها لتونا ، فانه كان متقشفا زاهدا في الجاهلية . وثمة روايات عن صعوبات واجهها محمد ﷺ مع أفكار عثمان بن مظعون ، فلم يكن لدى

---

(١٨) ابن هشام ، ١٤٣ وما بعدها .

(١٩) انظر أيضا الملحقين (ب) و (ج) .

الرسول وقت كاف لتحويل مجرى أفكار وآمال الذين كانوا يؤمنون بهذا النوع من التوحيد قبل الاسلام (٢٠) .

ومسألة كيف أن الحقائق الاقتصادية والأفكار الدينية مرتبطتان معا ، تعتبر وثيقة الصلة بهذه الاتجاهات التوحيدية السابقة على الاسلام ، لكن قد يكون من الملائم مناقشتها في سياق حديثنا عن هؤلاء الرجال الذين لم يتخذوا خطوات محددة ليتخلصوا من الوثنية قبل أن يعتنقوا الاسلام .

من بين الفئة الأولى التي حددناها آنفا ـ شباب الاسرات ذوات النفوذ ـ ربما لم يكن لديهم وعي واضح أن هناك عوامل اقتصادية وسياسية منطوية في تحولهم للاسلام . فخالد بن سعيد على سبيل المثال يفترض أنه لم يكن واعيا الا بالجوانب الدينية عندما تحول للاسلام ، أما اقامته الطويلة في الحبشة (٢١) فربما تشير أنه لم يكن متفقا مع سياسة محمد ﷺ خاصة فيما يتعلق بالأبعاد السياسية المتزايدة في الاسلام وكان من رأيه أن هذا ربما يخالف النبوة . فلو كان خالد مهتما بالأمور السياسية ، لتلاشت خلافاته مع الرسول ﷺ ولعاد الى مكة أو المدينة قبل السنة السابعة من الهجرة بكثير ، لكن رغم أن خالدا كان منجذبا في الأساس للجوانب الدينية للاسلام ، فان الجوانب الاجتماعية والسياسية كلها ـ خاصة ما يتعلق منها بتركز الثروة في أيد قليلة ـ قد تكون قد تركت في نفسه اضطرابا وجعلته واعيا بحاجته الى عقيدة دينية (يتمسك بها ويجعلها محور حياته) .

وحالة خالد ـ حالة من حالات قليلة ـ نعلم عنها بعض التفاصيل فيما يتعلق بكيفية تحوله للاسلام ، لقد رأى رؤيا منامية مؤداها أنه كان واقفا على شفا حفرة من النار ، وأن أباه كان يحاول أن يدفعه اليها ، بينما رجل اخر هو أبو بكر الذي بدا له في الرؤيا قريب الشبه من

---

(٢٠) انظر الفصل الخامس .
(٢١) انظر الفصل الخامس .

- محمد ﷺ - قد أمسكه من وسطه وحفظه من السقوط في هاوية النار (٢٢) • وعلى اية حال ، فان جهلنا بالتاريخ date الذى رأى فيه هذه الرؤيا يجعل من الصعب علينا تقديم التفسير • وربما يرجع ذلك الى موقفه بعد أن اكتشف أبوه أنه كان معجبا بمحمد ﷺ منجذبا اليه ، وقبل أن يقطع صلته بأسرته • فالرؤيا في هذه الحالة تنطبق على موقفه ، لكن بعض التفاصيل تشير الى أن هذه الرؤيا كانت قبل لقائه بمحمد ﷺ • وفي هذه الحال فان الرؤيا تعني - بعد تغيير مفهوم الرموز فيها - أن والده كان يجبره على الدخول في دوامة الأعمال التجارية المكية ، وهو يعتبر ذلك أمرا مدمرا للروح ربما لأنها تنطوى على ممارسات يعتبرها هو منطوية على الخسة وعدم النبل • والذى يبدو حقيقيا في هذه الرواية هو أن أفكاره الواعية قد طفت على سطح عقيدته الدينية •

وفي حالة حمزة ، وعمر ، هناك روايات عن ظروف اسلام كل منهما • وبالنسبة لعمر بن الخطاب هناك روايتان عن كيفية اسلامه (٢٣) ، واذا قبلنا الرواية المتداولة بشأن ذلك فان اسلامه يرجع لعاملين : لقد كان الرجلان (عمر وحمزة) متأثرين بمسلك محمد ﷺ نفسه أو مسلك المسلمين الآخرين ، وقد انجذب عمر بن الخطاب ببلاغة كلمات القرآن وبالمحتوى الديني للاسلام • وفي كلتا الحالتين كان هناك الولاء للأسرة أو العشيرة ، فحمزة هب يدفع عن محمد ﷺ الاهانات التى تعرض لها محمد ﷺ من عشيرة أخرى ، اما عمر فقد أحس بما أصاب عشيرته من خزى عندما علم أن اخته وزوجها قد أسلما • وليست هناك كلمة واحدة عن أمور اقتصادية • فحتى عمر بن الخطاب - رغم أنه كان آمنا على وضعه داخل العشيرة - ربما كان قلقا بشأن وضع عشيرته في مكة • هذا القلق ربما عمق سخطه على رجال عشيرته في المقام الأول ، من خلال الخوف من أن تحولهم للاسلام قد يؤدى لمزيد من تدهور الوضع العام للعشيرة •

---

(٢٢) ابن سعد ، جـ ٤ ، ١ ، ٦٧ وما بعدها •
(٢٣) ابن هشام ، ١٨٤ وما بعدها ، ٢٢٩ - ٢٢٩ •

أما أعضاء الفئة الثالثة (الذين اعتبروا ضعفاء) ، فيكاد يكون مؤكدا أنهم أكثر تأثرا بأوضاعهم غير الآمنة داخل العشائر وخارجها ، أكثر من تأثرهم برغبتهم فى الحصول على أية مزايا اقتصادية أو سياسية . واذا كانت هناك آمال واضحة للاصلاح لدى المسلمين الأوائل ، فلابد أن نتلمسها فى الفئة الثانية . ولقد تناولت الآيات القرآنية التى نزلت فى مرحلة مبكرة عن أمور مثل عظمة الله سبحانه وعناصر رسالة الاسلام (التى تحدثنا عنها فى الفصول السابقة) مرتبطة بالموقف العام لأهل مكة فى هذه الفترة . وليس مما يدعو للدهشة اذن أن ينجذب بعض الرجال لرسالة الاسلام – فى المقام الأول – من خلال مضامينه السياسية والاقتصادية . وان كان أمرا يعوزه الاحتمال وجود عدد كبير ممن أسلموا كانوا واعين بهذه الأبعاد الاقتصادية والسياسية ، ومحمد ﷺ كان مؤسس دين جديد ولم يكن بأية حال مجرد مصلح اجتماعى ، وان كنا لا نؤكد كثيرا على نفى مهمته الاصلاحية الاجتماعية (٢٤) . ويمكن أن نصف الأوضاع بمصطلحاتنا المعهودة فنقول ، انه بينما كان محمد ﷺ واعيا بالعلل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية لعصره وبلاده ، فانه اعتبر الجانب الدينى هو الجانب الأساسى وركز عليه . فهذا – أى الجانب الدينى – هو الذى يقرر روح المجتمع الشاب ، فتناولت المجموعة الصغيرة عقائدها الدينية وشعائرها بجدية مفرطة . وخلال الحقبة المكية انشغل النبى أساسا بما فرض عليه من أمور سياسية خاصة معركته مع المعارضين له التى أصبحت أكثر مرارة ، وأصبحت قضية نبوة محمد ﷺ هى القضية المحورية . ولم تكن المسائل السياسية والاقتصادية (فى حالة تناولها مباشرة) لتصلح لتلعب أى دور فى التحول للاسلام ، فعلى الدين وبالدين يجمع الناس حول الاسلام . وان كان هذا لايمنعنا من القول، ان محمدا ﷺ والواعين من أتباعه لابد أنهم كانوا مدركين للأبعاد الاجتماعية والاقتصادية لرسالته ، وادراكهم هذا أدى الى أن يضعوا ذلك فى اعتبارهم عند توجيه أمور المسلمين .

---

(٢٤) C. Snouck Hurgronje's review of H. Grimme's Mohammed in Verspreide Geschriften, i, 319-362.

الفصـــل الخـــامس

تزايـــد المعارضـــة

١ ـ بداية المعارضة ، الآيات الشيطانية

لدينا ما يجعلنا نعتقد أن محمدا (ﷺ) قد حقق قدرا من النجاح في البداية الأولى لدعوته ، لكن المعارضة ضده تطورت وسرعان ما أصبحت خطيرة هائلة • وعلينا أن نناقش قضيتين أساسيتين هنا : متى ظهرت المعارضة ، وكيف عبرت عن نفسها ؟ وما الدوافع الكامنة وراءها ؟ والقضية الثانية هي الأكثر أهمية ، لكن علينا أن نتناول القضية الأولى أولا •

(أ) خطـــاب عـــروة

أورد لنا الطبرى نصا من وثيقة مكتوبة ترجع لزمن مبكر ، تشير كل الظواهر الى أنها وثيقة صـــحيحة (١) • لذا ، فمن الملائم أن نبـــدأ بذكرهـــا :

أخبرنا هشام بن عروة عن عروة أنه كتب لعبد الملك بن مروان (تولى الخلافة من ٦٥ الى ٨٦ هـ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) :

« أما بعد ، فانه ـ يعنى رسول الله ﷺ ـ لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذى أنزل عليه ، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيتهم • وقدم ناس من الطائف من قريش

---

(١) تاريخ الطبرى ، ١١٨٠ وما بعدها ، وانظر ايضا :
Caetani, Ann i, p. 267 f.



لهم أموال ، أنكروا ذلك عليه ، واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال [لهم] ، واغروا به من أطاعهم ، فانصفق عنه عامة الناس ، فتركوه الا من حفظه الله منهم ، وهم قليل ، فمكث بذلك ما قدر الله آن يمكث . ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم واخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الاسلام ! فافتتن من افتتن ، وعصم الله منهم من شاء ، فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا الى أرض الحبشة ـ وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشى ، لا يظلم أحد بأرضه ، وكان موضع ثناء ، وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغا من الرزق ، وأمنا ومتجرا حسنا ـ فأمرهم بها رسول الله ﷺ ؛ فذهب اليها عامتهم لما قهروا بمكة ، وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات ، يشتدون على من أسلم منهم .

ثم انه فشا الاسلام فيها ، ودخل فيه رجال من أشرافهم .

قال أبو جعفر : فاختلف فى عدد من خرج الى أرض الحبشة ، وهاجر اليها هذه الهجرة ، وهى الهجرة الأولى .

فقال بعضهم : كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحارث ، قال : حدثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا محمد ابن عمر ، قال : حدثنا يونس بن محمد الظفرى ، عن أبيه ، عن رجل من قومه . قال : وأخبرنا عبيد الله بن العباس الهذلى ، عن الحارث بن الفضيل ، قالا : خرج الذين هاجروا الهجرة الأولى متسللين سرا ، وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، حتى انتهوا الى الشعيبة ، منهم الراكب والماشى ، ووفق الله للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما الى أرض الحبشة بنصف دينار ، وكان مخرجهم فى رجب فى السنة الخامسة ، من حين نبىء رسول الله ﷺ ، وخرجت قريش فى آثارهم حتى جاؤوا البحر ، حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا .

قالوا : وقدمنـا أرض الحبشة ، فجاورنا بها خير جار ، أمنـا على ديننا ، وعبدنا الله ، لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه » (*) .

واذا نحينـا جانبـا الى حين ما ورد فى هذا النص عن الهجرة للحبشة ، فاننا نلاحظ ثلاث نقاط رئيسية :

أولها : أن المعارضـة الحقيقية الأولى ارتبطت بالتعرض للأصنام (الطواغيت) ، ويمكننا أن نفترض أن التعرض لهذه الأصنام (الطواغيت) كان فى خلال النص القرآنى .

ثانيها : أن بعض أثرياء قريش الذين يمتلكون ثروات فى الطائف كانوا هم زعماء الحركة المعارضة لمحمد (ﷺ) .

ثالثها : أن كل ذلك سبق الهجرة الى الحبشة .

وليس هناك صعوبة كبيرة فى تقبل ما ورد فى ثانيا وثالثا (كون أثرياء من قريش هم الذين قادوا المعارضة ضد محمد ﷺ ، وكون ذلك بدأ قبل الهجرة الى الحبشة) ، لكن هناك صعوبة فى تقبل ما ورد فى أولا (وهو كون المعارضة القرشية لم تبدأ الا بعد التعرض للطواغيت) . فالدراســات التى قام بهـا نولدكه Nöldeke وبل Bell عن التأريخ لآيات القرآن الكريم ، تظهر لنـا آيات كثيرة (نزلت) قبل أن تنزل آيات تتعرض للأوثان (الطواغيت) ، التى قيل ان التعرض لها كان هو سبب ظهور المعارضة لمحمد (ﷺ) . حقيقة ان الأصنام لم تذكر طوال الحقبة المكية الا قليلا . ومن الممكن أن عروة الذى كان يكتب بعد الأحداث بسبعين سنة على الأقل قد افترض ـ مجرد افتراض ـ أن الهجوم على الشرك (تعدد الآلهة) لابد أن يكون هو سبب ظهور المعارضة فى هذا الوقت ، لأنها كانت هى السبب فى اشتداد المعارضة فيما بعد . ومن المعقول أيضــا ـ لكن هذا ليس مؤكدا ـ أن ذكر الأصنام (التعرض للطواغيت) يرجع الى قصة الآيات الشيطانية التى سنناقشها فى الفقرة

(*) الطبرى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٥٤٦ .

التالية . ففي هذه الحال لابد أن نفترض أن قريشا قد تضايقت لأن صنم الطائف كان قد بدأ يحقق شهرة كبيرة ، وربما بدأ أهل الطائف يعتبرونه على قدم المساواة مع أصنام مكة • وبشكل عام ، فان الحل الأكثر بساطة والأكثر مدعاة للقبول هو القول بأن المعارضة الفعالة للرسول لم تظهر الا بعد التعرض للأوثان ، فالاشارة الى قريش في الطائف تشير الى ان لدى عروة بعض مصادر المعلومات الجيدة غير القرآن (الكريم) • دعونا الآن نقبل بصحة القضية الأولى بشكل مؤقت (القضية الأولى هى المثارة آنفا من أن معارضة قريش للرسول لم تبدأ الا بعد التعرض للأوثان) •

(ب) قصة الآيات الشيطانية

تعد السورة ٥٣ (سورة النجم) أكثر الآيات المكية التي تعرضت للأوثان لفتا للنظر ، وترتبط قصة الآيات الشيطانية بها • وكان الطبرى (٢) هو أول من ذكر هذه القصة على النحو التالى (*) :

« حدثني يعقوب بن ابراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، عن محمد ابن اسحاق ، قال : حدثني سعيد بن ميناء ، مولى أبى البخترى ، قال : لقى الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشركك فى أمرنا كله ، فان كان الذى جئت به خيرا مما فى أيدينا ، كنا قد شركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه ، وان كان الذى بأيدينا خيرا مما فى يدك ، كنت قد شركتنا فى أمرنا ، وأخذت بحظك منه ، فأنزل الله عز وجل : (قل يا أيها الكافرون) ، حتى انقضت السورة •

فكان رسول الله ﷺ حريصا على صلاح قومه ، محبا مقاربتهم بما وجد اليه السبيل ، قد ذكر أنه تمنى السبيل الى مقاربتهم ، فكان من

(٢) وكذلك تفسير الطبرى ، ١٧ ، ١١٩ • Ann, 1192, cf.

(*) آثرنا الرجوع مباشرة لنص الطبرى لا ترجمته الى العربية من نص المترجم الذى لا يختلف فى معناه ، كما آثرنا ايراد الاسانيد كما أوردها الطبرى رغم طولها — (المترجم) •

أمره في ذلك ما حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنـــا سلمة ، قال : حدثني محمد بن اسحاق ، عن يزيد بن زياد المدني ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : لما رأى رســـول الله ﷺ تـولى قومه عنـه ، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله ، تمني في نفســـه أن ياتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه ، وكان يسره مع حبـــه قومه ، وحرصـــه عليهـــم أن يلين له بعض ما قد غلظ عليـــه مـــن أمـــرهم ، حتى حـــدث بذلك نفسه ، وتمناه وأحبـه ، فأنزل الله عز وجـــل : (والنجـم اذا هوى ﴿ ما ضـــل صاحبـــكم وما غوى ﴿ وما ينطق عن الهـوى) ، فلما انتهى الى قوله : (أفرأيتم اللات والعزى ﴿ ومنـــاة الثالثـــة الأخـــرى) ، ألقى الشيطان على لسانه ، لما كان يحدث به نفسه ، ويتمنى أن يأتي به قومه : « تلك الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى » ، فلما سمعت ذلك قريش فرحوا، وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم، فأصاخوا له ـ والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم ، ولا يتهمونه على خطأ ولا وهم ولا زلل ـ فلما انتهى الى السجدة منها وختم السورة سجد فيها ، فسجد المسلمون بسجود نبيهم ، تصديقا لما جاء به ، واتباعا لأمره ،. وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم ، لما سمعوا من ذكر آلهتهم ، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد ، الا الوليد بن المغيرة ، فانه كان شيخا كبيرا ، فلم يستطع السجود ، فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها ، ثم تفرق الناس من المسجد ، وخرجت قريش ، وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم ، يقولون : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، قد زعم فيما يتلو : « أنها الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن ترتضى » وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وقيل : أسلمت قريش ، فنهض منهم رجال ، وتخلف آخرون ، وأتى جبريل رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، ماذا صنعت ! لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل ، وقلت ما لم يقل لك ! فحزن رسول الله ﷺ عند ذلك حزنا شديدا ، وخاف من الله خوفا كثيرا ، فأنزل الله عز وجل ـ وكان به رحيما ـ يعزيه ويخفض عليه الأمر ، ويخبره أنه لم يك قبله نبي ولا رسول تمنى كما تمنى ، ولا أحب كما أحب الا والشيطان قد ألقى في أمنيته ،

كما ألقى على لسانه ﷺ ، فنسخ الله ما ألقى الشيطان واحكم اياته ، أى فأنما أنت كبعض الأنبياء والرسل، فأنزل الله عز وجل : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) ، فأذهب الله عز وجل عن نبيه الحزن ، وآمنه من الذى كان يخاف ، ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم : « انها الغرانيق العلا وان شفاعتهن ترتضى » ، بقول الله عز وجل حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى : (ألكم الذكر وله الأنثى * تلك اذا قسمة ضيزى) أى عوجاء ، (ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) ـ الى قوله ـ (لمن يشاء ويرضى) ، أى فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده !

فلما جاء من الله ما نسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه ، قالت قريش : ندم محمد على ما ذكر من منزلة الهتكم عند الله ، فغير ذلك وجاء بغيره ، وكان ذانك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ قد وقعا فى فم كل مشرك ، فازدادوا شرا الى ما كانوا عليه وشدة على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ منهم ، وأقبل أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا من أرض الحبشة لما بلغهم من اسلام أهل مكة حين سجدوا مع رسول الله ﷺ ، حتى اذا دنوا من مكة ، بلغهم أن الذى كانوا تحدثوا به من اسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل منهم أحد الا بجوار ، أو مستخفيا ، فكان ممن قدم مكة منهم فأقام بها حتى هاجر الى المدينة ، فشهد معه بدرا من بنى عبد شمس بن عبد مناف ابن قصى ، عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ، معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس معه امرأته سهلة بنت سهيل ، وجماعة أخر معهم ، عددهم ثلاثة وثلاثون رجلا .

حدثنى القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، عن أبى معشر ، عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس ، قالا : جلس رسول الله ﷺ فى ناد من أندية قريش ، كثير أهله ، فتمنى يومئذ ألا يأتيه من الله شىء فينفروا عنه ، فأنزل الله عز وجل :

(والنجم اذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى) ، فقرأها رسول الله ﷺ حتى اذا بلغ : (أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان عليه كلمتين : « تلك الغرانيق العلا * وان شفاعتهن لترتجى » . فتكلم بهما ، ثم مضى فقرأ السورة كلها ، فسجد في آخر السورة ، وسجد القوم معه جميعا ، ورفع الوليد بن المغيرة ترابا الى جبهته ، فسجد عليه ـ وكان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود ـ فرضوا بما تكلم به ، وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ، وهو الذى يخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فاذا جعلت لها نصيبا فنحن معك • قالا : فلما أمسى أتاه جبرائيل عليه السلام ، فعرض عليه السورة ، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه ، قال : ما جئتك بهاتين ! فقال رسول الله ﷺ : افتريت على الله ، وقلت على الله ما لم يقل ، فأوحى الله اليه : (وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره) الى قوله : (ثم لاتجد لك علينا نصيرا) ، فمازال مغموما مهموما ، حتى نزلت : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) ـ الى قوله : (والله عليم حكيم) •

قال : فسمع من كان بأرض الحبشة من المهاجرين أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، فرجعوا الى عشائرهم ، وقالوا : هم أحب الينا ، فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان » (*) •

وفى شرحه للآية ٥٢ من السورة رقم ٢٢ (الحج) (٣) يذكر لنا الطبرى عددا من الروايات الأخـرى حول هذا الموضوع ، منها روايتان للمدعو أبو علية ، وهما روايتان مهمتان لاحتوائهما على تفصيلات ليست فى الروايات الشائعة ، وفيما يلى نص ما ورد فى تفسير الطبرى (**) :

(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم (٥٢)) •

(★) الطبرى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٥٥٠ وما بعدها •
(٣) جـ ١٧ ، ١١٩ ـ ١٢١ •
(★★) اثرنا نقل النص كما هو باسناده كما ورد فى تفسير الطبرى ، لا ترجمة من كلمات المؤلف •

قيل : ان السبب الذى من أجله أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ، أن الشيطان كان ألقى على لسانه في بعض ما يتلوه مما أنزل الله عليه من القرآن ما لم ينزله الله عليه ؛ فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ واغتم به ، فسلاه الله مما به من ذلك بهذه الآيات • ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن أبى معشر ، عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس قالا : جلس رسول الله ﷺ في ناد من أندية قريش كثير أهله ، فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه ، فأنزل الله عليه : (والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) فقرأها رسول الله ﷺ ، حتى اذا بلغ : (أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى عليه الشيطان كلمتين : « تلك الغرانقة العلى ، وان شفاعتهن لترجى » ، فتكلم بها . ثم مضى فقرأ السورة كلها • فسجد في آخر السورة ، وسجد القوم جميعا معه ، ورفع الوليد بن المغيرة ترابا الى جبهته فسجد عليه ، وكان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود ، فرضوا بما تكلم به وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت وهو الذى يخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده اذ جعلت لها نصيبا ، فنحن معك ! قالا : فلما أمسى أتاه جبرائيل عليه السلام فعرض عليه السورة ؛ فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال : ما جئتك بهاتين ! فقال رسول الله ﷺ : « افتريت على الله وقلت على الله ما لم يقل » فأوحى الله اليه : (وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك ، لتفترى علينا غيره) ••• الى قوله : (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) • فمازال مغموما مهموما حتى نزلت عليه : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) . قال : فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، فرجعوا الى عشائرهم وقالوا : هم أحب الينا ! فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان •

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن اسحاق ، عن يزيد ابن زياد المدنى ، عن محمد بن كعب القرظى قال : لما رأى رسول الله ﷺ

تولى قومه عنه ، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من عند الله ، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب به بينه وبين قومه . وكان يسره ، مع حبه وحرصه عليهم ، أن يلين له بعض ما غلظ عليه من أمرهم ، حين حدث بذلك نفسه وتمنى وأحبه ، فأنزل الله : (والنجم اذا هوى ما ضـــل صـــاحبكم وما غوى) فلمـــا انتهى الى قول الله : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثـــة الأخـــرى) ألقي الشيطان على لسانه ، لما كان يحدث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه : « تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن ترتضى » . فلما سمعت قريش ذلك فرحوا وسرهم ، واعجبهم ما ذكر به آلهتهم ، فأصاخوا له ، والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم ، ولا يتهمونه على خطأ ولا وهم ولا زلل . فلما انتهى الى السجدة منها وختم السورة ، سجد فيها ، فسجد المسلمون بسجود نبيهم ، تصديقا لما جاء به واتباعا لأمره ، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم ، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد الا الوليد بن المغيرة ، فانه كان شيخا كبيرا فلم يستطع ، فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها . ثم تفرق الناس من المســـجد ، وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم ، يقولون : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ، وقد زعم فيما يتلو أنها الغرانيق العلى وأن شفاعتهن ترتضى ! وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ وقيل : أسلمت قريش . فنهضت منهم رجال ، وتخلف آخرون . وأتى جبرائيل النبي ﷺ ، فقال : يا محمد ماذا صنعت ؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، وقلت ما لم يقل لك ! فحزن رسول الله عند ذلك ، وخاف من الله خوفا كبيرا ، فأنزل الله تبارك وتعالى عليه ـ وكان به رحيما ـ يعزيه ويخفض عليه الأمر ويخبره أنه لم يكن قبله رسول ولا نبي تمنى كما تمنى ولا أحب كما أحب الا والشيطان قد ألقى في أمنيته كما ألقى على لسانه ﷺ ، فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ، أى فانت كبعض الأنبيـاء والرســل ، فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) ... الآية . فأذهب الله عن نبيه الحزن ، وأمنه من الذى كان يخاف ، ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم

أنها الغرانيق العلى وان شفاعتهن ترتضى . يقول الله حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، الى قوله : (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) ، أى فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده . فلما جاءه من الله ما نسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه ، قالت قريش : ندم محمد على ما كان من منزلة آلهتكم عند الله ، فغير ذلك وجاء بغيره ! وكان ذلك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسوله قد وقعا فى فم كل مشرك ، فازدادوا شرا الى ما كانوا عليه .

ـ حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر ، قال : سمعت داود ، عن أبى العالية ، قال : قالت قريش لرسول الله ﷺ : انما جلساؤك عبد بنى فلان ومولى بنى فلان ، فلو ذكرت آلهتنا بشىء جالسناك ، فانه يأتيك أشراف العرب فاذا رأوا جلساءك أشراف قومك كان أرغب لهم فيك ! قال : فألقى الشيطان فى أمنيته ، فنزلت هذه الآية : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) قال : فأجرى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق العلى ، وشفاعتهن ترجى ، مثلهن لا ينسى » . قال : فسجد النبى ﷺ حين قرأها ، وسجد معه المسلمون والمشركون . فلما علم الذى أجرى على لسانه ، كبر ذلك عليه ، فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) ... الى قوله : (والله عليم حكيم) .

ـ حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا أبو الوليد ، قال : ثنا حماد بن سلمة ، عن داود بن أبى هند ، عن أبى العالية قال : قالت قريش : يا محمد انما يجالسك الفقراء والمساكين وضعفاء الناس ، فلو ذكرت آلهتنا بخير لجالسناك فان الناس يأتونك من الآفاق ! فقرأ رسول الله ﷺ سورة النجم ، فلما انتهى على هذه الآية : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان على لسانه : « وهى الغرانقة العلى ، وشفاعتهن ترتجى » . فلما فرغ منها سجد رسول الله ﷺ والمسلمون والمشركون ، الا أبا أحيحة سعيد بن العاص ، أخذ كفا من تراب وسجد عليه ، وقال : قد آن لابن أبى كبشة أن يذكر آلهتنا بخير ! حتى بلغ

الذين بالحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ من المسلمين ان قريشا قد أسلمت ، فاشتد على رسول الله ﷺ ما القى الشيطان على لسانه ، فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) ... الى آخر الآية .

- حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، قال : لما نزلت هذه الآية : (أفرأيتم اللات والعزى) قرأها رســـول الله ﷺ ، فقـــال : « تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى » . فسجد رســـول الله ﷺ . فقال المشركون : انه لم يذكر آلهتكم قبل اليوم بخير ! فسجد المشركون معه ، فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) ... الى قوله : (عذاب يوم عقيم) .

- حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنى عبد الصمد ، قال : ثنا شعبة ، قال : ثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : (أفرأيتم اللات والعزى) ، ثم ذكر نحوه .

- حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) الى قوله : (والله عليم حكيم) ، وذلك أن نبى الله ﷺ بينما هو يصلى ، اذ نزلت عليه قصة آلهة العرب ، فجعل يتلوها ، فسمعه المشركون فقالوا : انا نسمعه يذكر آلهتنا بخير ! فدنوا منه ، فبينما هو يتلوها وهو يقول : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثـــة الأخـــرى) ألقى الشيطان : « ان تلك الغرانيق العلى ، منها الشفاعة ترتجى » . فجعل يتلوها ، فنزل جبرائيل عليه السلام فنسخها ، ثم قال له : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) ... الى قوله : (والله عليم حكيم) .

- حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول

ولا نبي) ... الآية ، أن نبي الله ﷺ وهو بمكة ، أنزل الله عليه في آلهة العرب ، فجعل يتلو اللات والعزى ويكثر ترديدها . فسمع أهل مكة نبي الله يذكر آلهتهم ، ففرحوا بذلك ، ودنوا يستمعون ، فألقى الشيطان في تلاوة النبي ﷺ : « تلك الغرانيق العلى ، منها الشفاعة ترتجى » . فقرأها النبي ﷺ كذلك ، فأنزل الله عليه : (وما أرسلنا من قبلك من رسول) ... الى : (والله عليم حكيم) .

ـ حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، أنه سئل عن قوله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) ... الآية ، قال ابن شهاب : ثني أبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث : أن رسول الله ﷺ وهو بمكة قرأ عليهم : (والنجم اذا هوى) ، فلما بلغ : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) قال : « ان شفاعتهن ترتجى » . وسها رسول الله ﷺ . فلقيه المشركون الذين في قلوبهم مرض ، فسلموا عليه ، وفرحوا بذلك ، فقال لهم : « انما ذلك من الشيطان » . فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) ... حتى بلغ : (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) .

ـ حدثني علي ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثني معاوية ، عن علي ، عن ابن عباس : (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) فيبطل الله ما ألقى الشيطان .

ـ حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبي ﷺ ، وأحكم الله آياته .

وقوله : (ثم يحكم الله آياته) يقول : ثم يخلص الله آيات كتابه من الباطل الذي ألقى الشيطان على لسان نبيه . (والله عليم) بما يحدث

في خلقه من حدث ، لا يخفى عليه منه شيء · (حكيم) في تدبيره اياهم وصرفه لهم فيما شاء وأحب . القول في تأويل قوله تعالى :

(ليجعل ما يلقى الشيطان فتنـــة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد (٥٣)) ·

يقول تعالى ذكره : فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، كي يجعل ما يلقى الشيطان في أمنية نبيه من الباطل ، كقول النبي ﷺ : « تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى » · (فتنة) يقول : اختبارا يختبر به الذين في قلوبهم مرض من النفاق ، وذلك الشك في صدق رسول الله ﷺ وحقيقة ما يخبرهم به ·

وبنحو الذى قلنا في ذلك قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك :

ـ حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة : أن النبي ﷺ كان يتمنى أن لا يعيب الله آلهة المشركين ، فألقى الشيطان في أمنيته ، فقال : « ان الآلهة التي تدعى أن شفاعتها لترتجى وانها للغرانيق العلى » · فنسخ الله ذلك ، وأحكم الله آياته : (أفرأيتم اللات والعزى) حتى بلغ : (من سلطـــان) قال قتـــادة : لما ألقى الشيطان ما ألقى ، قال المشركون : قد ذكر الله آلهتهم بخير ! ففرحوا بذلك ، فذكر قوله : (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض) [٨]

ـ حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، بنحوه ·

ـ حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، في قوله : (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض) يقول : وللذين قست قلوبهـــم عن الايمـــان بالله ، فلا تلين ولا ترعوى ، وهم المشركون بالله ·

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل · ذكر من قال ذلك :

ـ حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج : (والقاسية قلوبهم) قال : المشركون ·

وقوله : (وان الظالمين لفى شقاق بعيد) يقول تعالى ذكره : وان مشركى قومك يا محمد لفى خلاف الله فى أمره ، بعيد من الحق . القول فى تأويل قوله تعالى :

(وليعلم الذين أوتـوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنـوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهـــاد الذين آمنـــوا الى صراط مســـتقيم (٥٤)) ·

يقول تعالى ذكره : وكى يعلم أهل العلم بالله أن الذى أنزله الله من آياته التى أحكمها لرسوله ونسخ ما ألقى الشيطان فيه ، أنه الحق من عند ربك يا محمد (فيؤمنوا به) يقول : فيصدقوا به · (فتخبت له قلوبهم) يقول : فتخضع للقرآن قلوبهم ، وتذعن بالتصديق به والاقرار بما فيه ، (وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم) وان الله لمرشد الذين آمنوا بالله ورسوله الى الحق القاصد والحق الواضح ، بنسخ ما ألقى الشيطان فى أمنية رسوله ، فلا يضرهم كيد الشيطان والقاؤه الباطل على لسان نبيهم ··· » ·

لقد أورد الطبرى (كما هو واضح من النصوص السابقة) عددا من الروايات عن هذا الموضـوع ، الا أن ما هو منســوب الى المدعو (أبو علية) (بضم العين) (*) يحوى تفاصيل أكثر ، وتبدو روايته هى الرواية الأولى (بشكلها الأول) ، وتشير رواية أبى علية أيضا أن أبا أحيحة سعيد بن العاص قال عقب سماعه الآيات الشيطانية (وأخيرا تحدث أبو كبشة عن

(*) فى الطبرى ابن علية (بضم العين) ·

آلهتنا بما هو خير) (*) وقد يكون أبو احيحة قد قال ذلك فعلا ، مادامت هناك ملاحظة مماثلة ـ ربما أكثر خشونة قد صدرت عن هذا الشخص نفسه عند حديثه عن محمد (ﷺ) (٤) .

واذا قارنا الروايات المختلفة وحاولنا الفصل بين الحقائق الخارجية (ظواهر النص) المتفقة معا من ناحية ، والبواعث أو الدوافع التى أوردها المؤرخون المختلفون لتفسير هذه الحقائق وشرحها من ناحية أخرى ، فاننا سنجد على الأقل حقيقتين مؤكدتين . أولاهما ، أنه حدث ذات مرة أن قرأ محمد (ﷺ) هذه الآيات الشيطانية علنا باعتبارها جزءا من القرآن (الكريم) (**) ، ونظن أن هذه القصة لم يخترعها مسلمون متأخرون زمنا ولا نظن أن غير المسلمين قد أقحموها فى التاريخ الاسلامى .

(★) لم نجد نصا بهذا المعنى فى طبعة الطبرى التى بين أيدينا (دار الكتب العلمية ـ بيروت) .

(٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٤ ، ص ٦٩ ، وانظر أيضا ج ١ ، ٢ ، ١٤٥ ، ٢٧ .

(★★) أظهرت البحوث المقارنة أن قصة الآيات الشيطانية أو ما تعرف بآيات الغرانيق قصة موضوعة ، ومن افضل من فندوا هذه الروايات محمد حسين هيكل فى كتابه الشهير حياة محمد ، ونورد هنا النص الكامل من كتابه عن هذه القصة :

« اقام المسلمون الذين هاجروا الى الحبشة ثلاثة اشهر أسلم أثناءها عمر بن الخطاب . وعلم هؤلاء المهاجرون ما حدث على اثر اسلامه من رجوع قريش عن ايذائها محمدا ومن أتبعه ، فعاد كثير منهم فى رواية ، وعادوا كلهم فى رواية اخرى الى مكة . فلما بلغوها رأوا قريشا عادت الى ايذاء المسلمين والى الامعان فى عداوتهم اشد مما عرف هؤلاء المهاجرون من قبل ، فعاد الى الحبشة من عاد ، ودخل مكة من دخل مستخفيا أو بجوار . ويقال : ان الذين عادوا استصحبوا معهم عددا آخر من المسلمين اقاموا بالحبشة الى ما بعد الهجرة والى حين استتباب الامر للمسلمين بالمدينة .

أى داع حفز مسلمى الحبشة الى العودة بعد ثلاثة اشهر من مقامهم بها ؟ هنا يرد حديث الغرانيق الذى أورده ابن سعد فى طبقاته الكبرى والطبرى فى تاريخ الرسل =

. . . .

= والملوك ، كما أورده كثيرون من المفسرين المسلمين وكتاب السيرة ، والذى أخذ به جماعة المستشرقين ووقفوا يؤيدونه طويلا . وحديث الغرانيق : أن محمدا لما رأى تجنب قريش اياه وأذاهم أصحابه تمنى فقال : ليته لا ينزل على شىء ينفرهم منى ، وقارب قومه ودنا منهم ودنوا منه فجلس يوما فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى : (أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى) فقرأ بعد ذلك : تلك الغرانيق العلا . وان شفاعتهن لترتجى . ثم مضى وقرأ السورة كلها وسجد فى آخرها . هنالك سجد القوم جميعا لم يتخلف منهم أحد . وأعلنت قريش رضاها عما تلا النبى ، وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده . أما اذ أن جعلت لها نصيبا فنحن معك . وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم . وفشا أمر ذلك فى الناس حتى بلغ أرض الحبشة ؛ فقال المسلمون بها : عشائرنا أحب الينا ، وخرجوا راجعين . فلما كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركبا من كنانة فسألوهم ، فقالوا : ذكر آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم ارتد عنها فعاد لشتم آلهتهم فعادوا له بالشر . وأتمر المسلمون ما يصنعون ، فلم يطيقوا عن لقاء أهلهم صبرا فدخلوا مكة .

وانما ارتد محمد عن ذكر آلهة قريش بالخير ، فى مختلف الروايات التى أثبتت هذا الخبر ، لأنه كبر عليه قول قريش : « أما اذ جعلت لآلهتنا نصيبا فنحن معك » ، ولأنه جلس فى بيته ، حتى اذا أمسى أتاه جبريل فعرض النبى عليه سورة النجم ، فقال جبريل : أوجئتك بهاتين الكلمتين ؟! مشيرا الى « تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن لترتجى » . قال محمد : قلت على الله ما لم يقل ! ثم أوحى الله اليه : « وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا . اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » . وبذلك عاد يذكر آلهة قريش بالشر ويسبهم ، وعادت قريش لمناوأته وايذاء أصحابه .

هذا حديث الغرانيق ، رواه غير واحد من كتاب السيرة ، وأشار اليه غير واحد من المفسرين ، ووقف عنده كثيرون من المستشرقين طويلا . وهو حديث ظاهر التهافت ينقضه قليل من التمحيص . وهو بعد حديث ينقض ما لكل نبى من العصمة فى تبليغ رسالات ربه . فمن عجب أن يأخذ به بعض كتاب السيرة وبعض المفسرين المسلمين =

وثانيهما ، أنه من المؤكد أن محمدا (ﷺ) قد اعلن بعد ذلك أن هذه الآيات الشيطانيه ليست من القرآن الكريم وأن آيات أخرى قد حلت محلها تحمل مضمونا مختلفا تماما . والروايات الأولى لا تحدد الفترة الزمنية بين نطق محمد (ﷺ) بهذه الآيات الشيطانية وانكاره لها . انه من المحتمل أن ذلك قد استغرق أسابيع أو حتى شهورا .

وهناك أيضا حقيقه ثالثه او مجموعة من الحقائق من المحتمل ان تكون اكيدة بالنسبه لنا ، واعنى بها انه بالنسبه لمحمد (ﷺ) ومعاصريه من أهل مكة فان الاشارة الأساسيه لهذه الايات الشيطانيه لابد ان تكون الي اللات وهى الربة المعبودة فى الطائف ، والعزى الربه المعبودة في نخلة بالقرب من مكة ، والربة مناة التى تقع نصبها بين مكه والمدينة والتى كان يعبدها فى الأساس عرب المدينة .

وكان القرشيون هم العبدة الأساسيين للعزى ، لكن أسرات أخرى ذوات طابع كهنوتى شاركت فى عبادتها فيما تقول الروايات ، وهذه الأسرات من بنى سليم ، وكنانه وخزاعة وثقيف وبعض هوازن . ونسمع عن أشراف المدينــة أنه كان لدى الواحــد منهم صنم خشبى يمثل مناة

= ولذلك لم يتردد ابن اسحاق حين سئل عنه فى أن قال : انه من وضع الزنادقة . ولكن بعض الذين أخذوا به حاولوا تسويغه فاستندوا الى الآيات : « وان كادوا ليفتنونك .. » ، والى قوله تعالى : (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى امنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله اياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقى الشيطان فتنــة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفى شقاق بعيد) . ويفسر بعضهم كلمة « تمنى » فى الآية بمعنى قرأ ، ويفسرها آخرون بمعنى الامنية المعروفة . ويذهب هؤلاء وأولئك ، ويتابعهم المستشرقون ، الى أن النبى بلغ منه أذى المشركين أصحابه ؛ اذ كانوا يقتلون بعضهم ويلقون بعضا فى الصحراء يلفحهم لظى الشمس المحرقة ، وقد أوقروهم بالحجارة كما فعلوا ببلال حتى اضطر الى الاذن لهم فى الهجرة الى الحبشة . كما بلغ منه جفاء قومه اياه واعراضهم عنه . ولما كان حريصا على اسلامهم ونجاتهم من عبادة الاصنام ، تقرب اليهم وتلا سورة النجم وأضاف اليها حكاية الغرانيق ، فلما سجد سجدوا معه ، واظهروا له الميل لاتباعه مادام قد جعل لآلهتهم نصيبا مع الله . =

يضعه فى بيته (٥) لكن ـ بشكل عام ـ ان عرب هذه الفترة لا يدركون الا بالكاد عبادة أى اله بشكل منفصل عن بعض الطقوس التى تتم ممارستها عند بعض الأنصاب (نصب الأصنام Shrines) • وهم بذلك يختلفون ـ على سبيل المثال ـ عن توقير المسيحى الكاثوليكى للعذراء مريم المباركة ، فعبارة (سلام لك يا مريم Hail Mary) يمكن أن تذكر فى أى مكان . ومناة ـ من ناحية أخرى ـ وفقا للنظرة السائدة بين

(٥) ابن هشام ، ٣٠١ ، ١١ .

= ويضيف سير وليم موير الى هذه الرواية ، التى وردت فى بعض كتب السيرة وكتب التفسير ، حجة يراها قاطعة بصحة حديث الغرانيق • ذلك أن المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة لم يك قد مضى على هجرتهم اليها غير ثلاثة أشهر . أجارهم النجاشى أثناءها واحسن جوارهم • فلم يكن قد ترامى اليهم خبر الصلح بين محمد وقريش لما دفعهم الى العود حرصا على الاتصال باهليهم وعشائرهم • وأنى يكون صلح بين محمد وقريش اذا لم يسع محمد اليه ، وقد كان فى مكة اقل نفرا واضعف قوة ، وقد كان أصحابه أعجز من أن يمنعوا انفسهم من اذى قريش ومن تعذيبهم اياهم !

هذه هى الحجج التى يسوقها من يقولون بصحة حديث الغرانيق ، وهى حجج واهية لا تقوم امام التمحيص • ونبدأ بدفع حجة المستشرق موير ؛ فالمسلمون الذين عادوا من الحبشة انما دفعهم الى العودة الى مكة سببان : اولهما أن عمر بن الخطاب اسلم بعد هجرتهم بقليل • وقد دخل عمر فى دين الله بالحمية التى كان يحاربه من قبل بها ، لم يخف اسلامه ولم يستتر ، بل ذهب يعلنه على رؤوس الملأ ويقاتلهم فى سبيله • ولم يرض عن استخفاء المسلمين وتسللهم الى شعاب مكة يقيمون الصلاة بعيدين عن قريش ، بل دأب على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه • هنالك أيقنت قريش أن ما تنال به محمدا وأصحابه من الأذى يوشك أن يثير حربا اهلية لا يعرف أحد مداها ولا على من تدور دائرتها • فقد أسلم من مختلف قبائل قريش وبيوتاتها رجال تثور لقتل أى واحد منهم قبيلته وان كانت على غير دينه • فلا مفر اذا من الالتجاء فى محاربة محمد الى وسيلة لا يترتب عليها هذا الخطر • والى أن تتفق قريش على هذه الوسيلة هادنت المسلمين فلم تنل أحدا منهم بأذى • وهذا هو ما اتصل بالمهاجرين الى الحبشة ، ودعاهم الى التفكير فى العودة الى مكة •

وربما ترددوا فى هذا العود لو لم يكن السبب الثانى الذى ثبت عزمهم ؛ ذلك أن الحبشة شبت بها يومئذ ثورة على النجاشى ، كان دينه وكان ما ابـدى من عطف على المسلمين بعض ما أذيع فيها من تهم وجهت اليه • ولقـد ابدى المسلمون احسن الأمانى أن ينصر الله النجاشى على خصومه ؛ لكنهم لم يكونوا ليشاركوا فى هذه الثورة وهم اجانب ، ولم يك قد مضى على مقامهم بالحبشة غير زمن قليل • اما وقد ترامت اليهم انباء الهدنة بين محمد وقريش ، هدنة اتجت المسلمين مما كان يصيبهم من الأذى ، فخير لهم أن يدعوا الفتنة وراء ظهورهم وأن يلحقوا باهليهم • وهذا ما فعلوه كلهم أو بعضهم • على انهم ما كادوا يبلغون مكة حتى كانت قريش قد ائتمرت ما تصنع بمحمد وأصحابه =

= واتفقت عشائرهم وكتبوا كتابا تعاقدوا فيه على مقاطعة بنى هاشم مقاطعـة تامة ؛ فلا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم وبهذا الكتاب عادت الحرب العوان بين الفريقين ، ورجع الذين عادوا من الحبشة ، وذهب معهم من استطاع اللحاق بهم . وقد وجدوا هذه المرة عنتـا من قريش اذ حاولت ان تمنعهم من الهجرة .

ليس الصلح الذى يشير اليه المستشرق موير ، هو اذا الذى دعا المسلمين الى العودة من بلاد الحبشة : انما دعاها هذه الهدنة التى حدثت على اثر اسلام عمر وحماسته فى تأييد دين الله . فتأييد حديث الغرانيق اذا بحجة الصلح تأييد غير ناهض .

اما احتجاج المحتجين من كتاب السيرة والمفسرين بالآيات : (وان كادوا ليفتنونك) و (ما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى أمنيته ...) فهو احتجاج أشد تهافتا من حجة السير موير ويكفى أن نذكر من الآيات الأولى قوله تعالى : (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا) لنرى أنه كان الشيطان قد القى فى أمنية الرسول حتى لقد كاد يركن اليهم شيئا قليلا فقد ثبته الله فلم يفعل ، ولو أنه فعل لاذاقه الله ضعف الحياة وضعف الممات . واذا فالاحتجاج بهذه الآيات احتجاج مقلوب . فقصة الغرانيق تجرى بأن محمدا ركن الى قريش بالفعل ، وأن قريشا فتنته بالفعل فقال على الله ما لم يقل . والآيات هنا تفيد أن الله ثبته فلم يفعل . فاذا ذكرت كذلك أن كتب التفسير وأسباب النزول جعلت هذه الآيات موضعا غير مسألة الغرانيق ، رأيت أن الاحتجاج بها فى مسألة تتنافى مع عصمة الرسل فى تبليغ رسالتهم ، وتتنافى مع تاريخ محمد كله ، احتجاج متهافت ، بل احتجاج سقيم .

اما الآيات : (وما ارسلنا من قبلك من رسول ...) فلا صلة لها بحديث الغرانيق البتـة ، فضلا عن ذكرها أن الله ينسخ ما يلقى الشيطان ويجعله فتنـه للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، ويحكم الله آياته والله عليم حكيم .

وندع هذا الى تمحيص القصة التمحيص العلمى الذى يثبت عدم صحتها . وأول ما يدل على ذلك تعدد الروايات فيها : فقد رويت ، كمـا سبق القـول ، على أنهـا « تلك الغـرانيق العـلا وان شفاعتهن لترتجى » . ورواها بعضهم : « الغرانقة العـلا ان شفاعتهم ترتجى » . وروى آخرون « ان شفاعتهن ترتجى » دون ذكر الغرانقة أو الغرانيق . وفى رواية رابعـة : « وانهـا لهى الغرانيـق العـلا » وفى رواية خامسة : « وانهن لهن الغرانيق العلا . وان شفاعتهن لهى التى ترتجى » . وقد وردت فى بعض كتب الحديث روايات اخرى غير هذه الروايات الخمس . وهذا التعدد فى الروايات يدل على أن الحديث موضوع ، وأنه من وضع الزنادقة ، كما قال ابن اسحاق ، وأن الغرض منه التشكيك فى صدق تبليغ محمد رسالات ربه .

ودليل آخر أقوى واقطع ؛ ذلك سياق سورة النجم وعدم احتماله لمسألة الغرانيق . فالسياق يجرى بقوله تعـالى : (لقد راى من آيات ربه الكبرى . أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الاخرى . ألكم الذكر وله الانثى . تلك اذا قسمة ضيزى . ان هى الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وهـذا السـياق صريح فى أن اللات والعزى أسماء سماها المشركون هم وآباؤهم ما انزل الله بهـا من سـلطان . فكيف يحتمل أن =

العرب لا يمكن عبادتها الا عند نصبها (أمام التمثال الممثل لها) (٦) ، وعلى هذا فمضمون هذه الآيات الشيطانية المشار لها آنفا (التى يقال ان الشيطان القاها فى روع محمد ﷺ) أن الطقوس المتعلقة بعبادة أوثان الربات الثلاث بالقــرب من مكة مسـألة مقبولة • وأكثر من هذا ، فان مضمون هذه الآيات الناسخة abrogating (المترجم : هناك فرق كبير بين الآية المنســوخة abrogate وهى الكلمة التى استخدمها المؤلف ، والآية المدســوسة أو المكذوبة أو التى دســها الشيطان ، فهذه الأخيرة لا وجود لها اساسا ولم ينزلها الله عز وجل ، بينما الآية المنسوخه نزلت بالفعل لتناسب مرحلة زمنية معينة ثم نزل ما هو خير منها) التى حلت محل الآيات الشيطانية (آيات الغرانيق) لم تتضمن ادانة لعبــادة الكعبة (المترجم : لم يحدث فى أية مرحلة من مراحل التاريخ الاسلامى ، وربما غير الاسلامى أن كانت الكعبة معبودا ، وانما كانت موضع توقير واحترام باعتبارها أول بيت وضع للناس) اذا لم تكن هناك آيات أخرى تدين ذلك (عبادة الكعبة) تم حذفها بعد ذلك من القرآن الكريم ؛ وان كنا فى الحقيقة لا نملك أدلة على حدوث ذلك ــ فان حذف الآيات الشيطانية (آيات الغرانيق) من سورة النجم يؤدى الى رفع شان الكعبة على حساب

---

(٦) ابن الكلبى ، الاصنام ، ١٢ ــ ١٩ ، ابن هشام ، ٥٥ •
Welhausen, Reste, 24-45.

= يجرى السياق بما يأتى : « أفرأيتم اللات والعزى • ومناة الثالثة الاخرى • تلك الغرانيق العلا • ان شفاعتهن ترتجى • ألكم الذكر وله الانثى ، تلك اذا قسمة ضيزى • ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بهــا من سـلطان » أن فى هذا السياق من الفساد والاضطراب والتناقض ، ومن مدح اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وذمها فى اربع آيات متعاقبة ، ما لا يسلم به عقل ولا يقول به انسان ، ولا تبقى معــه شبهــة فى أن حديث الغرانيق مفترى وضعه الزنادقة لغاياتهم ، وصدقة من يسيغون كل غريب ومن تقبل عقولهم ما لا يسيغ العقل المنطقى •

وحجة اخرى ساقها المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده حين كتب يفند قصة الغرانيق • تلك ان وصف العرب لآلهتهم بانها الغرانيق لم يرد فى نظمهم ولا فى خطبهم ، ولم ينقل عن أحد ان ذلك الوصف كان جاريا على الســنتهم ، وانمــا ورد الغرنوق والغرنيق على أنه اسم لطائر مائى أسود أو أبيض ، والشاب الأبيض الجميل • ولا شىء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب •

بقيت حجة قاطعة ، نسوقها للدلالة على استحالة قصة الغرانيق هذه من حياة محمد نفسه ؛ فهو منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرب عليه الكذب قط ، حتى سمى =

الأوثان الأخرى · ولابد أن نتذكر فى هذا السياق أنه مع ارتفاع شأن الاسلام (النص : ازدياد قوة محمد ﷺ) تم تدمير كل هذه الأوثان وتحطيمها (٧) · (المترجم : هذا فى حد ذاته كحقيقة تاريخية مؤكدة ، ينسف حكاية الآيات الشيطانية من أولها لآخرها) ·

(٧) ابن هشام ، ٨٣٩ وما بعدها ، العزى ٩١٧ ، اللات ، الطبرى ١٦٤٩ مناة ٠٠ الخ·

= الأمين ولما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره · وكان صدقه أمرا مسلما به عند الناس جميعا . حتى لقد سأل قريش يوما بعد بعثه : « ارأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟ فكان جوابهم : « نعم : أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط » · فالرجل الذى عرف بالصدق فى صلاته بالناس منذ نعومة أظفاره الى كهولته كيف يصدق انسان أنه يقول على ربه ما لم يقل ، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه ! هذا أمر مستحيل ، يدرك استحالته الذين درسوا هذه النفوس القوية الممتازة التى تعرف الصلابة فى الحق ولا تداجى فيه لأى اعتبار · وكيف ترى يقول محمد : لو وضعت قريش الشمس فى يمينه والقمر فى شماله على أن يترك هذا الأمر أو يموت دونه ما فعل ، ثم يقول على الله ما لم يوح اليه ، ويقوله لينقض به أساس الدين الذى بعثه الله به هدى وبشرى للعالمين ! ·

ومتى رجع الى قريش ليمدح آلهتهم ؟ بعد عشر سنوات أو نحوها من بعثه ، وبعد أن احتمل هو وأصحابه فى سبيل الرسالة من ألوان الأذى وصنوف التضحية ما احتمل ، وبعد أن أعز الله الاسلام بحمزة وعمر ، وبعد أن بدأ المسلمون يصبحون قوة بمكـة ، ويمتد خبرهم الى العرب كلها والى الحبشة والى مختلف نواحى العالم · ان القول بذلك حديث خرافة وأكذوبة ممجوجة · ولقد شعر الذين اخترعوها بسهولة افتضاحها ، فأرادوا سترها بقولهم : ان محمدا ما كاد يسمع كلام قريش اذ جعل لآلهتهم نصيبا فى الشفاعة حتى كبر ذلك عليه حتى رجع الى الله تائبا أول ما أمسى ببيته وجاءه جبريل فيه · لكن هذا الستر أحرى أن يفضحها · فما دام الأمر قد كان كبر على محمد منذ سمع مقالة قريش ، فما كان أحراه أن يراجع الوحى لساعته ! وما كان أحراه أن يجرى الوحى الصواب على لسانه ! واذا فلا أصل لمسألة الغرانيق الا الوضع والاختراع ، قـامت بهما طائفة الذين أخذوا أنفسهم بالكيد للاسلام ، بعـد انقضاء الصدر الأول ·

واعجب ما فى جرأة هؤلاء المفترين أنهم عرضوا للافتراء فى أم مسائل الاسلام جميعـا : فى التوحيد ! فى المسألة التى بعث محمد لتبليغها للناس منذ اللحظة الأولى ، والتى لم يقبل فيها منذ تلك اللحظة هوادة ، ولا أماله عنها ما عرضت عليه قريش أن يعطوه ما يشـاء من المال أو يجعلوه ملكا عليهم · وعرضوا ذلك عليه حين لم يكن قد اتبعه من أهل مكة الا عدد يسير · وما كان الذى قريش لأصحابه ليجعله يرجع عن دعوة أمره ربه أن يبلغها للناس · فاختيار المفترين لهذه المسألة التى كانت صلابة محمد فيها غاية ما عرف عنه من الصلابة ، يدل على جرأة غير معقولة ، ويدل فى الوقت نفسه على أن الذين مالوا الى تصديقهم قد خدعوا فيما لا يجوز أن يخدع فيه أحـد · =

(ج) الآيات الشيطانية (آيات الغرانيق) ، الدوافع والتفسير

لأن الباحثين المسلمين لا يعترفون بالفكرة الاوروبية الحديثة عن التطور التدريجى ، فانهم قد اعتبروا محمدا (ﷺ) كان على وعى كامل منذ البداية الأولى للدعوة بكل أبعاد عقيدة التوحيد (النص : عقيدة الاســـلام السلفى كمــا هى معـروفة الآن Orthodox dogme) لـذا ، فقد كان من الصعب بالنسبة لهم أن يفسروا سبب عدم ادراكه (اى محمد ﷺ) للمضمون الوثنى لآيات الغرانيق (المترجم : المؤلف يبنى استنتاجاته على أساس أن قصة الغرانيق صحيحة ، وان كان بعض الباحثين المحدثين يرى غير ذلك ـ انظر الحاشية) والحقيقة أن التوحيد الذى كان يؤمن به محمد (ﷺ) كان فى بدايته لا يختلف عن توحيد من هم أكثر تنورا فى عصره أى أنه كان توحيدا غامضا على نحو ما ؛ بمعنى أنه لم يكن ممكنا فى مرحلة مبكرة فصل التوحيد الخالص عن الاحســـاس بوجود كائنات أخرى ذات طابع الهى أو مقدس (المترجم : يدرك المسلمون وبعض غير المسلمين أن هذا غير صحيح بالمرة ؛ بمجرد قراءة أول ما نزل من القرآن الكريم الذى يشير بوضوح الى اله واحد خالق وهاد : (اقرأ باســـم ربك الذى خلق (١) خلق الانسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) ··· كلا لا تطعه واســجد واقترب (١٩)) الســورة رقـم ٩٦ (العلق) ·

فربما نظر محمد الى اللات والعزى ومناة كموجودات أو ربات ، وان كانت لها قدسية ، الا أنها أقل أهمية من الله سبحانه وتعالى على النحو

= لا اصل اذا لمسألة الغرانيق على الاطلاق ، ولا صلة البتـة بينها وبين عودة المسلمين من الحبشة ، انما عادوا كما قدمنا ، بعد أن أسلم عمر ونصر الاسلام بمثل الحمية التى كان يحاربه من قبل بها ، حتى اضطرت قريش لمهادنة المسلمين · وعادوا حين شبت فى بلاد الحبشة ثورة خافوا مغبتها · فلما علمت قريش بعودتهم ازدادت مخاوفهم أن يعظم أمر محمد بينهم ، فائتمرت ما تصنع · وقد انتهت بوضع الصحيفة التى قرروا فيها فيما قرروا الا يناكحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم ، كما اجمعوا فيما بينهم أن يقتلوا محمدا ان استطاعوا ·

الذى يعتقد فيه اليهود والمسيحيون بوجود الملائكة ، وقد تحدث القرآن الكريم فى آخر المرحلة المكية عنها على أنها من الجن (٨) ، بينما تحدث عنها فى المرحلة المدنيـة على أنهـا مجـرد أسـماء « سميتموها » (٩)

(المترجم : آية سورة الأنعام الواردة فى الحاشية ٨ وآيات سورة النجم فى الحاشية ٩ لا تعارض بينها ، فلم تقل آية سـورة الأنعام ان المقصود بالجن هو اللات والعزى ومناة ٠٠ واخضاع فكرة الاله الواحد لمنظور التطور الذى يأخذ به فى كتابه قد تكون صحيحة بالنسبة للبشر ، فهم ينزهون الله سبحانه تنزيها يزداد كلما ازدادوا رقيا او تطورا فى مدارج الحضارة ، لكن هذا بالعقل لا يمكن أن ينطبق على الرسول او القرآن الكريم ، وآية الاخلاص (قل هو الله احد ٠٠٠) خير شاهد على الوضوح المطلق للتوحيد ، انه مسألة غير خاضعة للمساومة ، وليس فى القرآن الكريم ناسخ ومنسوخ بشأنها) أما والأمر كذلك ، ربما يكاد يكون من الضرورى أن نجد أية مناسبة خاصة لهذه الآيات الشيطانية (آيات الغرانيق) **انها لا يمكن أن تكون دلالة بأية حال من الأحوال على التراجع عن التوحيد** ، ولكنها ــ ببساطة ــ قد تكون مجرد تعبير عن وجهات نظر طالما اعتقدها محمـــد ﷺ (*) .

---

(٨) (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون (١٠٠)) سورة الأنعـام .

(٩) (ان هى الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلـطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وهناك آيتان سابقتان توضحان المراد من هذه الآية : (افرايتم اللات والعزى (١٩) ومناة الثالثـة الاخرى (٢٠)) سورة النجم .

(*) لا تقول كتب السيرة ذلك ، وفيما يلى بعض ما ذكره ابن هشـام (طبعـة مكتبة الايمان بتحقيق محمد بيومى) :

يتحدثون أن آمنة بنت وهب ام الرسول كانت تحدث ــ والله اعلم ــ ان هناك من قال لها ٠ انك حملت بسيد هذه الامة فاذا وقع الى الارض فقولى : اعيذه بالواحد من شر كل حاسد ٠٠ (ص ١٠١) وحدث الرسول عن نفسه قال : نعم انا دعوة ابى =

ومن هنا ، فان دراسة المضامين السياسية لهذه الآيات الشيطانية (آيات الغرانيق) تعد أمرا شائقا • أفعل محمد ذلك رغبة منه فى الحصول على مؤيدين له فى المدينة والطائف وفى القبائل المحيطة بهما ؟ هل حاول احداث توازن بين هؤلاء وزعماء قريش الذين يناوئونه ، بأن يجمع حوله أكبر عدد من المؤيدين ؟ ثم فى أقل القليل ، أليس ذكره لهذه الأوثان دليلا على أن رؤيته قد اتسعت ، أى أن نظره بدأ يتجه لأبعد من دعوة قريش ؟

ان الرواية المنسوبة لأبى علية (بضم العين) (فى الطبرى ابن علية) والتى أوردناها آنفا تشير الى ان قريشا قد عرضت على محمد (ﷺ) ان تقبل ما يقول به وان تقبله فى أوساطها اذا ذكر ربانها (بخير) ، وهناك أيضا روايات أخرى شبيهة بما اورده ابن علية • فاحيانا يقال انهم قد عرضوا عليه الثروة والزوجة الحسنة ، ومركز الصدارة ، وأحيانا عرضوا عليه فى تعبيرات أكثر عمومية زعامة قريش فى المجالين الدينى والتجارى (١٠) . وبصرف النظر تماما عن مسألة التفاصيل ، فثمة شك يمكن تبريره فيما اذا كانت هذه الروايات قد تم تلفيق جانب كبير منها بقصد اظهار أهمية محمد (ﷺ) فى هذه الفترة • أكان حقا من الأهمية بدرجة كافية لتجعله يكاد يعامل على قدم المساواة مع زعماء مكة ؟ وبشكل عام ، فان صورة محمد (ﷺ) كما قدمتها هذه الحكايات ربما كانت أقرب ما تكون الى الحقيقة • (المترجم : بعد أن أثار المؤلف عدة أسئلة ، عاد

– ابراهيم وبشرى اخى عيسى ، ورات امى حين جملت بى انه خرج منها نور اضاء لها قصور الشام ••) ص ١٠٥ ، وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل – عمها وكان نصرانيا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس – ما ذكره لها غلامها ميسرة من قول الراهب •• فقال لها ورقة : لئن كان هذا حقا يا خديجة فان محمدا لنبى هذه الأمة •• (ص ١٢١) • وكان يوصف بالامين (ص ١٢٥) •• ويردد علماء الدين انه ﷺ لم يسجد لصنم قط • وتحنثه فى غار حراء قبل البعثة معروف •

(١٠) تاريخ الطبرى ، ١١٩١ ، وانظر ايضا تفسير الطبرى جـ ٥ ، الآيات من ٧٥ الى ٧٧ من السورة رقم ١٧ (الاسراء) :

(اذن لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا (٧٥) • وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذن لا يلبثون خلافك الا قليلا (٧٦) • سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تبديلا (٧٧) •••) •

فأنكرها على اعتبار أن الصورة مقبولة بشكل عام • ولا نجد مبررا لسوق مقتطفات طوال من كتب السيرة : ابن هشام ، والجزء الخاص بالسيرة فى كتاب الطبقات الكبرى للواقدى • فمسيرة الأحداث تثبت أن رسول الله كان مهما ، بل فى الغاية من الأهمية فقد فتح مكة بعد ذلك واسس دولة ، ونشر دينا عالميا فى مختلف أرجاء العالم ، ولازال ينتشر) •

لابد أن نتذكر أن النجاح الأصلى (الأولى) الذى أحرزه محمد (ﷺ) كان قليلا ـ ربما بسبب تواضع أنساب من تبعوه فى وقت من الأوقات ثم انشقوا عنه (ارتدوا fell away) ـ ولم تكن هنـــاك رغبة فى اعادة ذكر مثــل هذه الأمور • وفى رواية أبــو علية (فى الطبرى ابن علية) نلاحظ أن محمدا (ﷺ) كانت له السيادة بين زوار مكة ، مع أن أحدا من زعماء مكة لم يكن قد انضم اليه ، وهذا التناقض يعد فى الغاية من الغباء اذا كانت الرواية مجرد ابتداع . دعنا اذن نقبل الرواية كما هى ، ودعنا نذهب الى أن زعماء قريش راحـــوا يقدمون نوعا من العروض على محمد (ﷺ) مؤداها أن يحظى بتكريم لفظى مقابل بعض الاعتراف برباتهم • اننا لا يمكننا أن نكون متأكدين من ذلك • واعلان هذه الآيات الشيطانية (آيات الغرانيق) يمكن بلا شك ربطه بهذه الصفقة .

ووفقا لهذه النظرة ، فابطال هذه الآية الشيطانية (استخدم المؤلف الكلمة الانجليزية الدالة على النسخ abrogation . وقد بينا فى حاشية ســابقة الفرق بين النســخ والوضع) لابد أن يرتبط بفشل هذا الحل الوسط (التسوية) ، وليس هناك ما يدعونا للقول ان أهل مكة كانوا متواطئين مع محمــــد (متظاهرين بالخلاف معه double - crossed) : لكنه ـ أى محمد ﷺ ـ أدرك أن الاعتراف ببنات الله (كما كان يقال عن اللات والعزى ومناة وغيرها) يعنى التقليل من شأن الله (سبحانه) ليكون مســـاويا لهذه الربات • لقد كانت طريقة تعبده عند الكعبة من الناحية الظاهرية لا تختلف اختلافا كبيرا عن طريقة العبادة التى كان يمارسها رهبان هذه الأوثان (اللات والعزى •• الخ) وان كانت لا تزيد عنها كثيرا فى التأثير ، ومن هنا فان الاصلاح الذى نشده محمد



(ﷺ) لم يكن ليؤتى ثماره . لذلك ، فمن المؤكد أن محمدا لم يرفض عروض أهل مكة أخيرا لعروض كلامية عرضوها عليه ، وانما كان رفضه لأسباب دينية صحيحة ، انه لم يرفض عروضهم - على سبيل المثال - لعدم ثقته فيهم أو لطموحه الشخصى الذى لم يتم اشباعه بعد لكن لأن معنى اعترافه بهذه الربات (الأوثان) سيؤدى الى فشل مهمته كرسول ، ويقضى على الرسالة التى كلفه الله (سبحانه) بها . لقد كان الوحى قد جعل ذلك الأمر واضحا له منذ البداية . اننا يمكن أن نفكر على هذا النحو لتوضيح ما كان ، وربما كان محمد (ﷺ) قد شعر أن مهمته غير سهلة حتى قبل أن يأتيه الوحى .

واذا نظرنا للأمور نظرة تجريدية ، بدا أنه ليس ثمة ما يدعو للاعتراض الا قليلا فى الاعتراف باللات والعزى وغيرهما كموجودات أقل قداسة ، فالاعتراف بالملائكة مسألة متمشية مع التوحيد ليس فى اليهودية والمسيحية فحسب ، وانما فى الاسلام السنى (السلفى) أيضا . وعلى أية حال ، فان عاملين كمنا فى أوضاع مكة فى هذه الفترة الانتقالية جعلا الاعتراف بذلك أمرا غير ممكن :

العامل الأول : أن طبيعة التعبد عند الكعبة والذى كان قبل الاسلام متسما بالشرك (تعدد الآلهة) - كان لابد من تنقيته (تخليصه من الشرك) وتحويله للتوحيد الخالص . فاذا كانت ممارسات العبادة الجديدة حول الكعبة تشبه ممارسات العبادة عند أوثان الربات الأخرى ، فلابد أن أهل الحجاز كانوا سيقترحون ربات أخرى لتعبد على قدم المساواة .

العامل الثانى : هو أن عبارة (بنات الله) ذات مضامين خطيرة رغم أنها بشكل عام لم تكن تعنى المعنى الحرفى لها (١١) . فكلمة (بنات) وغيرها من الكلمات الشبيهة قد تستخدم - غالبا - استخداما مجازيا فى اللغة العربية . فالعرب يقولون بنت الشفه ويعنون الكلمة ، ويقولون بنت العين ويعنون الدمعة ، ويقولون بنات الدهر ويعنون النكبات

(١١) Welhausen, Reste, 24.

والمصائب • ومن هنا فربما كانت عبارة (بنات الله) لا تعنى أكثر من أنها موجودات مقدسة أو موجودات فوقية (فوق طبيعية) ، أما كلمة الله فى هذه العبارة فهى تعنى ببساطة الاله the god ولا تعنى بالضرورة الاله الأعظم (الله God) ، ولأن كلمة الله بدأت تنصرف للتعبير على الموجود الأعلى سبحانه ولا تطلق على سواه ، فان خطورة عبارة بنات الله أنها قد تعنى أن هذه (البنات) مساويه لله سبحانه ، وهذا لا ينفق مع عقيدة التوحيد •

وفكرة أن اختلاف محمد (ﷺ) مع زعماء مكة كانت هى السبب فى إلغاء الآيات الشيطانية (آيات الغرانيق) ورفضه للعروض المقدمة منهم تتفق مع النقطة الثانية الواردة فى خطاب عروة الذى أوردناه فى صدر هذا الفصل ، وهى أن بعض زعماء قريش ممن لهم ممتلكات فى الطائف هم الذين قادوا المعارضة الفعالة ضد محمد (ﷺ) • ومن الممكن تقديم تفسيرات مختلفة لهذه الحقيقة وان كان أفضلها هو أن هؤلاء الذين كانوا من بين زعماء قريش الذين كانوا مهتمين بشكل خاص بتجارة الطائف ، قد ربطوا النشاطات التجارية فى هذا المركز التجارى (الطائف) بفلك الحياة المالية والتجارية فى مكة . وكان سحب الاعتراف بوثن (الربة) اللات يهدد ـ بشكل أو بآخر ـ مشروعهم ؛ مما أثار غضبهم الشديد ضد محمد (ﷺ) •

ومما يؤكد ما ورد فى خطاب عروة من أن التعرض للربات (الأوثان أو الطواغيت) كان هو السبب الكامن وراء مرحلة العداوة بين محمد وزعماء قريش ، ما ورد فى القرآن الكريم • فثمة آيتــان ترتبطان بذلك تقليديا • تتحدث هاتان الآيتان عن اغــراء أو اغواء (كاد) يخضــع له محمـــد (ﷺ) :

(وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا (٧٣) ولولا أن ثبتنــاك لقــد كدت تركن اليهم شيئا قليلا (٧٤) واذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا (٧٥) ••) •
سورة الاسراء (السورة ١٧) •

وطبيعة الاغراء أو الاغواء في هذه الآيات غير محددة ·

(قل اغير الله تامرونى اعبد أيها الجاهلون (٦٤) ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (٦٥) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين (٦٦) وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) سورة الزمر (السورة ٣٩) ·

ففى هذه الآيات يتضح أن هذا (الاغواء) أو (الاضلال) كان هو طلبهم من محمد (ﷺ) اتخاذ (شركاء) مع الله · وتشير هذه الآيات جميعا الى أن محمدا لو كان قبل عرض زعماء قريش ، لكان العقاب الذى ينتظره من الله سبحانه وتعالى شديدا ، عاجلا وآجلا (في الدنيا والآخرة) · وربما كانت هذه الآيات قد نزلت في بداية المرحلة المدنية (١٢) وأيا ما كان تاريخ نزول الوحى بهذه الآيات ، لا يبدو أن هناك سببا قويا لرفض الربط بينها وبين قصة الآيات الشيطانية (آيات الغرانيق) والغائها (تنبيه الرسول الى أنها ليست من القرآن الكريم) . وهناك آية أخرى هي :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون » الأنعام (٦) ، الآية ١٣٦ ·

وربما يمكن ربط هذه الآية بالأحداث الآنفة ، فهذه الآية تشير الى أن المشركين يعرفون الله ، ولكنهم يشركون فى حكمه أوثانا (آلهة أخرى)

---

(١٢) Bell, translation of Quran.

كل هذه الحقائق تؤكد أن الرســـول ﷺ رفض الصفقة المعروضة عليه ، أو بتعبير آخر رفض المساومة على دين الله .

وسورة (الكافرون) وهى السورة رقم ١٠٩ تمثل الرد الذى رده محمد على الكافرين ، ونص آياتها كالتالى :

(قل يا أيها الكافرون (١) لا أعبد ما تعبدون (٢) ولا انتم عابدون ما أعبد (٣) ولا أنا عابد ما عبدتم (٤) ولا أنتم عابدون ما أعبـــد (٥) لكـــم دينـــكم ولى دين (٦)) الكافرون (السورة ١٠٩) .

وتلك هى القطيعة الكاملة بين التوحيـــد من ناحيـــة وتعـدد الآلهة من ناحية أخرى ، أو بين التوحيد من ناحية والشرك من ناحيه أخرى . وهذه الآيات تشير الى استحالة عقد صفقة للتوفيق بينهما مستقبلا . وهناك آيتان أخريان شبيهتان بهذا السياق ، وان كانتا ليستا بهذه القوة فى التعبير عن الفصل بين العقيدتين :

(قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت اذن وما أنا من المهتدين (٥٦) قل انى على بينة من ربى وكذبتم به ، ما عندى ما تستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصـــلين (٥٧) ..) سورة الأنعام (السورة رقم ٦) .

وتتحدث الآية الأخيرة عن أن عبادة الأوثان قد تراجعت ، مما يشير الى أن عملية اغواء محمد قد استمرت لفترة زمنية غير قليلة بدليل نزول آيات متفرقة تتعرض لهذا الموضوع ، وهى مجمل الآيات التى أوردناها آنفـــا .

ان تعاليم القرآن الكريم فيما يتعلق بالأوثان خلال الحقبة المكية مسألة هى ايضا جديرة بالتأمل . ان آياته تشير بشكل أساسى الى أن عبـــادة الأوثان حمق وغباء ، فالأوثان لا تنفع ولا تضر ولا تقدر على

شيء (١٣) وهي لا تشفع (١٤) وفي اليوم الآخر سيستصرخ بها المشركون ثم يدركون أنها لا تنفع ولا تشفع وأنها تبرأ مما يقولون (١٥) .

ان مثل هذه الآيات تبدو وكأنها تخاطب أناسا يمرون بمرحلة انتقال دينية (وجهات نظرهم الدينية كانت في مرحلة انتقال) ، فالمشركون فيما تشير الآيات ينظرون الى هذه الأوثان التي يعبدونها « كشفعاء » أو « وسطاء » عند الله .

(ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون (١٨) ..)
السورة رقم ١٠ (يونس) .

ومعنى هذه الآية اذا أخذناه ببساطة هو أنهم يعترفون - الى حد ما - بموجود أعلى Some higher being ، وربما أيضا نفهم منها أنهم كانوا يؤمنون باليوم الآخر أو يوم الحساب ، وان كنا غير متأكدين من هذه الفكرة الأخيرة مادامت الآية تشير الى أنهم يعتقدون أن شفاعة الأوثان لهم في يوم الحساب لها بعض التأثير حتى بالنسبة لمن لا يقبلون الايمان بالله تماما . ومرة أخرى عندما قيل ان المشركين اتخذوا جنا شركاء لله ، وقد يكون القرآن الكريم قد عبر عن هذا الموضوع بهذا الشكل لأن الفكرة كانت شائعة زمن الرسول (ﷺ) وزمن الذين كانوا يعارضون عبادة الأوثان على هذا النحو . لذلك لم يكن هجوم القرآن (الكريم) على الآلهة الزائفة حادا جدا هذه الفترة ، فهو لم يؤكد عدم وجودها كموجودات فوقية (فوق طبيعية) ، ولكنه ربما اكتفى باثارة شكوك خطيرة حولها أمام أناس كانت أفكارهم الدينية بالفعل في حالة تدفق .

---

(١٣) السورة ٦ (الآيات ٤٦ ، ٧٠) والسورة ١٠ (الآيات ١٩ ، ٣٥) والسورة ١٧ (الآيات ٥٨ وما بعدها) والسورة ٢١ (الآية ٤٤) .
(١٤) السورة ١٠ (الآية ١٩) والسورة ١٩ (الآية ٩٠) ... الخ .
(١٥) السورة ١٦ (الآية ٨٨) ، والسورة ١٨ (الآية ٥٠) ... الخ .

وعبارة (بنات الله)كانت هدفا سائدا للهجوم ، كما يتضح من الآيات التالية :

(ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون (٥٧) واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم (٥٨) ··) السورة ١٦ (النحل) ·

(فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون (١٤٥) أم خلقنـــا الملائكة اناثا وهم شـــاهدون (١٥٠) ··) السورة رقم ٣٧ (الصافات) ·

(أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين (١٦) واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مســـودا وهو كظيم (١٧) أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصـــام غير مبين (١٨) وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا . أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون (١٩) ··) السورة رقم ٤٣ (الزخرف) ·

(ألكم الذكر وله الأنثى (٢١) تلك اذن قسمة ضيزى (٢٢)) السورة رقم ٥٣ (النجم) ·

فقد وردت فكرة بنات الله كما يتضح من الآيات السابقة عدة مرات فى القرآن الكريم ، وكانت مرتبطة ــ تقليديا ــ برفض الآيات الشيطانية والغائها ، والمعنى فيها أنه كيف يكون لله البنات فقط بينما لأهل مكة بنون وبنات ، وتشير الآيات الى أن الأنثى أدنى منزلة من الذكر (١٦) ، بينما لا يمكن لله سبحانه نسل فهو ــ سبحانه ــ ليس له زوجة (١٧) كما يتضح من الآيات التالية :

---

(١٦) اكتفى المؤلف بذكر ارقام الآيات والسور وآثرنا ايرادها بنصها للفائدة ·
(١٧) أوردها المؤلف باختلاف فى ترقيم الآيات عن المصحف المتداول ·

(وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون (١٠٠) بديع السماوات والأرض انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم (١٠١) ..) السورة رقم ٦ (الأنعام) .

(وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا) الآية ١١١ ، السورة ١٧ (الاسراء) .

وثمة فارق مهم بين أن يكون لله ولد أو نسل من ناحية وبين أن يكون له عبيد ، فالعبيد يعبدونه ولا يتدخلون فى حكمه (١٨) (النص : يتشفعون intercede) كما تشير الآيات التالية :

(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه بل عباد مكرمون (٢٦) لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (٢٧) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢٨) ..) السورة ٢١ (الأنبياء) .

(أيشركون ما لايخلق شيئا وهم يخلقون (١٩١) ولايستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون (١٩٢) وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون (١٩٣) ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين (١٩٤) ..) السورة ٧ (الأعراف) .

وعلى هذا ، فانه يبدو أنه كان هناك شعور بأن كلمة (بنات) كانت تتضمن أو يمكن أن تتضمن معنى الربات (الأوثان idols) التى كانت قريش تشرك بها مع الله . هذا هو المعنى الاساسى الكامن وراء رفض الآيات الشيطانية وانكار نسبتها للقرآن (الكريم) ، وثمة نقاط

---

(١٨) اكتفى المؤلف بارقام الآيات وقد أوردناها بنصها .



أخرى يفترض أنه قد تمت إضافتها مؤخرا بالاضافة الى براهين أخرى لم تسبقها فيما سبق (١٩) .

وعلى هذا ، فالقرآن الكريم يتوافق مع ما كان معروفا من الروايات التقليدية .ولابد أن محمدا قد احرز النجاح الكافي في جعل زعماء قريش ينظرون اليه بجدية أو كمصدر خطر حقيقي . فتعرض محمد (ﷺ) لضغط ليعترف بعبادة الربات (الأوثان) في المناطق المجاورة . وقد ركن اليهم محمد ﷺ في البداية شيئا قليلا للوصول الى مزايا مادية كالتي عرضوها عليه ، ولأنه بدا له كما لو أن ذلك سيحقق نجاحا سريعا لدعوته . وعلى أية حال ، فأخيرا فمن خلال دعم الله سبحانه له ـ كما يعتقد ـ أدرك أن مثل هذه التسوية مضرة ، ومن هنا تخلى عن فكرة تحسين ما يحيط به من ظروف وواصل طريقه الذي يعتقد في صحته . ومن هنا كانت مناهضة تعدد الآلهة (الوثنية) حاسمة قاطعة بعبارات حادة واضحة تغلق الباب أمام أية تسوية (تسعى اليها قريش) في المستقبل . (كما اشرنا ، فان قضية التوحيد الخالص محسومة منذ البداية بل هي جوهر الاسلام ـ وكل ما يذكره المؤلف استطراد لقصة الغرانيق التي لا وجود لها في القرآن الكريم ، وأثارها كثير من الباحثين ـ المترجم) .

ويميل الكتاب الغربيون الى الظن بأن المسلمين يخلطون بين الدين والسياسة بطريقة غير مرغوبة (رغم أن ذلك بطبيعة الحال ليس قصرا على المسلمين ، فالمسيحيون الشرقيون وغيرهم يفعلون الشيء نفسه) . وعلى أية حال ، فربما كانت الحقيقة هي أن المسلمين يرون الدين حاويا على قضايا سياسية بشكل أوضح مما يرى الأوربيون . فقد كان محمد ﷺ مهتما بالأحوال الاجتماعية والسياسية والدينية في مكة ، لكنه بطبيعة الحال تفاعل مع الجوانب الدينية باعتبارها هي الأساس . ولأنه كان مرتبطا بقضايا حياتية ، فقد كانت قراراته في مجال الدين ذوات مضامين

---

(١٩) اشار المؤلف في هامشه الى الآيات التالية :

ـ الآيات في سورة ابراهيم من ٥٢ الى ٧٠ (اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ... الخ) .

ـ الآيات من سورة الانعام ، رقم ٧٤ ، ومن ٨٠ الى ٨٢ عن حجج سيدنا ابراهيم ، والآيات في سورة الكهف عن عداء الجن للانسان من ٥٠ الى ٥١ .

سياسية • واذا كانت الروايات المتعلقة بالعروض التي عرضها زعماء قريش على محمد (ﷺ) صحيحة ، فهذا يعني أن محمدا كان على وعي بالأبعاد السياسية لقراراته وعلى نحو خاص بالأبعاد السياسية لاذاعته لآيات الغرانيق ثم الغائه لها (المترجم : حتى بفرض صحة رواية الغرانيق هذه ، فان ابطالها ، ونزول جبريل بالتنبيه على أنها من الشيطان يفيد في أمور كثيرة ، منها أن الاسلام يحرم تحريما قاطعا اللجوء الى غير الله أو الطلب من غير الله ، سواء كان عزى أو مناة أو لات أو قبر شيخ أو ضريح ولى أو مشعوذ ••••• الخ) وعلى النحو نفسه فلابد أنه كان واعيا عندما رفض في النهاية أية تسوية أو مساومة ، بأن أعلن بشكل حاسم من خلال سورة (الكافرون) أنه لا مجال لصلح أو سلام مع قريش اذا لم تقبل بصحة رسالته التي بعثه الله بها • ولهذا مضامين أبعد ــ وفقا لأفكار العرب عن سيادة الحكمة أو شرعية الحكمة ــ فان قبوله نبيا يعني أيضا قبوله زعيما ، لكن محمدا قد لا يكون واعيــا بكل ذلك في البداية ، فقبل ــ بلا شك ــ ما نزل به القرآن الكريم من أنه ليس الا نذيرا ، وانه بالتالي ليس الا صاحب رسالة دينية • ففصل العرب بين النبوة والزعامة أمر غير قائم ولايمكن أن يستمر ، فكيف يمكن لأي زعيم مدني أن يحكم اذا كانت كلمة الله أو حتى كلمة نبي ضده ؟ نخلص من هذا الى أن التعرض لربات قريش (الأوثان) كان بالفعل هو بداية المعارضة الحقيقية التي شنتها قريش ضد الرسول ، كما أن سورة (الكافرون) التي تبدو ذات هدف ديني خالص ، كانت هي التي جعلت فتح مكة بالنسبة لمحمد ﷺ أمرا ضروريا [٣٥]

٢ ــ أمور الحبشــــة

اذا كانت التواريخ النسبية التي وردت في خطاب عروة صحيحة ، فان الهجرة الى الحبشة تكون قد وقعت بعد نزول سورة (الكافرون) مع ابطال آيات الغرانيق ، وهذا الترتيب يتناسب مع النتائج التي انتهت اليها الهجرة الى الحبشة ، وهي ما سنتعرض له في السطور التالية •

(أ) الرواية التقليدية عن الهجرة الى الحبشة

يذكر لنا ابن هشام الرواية التالية (٢٠) :

« قال ابن اسحاق : فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتي يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ الى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة وفرارا الى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الاسلام ٠

أوائل المهاجرين الى الحبشة : وكان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر : عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ، معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ ٠

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس معه امرأته : سهلة بنت سهيل بن عمرو ، أحد بنى عامر ابن لؤى ، ولدت له بأرض الحبشة محمد بن أبى حذيفة ٠ ومن بنى أسد ابن عبد العزى بن قصى : الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد ٠ ومن بنى عبد الدار بن قصى : مصعب بن عمير بن هاشـــم بن عبد مناف بن عبد الدار ٠ ومن بني زهرة بن كلاب : عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف ابن عبد بن الحارث بن زهـرة ٠ ومن بنى مخزوم بن يقظـة بن مرة : أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة ابن مرة معه امرأته أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم ٠ ومن بنى جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب : عثمان بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح ٠ ومن بنى عدى بن كعب : عامر بن

---

(٢٠) ص ٢٠٨ وما بعدها ٠ نقلنا النص من الطبعـة المتوافرة لدينـا (مكتبـة الايمان ـ بتعليق محمد بيومى) ٠ أورد المؤلف فقرات من الرواية وآثرنا نقلها كاملة ٠

ربيعة ، حليف آل الخطاب ، من عنز بن وائل ـ معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة بن حذافة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب • ومن بنى عامر بن لؤى : أبو سبرة بن أبى رهم ابن عبد العزى بن أبى قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، ويقال بل أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر ابن مالك بن حسل بن عامر • ويقال : هو أول من قدمها • ومن بنى الحارث بن فهر : سهيل بن بيضاء ، وهو سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث ، فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين الى أرض الحبشة ، فيما بلغنى •

قال ابن هشام : وكان عليهم عثمان بن مظعون ، فيما ذكر لى بعض أهل العلم •

قال ابن اسحاق : ثم خرج جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه •

المهاجرون من بني هاشم : ومن بنى هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر : جعفر بن أبى طالب ابن عبد المطلب بن هاشم ، معه امرأته أسماء بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم ، ولدت له بأرض الحبشة عبد الله ابن جعفر •

المهاجرون من بني امية : ومن بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف : عثمان (*) بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، معه امرأته رقية ابنة رسول الله ﷺ ، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، معه امرأته فاطمة بنت صفوان بن أمية بن محرث بن شق بن رقبة بن مخدج الكنانى ، وأخوه خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ، معه امرأته امينة بنت خلف بن أسعد ابن عامر بن بياضة بن سبيع بن جعثمة بن سعد بن مليح بن عمرو ، من خزاعة •

(*) مر ذكره فى الصفحة السابقة •

قال ابن هشام : ويقال همينة بنت خلف .

قال ابن اسحاق : ولدت له بأرض الحبشة سعيد بن خالد ، وأمة بنت خالد ، فتزوج أمة بعد ذلك الزبير بن العوام ، فولدت له عمرو بن الزبير ، وخالد بن الزبير .

المهاجرون من بني أسد : ومن حلفائهم ، من بني أسد بن خزيمة : عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم ابن دودان بن أسد ، وأخوه عبيد الله بن جحش ، معه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية ، وقيس بن عبد الله ، رجل من بني أسد ابن خزيمة ، معه امرأته بركة بنت يسار ، مولاة أبي سفيان بن حرب بن أمية ، ومعيقيب بن أبي فاطمة . وهؤلاء آل سعيد بن العاص ، سبعة نفر . قال ابن هشام : معيقيب من دوس .

المهاجرون من بني عبد شمس : قال ابن إسحاق : ومن بني عبد شمس بن عبد مناف ، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وأبو موسى الأشعري ، واسمه عبد الله بن قيس ، حليف آل عتبة بن ربيعة ، رجلان .

المهاجرون من بني نوفل : ومن بني نوفل بن عبد مناف : عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب بن نسيب بن مالك بن الحارث بن مازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة ، بن قيس بن عيلان ، حليف لهم ، رجل .

المهاجرون من بني أسد : ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي : الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد ، والأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد ، ويزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد،وعمرو بن أمية بن الحارث بن أسد ، أربعة نفر .

المهاجرون من بني عبد بن قصي : ومن بني عبد بن قصي : طليب ابن عمير بن وهب بن أبي كبير بن عبد بن قصي ، رجل .

المهاجرون من بني عبد الدار بن قصي : ومن بني عبد الدار بن قصي : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وسويبط ابن حرملة بن مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار ، وجهم بن قيس ابن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، معه امرأته أم حرملة بنت عبد الأسود بن جذيمة بن أقيش بن عامر بن بياضة بن سبيع ابن جعثمة بن سعد بن مليح بن عمرو ، من خزاعة ، وابناه عمرو بن جهم وخزيمة بن جهم ، وأبو الروم بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وفراس بن النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف ابن عبد الدار ، خمسة نفر .

المهاجرون من بني زهرة : ومن بني زهرة بن كلاب : عبد الرحمن ابن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة ، وعامر بن أبي وقاص وأبو وقاص ، مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة ، والمطلب بن أزهر ابن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة ، معه امرأته رملة بنت أبي عوف بن ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم ، ولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن المطلب .

المهاجرون من بني هذيل : ومن حلفائهم من هذيل : عبد الله بن مسعود بن الحارث بن شمخ بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث ابن تميم بن سعد بن هذيل . وأخوه : عتبة بن مسعود .

المهاجرون من بهراء : ومن بهراء : المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن ثمامة بن مطرود بن عمرو بن سعد بن زهير بن لؤى ابن ثعلبة بن مالك بن الشريد بن أبي فائش بن دريم بن القين بن أهود ابن بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة .

قال ابن هشام : ويقال هزل بن فاس بن ذر ، ودهير بن ثور .

قال ابن اسحاق : وكان يقال له المقداد بن الأسود بن عبد يغوث ابن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وذلك أنه تبناه في الجاهلية وحالفه . ستة نفر .

المهاجرون من بني تيم : ومن بنى تيم بن مرة : الحارث بن خالد بن صخر بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ، معه امرأته ريطة بنت الحارث بن جبلة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم ، ولدت له بأرض الحبشة موسى بن الحارث وعائشة بنت الحارث ، وزينب بنت الحارث وفاطمة بنت الحارث ، وعمرو بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ، رجلان .

المهاجرون من بني مخزوم : ومن بنى مخزوم بن يقظة بن مرة : أبو سلمة (*) ابن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ومعه امرأته أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ولدت له بأرض الحبشة زينب بنت أبى سلمة ، واسم أبى سلمة عبد الله ، واسم أم سلمة : هند . وشماس بن عثمان بن الشريد بن سويد بن هرمى ابن مخزوم .

خبر الشماس : قال ابن هشام : واسم شماس : عثمان ، وانما سمي شماسا ، لأن شماسا من الشمامسة ، قدم مكة فى الجاهلية ، وكان جميلا فعجب الناس من جماله ، فقال عتبة بن ربيعة ، وكان خال شماس : انا آتيكم بشماس أحسن منه ، فجاء بابن أخته عثمان بن عثمان ، فسمى شماسا فيما ذكر ابن شهاب وغيره .

قال ابن اسحاق : وهبار بن سفيان بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وأخوه عبد الله بن سفيان ، وهشام بن أبى حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم ، وسلمة بن هشام بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وعياش بن أبى ربيعة بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم .

المهاجرون من حلفاء بني مخزوم ، ومن حلفائهم ، معتب بن عوف ابن عامر بن الفضل بن عفيف بن كليب بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو ، من خزاعة ، وهو الذى يقال له : عيهامة ، ثمانية نفر .

قال ابن هشام : ويقال حبشية بن سلول ، وهو الذى يقال له معتب بن حمراء .

(*) مر ذكره وذكر زوجته من قبله - (المراجع) .

المهاجرون من بني جمح : ومن بني جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب ، عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح ، وابنه السائب بن عثمان ، وأخواه قدامة بن مظعون ، وعبد الله بن مظعون ، وحاطب بن الحارث بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح ، معه امرأته فاطمة بنت المجلل بن عبد الله بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر ابن مالك بن حسل بن عامر ، وابناه : محمد بن حاطب ، والحارث بن حاطب ، وهما لبنت المجلل ، وأخوه حطاب بن الحارث ، معه امرأته فكيهة بنت يسار ، وسفيان بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح ، معه إبناه جابر بن سفيان ، وجنادة بن سفيان ، ومعه امرأته حسنة ، وهي أمهما ، وأخوهما من أمهما شرحبيل بن حسنة ، أحد الغوث .

قال ابن هشام : شرحبيل بن عبد الله أحد الغوث بن مر ، أخي تميم بن مر .

قال ابن اسحاق : وعثمان بن ربيعة بن أهبان بن وهب بن حذافة ابن جمح ، أحد عشر رجلا .

المهاجرون من بني سهم : ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب ، خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، وعبد الله ابن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد بن سهل ، وهشام بن العاص بن وائل بن سعد بن سهم .

قال ابن هشام : العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم .

قال ابن اسحاق : وقيس بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، وأبو قيس بن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، وعبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، والحارث بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، ومعمر بن الحارث بن قيس بن عدى ابن سعد بن سهم ، وبشر بن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، وأخ له من أمه من بني تميم ، يقال له : سعيد بن عمرو ، وسعيد

ابن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، والسائب بن الحارث ابن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، وعمير بن رئاب بن حذيفة بن مهشم ابن سعد بن سهم . ومحمية بن الجزاء ، حليف لهم ، من بني زبيد أربعة عشر رجــلا .

المهاجرون من بني عدى : ومن بني عدى بن كعب : معمر بن عبد الله ابن نضلة بن عبد العزي بن حرثان بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدى ، وعروة بن عبد العزى بن حرثان بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدى ، وعدى بن نضـــلة بن عبد العزى بن حرثان بن عوف بن عبيد بن عويج ابن عدى ، وابنه النعمان بن عدى ، وعامر بن ربيعة ، حليف لآل الخطاب ، من عنز بن وائل ، معه امرأته ليلى بنت حثمة بن غانم . خمسة نفر .

المهاجرون من بني عامر : ومن بنى عامر بن لؤى : أبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، معه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس ابن عبد ود بن نصر بن مالك بن حســـل بن عامر ، وعبد الله بن مخرمة ابن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن مالك ابن حسل بن عامر ، وسليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر ابن مالك بن حسل بن عامر ، وأخوه الســـكران بن عمرو ، معه امرأته سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك ابن حسل بن عامر ، ومالك بن زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود ابن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، معه امرأته عمرة بنت السعدى بن وقدان بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، وسعد بن خولة ، حليف لهم . ثمانية نفر .

قال ابن هشام : سعد بن خولة من اليمن .

المهاجرون من بني الحارث ، قال ابن اسحاق : ومن بنى الحارث ابن فهر أبو عبيدة بن الجراح ، وهو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال

ابن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر · وسهيل بن بيضاء ، وهو سهيل ابن وهب بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث ، ولكن أمه غلبت على نسبه ، فهو ينسب اليها ، وهي دعد بنت جحدم بن أمية بن ظرب بن الحارث بن فهر ، وكانت تدعى بيضاء ، وعمرو بن أبي سرح بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبه بن الحارث ، وعياض بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث ، ويقال : بل ربيعة بن هلال بن مالك بن جنبة ، وعمرو بن الحارث بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن مالك بن جنبة بن الحارث وعثمان بن عبد غنم بن زهير ابن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث وسعد بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن ظرب بن الحارث ، والحارث بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن ظرب بن الحارث بن فهر · ثمانية نفر ·

عدد مهاجري الحبشة : فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ، وهاجر اليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغارا وولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلا ، ان كان عمار بن ياسر فيهم ، وهو يشك فيه ... » ·

وكان هؤلاء العشرة هم أول مسلمين هاجروا للحبشة وفقا للمصادر التي بين أيدينا ، ويذكر ابن هشام أن من بينهم : عثمان بن مظعون كما ذكر لي أحد الباحثين · ويقول ابن اسحق انه بعد ذلك خرج جعفر بن أبي طالب مهاجرا وتبعه المسلمون واحدا فواحدا ثم التقوا في الحبشة ، وقد ذهب بعضهم مع أسرته ، وذهب بعضهم بمفرده دون اصحطاب أسرته ... (ثم يذكر أسماء ٨٣ مهاجرا (ذكرا بالغا) ضمنهم ما ورد في القائمة الأولى) ·

واعتمادا على هذه الرواية انتشر بين المؤرخين المسلمين المحدثين أن هناك هجرتين الى الحبشة ، وأن أشخاصا بعينهم ـ أعني هؤلاء الذين وردت أسماؤهم في القائمة الأولى ـ اشتركوا في الهجرتين (الأولى

والثانية الى الحبشة) بعضهم عاد الى مكه ومنها هاجروا للمدينة ، وبعضهم لم يعد حتى سنة ٧ هـ عندما التحقوا بالرسول ﷺ فى خيبر .

(ب) شرح قائمتى المهاجرين الى الحبشة

تساءل المؤرخون الغربيون عن مسألة وجود هجرتين منفصلتين (أولى وثانية) الى الحبشة ، خاصة الباحث كيتانى Caeteni (٢١) الذى اعتمدنا فى المناقشات التالية اعتمادا كبيرا على معالجته لهذه المسألة . ان السبب الرئيسى لرفض فكرة وجود هجرتين منفصلتين هو أن ابن اسحق — كما نقل ابن هشام والطبرى — لم يذكر فى الحقيقة أن هناك هجرتين . انه لم يقل الا ان أوائل من هاجر الى الحبشة هم ... ثم أعطانا قائمة موجزة ، ثم واصل حديثه قائلا ان جعفر بن أبى طالب خرج مهاجرا وتبعه المسلمون واحدا اثر الآخر . انه لم يذكر أن أحدا ممن ورد فى القائمة الأولى عاد الى مكة أو المدينة ليهاجر ثانية الى الحبشة ، وأن القائمتين ليستا مرتبتين وفقا لوجود هجرتين (أولى فثانية) ، وانما وفقا لأسبقية تدوين أسماء المهاجرين فى السجلات العامة للدولة بعد ذلك ، أو هذا ما نفترضه . فأبو صبرة يقال انه أول من وصل للحبشة مهاجرا (٢٢) وعمرو بن سعيد بن العاص يقال انه هاجر للحبشة بعد هجرة أخيه خالد بعامين (٢٣) . هذه الحقائق ، بالاضافة لكلمة (تتابع) ، تفيد أنه لم تكن هناك مجموعتان كبيرتان ، وانما عدد من المجموعات الصغيرة . والانطباع الذى نخرج به من رواية ابن اسحق أن هناك قائمتين (مجموعتين كبيرتين) يذكرهما الناس فى أيامه عن مهاجرين ذهبوا للحبشة ، لكنه غير متأكد عن الصلة الحقيقة بين هاتين المجموعتين (هاتين الهجرتين) . اننا نستطيع أن نقدم تفسيرا بسيطا لكيفية تحول الهجرة الواحدة الى هجرتين (على فرض أن فرضنا بأنها أساسا هجرة واحدة هو فرض صحيح) ، وأن نفسر أيضا الأسماء الواردة فى القائمتين .

---

(٢١) Ann, i, pp. 262-272 ; cf. Buhl, in Nöldeke-Festschrift, Giessen, 1906, i, 13-32.

(٢٢) الطبرى ، ١١٨٤ .

(٢٣) ابن اسحق ، ص ، ٤ ، ١ ، ٧٣ ، ١٤ .

- فى سنة ١٥ هـ ، طور الخليفة عمر بن الخطاب نظاما يتلقى المسلمون بمقتضاه أعطيات سنوية من الخزانة العامة للدولة (بيت المال) مقابل خدماتهم فى الحرب والادارة . وكانت هذه الاعطيـــات تختلف وفقا للأسبقية الى الاسلام فالأسبق يتقاضى مبلغا أكبر من المبلغ الذى يتقاضاه من أسلم بعده ، وفى هذا النظام الجديد الذى اعتمد سنة ١٥ هـ كانت أعلى طبقة بعد زوجـات الرســول (ﷺ) وعشيرته هى طبقة البدريين (الذين شاركوا كمسلمين فى غزوة بدر مع الرسول ﷺ) لكن يبدو من المحتمل أنه فى وقت سابق كانت الطبقة العليا هى التى تمثل المهاجرين . وبالرجوع للمناقشيات التى دارت حول هذا الموضوع ، يتضح أنه من المؤكد أن قيام المسلم بالهجرة الى الحبشة أو الهجرة الى المدينة أو كلتيهما كان مدعاة لشرف خاص ؛ اذ كان يرفع قدر القائم بالهجرة الى الدرجات العلا فى سلك النبالة الجديد . (وفقا للمعايير الجديدة للنبالة بعد الاسلام) . وهذه المناقشات تكاد تكون موضوعة فى زمن لاحق مادامت قد فقدت معظم عناصرها بعد الإصلاح الذى إنجزه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) . فما حدث بالفعل يمكن اعادة بنائه على النحو التالى (أو يمكن أن نتصور ما جرت عليه الأمور كالتالى) :

فى عام ٧ هـ ، أراد محمد (ﷺ) على نحو خاص أن يدعم وضـعه بالحصول على تأييد المجموعة الصغيرة التى مازالت فى الحبشة فأرسل اليهم رسولا ليؤكد لهم ترحيبه الحار وليرافقهم فى العودة ، فعادوا معه أو على الأقل عاد بعضهم فتلقاهم الرسول بقبول حسن وأشركهم فى غنائم خيبر التى كان محمد (ﷺ) قد فتحها لتوه . وربما منذ ذلك الوقت أطلق لفظ (الهجرة) على الذين ذهبوا للحبشة وبالتالى أصبحوا (مهاجرين) ، وكان هذا بدعم من محمد (ﷺ) نفسه كمبرر لمعاملته الكريمة جدا لجعفر وجماعته ، فكان لابد من هذا المبرر لتعليل مساواتهم بالمهاجرين الى المدينة المنورة . ولسوء الحظ ، فان هذا جعل من الممكن لبعض من قضى فى الحبشة لفترة قصيرة ثم هاجر من مكة الى المدينة أن يطالب لنفسه بحق فى هجرتين . وقد تجنب محمد (ﷺ) ذلك بتوسيع مفهوم الهجرة بأن قال ما يفيد أنهم هاجروا مرة الى الحبشة وهاجروا من

الحبشة إليه (أى الى الرسول ﷺ) (٢٤) • وعند تفحصنا لقائمة المهاجرين الأولى للحبشة (من بين القائمتين المذكورتين آنفا) ، سنجد أنه من المحتمل أنها قائمة غير كاملة بمن قاموا بهجرتين احداهما للحبشة والأخرى للمدينة ، وليس من الضرورى أن تكون كلتا الهجرتين الى الحبشة • فمعظم من كانوا فى الحبشة واعتبروا أيضا من المهاجرين الى المدينة (المنورة) هم الذين وردوا فى هذه القائمة الأولى (٢٥) •

ويبدو أن عمر بن الخطاب كان من بين المعارضين الرئيسيين لهذه المعاملة التفضيلية للذين قضوا فترة أطول فى الحبشة • فعلى الأقل هناك رواية لازالت محفوظة عن نزاع بين عمر بن الخطاب وزوجة جعفر ابن أبى طالب تدخل محمد ﷺ لتسويتها (٢٦) (*) • هذا يلقى ضوءا

---

(٢٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ص ٤ ، مج ١ ، ٧٩ ـ ٧٨ •
وانظر أيضا ، ص ٨ والحاشية فى ص ٢٠٥ •

(٢٥) انظر الملحق (ز) بآخر الكتاب •

(٢٦) البخارى ، ٦٤ ، ٣٨ (ج ٣ ، ١٢٨ وما بعدها) الترجمة ج ٣ ، ص ١٦٢ •

(*) لم نستطع الاستدلال على حديث بهذا المعنى فى طبعـات صحيح البخارى التى بين أيدينا (على سبيل المثال طبعة دار احياء الكتب العربية ـ البابى الحلبى) • لكن هناك أحاديث تشير لفضل من هاجروا الحبشة واعتبـارهم أصحاب هجرتين ، وفيما يلى الأحاديث التى أوردها صحيح البخارى (الطبعة المتاحة لنا) عن كل ما يتعلق بالهجرة للحبشة :

(••• باب هجرة الحبشة • وقالت عائشة : قال النبى ﷺ : دار هجـرتكم ذات نخل بين لابتين فهاجر من هاجر قبل المدينه ورجع عامة من كان هاجر بارض الحبشـة الى المدينة • فيه عن أبى موسى وأسماء عن النبى صلى الله عليه وسلم • حدثنـا عبد الله بن محمد الجعفى حدثنا هشـام أخبرنا معمر عن الزهرى حدثنا عروة بن الزبير أن عبيد الله بن عدى بن الخيار أخبره أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود ابن عبد يغوث قالا له : ما يمنعك أن تكلم خالك عثمان فى أخيه الوليد بن عقبـة وكان أكثر الناس فيما فعل به • قال عبيد الله : فانتصبت لعثمان حين خرج الى الصلاة فقلت له : ان لى اليك حاجة وهى نصيحة فقال ايها المرء أعوذ بالله منك فانصرفت فلما قضيت الصلاة جلست الى المسور والى ابن عبد يغوث فحدثتهما بالذى قلت لعثمان وقال لى فقـالا قد قضيت الذى كان عليك فبينما انا جالس معهما اذ جاءنى رسول عثمان فقالا لى قد ابتلاك الله فانطلقت حتى دخلت عليه فقال ما نصيحتك التى ذكرت انفا قال فتشهدت ثم قلت : ان الله بعث محمدا ﷺ وانزل عليه الكتاب وكنت ممن أستجاب لله ورسوله ﷺ وامنت به وهاجرت الهجرتين الأوليين وصحبت رسول الله ﷺ ورأيت هديه وقد اكثر الناس فى شان الوليد بن عقبة فحق عليك أن تقيم عليه الحـد فقـال لى يا ابن أخى أدركت رسول =

على المفاهيم الكامنة وراء التصنيف (أو التقسيم) الذى اختاره عمر ابن الخطاب لنظام الأعطيات الذى أخذ به • فليس هناك ذكر للهجرة لمنتج عن ذلك أن هؤلاء الذين عادوا من الحبشة ولحق غزوة خيبر ، هؤلاء فقط هم الذين صنفوا بعد البدريين (الذين شـــهدوا غزوة بدر مع الرســول) بطبقتين •

(ج) أسباب الهجرة الى الحبشة

ما ذكرناه آنفا ــ بفرض صحته ــ لا يزيد كثيرا من فهمنا للأمور المتعلقة بالحبشــة ، فهى ليست بالبســـاطة التى يظنها المســـلمون

= الله ﷺ قال قلت لا ولكن قد خلص الى من علمه ما خلص الى العذراء فى سترها. قال فتشهد عثمان فقال ان الله قد بعث محمدا ﷺ بالحق وانزل عليه الكتاب وكنت ممن استجاب لله ورسوله ﷺ وآمنت بما بعث به محمد ﷺ وهاجرت الهجرتين الاوليين كما قلت وصحبت رســول الله ﷺ وبايعته والله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله ثم استخلف الله ابا بكر فوالله ما عصيته ولا غششته ثم استخلف عمر فوالله ما عصيته ولا غششته • ثم استخلفت أفليس لى عليكم مثل الذى كان لهم على قال بلى قال فما هذه الأحاديث التى تبلغنى عنكم ؟ فأما ما ذكرت من شأن الوليد بن عقبــة فسنأخــذ فيه ان شاء الله بالحق قال فجلد الوليد أربعين جلدة وأمر عليا أن يجلده وكان هو يجلده وقال يونس وابن اخى الزهيرى عن الزهيرى أفليس لى عليكم من الحق مثل الذى كان لهم • حدثنى محمد بن المثنى حدثنا يحيى عن هشام قال حدثنى ابى عن عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبى ﷺ فقال ان اولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تيك الصور اولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة • حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا أسحاق بن سعيد السعيدى عن أبيه عن أم خالد بنت خالد قالت : قدمت من أرض الحبشة وأنا جويرية فكسانى رسول الله ﷺ خميصة لها أعلام فجعل رسول الله ﷺ يمسح الاعلام بيده ويقول سناه سناه قال الحميدى يعنى حسن حسن • حدثنا يحيى بن حماد حدثنا أبو عوانة عن سليمان عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله رضى الله عنه قال كنا نسلم على النبى ﷺ وهو يصلى فيرد علينا فلما رجعنا من عند النجاشى سلمنا عليه فلم يرد علينا فقلنا يا رسول الله انا كنا نسلم عليك فترد علينا قال ان فى الصلاة شغلا فقلت لابراهيم كيف تصنع انت قال أرد فى نفسى • حدثنا محمد بن العلاء حدثنا ابو اسامة حدثنا بريد بن عبد الله عن أبى بردة عن أبى موسى رضى الله عنه بلغنا مخرج النبى ﷺ ونحن باليمن فركبنا سفينة فالقتنا سفينتنا الى النجاشى بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبى طالب فأقمنا معــه حتى قدمنا فوافقنـا نبى الله حين افتتح خيبر فقال النبى ﷺ لكم أنتم يا اهل السفينة هجرتان •

التقليديون . سيغدو هذا واضحا عند محاولتنا الاجابة عن هذا السؤال : لماذا هاجر هذا العدد الكبير من المسلمين الى الحبشة ؟

ان الاجابة الأولى الممكنة هي أنهم هاجروا لتحاشى القسوة والاضطهاد اللذين واجهوهما في مكة . وهذا واضح في خطاب عروة ورواية ابن اسحق ، ورغم أن محمدا (ﷺ) في جانب الروايتين هو الذي اتخذ المبادأة فان المرء يكاد يفترض أن هؤلاء المسلمين الأوائل قد هاجروا في الأساس لخوفهم من المعاناة ، ولدعم هذه الاجابة يمكن أن نذكر أن ما ذكره ابن اسحق عن أوائل المسلمين الذين لم يهاجروا الى الحبشة كانوا ـ خلا حالتين ـ ينتمون انتماء فعليا ـ أو كحلفاء ـ الى عشائر : هاشم والمطلب وزهرة وتيم وعدى ، وتلك كانت هي عشائر حلف الفضول (مع استبدال أسد بعدى) وكان من الظاهر أنهم هم الذين كونوا المعارضة للمجموعة المحيطة بمخزوم وعبد شمس التى فيها القوة المالية (٢٧) . فالمعارضة التى قادها ضد محمد ﷺ المنتمون لمجموعات مخزوم وعبد شمس واضطهادهم لأتباعه ـ أى أتباع محمد ﷺ ـ تمثلت فى ضغوط عليهم لنزعهم من بين عشائرهم ، بل وحتى من بين أسرهم .

وعلى أية حال ، ففى المجموعة المنافسة والتى تمثلها زهرة وتيم وغيرهما من المفترض أنه لم يكن هناك الشغف نفسه فى ايذاء أتباع محمد مادام يهاجم الطبقة المالية العليا التى يكرهونها بدورهم ، ومن هنا لم تكن هناك الضرورة نفسها عند أفراد هذه العشائر من المسلمين فى الهجرة الى الحبشة . وبالنسبة للاستثناءين الآنف اشارتنا لهما (*) ، فان الأرقم (المخزومى) رغم أنه كان ما يزال شابا الا أن وضعه كان قويا ـ ربما كان زعيما لفرع فى عشيرة ـ لأنه كان قادرا على تقديم بيته للمسلمين ليجتمعوا فيه ونفهم من هذا أنه لم يكن يتعرض للاضطهاد كالآخرين . واما الاستثناء الثانى فهو أبو أحمد بن جحش (حليف عبد شمس) وكان شاعرا أعمى ، وبالتالى فقد كان له وضعه الخاص . ومع هذا فان ابن

(٢٧) انظر الفصل الأول ، الفقرة ٢/٦ .
(*) من المسلمين الذين لم يهاجروا للحبشة ـ (المترجم) .

سعد يذكر أنه ذهب للحبشة ، وان كان ابن اسحق لم يذكره ضمن من هاجروا اليها ».

ويبدو أن هناك شيئا ما فى هذه الحجة وفى الاجابة عن السؤال المطروح فى صدر هذه الفقرة . فهناك ايضا اعتراضات على ما ذكرناه : فاذا كانت هجرة المسلمين للحبشة لمجرد الخلاص من الاضطهاد فلم ظل بعضهم هناك حتى سنة ٧ هـ ، بينما كان يمكنهم أن يعودوا آمنين ليلحقوا بمحمد ﷺ فى المدينة ؟ ليس لدينا ما يشير الى أن محمدا ﷺ طلب منهم البقاء فى الحبشـة بعد هجرته للمدينة ـ حتى يهيىء لهم ما يكفيهم فى المدينة . وحتى اذا كان الرسول قد فعل ذلك ـ أى طلب منهم البقاء فى الحبشة ـ لكان من المؤكد أن تذكر لنا الروايات ذلك . ان أية اجابة عن هذا السؤال المضاد تعنى أن هؤلاء المهاجرين كان لديهم بعض الأسباب للهجرة غير التخلص من الاضطهاد فى مكة . وربما كانت هذه الأسباب الأخرى هى الأهم .

والسبب المحتمل الثانى للهجـرة هو الذى قدمه لنـا الباحثون الغربيون . مع ملاحظة أن الروايات الأولى عن مبادرة (*) محمد ﷺ يمكن للمرء أن يستدل منهـا على أنه كان مهتما كثيرا بأن يخفف عن أتبـاعه الصعوبات المادية التى كانوا يواجهونها ، بقدر اهتمامه بابعادهم عن خطر الردة والعودة الى الشرك مرة أخرى ، فاذا بقى هؤلاء الأتباع فى مكة عرضـة لضـغوط أسرهم فقد يرتدون وينكرون عقيدتهم الجديدة (الاسلام) . وحتى هذا السبب الثانى غير مقنع بما فيه الكفاية . تماما كالسبب الأول . فالى أى شىء يقودنا ؟ ما الأسـاس الذى عليـه بنى هؤلاء العائدون توقعهم بعودة آمنة الى مكة ؟ وفى الوقت نفسه ، فان بعضهم كانوا من المسلمين الصامدين المتمسكين باسلامهم . وربما لم يكن من الممكن اغواؤهم وردهم عن دينهم . ألم يكن من الأفضل أن يظلوا فى مكة مع أقرانهم ؟ ألم يكن هذا أدعى لشد أزر المسـلمين الآخرين ورفع معنوياتهم ؟!

(*) أى انه ﷺ هو الذى طلب من أصحابه الهجرة للحبشة ـ (المترجم) .

والسبب المحتمل الثالث ان هؤلاء المهاجرين الى الحبشة قد ذهبوا اليها لينخرطوا في سلك التجارة • والآن فلأن بعضهم قد قضى فى الحبشة ربما حوالى اثنى عشر شهرا ، فلابد أنهم دبروا لأنفسهم مصدرا للعيش ، ولابد أن يكون ذلك كما يكاد يكون مؤكدا عن طريق التجارة • وقد حدثنا عروة عن الحبشـــة كاحدى مجالات تجارة أهل مكة • وحتى هذا السبب في حد ذاته غير كاف لتبرير هجرة المسلمين الى الحبشـة وحث محمد ﷺ بعض صحبه عليها ، اذا لم نفترض أنهم كانوا فى حالة يأس كامل فقدوا فيه كل الأمل فى الاصلاح الدينى (الدعوة للاسلام) فى مكة • لكن حتى اذا كان هذا هو اتجاه المهاجرين الى الحبشة ، فانه لم يكن اتجاه محمد ﷺ (*) • ومن هنا وجب علينـــا أن نبحث عن مزيد من الأسباب •

رابعا ، أيمكن أن يكون ذلك (الهجـرة الى الحبشـــة) جزءا مـن بعض خطط محمد (ﷺ) الماهرة ؟ أكان يأمل فى تلقى مساعدة عسكريه من الأحباش كما من المحتمل أن يكون جده قد فعل من حيث طلبه دعم أبرهة العسكرى ؟ (ليس فى كتب السيرة ما يفيد طلب جده لهذا الدعم ـ المترجم) .

فربما لم يكن الأحباش كارهين لغزو جنوب شبه الجزيرة العربية لاستعادة ملكهم الضـــائع هناك ، كما أن الامبراطور البيزنطى قد يكون وافق على هجوم تكتيكى على جناح الجيش الفارسى خاصة وأن الفرس كانوا قد استولوا على القدس قبل ذلك بعام أو عامين • أو هل كان محمد ﷺ يأمل أن يجعل من الحبشة قاعدة لمهاجمة تجارة أهل مكة كما فعل بعد ذلك بالنسبة للمدينة بعد أن هاجر اليها ؟ أو هل حاول محمد ﷺ أن يطور طريقا بديلا للتجارة من الجنوب الى الدولة البيزنطية بعيدا عن مطال الدبلوماسية الملكية ، وبالتالى يكسر احتكار رأسماليى مكة لهذه التجارة ؟ لقد افترضنا فى صفحات سابقة (٢٨) أن سياسة مكة كانت

(★) المعنى ان محمدا ﷺ لم يكن فى حالة يأس كامل من الدعوة للاسلام فى مكة ـ (المترجم) •

(٢٨) الفصل الاول ، الفقرة ٢ / ب •

سياسة حيادية one of neutrality ؛ لكن الحبشة بلا شك كانت غير موافقة على استعداد رأسماليى مكة للتجارة مع الفرس ، وكانت الحبشة مستعدة لعمل كل ما فى وسعها لاضعاف مكة اقتصاديا . والرواية التى مؤداها أن المكيين قد أرسلوا رجلين كمبعوثين للنجاشى رواية مقبولة ، وربما دعمت وجهة النظر التى مؤداها أن الهجرة للحبشة كانت ذات أبعاد اقتصادية وسياسية . لكن طبيعة هذه البعثة ونتائجها تبقى مجالا للتخمين . ربما كانت ناجحة من ناحية منع النجاشى عن تقديم مساعدة فعالة للمسلمين ؛ باخباره بضعف موقفهم فى مكة حتى لو فشلت هذه البعثة فى تحقيق هدفها الأساسى — وفقا للرواية التقليدية — فى اعادة المهاجرين الى بلادهم . وعلى أية حال ، فان هذا السبب الرابع رغم انه جذاب فى بعض جوانبه الا أنه لا يفسر لنا كيف ان بعض المسلمين ظلوا باقين هذه المدة الطويلة فى الحبشة .

انه من الصعب أن نقاوم النتيجة التى ترتبط بالسبب الخامس ارتباطا وثيقا ، ونعنى بها أنه كان هناك انقسام حاد فى الرأى بين الجماعة الاسلاميه الناشئة . فبعد أن قدم لنا ابن اسحق قائمته التى تضم المهاجرين ، أضاف ابن هشام ملحوظة مهمة مؤداها أن القائد لهذه المجموعة كان هو عثمان بن مظعون . وابن سعد (٢٩) يذكر لنا أنه حتى أثناء الجاهلية كان ابن مظعون يتحاشى شرب الخمر وكيف أنه فى مرحلة لاحقة حاول أن يدخل فى الاسلام بعدا تقشفيا أو أمورا متعلقة بالزهد ascetic لم يوافق عليها محمد ﷺ ، وقد قدم عثمان بن مظعون فى البداية مع عدد من الأصحاب كلهم من الرجال المهمين وكان هو — بلا شك — على رأسهم . وعلى هذا ، فانه يكاد يكون مؤكدا أن ينظر اليه كقائد جماعة بين المسلمين كانت — أى هذه الجماعة — منافسة لجماعة أخرى يتزعمها أبو بكر . وملاحظة عمر التى ذكرها ابن سعد مؤداها أنه حتى بعد وفاة النبى ﷺ وابى بكر الصديق رضى الله عنه ، لم يفكر فى عثمان بن مظعون الا قليلا

(٢٩) جـ ٣ ، ٢٨٦ — ٢٩١ .

لأنه مات فى فراشة (*) ـ تعد شاهدا على التنافس بين عثمان بن مظعون من ناحية وجماعة أبى بكر وعمر بن الخطاب من ناحية أخرى (**) .

وهناك اشارات أخرى أيضا عن خلافات بين المسلمين • فخالد بن سعيد (من عبد شمس) كان واحدا من أوائل المسلمين يقال انه أول من هاجر للحبشة (٣٠) لكنه لم يعد حتى غزوة خيبر ، وبعد موت محمد ﷺ يبدو أنه أظهر بعض العداء لأبى بكر رضى الله عنه ، ربما أشارت هذه الروايه لوجود حزب أو جماعة ضد أبى بكر • ومن الحالات الطريفة أيضا حاله الحجاج بن الحارث بن قيس (من سهم) الذى ربما اختلط اسمه باسم الحارث بن الحارث بن قيس • لقد اخذ كأسير فى غزوة بدر وكان فى الجانب المعادى للرسول فى هذه الغزوة (٣١) • لكن يبدو أنه هو أيضا كان من بين المسلمين الذين هاجروا للحبشة (٣٢) • وقد شككت بعض المصادر الاسلامية فى هذه الرواية الأخيرة المتعلقة بالحجاج بن الحارث ؛ لكن هذا التشكيك مفهوم ولا يعد سببا لرفض أنه كان من بين المهاجرين الى الحبشه • واذا كان احد المهاجرين يحمل مثل هذا اسرب فلم لا يكون الآخرون مثله ؟ وهناك عدد لم تورد المصادر تاريخ وصولهم للمدينة (٣٣) • وأخيرا هناك نعيم بن عبد الله النحام (من عدى) يبدو أنه كان أحد زعماء قبيلته عدى ، وكان هو وأبو بكر من بين أشهر أوائل المسلمين الذين لم يذهبوا للحبشة • لكن يبدو أن الفتور قد ساد علاقته بالمجموعة الرئيسية التى كانت هى مجموعة أبى بكر فى الأساس ، وعلى الأقل فهو لم يذهب للمدينة حتى سنة ٦ هـ . وربما كان الى حد ما حاضرا فى ذهن عروة عندما قال ان بعضهم قد تعرض للفتنة . وعلى كل حال ، فان عروة ليس شاهدا محايدا لأن أباه الزبير بن العوام كان قد تبع عثمان بن مظعون ، وربما لم يكن دقيقا فى ذكره للدوافع والتواريخ التقريبية •

(★) اى لم يقتل فى معركة ـ (المترجم) •

(★★) راجع مقدمة المترجم •

(٣٠) ابن سعد ، ٤ ، ٣ ، ٦٧ ـ ٧٢ •

(٣١) ابن هشام ، ٤ ، ٥ ، ابن حجر ، الاصابة ، ١ ، ١٦٠٨ •

(٣٢) ابن سعد ، ٤ ، ١ ، ١٤٤ •

(٣٣) انظر الملحق (ج) •

نخلص من هذا أن السبب الخامس (الأخير) نظرا لانطباقه على ظروف كل المهاجرين ، فهو الأقرب الى أن يكون بعيدا عن كونه مجــرد افتراض ، وعلى أية حال ، فنحن لسنا فى حاجة الى القول بأن الخلافات فى الرأى والتى أدت للهجرة للحبشة لم تكن قد وصلت الى درجة حادة ، كما ان ما ذكرناه لا يعنى ان الأسباب الأخرى لم تكن قائمة بالمرة ٠ وربما كان ما حدث كان شيئا قريبا مما ذكرناه الى حد ما ٠

لقد كان المهاجرون الى الحبشة كما هو واضح رجالا ذوى عقائد دينية صحيحة ٠ وفى بعض الحالات كانت هذه العقائد الدينية الصحيحة لدى البعض راسخة حتى قبل نبوة محمد ﷺ كما هو فى حالة عثمان بن مظعون وعبيد الله بن جحش (الذى تحول للمسيحية فى الحبشة) ٠ فمثل هؤلاء قد يكونون غير ميالين لقبول سياسة أبى بكر الخليفة المتوقع للرسول ﷺ ٠ ما هذه السـياسة التى لم يكونوا راضين عنهـا ؟ اننا لا نستطيع الا التخمين ، وربما جاز لنا أن نصر على أن محمدا ﷺ ما نجح كنبى وقائد (النص : زعيم دينى وسياسى) الا لأن دعوته كانت ذات أبعاد سياسية واجتماعية معلنة (أى أعلنها الرسول ﷺ) ٠ وأولئك الذين بقوا فى مكة كانوا ممن ينتمون الى عشائر كانت مستعدة لقبول قيادة محمد ﷺ (ربما كانت عدى استثناء من ذلك) ؛ بالنظر الى حلف الفضول القديم الذى اشتركت فيه هذه العشائر جميعا ٠ ومهما كانت سياسة أبى بكر ، فان محمدا ﷺ كان بلا شك سيوافق عليها ٠

والقول بأن محمدا هو الذى اتخذ المبادأة (*) ربما كان محاولة لاخفاء الدوافع الأساسية بين الذين تخلوا عنه فى مكة ، لكنه ليس من الضرورى أن نفسر البيانات المتاحة لنا بهذه الطريقــة ٠ انه لما يتفق مــع شخصية محمد (ﷺ) أن يعى بسرعة امكان حدوث شقاق أو خلاف فيتخذ بسرعة خطوات ليسد الثغرات ويتحاشى النتائج السيئة ، لذا بادر باقتراح الهجرة الى الحبشة لتعزيز خطة تتفق مع مصالح الاسلام الذى لازلنا غير واعين بطبيعته الدقيقة ، فالاسلام فى هدفه الظاهرى لم يحقق

(*) اى هو الذى وجه اتباعه للهجرة الى الحبشة ـ (المترجم) ٠



الا قليلا من النجاح (حتى هذه اللحظة التى نتحدث عنها) ، فالسرعة النسبية لتسوية الأمور مع عثمان بن مظعون والآخرين الذين عادوا الى مكة قبل الهجرة للمدينة تشير على الأقل الى أنه لم تكن هناك قطيعة كاملة بينهم (عثمان بن مظعون وجماعته) ومحمد ﷺ . ومن المؤكد أنهم فى النهاية قد قبلوا زعامة محمد (ﷺ) والوضع الخاص لأبى بكر الصديق ، وحاربوا كمسلمين شجعان فى غزوة بدر .

٣ ـ منـاورات المعارضـة

مع أن المعلومات التى قدمها لنا ابن هشام والطبرى عما تبقى من الحقبة الملكية قليلة ، فانها ترسم لنا صورة مقبولة عن المظاهر الخارجية للمعارضة التى واجهها محمد (ﷺ) ، وهى معلومات مستقاة من القرآن (الكريم) لكنها ليست صورة طبق الأصل لما ورد به . حقيقة لقد كانت هذه المعلومات التى قدمها ابن هشام والطبرى فيها بعض المبالغة فى اتجاهات بعينها ، لكن من المحتمل أن تكون هذه المبالغة فى هذه المواضع أقل مما يفترض الكتاب الغربيون .

(أ) اضـطهاد المسـلمين

يقدم لنا ابن اسحق (٣٤) وصفا لما كان يقوم به أبو جهل لاضطهاد المسلمين فيذكر أنه كان يحرض قريشا ضد من أسلم ، وأنه كان ان سمع باسلام شخص ذى أهمية انتقده بشدة وأنبه وقال له : أتترك دين آبائك رغم أنهم أفضل منك ان تفكيرك غبى وحكمك غير صائب ، أين شرفك . وان كان الذى أسلم تاجـرا هدده بوقف رواج تجارته وضياع رأس ماله . وان كان الذى أسلم رجلا ضعيفا غير مؤثر ضربه وحرض الناس ضده .

ومن هذا العرض نفهم انه ليس من المؤكد ان اضطهاد أبى جهل للمسلمين كان أكثر قسوة من الهجوم اللفظى (السب والشتم) ان كان

(٣٤) ابن هشام . ٢٠٦ وما بعدها .

هذا المسلم شخصا مهما نافذا ، اما ان كان أقل شأنا فان آبا جهل يمارس عليه ضغطا اقتصاديا ، وأما ان كان المسلم رقيق الحال لا سند له عاقبه عقابا بدنيا بشعا .. ولأن معظم عشائر قريش كانت منيعة الجانب بدرجة تجعلها قادرة على احداث ازعاج خطير أو ما هو أسوأ من ذلك ـ اذا تعرض أحد أفرادها أو حلفائها لمعاملة سيئة ، فان أولئك الذين تعرضوا لعقاب بدني قاس كانوا قلة وكانوا من العبيد ، أو ممن ليس لهم ارتباطات عشائرية واضحة (مثل خباب بن الارت) . وكان من الممكن من الناحية الرسمية أن تخلع احدى العشائر أحد أفرادها أو حلفائها (أي تتبرأ منه) ؛ لكن هذا الاجراء كان يقلل من شرف القبيلة . ويبدو أن شيئا كهذا حدث لأبي بكر لأننا رأيناه يقبل حماية ابن الدغنـه (٣٥) ونسمع أيضا عن طلحة وأنه هو وأبي بكر قد ارتبطا معا . وعلى أية حال ، فان عشيرته تيم لم تكن قوية . وربما كان محمد ﷺ هو ايضا قد حرمته عشيرته من حمايتها وقت زيارته للطائف لأنه لاقى معاملة سيئة هنـاك ؛ ولأنه طلب حماية أحد أفراد العشائر الأخرى قبل أن يدخل مكة مرة أخرى .

ان أفعال أبي جهل ، وأفعالا أخرى مشابهة ، لا شك في حدوثها . وأشارت اليها المراجع عند حديثها عن الفتنة التي تعرض لها المسلمون . وعلى أية حال ، فان هذا ليس اضطهادا قاسيا . وتتضح هذه النقطة عند دراسة التفاصيل في السيرة لابن هشام ، وكتاب الطبري وطبقات ابن سعد . فهذه المراجع لم تذكر سوى أسوأ الحالات أو ما هو مفترض أنه أسوأ الحالات ، ولم تذكر أن ذلك هو الوضع العام أو المعدل العام . فكل الشواهد تجعلنا نفترض أن الاضطهاد لم يكن عنيفا . فما ذهب اليه الباحثون الغربيون من اتهام بأن الحديث عن اضطهاد المسلمين عرض بشكل مبالغ فيه ـ هذا الاتهام لا يكاد ينطبق على المصادر الأولى . وربما كانت الأسئلة الرئيسية للمبالغة هي تلك التي تتناول الحالات التي تبين تمسك الشخص بعقيدته واستعصائه على الردة .

وتوضح المواد التي بين أيدينا مظاهر المعارضة المختلفة كما وردت في الفقرة المنقولة آنفا عن ابن اسحق . فقد هوجم محمد (ﷺ) بالأقوال

(٣٥) ابن هشام ، ٢٤٥ وما بعدها .

وتعرض لاهانات بسيطة ، كقيام جيرانه بالقاء القمامه او الأقذار عند باب بيته ، ومن المـــمكن أن تكون حدة الضغـــايقات قد زادت بعد موت ابي طالب (٣٦) • كما أن تدني رأســـمال أبي بكر رضي الله عنه من ٤٠٫٠٠٠ درهم الى ٥٠٠٠ درهم في الفترة من تحـــوله للاســـلام الى الهجرة (٣٧) ، ربما يرجع للضغط الاقتصادي الذي هدد به أبو جهل وليس شراء العبيد (لعتقهم) كما ذكر ابن سعد مادام العبيد لا يكلف الا حوالي ٤٠٠ درهم (٣٨) • وأكثر الأمثلة وضــوحا في مجال العقاب البدني ، تتضح من معاملة العبيد كبلال بن ربــاح وعامر بن فهيرة (٣٩) وقريب جدا من هذا رفض العـــاص بن وائل دفع دين شرعي لخباب ابن الارت (٤٠) • وحتى النوع الرابع من الاضطهاد (يمكن أن نطلق عليه ممارسة الضغط بما في ذلك العقاب البدني) كان يمارسه أعضاء من العشيرة نفسها بل وداخل الأسرة الواحدة ، كالأب والعم والأخ الأكبر ، ومعاملة أبي جهل لكل من : الوليد بن الوليد ، وسلامة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة وغيرهم من أفراد العشيرة نفسها ، تعد من الأمثلة المعروفة (٤١) • وان كنا نجد أمثلة أخرى في صفحات كتاب ابن سعد • والقسوة التي تعرض لها الحنيف عمار بن ياسر وأسرته على يد بني مخزوم (٤٢) ربما كانت من هذا النوع •

لقد كان اضطهاد المسلمين يكاد يكون من النوع المعتدل • فنظام الأمن (الحماية) كان فاعلا ومطبقا في مكة متمثلا في حماية كل عشيرة لأعضائها ، مما يمنع تعرض أي مسلم لايذاء العشائر الأخرى بشكل خطير حتى لو كانت عشيرته هو غير راغبة في الاسلام • فالفشل في

---

(٣٦) ابن هشام ، ١٨٣ . ١٨٥ ، الطبري ، ١١٩٨ وما بعدها •
(٣٧) ابن سعد ، جـ ١ ، ١٢٢ •
(٣٨) ابن سعد ، جـ ١ ، ٢٧ ، ٢١ •
(٣٩) ابن هشام ، ٢٠٥ وما بعدها •
(٤٠) ابن سعد ، جـ ١ ، ١١٦ •
(٤١) ابن هشام ، ٢٠٦ وما بعدها •
(٤٢) ابن هشام ، ٢٠٦ •

الدفاع عن ابن العشيرة ضد عدوان عشائر أخرى ينقص من شرف عنر العشيرة وقدرها . لذلك كان الاضطهاد قصرا على :

(أ) حالات لا تتأثر فيها العلاقات العشائرية ، كأن يكون المضطهد (بكسر الهاء) من العشيرة نفسها أو ألا يكون الضحية مشمولا بحماية أية عشيرة من العشائر .

(ب) أعمال لا تدخل ضمن ما تعورف عليه من أنه يمس الشرف النبلي أو العشائرى ، كالضغوط الاقتصادية وربما أيضا الايذاء بالقول والاهانات الصغيرة التي تؤثر في الشخص فقط لا في عشيرته كلها . هذا الاضطهاد المحدود ربما كان كافيا للنقر على أصابع الاسلام الوليد ؛ لكنه لم يكن كافيا لتراجع أى مسلم جاد عن دينه . بل ربما قوى الاسلام بأن جعل الفقراء يتحولون اليه .

(ب) الضغط على بنى هاشم

لقد كان نظام الأمن الذى شرحناه آنفا هو ما جعل محمدا ﷺ قادرا على الاستمرار في دعوته للاسلام حتى سنة ٦٢٢ م رغم معارضة زعماء مكة . لقد كان زعيم هاشم في هذا الوقت هو عم النبى ، أبو طالب الذى كان مستعدا — رغم عدم اعتناقه للاسلام — أن يقدم الحماية الكاملة لمحمد ﷺ بوصفه عضوا في العشيرة . وقد لجأ زعماء قريش وعلى رأسهم أبو جهل أكثر من مرة لأبى طالب طالبين منه اما أن يوقف محمدا ﷺ عن اعلان دينه الجديد أو أن يسحب حمايته له . وعلى أية حال ، فان أبا طالب رفض كلا العرضين ودبر أموره داخل عشيرته للموافقة على موقفه هذا (٤٣) (رغم أن عشيرة المطلب كانت من الناحية الرسمية عشيرة مستقلة ، الا أنها انضمت لهاشم لأغراض مختلفة وصارتا معا كعشيرة واحدة) .

---

(٤٣) ابن هشام ، ١٦٨ — ١٧٠ ، الطبرى ، ١١٧٨ — ١١٨٠ .

فرفع شأن العشيرة وزيادة شرفها قد يكون فى حد ذاته سببا كافيا لأبى طالب لفعل ما فعله ، لكن ربما كانت هناك أمور أكثر من ذلك . لقد سبق أن لاحظنا مما ذكرناه آنفا أنه يبدو أن عشيرة هشام كانت أوضاعها قد تدهورت خلال الحقب السابقة ، فأن تفقد واحدا من خيرة شبابها (يقصد محمدا ﷺ) فى هذه المرحلة يعد خسارة كبيرة لها تفقدها جانبا من قوتها . وأكثر من هذا ، فبالاضافة لقضية محمد وشرف العشيرة ربما كانت هناك مسألة السياسة الاقتصادية ، فدعوة محمد الى الاسلام رغم أنها دعوة - فى الأساس - دينية الا أنها مست أمورا اقتصادية مسا وثيقا ، ومن هذه الناحية ربما كان يمكن اعتبارها استمرارا لاتجاه حلف الفضول فى معارضته للاحتكاريين المجردين من المبادىء الخلقية . واذا كان الأمر كذلك ، فانه يمكن اعتبار محمد ﷺ اســـتمرارا للســـياسة التقليدية لعشيرة هاشم ؛ وبالتالى فليس هناك ما يدعو للدهشة اذا تلقى هو أيضا قدرا معينا من الدعم العام لعشيرته . والجدير بالملاحظة أن أبا طالب قد بسط حمايته أيضا على مسلم آخر هو أبو سلمة بن عبد الأسد ابن أخته الذى ينتمى لعشيرة مخزوم (٤٤) ، وقد أيده أبو لهب فى ذلك .

وحالة أبى لهب حالة شائقة دراستها ، طالما أنه استسلم للضغوط الواقعة على عشيرة هشام . لقد كان أبو لهب هو الأخ الأصغر لأبى طالب لكنه كان يدبر لزواجـه من أخت أبى سـفيان أحد زعماء عبد شمس ، وبعد السنة الثانية للهجرة أصبح هو الزعيم الأساسى لمكة كلها .

وعندما اشتدت المعارضة لمحمد (ﷺ) أخذ جانب عشيرة زوجته ضد ابن أخيه (يقصد محمدا ﷺ) ، ومما لا شك فيه أنه فى حوالى هذا الوقت تم الانفصـال بين ابنتى محمـد ﷺ وابنيه . وقد يجوز لنا أن نفترض ان اتجاه أبى لهب هذا كان متأثرا بعلاقاته التجارية والمصلحية مع عبد شمس .

أما وقد فشل أعداء محمد ﷺ فى عزله عن عشيرته ، فقد دبروا أمر تحالف كل عشائر قريش ضد بنى هاشم (ومعها بنو المطلب) . من ناحية تعد هذه الخطوة مرحلة من مراحل المعركة ضد محمد ﷺ ،

---

(٤٤) ابن هشام ، ١٤٤ .

لكنها أيضا تعد من ناحيه أخرى مرحله لتعاظم شأن مخزوم وما يرتبط بها من عشائر على حساب حلف الفضول ، فما حدث يعني تدهور هذا الحلف . وقصيدة أبي طالب (٤٥) بالاضافه لملاحظات ابن اسحق تعدان دليلا مهما

(٤٥) ابن هشام ١٧٢ — ١٧٨ .

نص ما أورده ابن هشام عن هذا الحلف :

« .. سبب تسميته : قال ابن هشام : وأما حلف الفضول فحدثني زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن اسحاق قال : تداعت قبائل من قريش الى حلف ، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى . لشرفه وسنه ، فكان حلفهم عنده : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد بن عبد العزى . وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من اهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلف : حلف الفضول .

حديث رسول الله ﷺ فيه . قال ابن اسحاق : فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر ابن قنفذ التيمي انه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول : قال رسول الله ﷺ « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ، ما احب أن لي به حمر النعم . ولو أدعى به في الاسلام لأجبت » .

الحسين يزيد الوليد بالدعوة الى احياء الحلف . قال ابن اسحق . وحدثني يزيد ابن عبد الله بن أسامة بن الهادي الليثي أن محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي حدثه . انه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان — والوليد يومئذ أمير على المدينة ، امره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان — منازعة في مال كان بينهما بذي المروة ، فكان الوليد تحامل على الحسين في حقه — لسلطانه — فقال له الحسين : أحلف بالله لتنصفني من حقي ، أو لآخذن سيفي ، ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون بحلف الفضول قال . فقال عبد الله ابن الزبير ، وهو عند الوليد حين قال الحسين — رضي الله عنه — ما قال : وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ، ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعا . قال : فبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهيري ، فقال مثل ذلك ، وبلغت عبد الرحمن ابن عثمان بن عبيد الله التيمي ، فقال مثل ذلك ، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي .

خروج بني عبد شمس وبني نوفل من الحلف : قال ابن اسحاق : وحدثني يزيد ابن عبد الله بن أسامة بن الهادي الليثي عن محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي قال : قدم محمد بن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف — وكان محمد بن جبير أعلم قريش — فدخل على عبد الملك بن مروان بن الحكم حين قتل ابن الزبير واجتمع الناس على عبد الملك فلما دخل عليه قال له : يا أبا سعيد ، ألم نكن نحن وأنتم ، يعني بني عبد شمس بن عبد مناف وبني نوفل بن عبد مناف في حلف الفضول ؟ قال عبد الملك . لتخبرني يا ابا سعيد بالحق من ذلك ، فقال : ولا والله ، لقد خرجنا نحن وأنتم منه ، قال : صدقت .

ص ص ٨٦ — ٩٨ ، تحقيق محمد بيومي .

يؤكد ذلك • وحتى اذا كان بعض هذه القصيدة قد جرى تلفيقه بعد ذلك ، فان كثيرا منها لابد أن يكون شخص ما ذو خبرة بأمور مكة فى هذه الفترة هو الذى نظمها ، وربما كانت من نظم أبى طالب بالفعل • وبعض الأسماء المذكورة لم تدرج ـ عادة ـ فى قوائم أعداء محمد ﷺ • وما هو أكثر أهمية أن الذين تعرضوا للوم لأنهم أصبحوا أعداء لبنى هاشم كانوا جميعا من عشائر حلف الفضول ، وهم ـ اذا قبلنا رواية ابن اسحاق : من عبد شمس ، أسيد وابنه ، وأبو سفيان وأبو الوليد وعتبة . ومن تيم ، عثمان بن عبيد الله وقنفذ بن عمير بن جدعان • ومن زهرة ، أبى أو الأخنس ابن شريق والأسود بن عبد يغوث • ومن الحارث بن فهر ، سبيع • ومن أسد ، نوفل بن خويلد • ومن نوفل ، أبو عمرو ومطعم • وأكثر من هذا فان هؤلاء الرجال قد تعرضوا للوم لتحالفهم مع أعدائهم القدامى : الغياطل او بنو سهم ، وبنو خلف أو بنو جمح ومخزوم •

ومع تكوين هذا الحلف الكبير ، ظهرت حركة مقاطعة هاشم والمطلب التى قضت ألا تتعامل هذه العشائر المتحالفة مع هاشم والمطلب ولا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم • وظهر أن هذه المقاطعة قد استمرت لأكثر من عامين ، مع أنها ربما لم تكن صارمة بما فيه الكفاية طالما أن كثيرين من العشائر المقاطعة (بكسر الطاء) كانوا مصاهرين بالفعل لبنى هاشم • واذا كانت هاشم قادرة على مواصلة ارسال قوافلها للشام فمن المحتمل أنها لم تتأثر كثيرا جدا بهذه المقاطعة ، وعلى أية حـال ، لا تذكر لنا تذمرا أو شكوى بهذا الخصوص (أى بخصوص قوافل هاشم الى الشام) والمسار العام للروايات يشير الى أن بسط الحماية على محمد ﷺ لم يكن هو السبب الوحيد للنزاع (المقاطعة) •

ووفقا لرواية ابن اسحق (٤٦) عن نهاية المقاطعة ، فان البادىء بهذا العمل (انهاء المقاطعة) هو هشام بن عمرو وأيده فى ذلك زهير بن أبى أمية (من مخزوم) والمطعم بن عدى (من نوفل) وأبو البخترى وزمعة ابن الاسود (وكلاهما من أسد) • وعلى أية حال ، فعند اجتماع قريش كان

---

(٤٦) ابن هشام • ٢٤٧ ـ ٢٤٩ •

زهير هو الذى قام أولا · وأم زهير هي عاتكة بنت عبد المطلب ، وكان أبو طالب هو خاله ، لذا فقد كان لديه أسباب لانجذابه لبنى هاشم . والجدير بالملاحظة أنه في قصيدة أبي طالب التى أشرنا اليها آنفا (٤٧) مديح قوى لزهير لمساعدته لبنى هاشـــم ، ويمكن ربط هذا المديح بذلك الموقف .

ومرة أخرى من المهم أن نلاحظ العشائر التى ينتمى اليها هؤلاء الخمسة ، فهذا يوضح لنا ـ شيئا ما ـ طبيعة المعارضه داخل هذا التحالف الكبير (تحالف المقاطعة) . من المفترض أن زهيرا كان يتحرك اساسا انطلاقا من رابطة الدم (النسب) لكنه من حيث كونه من مخزوم فقد كان هو الشخص المناسب لتزعم الهجوم ضد الســـياسة التى بدأتها فى الأساس عشيرة مخزوم · وعلى أية حال ، فربما كان الآخرون يتحركون لعوامل أخرى · لقد كانوا ينتمون لعشائر : نوفل وأسد وعامر التى كانت قد كونت الحلف الكبير (حلف المقاطعة) ؛ لكنهم لم يكونـوا أعضاء فى الأحلاف القديمة التى ربما كان أعضاؤها يشكلون تكتلا داخليا فى باطن الحلف الكبير · وربما كان غياب الأعضاء الآخرين لحلف الفضول غير ذى معنى الا فيما يتعلق بعبد شمس ، لكن فى الفترة الأخيرة يفترض أن عبد شمس قد أصبحت ذات ارتباطات مصلحية وتجارية قوية مع مخزوم ونتيجة لهذه المصالح المشتركة بدأت الأحلاف القديمة الآن يعاد تشكيلها من جديد · واذا كان لنا أن نخمن دوافع قادة الغاء المقاطعة ، لقلنا انه بمرور الوقت تحققوا من أن الحلف الكبير والمقاطعة قد دعما من موقف العشائر القوية التى هدفت الى احكام السيطرة الاحتكارية على تجارة مكة ، وأن ذلك أدى بالتالى الى اضعاف العشائر الأخرى ·

وبموت أبى طالب بعد نهاية المقاطعة ، مرت علاقة محمد ﷺ بعشيرته بمرحلة أخرى ، وسنتناول ذلك فى الفصل التالى ·

---

(٤٧) ابن هشام ، ١٧٢ ـ ١٧٨ ·



(ج) عروض التسوية على محمد (ﷺ)

توجد اشارة طريفة أوردها كل من ابن اسحق والطبرى بعد بداية المقاطعة وربما قبل بدايتها ـ لمحاولة بعض زعماء مكة عرض تسوية أو صفقة مع محمد ﷺ . ويورد الطبرى روايتين ، ويورد ابن اسحق (٤٨) ثالثة ، وتشير رواية الطبرى الثانية الى أنها منقولة من ابن اسحق ومع هذا فهى غير واردة فى كتاب ابن هشام . ويتضح من هذه الروايات أن أربعة رجال قابلوا محمدا ﷺ وعرضوا عليه الثروة والجاه اذا كف عن سب أوثانهم ((آلهتهم) وأنهم سيعبدون الله ، وأن عليه أن يعترف بآلهتهم idols . مثـــل هذه الصفقة (المســـاومة) كما وردت آنفا كانت ستكون هى القاضية على دعوة محمد ﷺ ، لذلك رفضها . والتعرف على هؤلاء الأربعة أمر مثير . لقد كانوا هم : الوليد بن المغيرة (من مخزوم) ، والعاص ابن وائل (من سهم) ، والأسود بن المطلب (من أسد) ، وأمية بن خلف (من جمح) . وكان ثلاثة من هؤلاء من عشائر تنتمى للأحلاف التى كانت منافسة قديما لبنى هاشم وحلف الفضول ، وهذا يؤكد صحة الرواية . فذكر الوليد يشير الى أن هذا الحدث (مساومة النبى) حدث قبل أن يدعى أبو جهل زعامة مخزوم ، وبالتالى قبل بدء المقاطعة . وربما كان الهدف من هذا العرض هو التحقق من أنه لو تم القبول بنبوة محمد ﷺ لكان معنى هذا قبول زعامته كأمر لا فكاك منه . وعلى أية حال ، فمن الممكن أيضا أن هذا الحدث (العرض أو المساومة) بعد بدء المقاطعة ـ هو ما تذكره المصادر وأن هؤلاء الأربعة لم يكونوا موافقين تماما على المقاطعة . وكان الوليد باعتباره رجلا كبير السن لا يستطيع أن يعتبر محمدا منافسا خطيرا له على العكس من نظرة أبى جهل اليه (أى الى الرسول ﷺ) ، وربما كان الوليد أيضا أكثر اهتماما بأمر عبادة الأوثان . وعلى هذا فهذه العروض التى عرضت على الرسول ﷺ ـ اذا كانت الروايات بهذا الشأن صحيحة ـ تتضمن أن هؤلاء الرجال قد تحققوا على نحو ما من المواهب القيـــادية لمحمـــد ﷺ (النص : من مواهبـــه كرجـــل دولـة Statesman) .

---

(٤٨) الطبرى ، ١١٩٩ ، ابن هشام ، ٢٣٩ .

٤ - شهادة القرآن الكريم

يؤيد القرآن الكريم - كما لاحظ كيتاني (٤٩) - الانطباع الذي خرجنا به من دراستنا النقدية لكتابات المؤرخين الأوائل - وهو أن اضطهاد المسلمين كان من النوع المعتدل ولم يكن يتضمن أية أفعال تمنعها الأعراف منعا حادا • فالاشارات المتتالية في القرآن الكريم لأعداء محمد ﷺ تركز على النقد اللفظي (الكلامي) لرسالته وله شخصيا . لقد كان هناك كما سنرى ذكر لمؤامرات ومكائد ضد محمد ﷺ والمسلمين ، لكننا لا نكاد نجد شيئا يستحق حقيقة أن نسميه اضطهادا . وربما كان الهجوم الكلامي قد بدأ ضد الرسول قبل حكاية آيات الغرانيق بمدة طويلة ، فمن المؤكد أن هذا الهجوم قد ارتبط بمرحلة من نزول القرآن الكريم أسبق من المرحلة التي ذكرت فيها الأوثان وجرى فيها التأكيد على أن الله لم يتخذ ولـــدا .

(أ) النقد الكلامي لرسالة محمد ﷺ

تشير الآيات المكية مرارا الى انكار أهل مكة للبعث (يوم الحساب) ، فأهل مكة - لأنهم كانوا يعتبرون الجسد جزءا أساسيا من الانسان - لم يكونوا قادرين على الاقتناع بأن الجسد البشري يمكن اعادته للحياة بعد أن أصبح رميما • لقد بدا ذلك لهم ردا حاسما على تأكيدات محمد ﷺ كما تشير آيات كثيرة (٥٠) ، منها الآيات التاليات :

(واذا ذكـــروا لا يذكـــرون (١٣) واذا رأوا آيـــة يستسخرون (١٤) وقالوا ان هذا الا سحر مبين (١٥) أاذا متنا وكنا تـرابا وعظاما أانـا لمبعوثون ؟ (١٦) أوآباؤنـا الأولون ؟ (١٧) قل نعم وأنتم داخرون (١٨) فانما هي زجرة واحـــدة فاذا هم ينظـــرون (١٩) ••) الســـورة ٣٧ (الصافات) •

(٤٩) Ann. I, p. 244.

(٥٠) وآيات أخرى كثيرة : السورة (٧٩) / ١٠ وما بعدها ، (٧٥) ٣ وما يتعلقها (٣٦) ٤٦ - ٤٨ ، (٤٤) ٣٤ وما بعدها (٥٠) ، وما بعدها ••• الخ •

وبينما ظل سؤالهم هذا يتردد بشكل أساسى لأسباب جدلية الا أنه فى الضعيف متمش مع معتقدات أهل مكة بهم كانوا يقولون ، كما أشار القرآن (الكريم) :

(وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيـا وما يهلكنـا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون (٢٤) ··) السورة ٤٥ (الجاثية) ·

ويوبخهم القرآن الكريم مرة تلو مرة ؛ لانكارهم الحياة الأخرى وقصر تفكيرهم على متع الحياة .

والآيات القرآنية من السورة ٣٧ (الصافات) الآنف ذكرها توضح أيضا نقطة أبعد ترتبط أحيانا بالآية الأخرى رقم ٢٤ من سورة الجاثية التى ذكرناها لتونا · فالمكيون يصنفون اعادة الجسـد الى الحيـاة بعـد أن يكون قد أصبح رميما بأنها مسألة سحر ، وكلمة السحر يبدو أنها اشارة الى فعل (مضلل) أو (خادع) وليس فعلا حقيقيا صحيحا (٥٢) · وهذه الفكرة ربما كانت موجودة قبل اشارة القرآن الكريم الى السحر ، الا أنه ربما أيضا كانت بعض الاشارات الى السحر ـ خاصة الاشارة الى محمد ﷺ كساحر ـ يقصد بها الوحى ·

ولم ترتبط آيات القرآن الكريم بعملية البعث بشكلها المجرد (أى مطلق بعث) ، وانما بالبعث المرتبط بالحساب الذى ينتج عنه خلود فى الجنة أو عقاب بدخول جهنم · فمسألة احياء الأموات (بعث أجسادهم) كانت مثارة بين أتباع محمد ﷺ لأنها بدت لهم أمرا غريبا متعارضا مع عقائدهم فى الأخرويات · لقد وضح القرآن رفضهم لهذه العقيدة رفضا تاما ، رغم أن اشارات القرآن لذلك موجزة (٥٣) ، هذا الايجاز قد يعنى أن

---

(٥٢) السورة ٥٢ ، آية ١٥ ، السورة ٤٣ ، آية ٢٩ ·

(٥٣) السورة ٧٤ ، الآية ٤٧ ، السورة ٨٣ ، الآية ١٠ وما بعدها ، السورة ٥٢ الآيات ١١ ـ ١٤ ، السورة ٣٧ ، الآية ٢٠ وما بعدها ، السورة ٣٧ ، الآية ٢٠ وما بعدها ، السورة ٣٧ ، الآية ٥٠ وما بعدها ، السورة ٢٥ ، الآية ١٢ ·· الخ ·

مسألة احياء الجسد الرميم قد احتلت مكانا بارزا فى المناقشات بين عامة أهل مكة ، لكن رفض فكرة الحساب فى الآخرة ربما كانت هى الأخطر لنتائجها العملية المهمة مادامت تعنى أنها وازع أو دافع تم ادخاله ليتحكم فى سلوك الأفراد ٠

فعدم الاعتقاد فى اليوم الآخر ربمـــا كان كامنا أيضـــا وراء السؤال (٥٤) الذى وجهوه لمحمد ﷺ :

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها (٤٢) ٠٠) الســورة ٧٩ (النازعات) .

وقد أجاب القرآن الكريم عن هذا الســـؤال أو على الأقل كانت استجابته فيها تحاش له ، لكن قد يكون الهدف من توجيه السؤال هو ارباك محمد ﷺ .

وكثير من آيات القرآن التى تتحدث عن « آيات » الله يبدو أنها استجابة أو رد فعل للصعوبة التى تكتنف احياء الجسد (بعث الأبدان) . لقد قدم لنا القرآن عملية خلق الله للانسان خلال سلسلة من الأفكار وخلال تطور بطيء هو تطور الجنين فى الرحم ونفخ الله سبحانه الروح فيه . ودلل القرآن الكريم على أن ذلك آية (علامة) من آيات الله سبحانه ؛ لأنه هو وحده القادر على ذلك ، وبالتالى فهو وحده سبحانه قادر على اعادة الحياة اليه بعد أن يصبح رميما ٠ وبينما بعض آيات القرآن الكريم تهتم بشكل أساسى باظهار وجود الله سبحانه وبيان قدرته بشكل عام ، فان هناك آيات أخرى توضح أن أهمية كثير من الآيات (العلامات) أنها برهان على قدرة الله سبحانه فى احيـــاء الأجســـاد بعد موتهـا ، ومن هذه الآيات (٥٥) نذكر :

---

(٥٤) وايضا السورة ٧٩ (٤٢ ـ ٤٤) ، ٥١ (١٢) ، ٣٦ (٤٨) ، ٦٧ (٢٥) ، ٢١ (٣٩ ـ ٤١) ، ١٧ (٥٣ ـ) ٠

(٥٥) وايضا السورة ٧٥ (٣٦ ـ ٤٠) ، ٧٩ (٢٧ ـ ٣٣) ، ٥٦ (٥٧ ـ ٧٣) ، ٥٠ (٦ ـ ١١) ، ١٩ (٦٨) ، ٣٦ (٧ ـ ٨٣) ٠٠ الخ ٠

(أيحسب الانسان ان يترك سدى (٣٦) ألم يك نطفة من منى يمنى (٣٧) ثم كان علقة فخلق فسوى (٣٨) فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (٣٩) أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى (٤٠) ٠٠) السورة رقم ٧٥ (القيامة) ٠

ليست هناك حاجة للقول ان المعارضين المتسمين بالعناد لمحمد ﷺ والدين الذى يدعو اليه ، لم يكونوا مقتنعين بهذه الآيات ، بل لقد زادتهم كفرا على كفرهم (٥٦) ، لقد كانوا أحيانا يرفضون هذه الآيات على أساس انها من أســـاطير الأولين (٥٧) ، وهى عبـــارة وردت عدة مرات فى القرآن (٥٨) وارتبطت بانتقـــاد هذه العلامات (الآيـــات) وما وراءها من معـــان ٠

لقد كانت كل الانتقادات التى وجهوها للمحتوى القرآنى ذات صله بالأخرويات (الأفكار عن العالم الآخر) وهذا التركيز على الاخرويات فى المناقشات بين محمد (ﷺ) والمناوئين له يظهر أنها كانت تميل الى تأكيد وجهة النظر الواردة فى الفصل الثالث ، وهى أن بعض التعاليم عن اليوم الآخر كانت جزءا من الهدف الأساسى لرسالة القرآن الكريم ٠ وقد وصف القرآن الكريم موقفهم كله وصفا وصل ذروته فى كلمة (تكذيب) وهى كلمة مقابلة للايمان ٠ فالمكذب هو المنكر للبعث واليوم الآخر والحياة بعد الموت وآيات الله ، والتحذيرات التى وردت فى رسالة محمد ﷺ . وأحيانا يورد القرآن كلمتى (تكذيب) و (مكذبون) دون تحديد للمجال الذى جرى بشأنه التكذيب ، وكلمة (المكذبين) تأتى مرادفا (لأعداء محمد ﷺ) أو مناوئيه .

والمحور الرئيسى الآخر للمناقشات الدائرة فيما يتعلق بمحتوى الوحى هو مسألة الأوثان ، وتوحيد الله سبحانه . وفى هذا المجال نجد القرآن الكريم هو الذى يتخذ المبادرة فى الهجوم على المنكرين ، بينما نجد مشركى مكة فى موقف دفاع ٠ لقد تعرضنا لهذه النقطة فى القسم الأول

(٥٦) السورة ١٩/٩٠ ، ٢٨/٧٨ ــ ٠٠ الخ ٠
(٥٧) السورة ٢٤/٤٥ ٠
(٥٨) السورة ١٣/٨٣ ٠

من هذا الفصل الى حد ما فلا حاجة لتناولها مرة أخرى هنا • الا أنه قد يجوز لنا أن نذكر — على أية حال — دعوى مناوئي محمد أنهم سائرون على خطى آبائهم • فالمكيون (وغيرهم) دأبوا على القول أنهم هكذا وجدوا آباءهم وأن الحكمة تقتضى اتباع دين هؤلاء الآباء (٥٩) • ولم يكن اتهامهم لمحمد ﷺ بالانحراف عن دين الآباء والأجداد واضحا محددا ، لكنه ربما يكون مفهوما ضمنا • وكان ردهم هذا أقرب الى أن يكون — من الناحية الظاهرية — موقفا دفاعيا ، فهم لم يكونوا مستعدين لاتباع محمد ﷺ حتى ولو أتاهم بأفضل الهدى ، وانما هم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وعبروا عن ذلك فى مصطلحات عامة توضح اتجاههم المحافظ (غير الراغب فى التغيير) •

وجانب من قصص الأنبياء التى تظهر كثيرا فى آيات القرآن الكريم فى المرحلة المكية تعد بمثابة عاصفة تعصف بهذا الزعم (رغم اتباعهم دين آبائهم) • ولابد أن المسلمين كانوا قد أحسوا أنهم قد تخلوا عن دين هؤلاء الآباء (المشركين) خاصة عند مواجهتهم لأسئلة صعبة عن أوضاع آبائهم وأجدادهم فى الوقت الحاضر وفى المستقبل • ولا شك أن قصص الانبياء ساعدتهم فى التحقق من ذلك ، وهو أنهم كأتباع للنبى فهم يعتبرون باتباعهم له من أمته ، وأنهم ينتمون اليه انتماء روحيا . وعلى هذا فقصص الأنبياء هذه لم تكن فقط تشجع المسلمين ، وانما أيضا تفتح لهم مجالا للفخر على نحو ما كان الشاعر يشيد بمفاخر قبيلته . وهو لون من ألوان الشعر كان سائدا قبل الاسلام ، وبالتالى فقد شعر المسلمون أنهم ينتمون الى جماعة لها جذور عميقة فى الماضى (٦٠) •

والجدير بالملاحظة أنه لم يكن هناك نقد صريح فى القرآن الكريم متعلق بالكرم (المقصود اتهامهم بأنهم غير كرماء) ، وهذا من الممكن أن

(٥٩) السورة ٤٣/٢١ — ٢٣ ، السورة ٢١ / ٥٤ •

(٦٠) G. Von Grunebaum, Von Muhammads Wirkung and originalitat, in Wienner Zeitschrift Für die kund des Morgenlandes, X Liv, 1937, pp. 20-60 esp. 44 f. : Rudi Paret, Das Geschichtshild Mohammeds, in Die Welt als Geschichte, 1951, pp. 214-224, esp. 217 f.

يرجع الى حقيقة أنه رغم ممارستهم للوثنية فانهم لم يكونوا خالين تماما من الفضائل التي دعا اليها القرآن ، لذا لم يكونوا ميالين للدفاع العلني عن ممارساتهم · فأن تكون أنانيا ذلك شيء ، وأن تدافع عن الانانية كمبدأ ذلك شيء آخر · ولسنا في حاجة الى آن نفترض أن الوثنيين كانوا ذوى ضمائر سيئة في هذا الموضوع ، رغم أن قلة منهـم من ذوى الضمائر ، ربما شعروا بوخز الضمير · لقد كانـوا فى حاجة فقط لأن يكونوا على وعى بحقيقة أن سلوكهم كان مناقضا لروح المفاهيم التقليدية للشرف عند العرب ، رغم أنهم من الناحية الرسمية لم يكسروا أية أعراف مقبولة · واذا كان هذا صحيحا ، فانه يجعلنا نميل لاظهار القرآن الكريم وكأنه لم يكن نظاما أخلاقيا جديدا تماما ، وانمـا هو امتداد للأفكـار الأخلاقية التقليدية العربية بعد اخراجها لظروف وأحوال جديدة خارج التجربة البدوية · (نقل الأخلاق العربية ذات الطبيعة البدوية ليوائمها مع الحياة المدنية) ·

(ب) النقد الكلامى لنبوة محمد ﷺ

الى جانب النقد الموجه لفحوى رسالة الاسلام ، كان هناك نقد وجهه أعداء للنبى الرسول ـ نقد لقول محمد ﷺ انه نبى يتلقى الوحى من الله ، كما أنهم نقدوا عملية الوحى فى حد ذاتها · فالاعتقاد بأن الكلمات التى تلقاها محمد وحى من الله سبحانه كانت مسألة حاضرة فى عقل محمد وقلبه منذ البداية ، مهما كانت الطبيعة الدقيقة للتجربة الأولى المتعلقة بالوحى ، وكان الاعتقاد فى الوحى كامنا فى الدعوة الأولى للاسلام منذ البداية . وتسجل بعض الآيات القرآنية الأولى محاولات المعارضة لاقلاق محمد ﷺ · بافتراض تفسيرات أخرى للتجربة التى خاضها (الوحى) غير أن ما يأتيه من كلام ينزله الله سبحانه عليه ·

لقد كان الزعم الذى أشاعه مناوئو محمد ﷺ تفسيرا لظاهرة الوحى هى أن محمدا مجنون ، أو بتعبير آخر تملكه جن (٦١) لكنهم افترضوا

(٦١) السورة ٨١/٢٢ ، ٦٨/٢ ·· الخ ·

ايضا أنه كاهن (٦٢) ينمق الكلام ، كما افترضوا أنه ساحر (٦٣) أو ساحر شاعر (٦٤) . ومن الصعب أن نعدل تفكيرنا ليتمشى مع عقلية وثنيي مكة عندما نطقوا بهذه الكلمات ، لكن من خلال القران الكريم ومن مصادر أخرى (٦٥) يمكن توضيح معاني العناصر الرئيسية . فالذين زعموا هذه المزاعم لم ينكروا أن تجربة محمد ﷺ مع الوحي لها بمعنى أو آخر سبب فوقي (علوي أو فوق طبيعي Supernatural Cause) لكنهم لم يرجعوا هذا السبب لله سبحانه وتعالى ، وانما أرجعوه اما لموجود شيطاني أو قوة عليا أدنى درجة من الله سبحانه المهيمن على الكون . وحتى تأكيدهم على أن محمدا شاعر يشير أيضا الى قوى علوية ، فقد كانت الفكرة لدى معاصريه أن للشاعر روحا تتملكه أو جنا يتلبسه ، ونحن نجد بالفعل عبارة (شاعر مجنون) في القرآن الكريم (٦٦) . هذه التأكيدات عن أصل الوحي (كما يراه أعداء محمد ﷺ) كان لها تتابعاتها وهي ألا ينظروا للتحذيرات التي جاءهم بها الوحي نظرة جدية ، فليس من الضروري ــ فيما يرى أعداء محمد ﷺ ــ أن تكون تحذيرات حقيقية . فاذا كانت مصادر الوحي كما يراه المشركون في ما ذكرناه آنفا ، فهذه المصادر اما أن تكون شريرة حاقدة ، أو أن تكون قاصرة المعلومات . هذه الادعاءات (الأكاذيب) قد يكون الهدف منها هو تكذيب محمد ﷺ فحسب وتشويه صورته ، وليس بقصد تحويل من آمنوا به الى مصدقين لهم (أي لأعداء محمد ﷺ) ، وعلى أية حال فقد كان مناوئو محمد ﷺ يعتقدون بشكل عام أن تصوراتهم صحيحة . وقد فند القرآن الكريم ادعاءاتهم وكذبها . وهناك عدة آيات ــ على أية حال ــ يمكن أن تكون دحضا لآيات الغرانيق (الآيات الشيطانية) (٦٧) وقد ناقشناها في سياق سابق ، وتكفي الاشارة اليها هنا .

---

(٦٢) السورة ٤٢/٦٩ ، ٢٩/٥٢ . .

(٦٣) السورة ٣/٣٨ .

(٦٤) السورة ٤١/٦٩ ، ٣٠/٥٢ .. الخ .

(٦٥) Cf. A. Guillaume, Prophecy & Divination, Lecture 6 ; D. B. Macdonald, The Religious attitude & Life in Islam, Chicago, 1909, esp. 24-36.

(٦٦) السورة ٣٥/٣٧ .

(٦٧) السورة ١٥/٨١ ــ ٢٧ ، ١/٥٣ ــ ١٨ .

والمحاولة الثانية التي قام بها معارضو محمد ﷺ فيما يتعلق بالوحي هو تأكيدهم على أنه انتاج بشرى ، أى اما أن محمدا ﷺ قد وضعه بنفسه أو ساعده على وضعه بشر آخرون (٦٨) . واذا كانت هذه الآيات راجعة الى الحقبة المدنية ، فيمكن للمرء أن يتخيل ببساطة أن مثل هذه المهمة (مهمة الآخرين الذين زعم المشركون مساعدتهم محمداً ﷺ في وضع القرآن) قد قام بها اليهود ، أو أن المقصود هم يهود المدينة ، لكن هذه التهمة ـ تقليديا ـ قد ظهرت أثناء الحقبة المكية (٦٩) ، وظهرت أسماء كانت هناك افتراضات من المشركين بأنهم ساعدوا محمدا فى وضع القرآن الكريم (٧٠) . وسيعرف المؤرخ ثقة محمد التامة وايمانه الكامل بأن الوحى يأتيه من مصدر خارج ذاته ، وقد يوافق المؤرخ أيضا أن محمدا قبل أن يتلقى الوحى ، كان قد سمع بعض القصص من أشخاص مزعومين ، وقد أشار القرآن الكريم الى هذه التهمة .

فهذه المزاعم التي مؤداها أن محمدا قد خرج برسالته للناس بعد أن تلقى دعما بشريا ـ مثل هذا الزعم بطبيعة الحال يختلف عن تهمة أخرى وردت فى القرآن الكريم عدة مرات وهو أن هذا الوحى (القرآن) ما هو الا كلام بشر ، وقد وردت هذه التهمة فى سياق الحديث عن السحر (٧١)، فالكلام المسجوع شبيه فى رأى أعداء محمد بكلام السحرة والمشعوذين الذين يضمنون أسجاعهم معانى غامضة ، لكن هذا القول ـ بلا شك ـ يفترض أيضا أن محمدا يتلقى معلوماته من الجن .

أما النقد الثالث ، فمساره أن محمدا لم تكن شخصيته من النوع الذى يأتيه الوحى . فلم يكن ـ فى رأيهم ـ مهما بما فيه الكفاية (٧٢). بدليل أنه عندما أخبر بأنه نبى تعرض ـ ببساطة ـ للسخرية (٧٣) . وقصص الأنبياء التي أوردها القرآن الكريم تعكس ظروف محمد ﷺ ،

(٦٨) السورة ٢٥/٥ وما بعدها ، ٣٢/٢ وما بعدها ، ١٦/١٠٣ ـ ١٠٥ .

(٦٩) Bell, translation of Quran.

(٧٠) Cf. Sale and Whervy on 16. 105.

(٧١) السورة ٧٤/٢٤ ، ٢١/٣ ، ٣٨/٣ .. الخ .

(٧٢) السورة ٤٣/٣٠ H .

(٧٣) ٢٥/٤٣ DE .

فنحن نجد أن ثمودا تقول لصالح انه كان واحدا منهم وانهم كانوا يثقون به (قبل هذا الذى أتي به) (٧٤) ، وخاطبت مدين شعيبا قائلة انها كانت تظنه معتدلا صحيح العقل (٧٥) ، لكنهم عادوا فاخبروه أنه ضعيف فيهم وهددوه بالرجم (٧٦) ٠

والتركيز على عدم أهمية محمد لابد أن يصرفه المرء نحو الحقبة المكية ، أما في المدينة فقد ارتفع شأنه ﷺ ٠ والاشارة الى أتباع الأنبياء الآخرين كعبيد أو فقراء (٧٧) ، ربما تعني أيضا سخرية من محمد ﷺ لكن هذه النقطة لا يمكن مهاجمتها ٠

ويمكن أيضا أن نتصور نوعا آخر من المناوئين توقعوا ألا ينزل الوحي الا على شخص ذى مواصفات فوق طبيعية ، بينما هم يرون محمدا بشرا عاديا ، فاستبعدوا أن يكون هو رسول الله ، وبين القرآن الكريم أفكار هؤلاء وأقوالهم :

(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا (٩٠) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا (٩١) أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا (٩٢) أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا (٩٣) وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا (٩٤) قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين

(٧٤) ١١/٦٥ ٠
(٧٥) ١١/٨٩ ٠
(٧٦) ١١/٩٢ ٠
(٧٧) ٢٦/١١١ ، ٢٣/٤٠ ٠



لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولاً (٩٥) ‥) سورة الاسراء (٧٨) .

ويوجد بعض الاختلاف فى الطبيعة الدقيقة لما يطلبون أن يكون عليه النبى أو يتوقعونه ، لكن الافتراض الكامن في ذلك دائما واحد ، أعنى أن الله سبحانه لا يمكن أن يتجلى (يظهر) الا في وقت يكون فيه نظام الطبيعة (الكون) قد اختل . والفكرة السامية القديمة التى مؤداها أن الخير أو الصلاح يزدهر (ينجح) فى هذا العالم ، قد تكون ـ أى هذه الفكرة ـ حاضرة أيضا . وثمة نقد آخر ـ ربما ينتمى الى هذه السلسلة من أفكارهم ـ وهو قولهم لماذا لم ينزل القرآن على محمد ـ ﷺ ـ دفعة واحدة (٧٩) ؟

وبالاضافة لبعض التأكيدات آنفة الذكر ، يبدو أنهم وجهوا نقداً ما لدوافع محمد ﷺ وأغراضه ، وذلك ان جاز لنا أن نربط بين ما نسبوه اليه وما نسبه أعداء نوح له :

(ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون (٢٣) فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين (٢٤) ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين (٢٥) ‥) السورة ٢٣ (المؤمنون) .

فمعظم المعانى الواردة فى هذه الآيات تنطبق على الوضع فى مكة وطبيعة عقلية أهلها رغم أنها تشير الى نوح (٨٠) وقومه ، فعرض زعماء مكة على محمد الثروة والمكانة ـ بفرض أن الرواية بهذا الشأن صحيحة ـ

---

(٧٨) وهناك سور أخرى تحوى آيات بهذا المعنى ٩٢/١٧ ـ ٩٦ ، ٧/٢١ ، ٨/٨٥ ـ ٢٢/٢٥ ـ ، ١٥٤/٢٦ ـ ، ١٣/٤١ .

(٧٩) ٣٤/٢٥ .

(٨٠) ٢٤/٢٣ .

يبين أن أهل مكة يدركون طموح محمد ﷺ ويريدون اللعب على هذا الوتر . وعلى أية حال ، فان رفض محمد ﷺ لعروضهم هذه والاتجاه العام لمسلكه فى مكة ، يجعل من غير المحتمل أن يكون الطموح السياسى كان من بين دوافعه المسيطرة . والقرآن الكريم يكرر باصرار المرة تلو المرة أن محمدا مجرد نذير . وذلك يعنى أن مهمته — ببساطة — هى أن يحذر الناس أو ينذرهم من حساب يعقبه نعيم أو عذاب . كيف استجابوا لهذا التحذير ؟ تلك مسئوليتهم . لقد أنذرهم محمد ﷺ وانتهى الأمر ! وفى احدى الآيات ما يشير الى أن محمدا ليس عليهم بمسيطر (٨١) أى أنه ليس حاكما لهم يملك الأمر والنهى . بل وثمة اصرار أبعد من هذا وهو أن محمدا ﷺ — مثله مثل الأنبياء الآخرين — لا يريد أى أجر أو مكافأة من البشر وانما ينتظر ثوابه من الله سبحانه فحسب ، ولا شك أن التركيز على هذه المعانى يعد بمثابة الرد على اتهامه بأنه يبتغى تحقيق مصالح لشخصه (٨٢) . وأخيرا ، فهناك آيتان يرجع تاريخ نزولهما فيما يظهر الى بداية الحقبة المدنية تشيران الى قبول فكرة القيادة السياسية التى خولها الله سبحانه لمحمد ﷺ :

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (٤) ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (٥) ..)
السورة ٢٨ (القصص) (٨٣) .

رغم أن هاتين الآيتين تشيران الى موسى عليه السلام وقومه الذين أذلهم فرعون ، فليس هناك شىء متناقض فى مثل هذا الاتجاه ، فوفقا لما ورد فى القرآن فان محمدا مقتنع تماما أن مهمته الأولى والأساسية هى مهمة دينية وتتمثل هذه المهمة فى أنه نذير ، لكن هذه المهمة الدينية بالنسبة لأهل مكة تنطوى على مضامين سياسية ، وعندما تطورت الأحداث كان تحويل هذه المضامين السياسية الى أفعال سياسية أمرا ضروريا فلم

---

(٨١) ٨٨/٢٢ .
(٨٢) ٣٨/٨٦ — ، ٣٦/٢٠ ، ١١/٣ .. الخ .
(٨٣) فى سياق قصة موسى عليه السلام .

يتراجع محمد عن ممارسة هذه الأفعال السياسية مادام يعتبر أن القيادة (السياسية) أمر كلفه الله به ٠

(ج) أفعال معارضي محمد

كانت المعارضة الكلامية أو القولية هي المكون الأساسي لصورة المعارضة ضد محمد كما بينها القرآن الكريم ، لكن كانت هناك أيضا مادة كافية تبين أن المعارضين قد مارســوا الفعل كما مارسوا القول ٠ حقيقة ليس لدينا وصف كامل لما فعلوه لكن غالب ما وصلنا اشارات لمؤامرات ، وغالبـــا ما يتعرض القرآن الكريم لأفعـــال أعـــداء محمد بكلمتي : (الكيد) (٨٤) و (المكر) (٨٥) وتبدو كلمة (الكيد) قد استخدمت قبل كلمة (المكر) ٠ ويبـــدو أنه لا اعتراض على أن هاتين الكلمتين تشـــيران في القرآن الـــكريم (في الآيات المكـــية) إلى مؤامرات المعارضة التى أشرنا اليها في القسم السابق من هذا الفصل ، خاصة المؤامرات السياسية والاقتصادية التى بلغت ذروتها في مقاطعة عشيرتي هشـــام والمطلب . وكانت استجابة القرآن لهذا (المقاطعة) هو حث محمد ﷺ على الصبر وأن ينتظر حكم الله (٨٦) فالله سيحبط مؤامراتهم الماكرة كما أحبط أفعال أصحاب الفيل (٨٧) ، لقد أخبر الله محمدا ﷺ - فيما مضى - أن يتحمل ايذاءهم القولى له بصبر (٨٨) ، وكان التحلى بالصبر اتجاها واضحا يتصف بالحكمة في مكة ٠ وقد شجعت قصص الأنبياء المسلمين على الاحتمال والصبر بتبيان كيف عاقب الله الذين لم يصدقوا أنبياءهم الذين أرسلهم الله لهم ، وكيف أن الله تولى أنبياءه ومن آمنوا برسالاتهم ٠ وربما جرى التركيز على العقاب الآنى (الحالى) باعتباره منفصلا عن العقاب الأبدى (الأخروى) كرد فعل أو كاستجابة للأفعال العدوانية (الأفعال وليس الأقوال) للمعارضة ٠ من المؤكد أن

(٨٤) ١٥/٦٨ - ، ٤٢/٥٢ ، ٩٦/٣٧ ٠٠ الخ ٠

(٨٥) ٣/٢٤ ، ٤٢/١٣ ٠

(٨٦) ٢٤/٧٦ ، ١٧/٨٦ ، ١١/٧٣ ٠

(٨٧) السورة ١٠٥ ٠

(٨٨) ١٠/٧٣ ، ٣٨/٥٠ ، ١٣٠/٢٠ ٠

الفكرة قد انبثقت بشكل طبيعى من خلال هذا السياق (أو من خلال هذه الظروف) ، فالمتآمر حاقت به مؤامرته (وقع فى شرك نصبه لغيره) أو بتعبير آخر لقد ارتد الى صدره السهم الذى أطلقه على غيره ، وقد فشلت المؤامرة بفضل الله ، فكان التراجع الذى حاق (بالدعـوة الاسلامية) مؤقتـــا .

وثمة مثال أكثر وضوحا للنشاط المعادى ضد الاسلام هو منع العبد من أداء الصلاة (٨٩) . ولأن كلمة العبد قد تعنى مجرد (الخادم) ، كما قد تعنى ايضا أبعادا أخرى باضافتها الى الله سبحانه (عبد الله) فقد تشير الآية التى تضمنت ذلك الى محمد ﷺ ـ نفسه ، وقد تعنى كلمة عبد ـ على أية حــال ـ ما يفيــد الرق ، لأن هؤلاء الرقيق من المسلمين كانوا أقل النـــاس تأثيرا فى مجتمعهم الجديد ، وبالتالى كانوا عرضه للمعاناة أكثر من غيرهم • وقصة أصحاب الأخدود (٩٠) تشير تقليديا الى غواية مسيحيى نجران واضطهادهم ، وان كانت هذه الحكاية صـحيحة فربما كانت تعكس أوضاع الاضطهاد فى مكة ، لكن الباحثين الغربيين يميلون الآن الى النظر لهذه الآية باعتبارها وصفا للجحيم • ومن المؤكد أن هذه الآية فى حد ذاتها لا تقوم كدليل على طبيعة اضطهاد المسلمين فى مكة • والآية المدنية (٩١) التى تتحدث عن المسلمين الذين هاجروا بعد تعرضهم للفتنة ، لا تعنى أكثر من تعرضـهم للكيد بالاضـافة للضغوط الأسرية • وعلى اية حال ، فان مفتتح سورة القلم (٩٢) يبدو وكأنه يبين نوعا من محاولات استدراج محمد ﷺ للوقوع فى نوع من التسوية ؛ خاصة عندما تشير الآيات الى أن المشركين ودوا أن يكون محمدﷺ مخادعا يظهر غير ما يبطن فيفعلوا مثله (ودوا لو تدهن فيدهنون) السورة ٦٨ (القلم) ، الآية ٩ • وكان الله يشـــد من أزره لرفض عروض أعدائه (٩٣) وعدم الرضـوخ لتهديداتهم • وثمة آيات تشير ـ وفقا للتفسير التقليدى ـ لرفض آيات

(٨٩) ٩٦/٩ •
(٩٠) ٨٥/١ ـ ٧ •
(٩١) ١٦/١١١ •
(٩٢) ٦٨/٩ •
(٩٣) ٩٦/١٩ ، ٧٦/٢٤ ••• الخ •



القرانيق رغم أنه يمكن اعتبارها مثيرة لبعض المناسبات الأخرى ، حتى المناسبات الذاتية منها - توضح أن عروض المشركين لتسويات أو لأمور وسط ، كانت تشكل تهديدا حقيقيا للدعوة :

(وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذن لاتخذوك خليلا (٧٣) ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا (٧٤) اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا (٧٥)) السورة ١٧ (الاسراء) (٩٤) .

انه لمن الصعب - وان لم يكن من المستحيل - أن نرى كيف أن رفض شخص للهداية عند سماعه للقرآن يمكن أن يكون دليلا صحيحا ضد أعداء محمد ﷺ (٩٥) ؛ لذا فيمكن للمرء أن يجرب أن يتخيل ان الآية قد تشير لنوع من المعارضة بين المؤمنين برسالة محمد أو بين المرتدين (الذين أسلموا ثم تركوا الاسلام ، والمقصود على عهد الرسول لا بين من عرفوا - تجاوزا - بعد ذلك بالمرتدين أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه) . واذا كانت الآيات التى تتحدث عن الذين لا يؤتون الزكاة على أنهم مكيون ، فربما كانوا هم المقصودين بهذا (٩٦) . ان استخلاصنا لحقيقة أو برهان فيما يتعلق بهذه النقطة من القرآن الكريم أمر مشكوك فيه الى حد ما .

وبشكل عام ، فان الأدلة المستقاة من القرآن الكريم تميل الى تأكيد الصورة التى استقيناها من المصادر التاريخية التقليدية . فالنقد الكلامى والنزاع الجدلى كانا هما - فيما يبدو - الملمح الرئيسى للمعارضة التى شنها أتباع محمد ﷺ . فالنشاط المادى الأساسى كان يطلق عليه اسم (الكيد) و (المكر) وهى كلمات تعنى حبك المؤامرات باستخدام حدة

---

(٩٤) أوردنا نص الآيات التى اشار لها المؤلف بالأرقام فى المتن .

(٩٥) ٨٤/٢١ -

(٩٦) ٣٦/٤٧ ، ٤١/٦ وهى آيات مدنية وفقا لما جاء فى :
Bell, translation of the Quran.

الذهن ، وربما كانت من النوع الخطر ، ولكنها كانت دائما في النطـاق المشروع . وقد تؤدى الى اختلاق أكاذيب والحاق خسائر لكن ليس هناك برهان أكيد على أن المعارضة تحولت الى اضطهاد للمسلمين .

٥ ـ قادة المعارضة ودوافعهم

يبقى أن نسأل عن طبيعة المجموعة المكية ـ أو المجموعات ـ التى عارضت محمداً ﷺ ودوافعها .

أما عن طبيعة هذه المجموعة ـ أو المجموعات ـ فهى الشق الأسهل في مبحثنا هذا . وحتى اذا أخذنا بالرأى القائل بأن المعارضة كانت أكثر اعتدالا مما يشاع ، فانه من الواضح أنه قد قادها زعماء عشائر قريش (أو ذوو النفوذ من عشائر قريش) وقد نظر الباحثون الغربيون ببعض الشك لأسـماء الأشخاص الذين اعتبروا مناوئين لمحمد ﷺ أثناء الحقبة المكية ؛ لأن الأسماء وردت في قوائم من قتلوا أو أسروا في غزوة بدر ، لذا فهذه الأسماء تعكس الأوضاع (فيما يتعلق بأعداء محمد ﷺ) في السنة الثانية للهجرة ، أى بعد مغادرة الرســـول مكة مهاجـرا للمدينة بعامين . ويزداد هذا الشك بحقيقة أن قصيدة أبى طالب التى ذكرناها فيما سبق والتى تتعرض للأوضاع السياسية في فترة المقاطعة وما حولها ، والتى قد تكون ـ أى القصيدة ـ صحيحة غير موضوعة ـ هذه القصيدة تحوى عدة شخوص مختلفة لم يردوا ـ في العادة ـ كمعارضين لمحمد ﷺ . ومن ناحية أخرى ، فان قوائم المعارضين تشمل عدة أشـخاص ماتوا قبل غزوة بدر مثل المطعم بن عدى ، وهذا معنـــاه افتقاد الرواية للتواريخ الصحيحة . لكن يكاد يكون مؤكدا أن هذه القوائم ـ قوائم أعداء محمد ـ قد اعتمدت مادة تاريخية سليمة ، وبالتالى فهى صحيحة بشكل عام .

لقد كان أبو جهل من عشيرة مخزوم هو أكثر أعداء محمد ﷺ شهرة طوال عدة سنوات قبل مقتله (أى مقتل أبى جهل) في غزوة بدر ، وقبل ذلك ربما زعيم مكة الرئيسى هو الوليد بن المغيرة (٩٧)زعيم عشيرة مخزوم ،

(٩٧) ابن هشام ، ٢٣٨ .

لكن من الممكن ألا يكون منخرطا فى عداوة مريرة ضد محمد ﷺ ، فقد كان أبو جهل هو الذى نظم تحالف العشائر العديدة ضد عشيرتى هاشم والمطلب . لكن فض هذا الحلف يشير الى وجود حزب قوى من المشركين كان أفراده غير مستعدين للانسياق وراء أبى جهل الى آخر المدى ، ولايمكننا الا بالكاد أن نقول شيئا عن أهدافهم المحددة فى معارضة محمد ﷺ .

وأحيانا كان يفترض أن أقوى الدوافع الكامنة وراء معارضة محمد ﷺ ، هو الخوف من أن مكة اذا دخلت الاسلام وتخلت عن الوثنية توقف البدو عن التردد على الكعبة كمعقل وثنى وبالتالى تحطمت تجارة أهل مكة . الا أن هذا الفرض ـ على أية حال ـ غير مقنع . فليس لدينا ما يشير الى انتقاص توقير الكعبة فى القرآن أو فى أى نصوص اسلامية دينية أخرى ، كل ما نعلمه هو تغير نسك العبادة عند الكعبة وتطهيرها (من الأوثان) بعد فتح مكة . لقد كان الهجوم الأساسى على الأوثان لا على الكعبة ، كما كان الهجوم كما ذكرنا فيما سبق على نظم العبادة الوثنية عند بعض الأنصاب بالقرب من مكة . وربما كانت هذه الأنصاب المجاورة لمكة لا تكاد تكون من الأهمية بدرجة كافية تجعل هجرها أمرا كافيا لهدم تجارة مكة . فالحقيقة ، أنه ربما كان قدر كبير من تجارة مكة قد أصبح فى هذه الفترة مستقلا لا يتأثر بزيارة البدو للكعبة أو الأنصاب الموجودة الى الجوار من مكة ، وعلى هذا فمن المستحسن أن ننسى النظرية التى مؤداها أن المخاوف الاقتصادية كانت كامنة وراء الخوف من الهجوم على الأوثان .

والذى يكاد يكون مؤكدا هو أن هؤلاء النفر الذين كانت لهم ارتباطات تجارية ببعض الأنصاب قد تضايقوا ؛ لأن مهاجمة هذه الأنصاب كانت تنطوى على هجوم عليهم . وكانت اللات فى الطائف من بين هذه الأنصاب ، وفى خطاب عروة النى أوردناه فى الصفحات السابقة ما يفيد أن بعض القرشيين الذين كانت لهم ممتلكات فى الطائف هم الذين بدعوا المعارضة الفعالة لمحمد ﷺ . ومن الممكن بنفس القدر أنه كانت هناك مجموعات أخرى تأثرت مصالحها الخاصة ببعض النقاط التى تضمنتها دعوة محمد ﷺ .

وعلى أية حال ، فالسبب الرئيسي للمعارضة كما يبدو مؤكدا هو أن زعماء قريش رأوا في نبوة محمد — اذا ما أقروها — مضامين سياسية . فالتقاليد العربية القديمة تعطى الحكم او الزعامة فى القبيلة او العشيرة له (لمحمد ﷺ) مادام (بحكم نبوته) هو الاكثر حكمة وتدبيرا وهو الاكثر قدرة على الفصل فى أي نزاع ينشب . واذا صدق المكيون تحذيرات محمد ﷺ وارادوا بعد ذلك أن يعرفوا كيف يدبرون أمورهم في ضوئها ، فمن هو أفضل من يستشيرونه غير محمد ؟! الذى لا شك فيه أنهم تذكروا العلاقة بين اعتناق عثمان بن الحويرث للمسيحية ومحاولته أن يكون أميرا لمكة . وحتى اذا كان محمد حريصا على أن يكون مجرد نذير ، فربما فكروا ، هل سيكون محمد ﷺ قادرا على مقاومة القبض على زمام السلطة العليا اذ أتاحت له الظروف ذلك ؟

وربما كان زعماء قريش من بعد النظر بمكان بحيث يدركون التعارض بين قيم القرآن الكريم من ناحية ونشاطاتهم التجارية — التى كانت بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت — من ناحية أخرى . فلم تكن هناك أية اشارة لتحريم الربا حتى بعد الهجرة بمدة طويلة ، لكن كان هناك منذ البداية نقد لاتجاهاتهم الفردية نحو احراز المال واكتنازه . لابد أن هذا كان يدور فى عقول ماليى مكة حتى ولوا تحاشوا مناقشته علنا . ربما شعروا أن هذه القيم القرآنية ستعطى محمدا دعما سياسيا ان هو فكر فى القيادة السياسية . بل وربما شعر بعضهم أن هذه القيم القرآنية المتعلقة بالمال ما هى الا اعادة فتح للنزاع القديم بين مخزوم وأتباعها من ناحية ، وعشائر حلف الفضول من ناحية أخرى .

وعندما نضع فى الاعتبار هذه الخلفية الكامنة وراء المعارضة لمحمد ﷺ أمام نواظرنا ، فلن نفهم أن هجوم القرآن على الوثنية كان ليمر دون مقاومة . لقد كان العرب بطبيعتهم او بحكم نشأتهم محافظين ، ويصف القرآن الكريم فى مواضع كثيرة الوثنيين الذين تمسكوا بوثنيتهم بأنهم لا يفعلون ذلك الا لمجرد أن آباءهم كانوا على هذا الدرب سائرين . وقد ظل هذا الاتجاه المحافظ حتى بعد فترة من ظهور الإسلام فكلمة (بدعة) هى الكلمة التقليدية التى تستخدم لتعنى الهرطقة . وهذا الاتجاه المحافظ

يفترض أنه كان المحرك لبعض طبقات المعارضة ، خاصة الزعماء كبار السن الذين لم يكونوا ينظرون لمحمد ﷺ كمنافس شخصى لهم كالوليد بن المغيرة • ولم يكن لدى معارضى محمد ﷺ دفاع نظرى يقدمونه عن الوثنية ، فالمسألة لا تعدو كراهية التغيير الذى ربما اعتبروه عملا غير أخلاقى رغم أن الآلهة أو الأرباب (الأوثان) لا تهمهم الا قليلا •

وهناك سبب آخر للمعارضة بالاضافة لمهاجمة الأوثان ، وهو التأكيد على أن آباءهم وأجدادهم الوثنيين خالدون فى جهنم فالولاء للآباء والأجداد مرتبط ارتباطا وثيقا بما تركوه من تراث •

وبينما كان بعض المعارضين لمحمد ﷺ ينطلقون من منطلق فردى عميق ، فان الأكثر محافظة منهم ربما احتفظوا بولاء من نوع خاص للجماعة • وعلى هذا فانهم رأوا فى اتجاه الاسلام نحو ايجاد فصل حاد فى الأسرة أو العشيرة (المقصود فصل بين الأجداد أو الآباء الوثنيين ، والأبناء المسلمين) دليلا على أن الابتعاد عن نهج الآباء والأجداد سـيؤدى الى عواقب وخيمة ، وربما بدا لهم أن هذا التغيير سيمس البناء الاجتماعى كله • والحقيقة ، أن الاسلام ـ بمعنى أو آخر ـ كان يفعل ذلك حقا •

وعلى هذا ، فان الأرضـية التى انطلقت منها المعارضـة للاسـلام كانت ـ بالاضافة للخوف من تعرض المصالح الشخصية للخطر ـ خوفا من المضامين السياسية والاقتصادية للاسلام ، بالاضافة الى ميل خالص للاتجـاه المحافظ (عدم الرغبـة فى التغيير) • ان الوضع الذى واجه محمدا ﷺ كان بمثابة توعك (بداية حالة مرضية) لها أعراضـها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعقلية • وكانت رسالته فى جوهرها دينية حاولت علاج الجوانب الدينية فى هذا المجتمع المريض دينيا ، لكنه تعرض بالضرورة لجوانب اخرى غير دينية ، وبالتالى كان للمعارضة ايضا اوجهها الكثيرة •

الفصـــل الســـادس

آفـــاق ممتـــدة

١ ـ تدهور فى أوضاع محمد ﷺ

لم يمض وقت طويل على انتهاء المقاطعة حتى فقد محمد ﷺ فى وقت قصـــير كلا من عمه وحاميه ـ أبى طالب ، وزوجته المؤمنة الوفية المعينة ـ خديجة · وربما كان هذا فى العام ٦١٩ للميلاد . وليس لدينا دليل على ما كانت تعنيه خديجة بالنسبة لمحمد ﷺ فى هذه الفترة · أما قبل ذلك . فتخبرنا المصـــادر أنهـا شجعته عندما بدأ يتخوف ، ويمكننا أن نخدس على الأقل أن دعمهـا له وشـدها من أزره كان لايزال يعنى بالنسبة له شيئا · واذا كان الأمر كذلك ، فالذى لا شك فيه أنه كان خيرا له أن يلجأ الى مزيد من الاعتماد على النفس · حقيقة ، لقد تزوج بعد ذلك بفترة غير طويلة من سودة بنت زمعة وهى احدى المسلمات الأوائل وكانت وقت تزوجها أرملة . وهذا قد يشير الى حاجته لصحبة روحية (لأنيس يؤنس روحه ويكون له بمثابة صديق) ، لكننا لا نعرف عن سودة الا قليلا ويمكننا أن نفترض أن علاقتها بمحمد ﷺ كانت فى الأســـاس فى نطاق دورهـا كزوجة in the domestic sphere · ان تجربة محمد ﷺ فى نخلة عند عودته من الطائف ، حيث تلقى مواساة عندما كان حزينا محبطا ـ ربما يمكن اعتبـارها علامة على مرحلة دالة على علم تعويله على الاعتماد على رفاق من البشر (*) (ربما يقصد الاعتماد على

(★) النص :

The experience of Muhammad at Nakhlah on his return from Ata'if, When he received cofmort in his mood of dépression, might be taken a marking a stage in his weaning from relance on human Companionship.

للدعم البشرى . وهى عبارة تبدو متناقضة وغير مفهومة ـ المترجم) .

لقد كانت نتائج وفاة أبى طالب واضحة على المستوى السياسى ، فقد خلف أبا طالب فى زعامة بنى هاشم أخوه أبو لهب . ورغم أن أبا لهب كان قد انضم الى الحلف الكبير ضـد هاشم اثناء فترة المقاطعة ، الا أنه يقال انه وعد فى البداية أن يحمى محمدا ﷺ بالطريقة نفسها التى حماه بها أبو طالب (١) . وقد تكون هذه الرواية مقبولة لأن احترام السيد العربى لنفسه يؤيد هذا الاتجاه . وان كان هذا يتناقض مع ما سبق أن أبداه من عداوة لرسول الله ﷺ ، فيمكننا تخفيف حدة هذا التناقض بافتراض أن ما ذكر عن عداوة أبى لهب لمحمد ﷺ قبل وفاة أبى طالب كان مبالغا فيه بسبب اسفافه فى العداء لمحمد ﷺ بعد ذلك (المترجم : لقد نزلت سورة قرآنية فى أبى لهب وزوجته حمالة الحطب ، فليس هناك اذن مبالغة) .

وعلى أية حال ، فبعد فترة رفض أبو لهب رسـميا حماية محمد على أساس أن محمدا ـ على حد قوله ـ زعم أن عبد المطلب فى النار . والرواية التقليدية بهذا الشأن تخبرنا أن عقبة بن أبى معيط وأبا جهل رأيا أن يوجها سؤالا لمحمد ﷺ بهذا الشأن . والطريقة التى وردت بها الرواية تشير الى السذاجة ، ومع هذا فليس هناك سبب يدعونا للشك فيها . لقد أشار أعداء محمد على أبى لهب أنه مادام محمد يذكر جدهم المشترك عبد المطلب (*) بسوء (قوله انه فى جهنم) ، فيمكن أن يسحب أبو لهب حمايته له دون أن يلومه أحد ، أو بتعبير أدق دون أن يفقد شرفه أو احترامه لنفسـه .

كان افتقاد محمد ﷺ للأمن بسحب الحماية المبسوطة عليه خسارة كبيرة ـ فى الظاهر ـ له ولقضية الاسـلام . لكن الحقيقـة أنه لم تكن هناك حالات مهمة للتحول للاسلام منذ أسلم عمر بن الخطاب ربما

(١) ابن سعد ، ١ ، ١ ، ١٤١ .

(*) عبد المطلب توفى قبل بدء الرسالة ولذلك يعتبر من « أهل الفترة » الذين لا يعتبرون من أهل جهنم .

قبل ذلك بثلاث سنوات او اربع ، لكن فشل المقاطعه يمكن أن ينظر اليه كبدايه حركه تؤدى الى تحسين فرص ازدهار الدين الجديد • وعلى أية حال ، فقد كان تحلى ابى لهب عن حمـــاية محمد ﷺ قد أخمد كل هذه الآمال في مهدها • وحتى اذا استطاع المسلمون البقاء في مكة ــ وهو أمر كان يمكنهم فعله بالتأكيد ــ فلم يكن هناك احتمال قوى أن يعتنق الاسلام أفراد جدد • وفي مثل هذه الظروف ــ اذا لم يكن الاسلام قد ذبل أو اضمحل ــ كان لابد من توجيه نشاط جديد في اتجاه آخر • فكل ما كان يمكن فعله في مكة قد تم فعله ؛ لذا كان الأمل الأساسي متمثلا في احراز تقدم في أماكن أخرى • لقد كان محمد ﷺ يعتبر نفسه نبيا أرسله الله سبحانه في الأساس لقريش أو لقريش فقط ، ولم تكن هناك اشارة قبل موت أبى طالب الى أنه فكر في مد رسالته للعرب كافة (المترجم) (*) : ليس المقصود هنا أن الاسلام نزل لقريش فقط ، وانما المقصود أن تفكير الرسول ﷺ في المرحلة الأولى من الدعوة كان موجها الى قريش الذين كان يعتبرهم عدته لنشر دعوته بعد ذلك ، فكيف يكون الحديث مفصلا عن اسلام العرب والفرس والروم •• الخ ، وهو مازال يدعو أهل مكة ، وقد أشار المؤلف في كتابه هذا الى مراحل انتشار الاسلام ، كما أشار في كتاب آخر ترجم بعنوان الاســلام والمسيحية (**) الى أن الاســلام يضم كل القيم والأفكار الأساسية في الأديان التى سبقته ؛ لذلك فهو دين المستقبل) وعلى أية حال ، فقد أدى تدهور أوضاع النبى ﷺ في مكة الى بحثه عن آفاق جديدة خارج مكة ، فنحن نسمع خلال سنواته الثلاث الأخيرة في مكة عن لقاءاته مع القبائل البدوية وأهل الطائف ويثرب •

٢ ــ زيارة النبى للطائف

كانت الطائف ــ على نحو من الأنحاء ــ نسخة طبق الأصل من مكة ، رغم وجود اختلافات مهمة • فقد كانت الطائف مركزا تجاريا ذا علاقات خاصة وثيقة باليمن • فقبيلة ثقيف كانت تقطن الطائف وارتبطت بتجارة

(*) اكثر الايات التى تكلمت عن عموم رسالة الاسلام نزلت في سور مكية ؛ مما يدل على ان عموم الرسائل كان مفهومها لدى الرسول من اول الامر ــ (المراجع) •

(**) نشر في هذه السلسلة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب •

المسافات الطويلة ، وغالبا ما كان ذلك بالاشتراك مع قريش . وفي الوقت نفسه كانت الطائف ذات مناخ أفضل من مناخ مكة ، وكانت أجزاء مما يحيط بها ذوات تربة خصبة جدا • وكانت ذات شهرة بالزبيب ، وكان احد ملامح الطائف المميزة أن اهلها كانوا يعيشون على الحبوب ، بينما كان العرب الآخرون قانعين بالتمور والحليب • وكان كثيرون من أثرياء أهل مكة يمتلكون أراضي في الطائف يتخذون منها منتجعا في فصل الصيف • وكانت عشيرتا هاشم وعبد شمس تحتفظان بعلاقات وثيقة مع الطائف ، وكانت لمخزوم معاملات مالية – على الأقل – مع ثقيف • وبشكل عام ، كانت ثقيف أقل قوة من قريش وكان عليها أن تعرف تفوق قريش في مجال المال – من الممكن أن يكون ذلك نتيجة حرب الفجار (٢) – وما يستتبع هذا من نتائج • لكن العلاقة بينهما لم تكن لصالح طرف واحد تماما ، مادام الأخنس بن شريق ، أحد الحلفاء (من الطائف) ، كان لفترة من الفترات – رجلا مهما في عشيرة زهرة بمكة (٣) •

وكانت هناك مجموعتان سياسيتان أساسيتان في الطائف ، هما : بنو مالك والأحلاف ، وربما كان الأحلاف هم الأقدم من حيث الاقامة في الطائف ؛ لأنهم كانوا رعاة حرم الربة (النصب أو الوثن) ، وسننساق وراء خطأ ان تحدثنا عنهم كعوام أو أجلاف as plebeians (المقصود ليسوا من ذوي الحسب والنسب ، أو اعتبارهم خاوين من التأثير السياسي • أما بنو مالك فكانوا – بشكل أساسي – مرتبطين بقبيلة هوازن الكبيرة التي كانت مسيطرة على المناطق المحيطة ، بينما كان الأحلاف قد بحثوا عن الدعم من قريش ليوازنوا تحالف بني مالك مع هوازن • وعلى هذا ، فان تدني ثقيف من حيث المنزلة عن قريش كان يرجع الى أن ثقيفا كانت غير مترابطة داخليا الى حد كبير • وهو أمر مؤكد بلا جدال •

ومن الواضح أن محمدا لجأ أول ما لجأ الى الطائف بحثا عن مجال جديد للدعوة الاسلامية • والرواية التقليدية بهذا الشأن (٤) هي أنه

(٢) Cf. I. 2 d.

(٣) Cf. Lammens, Taif.

(٤) ابن هشام ، ٢٧٩ – ٢٨١ ، الطبري ، ١١٩٩ – ١٢٠٢ •

نظرا لازدياد قسوة المعاملة التى واجهها بعد موت عمه أبى طالب ذهب ليبحث عن حام له ، لكن هذا لا يمكن أن يكون هو السبب الوحيد فالمصادر تتحدث عن أمله في تحويل الناس الى الاسلام ، ومثل هذا الامل ربما كان كامنا بالفعل فى فكرة انشاء مجتمع اسلامى كالذى أنشأه بعد ذلك فى المدينة • وفي الوقت نفسه لا يمكننا انكار امكانية حدوث ذلك تماما ، فقد كان محمد ﷺ يتوقع أن تصيب مكة بعض الكوارث بعد رفضـــها اياه ورغبتها فى ازاحة أتباعه • ولا شك أيضا أنه يكاد يكون مؤكدا أن شيئا ما من الشقاق أو الخلاف فى المجال السياسى قد حدث وأن محمدا ﷺ حاول الاستفادة منه ؛ لكننا لا نملك الأدلة الكافية لمعرفة طبيعة هذا الشقاق أو الخلاف السياسى ، فالأشخاص الذين اقترب منهم محمد ﷺ هم عبد يليل (فى الطبرى عبد ياليل ـ المترجم) واخوته وكانوا ينتمون الى عشيرة عمرو بن عمير التى كانت من بين الأحلاف الذين أشرنا لهم سابقا ، لذا فقد كان من المفترض أنهم متعاطفون مع قريش ، وربما أراد محمد ﷺ أن يستميلهم باغرائهم بانتزاع مزايا مالية من مخزوم (٥) •

ومهما كانت الطبيعة الدقيقة لأهداف محمد ﷺ والأسباب التى دعت بنى عمرو بن عمير الى رفض مقترحاته ، فقد أبعدوا محمدا ﷺ دون أن يحصل منهم على شيء بل وأغروا أهل الطائف بقذفه بالأحجار • ويقال انه تخلص من هذه الورطة باللجوء الى بستان أخوين من عشيرة عبد شمس المكية يردان غالبا فى سياق كبار مناوئيه •

وأخيرا اتخذ محمد طريق العودة الى مكة ، وكان ـ بلا شك ـ محبطا احباطا شديدا • وتقول الروايات كيف أنه وهو فى نخلة أثناء الليل وبينما كان منشغلا بالصلاة والدعاء ، أتت اليه مجموعة من الجن واستمعوا اليه ودخلوا فى الاسلام (٦) • وحتى اذا كانت هذه الرواية وضعت فى زمن متأخر ، فانه يجوز لنا أن نصدق أنه فى هذه المرحلة الحرجة من حياة محمد زاد اعتماده على الله سبحانه •

(٥) Lammens, Taif, 100/212.

(٦) السورة ٧٢ •

ولم يدخل محمد ﷺ مكة بمجرد وصوله لها وانما لجأ الى غار حراء في ضواحيها ، ومن هناك بدأ يفاوض للحصول على الحماية (الجوار) عند أحد زعماء العشائر . وهذا يعني أن أبا لهب زعيم عشيرته رفض حمايته ، وأكثر من هذا فحالما أصبحت أخبار زيارته للطائف معروفة لمعارضيه فى مكة ، زاد عداؤهم له بشكل فعال • وكان أول من عرض عليهم أمره الأخنس ابن شريق من بنى زهرة وسهيل بن عمرو من بنى عامر ، وقد رفضا طلبه ، وأخيرا وافق المطعم بن عدى زعيم بنى نوفل على ان يدخل مكة فى جواره ، ويمكننا أن نتصور أن ذلك تم وفقا لشروط ، رغم أن المصادر لا تشير لشيء من هذا • وعلى أية حال ، فهذا لا يدعو للدهشة مادامت هذه الرواية قد سيقت فى معرض مدح عشيرة نوفل والاشادة بشرفها • وأما ما حدث بعد ذلك ، فقد مرت عليه المراجع مرا خفيفا مادام غير ملائم لبنى هاشم • ويبدو أن ابن اسحق (٧) قد حذف ما يتعلق بهذه الفترة ، والجدير بالذكر أن أحدا من المسلمين ـ بمن فيهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ لم يكن لديه القوة الكافية لتقديم الحماية لمحمد ﷺ •

٣ ـ الاقتراب من القبائل البدوية

تذكر الروايات المتعارف عليها فيما ، يتعلق بهذا الموضوع ، أن محمدا ﷺ انتهز الفرص التى أتاحتها الأسواق المختلفة لدعوة بعض القبائل البدوية • فالمصادر المبكرة (٨) تذكر على نحو خاص بنى كندة (وزعيمها مليح) وبنى كلب وبنى حنيفة وفرداً من بنى عامر بن صعصعة • والثلاثة الأول رفضوا دعوة محمد ﷺ رفضا تاما ، والأخير رفض دعوة محمد ﷺ بعد أن رفض الرسول أن يعده بأن يكون وريثا سياسيا له •

ومن الصعب أن نعرف لماذا ذكرت هذه القبائل دون غيرها من القبائل • ربما كان ذلك بالصدفة ، لكن ربما أيضا لأن محمدا ﷺ كان لديه أسباب خاصة تجعله يتوقع أنها ربما استمعت اليه • ومن الظاهر أن قسما من بني عامر بن صعصعة قد استمالهم محمد ﷺ ، كما نفهم من

(٧) ابن هشام ، ٢٨١ • واضافها ابن هشام بنفسه •
(٨) ابن هشام ، ٢٨٣ وما بعدها ، الطبرى ، ١٢٠٤ ـ ١٢٠٦ •



خلال الحوادث التى رويت عن بئر معونة فى العام الرابع للهجرة . والقبائل الثلاث الأخرى تقع مضاربها على مسافات بعيدة من مكة وكانت قبائل مسيحية اما تماما أو جزئيا . لكن من الصعب أن نتأكد من أن هذه الحقائق هى السبب فى ذكرها فى هذا السياق . وما نصدقه هو أن محمدا ﷺ فى هذه المرحلة بدأ يجتمع بأفراد من القبائل البدوية ليدعوهم للاسلام ، وكان وراء هذا النشاط على الأقل فكرة غامضة عن وحدة كل العـرب .

٤ ـ المفاوضـات مع المدينة

(أ) توطئـة

يكتب الانجليز كلمة المدينة على هذا النحو Medina وهى تعنى التجمع السكانى الحضرى ، وربما كانت تعنى موطن العدالة ، والكلمة (المدينة) تشير على سبيل الاختصار لعبارة (مدينة النبى) ، وكانت معروفة قبل ارتباط محمد ﷺ بها باسم يثرب . ولم تكن يثرب مدينة بالمفهوم المعروف ، وانما كانت مجموعة من القرى الصغيرة والمزارع والحصون متناثرة على واحة أو قطعة أرض خصبة ، وربما كانت حوالى عشرين ميلا مربعا ، تحيط بها تلال وصخور وأرض صخرية كلها غير مزروع .

وكان القسم الرئيسى السائد من السكان يتمثل فى بنى قيلة الذين عرفوا فيما بعد بالأنصار (أى الذين نصروا محمدا ﷺ) ، وكانت هذه القبيلة أو الجماعات القبلية تتكون من أرومة بينها صلات قربى ، من الأوس والخزرج ، وكان كل منهما ينقسم بدوره الى عدد من العشائر ، وكل عشيرة تنقسم الى عدد من البطون Sub-clans . ووفقا للمرويات ، فقد قدم الأوس والخزرج الى يثرب مهاجرين من جنوب شبه الجزيرة العربية ، واستقروا فى أراض خالية من السكان فيما يبدو ، وذلك فى حماية (فى جوار) السكان الموجودين . وأخيرا ازداد عددهم واستطاعوا ـ بعد أن

أتاهم دعم من الخارج ـ أن يحرزوا السيطرة السياسية في الواحة في حوالى منتصف القرن السادس للميلاد أو بعد ذلك بقليل (٩) ٠

وبالنسبة للسكان السابقين على الأوس والخزرج ، فقد كانوا مكونين من مجموعتين قويتين ثريتين تشغلان أراضى خصـبة ظلت الى حـد كبير منفصلة عن الاوس والخزرج ، وأعنى بهما : بنى قريظة ، وبنى النضير ٠ وكانوا يشبهون جيرانهم من الأوس والخزرج فى كثير من النواحى ، وقد اعتنق بنو قريظة وبنو النضير الدين اليهودى واحتفظوا بطقوسهم بشكل نشط ٠ وليس من الواضح ما اذا كانوا مجموعة عبرية (من بنى اسرائيل Hebrew Stock) أو عربا تهودوا ، وربما كانوا مجموعة عربية منعزلة ربطت نفسها بمجموعات عبرية صغيرة (١٠) ٠ وفى زمن محمد ﷺ ، كانت هناك أيضا قبيلة يهودية ثالثة أقل نفوذا هى قبيلة بنى قينقاع ، كما كانت هناك كيانات عربية صغيرة غير قبيلتى الأوس والخزرج ربما كانت ـ أى هذه الكيانات ـ بقايا عرب سكنوا الواحة قبل وصول اليهود واستيطانهم ٠

ونشأت بين الأوس والخزرج ثارات متتابعة ، وغالبا ما كانت هذه الثارات تنشأ بين عشيرة أو عشيرتين فقط من كل جانب ، لكن ما يسمى حرب حاطب تكاد تكون قد شملت كل الأوس والخزرج (وكذلك القبائل اليهودية) وبلغت ذروتها فى معركة بعاث (بضم الباء وفتح العين) قبل الهجرة بسنوات قلائل ، ربما فى سنة ٦١٧ للميلاد ٠ وقد أدت هذه الحرب الى اختلال التوازن ، أساسا لأنهـا استنفدت طاقات كل من اشترك بها ٠

كانت المدينة اذن تعانى من خلل (ظواهر مرضـية اجتماعية a malaise) لم يكن يقل خطـورة عن الخلل والظـواهر المرضـية

(٩) Welhausen, Madina vor dem Islam, in skizzen U. Vorabeiten, iv, 1889.

(١٠) Caetani. Ann. i. p. 383 ; Torrey, Jewish Foundation. Ch. I, D.G. Margoliouth, Relations between Arabs & Israelites, London, 1924, Lecture 3.

الاجتماعية التي حاقت بمكه ، وان احتمعت اعراض المرض في الحالتين . أعني عدم تكيف او تواؤم العادات والتقـــاليد البدوية مع حياة المجتمع المستقر (بتعبير آخر أن البدو عندما يستقرون لا يستطيعون الا بعد فتره طويله أن يكيفوا بين أيديولوجيتهم البدوية ، وحيـــاة الاســـــتقرار الجـــديدة) .

والجانب الاقتصادي لهذه الاضطرابات كان ــ بلا شك ــ نتيجه الضغط الذي سببه الازدياد السكاني مع قلة الموارد الغذائية · ونتيجة الحرب المريرة التي انخرط فيها أهل يثرب هي أن المنتصرين راحوا ــ بشكل متتابع ــ يحتلون أراضي المنهزمين (١١) ، وكما حدث بعد معركة بعاث ، فعندما لم يكن هناك سلام رسمي (معتمد أو جرى الاتفاق عليه) وانما مجرد هدنة لالتقاط الأنفاس ، كان على الناس أن يكونوا في حالة حذر دائم (ترقب) ضد هجوم مفاجيء غادر وفي حالة احجام عن دخول أراضي الطرف الآخر . ومع أن انتاج التمور لا يحتاج الى رعاية فائقة كانتاج المحاصيل الأخرى ، فان حالة الاضطراب هذه أثرت ولابد في تدهور المشروع كما وكيفا · وعادة ما كانت الأطراف المتقاتلة لا تلحق ضررا بالنخيل نفسها ، لكن عدم استقرار الحيازة قد أدى بالضرورة الى عدم تفكير الناس في مشاريع زراعية طويلة المدى · لقد ساد اذن مبدأ الصحراء (احتفظ بما يستطيع سلاحك المحافظة عليه) ، وجرى تطبيق هذا المبدأ في مجال الأراضي الزراعية · انه اذا تم تطبيق هذا المبدأ عند رعي القطعان في مساحات شاسعة فلا بأس ، لكن ان تم تطبيقه في واحة خصبة صغيرة المساحة لأدى الى عواقب وخيمة ·

لقد احتفظت يثرب بأسس التنظيم الاجتماعي السائد في الصحراء ، فكانت كل عشيرة مسئولة عن اعضـــائها فكان الأخذ بالثأر أو دفع الدية (١٢) . ولذا دافع شخص عن ممتلكاته ففقد حياته ، فان التضامن القبلي يضمن أمن الممتلكات · لكن لغياب عامل بعد المسافة الموجود في

(١١) Welhausen, Op. cit., passim.

(١٢) ابن هشام ، ٣٤١ ــ ٣٤٤ ، عن دستور المدينة ·

الصحراء ، فان هذا الاســـاسى للامن القــائم على القوة (القوة المسلحة للمجموعة) يصبح نكبة مدمرة · فالمجتمع المستقر يحتاج الى سلطة واحدة قوية لحفظ السلام بين الأفراد والجماعات المتنافسة ، وهذا الى حد ما خارج المدى الذى يمكن أن يصل اليه الفكر البدوى ·

لقد أدت المصالح التجارية فى مكة الى ربط الجماعات المختلفة معا ودعمت معنى وحدة قريش (رغم ان الظلم والشعور بالضيم الذى أحس به الفقراء وغير الأثرياء كان له تأثير انفصــالى أو كان ســببا للشقاق والنزاع) ولم يكن فى المدينة مثل هذا العامل الداعى لتوثيق الروابط ؛ لأن سكانها أقل تجانسا من سكان مكة · فالأسرة الصغيرة كانت هى الوحدة الكافية ؛ لأنها تتواءم مع العمل الزراعى · ومن ناحية أخرى ، ربما كانت النزعة الفردية اقل مما هى فى المحيط التجارى لمكة ؛ لأنه مما لا شك فيه أن ظروف الزراعة العربية لا تعطى فرصة للتفاوت الشديد فى الثروات ، كما يحدث فى المجتمع التجارى .

وفى كتاب الطبقات لابن سعد نجد أنه فى معرض الحديث عن غزوة بدر على الجانب الاسلامى تم ترتيب المقاتلين من القرشيين فى ١٥ عشيرة . بينما ذكر ٣٣ من الأوس والخزرج ، وربما كان ذلك لاظهار أن ظروف المجتمع الزراعى تعزز الانقسام (التحول الى شظايا (*) (fragmentation . وزيادة عدد التقسيمات (العشائر أو البطون ·· الخ) فى قبائل المدينة ، ربما يكون راجعا الى أن ذلك يلائم المشتغلين بالأنســـاب مادامت هناك تقسيمات كثيرة بالنسبة لأهل المدينة أكثر بكثير من تقسيمات قريش ، أو ــ مرة أخرى ــ ربما كان ذلك ــ بشكل أو آخر ــ مرتبطا باستمرار تأثير النظام الأمومى matriarchy فى المدينة ، أو لتوالى الأجيال فى الفترة ما بين أنصار بدر (الأنصار زمن غزوة بدر) من ناحية ، وجدهم المشترك من ناحية أخرى ·

وعلى أية حال ، فبصرف النظر تماما عن صحة هذه التعليلات ، فقد كان أهل المدينة أكثر تقسيما بكثير ، وكانت تنقصهم الوحدة بالاضافة الى

(*) بمعنى تتفكك وتتحول الى كيانات صغيرة ·

الحروب العنيفة (الانتحارية Suicidal) التى كانت تنشب بينهم ، ومن هنا فان نبوة محمد ﷺ ـ بما فيها من مضامين سياسية ـ كانت من الزم الأمور للمدينة لبعث الامل فى السلام .

وربما عبرت الآية القرآنية التالية (١٣) عن هذه الفكرة :

(ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون (٤٧)) السورة ١٠ (يونس) .

فالنبى ـ بسلطته القائمة على الدين لا على الدم ـ يمكنه ان يعلو فوق الأعراق المتحاربة وأن يكون حكما بينها . وتحدثنا المصادر أن الأنصار تصوروا محمدا ﷺ المسيح المنتظر الذى كان يتوقع اليهود مجيئه ، فسارعوا ـ أى الأنصار ـ بقبوله (١٤) . لكن ـ أن كان فى هذه الرواية قدر من الصحة ـ فان هذه الفكرة عن المسيح هى التى ألفت بين الأنصار ، بالاضافة الى فكرة الجماعة Community التى يتحلق أفرادها حول شخصية دينية ذات مواهب خاصة .

لقد كان لدى الأنصار اذن سبب قوى لقبول محمد ﷺ نبياً ، وكان لهذا السبب ـ بلا شك ـ تأثيره . وبالاضافة لهذا ، فقد كانت الأمراض الاجتماعية فى يثرب ذوات جذور دينية . فالنظرة البدوية التي يشارك فيها الأوس والخزرج تجعل معنى الحياة يكمن فى الشرف وشجاعة القبيلة أو العشيرة . وتتحقق مثل هذه الفكرة كأفضل ما يكون فى الجماعة الصغيرة المتماسكة نسبيا . انها لا تنطبق على الوحدة الكبيرة كالأنصار (يقصد اذا نظرنا للأنصار كوحدة كبيرة واحدة) ، ففى هذه الوحدة الكبيرة ليس من الضرورى أن يكون لكل فرد فيها ارتباطات خارج المجموعة الكبيرة (الأنصار) . فالحياة البدوية لا تدعم روح التضامن الا فى نطاق المجموعات الصغيرة . وبالاضافة لذلك ، ففى يثرب لم يكن هناك ما يدعو للفخر ـ الا قليلا ـ فى هذا القتال المرير الذى استمر فترة طويلة .

---

(١٣) أوردنا الآية ورقمها بالمتن .

(١٤) Welhausen, Op. cit., 34, 55f, 59-62.

ويبدو أن عبد الله بن أبى حاول أن يتخذ موقفا حياديا فى معركة بعاث أو على الأقل لم يشارك فيها ، وربما دل هذا على مرض عضال اعترى نفسه نتيجة الثارات والعداوات التى لا نهـاية لها • وبالنسـبة لهذه المشكلة الدينية ـ ان جاز لنا وصفها بهذا الوصف ـ كان لدى الاسلام الحل • انه عقيدة تشير لليوم الآخر وهو ما يعنى أن معنى الحياة يظهر فى نوعية سلوك الفرد • هذه الفكرة قابلة لأن تصبح أساسا يقوم عليه مجتمع كبير ، لأنهـا ان تم قبولهـا فمعناها أنه لم يعـد مكسب انسان مؤديا الى خسارة آخر One man's gain no longer entails another's loss • والذى لا شك فيه ، أن الأنصـار كان لديهم بعض التحقق من هذه المضامين عندما قبلوا بالدين الاسلامى ، لكن غالبهم ـ كما نفترض ـ قد أصبحوا مسلمين لايمانهم بأن الاسـلام هو الدين الحق ، أو بتعبير أوضح لايمانهم بأن الله سبحانه أرسل محمدا ﷺ برسـالة الى العرب • (المترجم : الاسلام دين عالمى النزعة ، كما كررنا مرارا ، لكن السياق هنا يعنى أنه بعد انتهاء المرحلة القرشية « المكية » انتقل الاسلام الى مرحلة أخرى « المرحلة المدنية ») •

(ب) بيعتا العقبة ، الأولى والثانية

تسجل الروايات مزاعم متعلقة بفردين من الأوس قتلا قبل معركة بعاث وكانا على الاسلام ، أى أنهما قتلا كمسلمين • وعلى أية حال ، فان أول المسلمين المعروفين بشكل محدد (المقصود أول المسلمين من المدينة) كانوا ستة رجال من الخزرج قدموا الى محمد ﷺ ، ربما فى سنة ٦٢٠ م ، وفى موسم حج سنة ٦٢١ م عاد خمسة أو الستة جميعا وقد صحبوا معهم سبعة آخرين ، منهم اثنان من الأوس • ويقال ان هؤلاء الاثنى عشر رجلا تعهدوا بترك المعـاصى المختلفة وتعهدوا بطـاعة النبى ﷺ • وعرفت بيعتهم هذه ببيعة النساء (١٥) • وأرسل محمد ﷺ معهـم الى المدينة مصعب بن عمير المسلم الصادق ، والمجيد لحفظ آيات القرآن الكريم •

---

(١٥) Buhl, Muhammad, 186, n. 147.

وخلال العام التالى ، كان فى كل اسرة من اسر المدينة مسلمون ، فيما عدا أسر قسم من الأوس كان معروفا باسم أوس مناة أو أوس اللات .

وفى موسم حج سنة ٦٢٢ م ، ذهب الى مكة ٧٣ رجـــلا وامرأتان وقابلوا محمدا ﷺ سرا فى الليل عند العقبة وعاهدوه لا على الطاعة فقط وانما على الجهاد معه ايضا ، فكانت تلك هى بيعة الحرب . وحضر هذه البيعة العباس عم النبى ﷺ ليبين أن هاشما لم تتخل عن محمد ﷺ ، وأن المسئولية عن سلامته قد انتقلت للأوس والخزرج . وطلب محمد ﷺ من هذا الوفد تعيين اثنى عشر نقيبا (ممثلا) وتم ذلك بالفعل ، وسمعت قريش عن هذه المفاوضات التى بدت لهم عدائية وسألوا عنها بعض وثنيى المدينة الذين أجابوهم بحسن نية ـ نظرا لعدم علمهم بها ـ أنه لا صحة لوجود مثل هذه المفاوضات . وبدأ محمد الآن يشجع أتباعه على الذهاب للمدينة ، بل انه ليقال ان أبا سلمة قد ذهب للمدينة حتى قبل بيعة العقبة وأخيرا وصل المدينة سبعون مسلما ، بمن فيهم محمد ﷺ نفسه ، وكلمة الهجرة التى ارتبطت بهذا الحدث يقابلها بالانجليزية الكلمة المنقولة من العربية حرفا حرفا Hijrah ، أما كلمة flight وتعنى الفــرار فليست ترجمــة دقيقة ، ويتم اعتبار هجرة النبى التى بدأت فى ١٦ يوليو ٦٢٢ م بدءا للتاريخ الهجرى أو بداية الحقبة الاسلامية (١٦) ، وقد وقع هذا الاختيار فيما بعد (فى وقت لاحق) .

وقد حفظ لنا الطبرى رواية عروة بن الزبير التى يمكن مقارنتها بما ذكرناه آنفا ، فرواية عروة من الروايات المبكرة ، وفيما يلى نص ما أورده الطبرى (١٧) :

« وحدثنى على بن نصر بن على ، وعبد الوارث بن عبد الصمد ابن عبد الوارث ـ قال على بن نصر : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، وقال عبد الوارث : حدثنى أبى ـ قال : حدثنا أبان العطار ، قال : حدثنا

(١٦) الطبرى ، ١٢٠٧ ـ ١٢٢٢ ، ابن هشام ، ٢٨٦ ـ ٣٢٥ .
(١٧) الطبرى ، ١٢٢٤ ـ ١٢٢٥ .

هشام بن عروة ، عن عروة ، انه قال : لما رجع من أرض الحبشة من رجع منها ممن كان هاجر اليها قبل هجرة النبي ﷺ الى المدينة ، جعل أهل الاسلام يزدادون ويكثرون ، وانه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير ، وفشا بالمدينة الاسلام ، فطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة ، فلما رأت ذلك قريش تذامرت على أن يفتنوهم ، ويشتدوا عليهم ، فأخذوهم وحرصوا على أن يفتنوهم فأصابهم جهد شديد ، وكانت الفتنة الآخرة» وكانت فتنتين : فتنة أخرجت من خرج الى أرض الحبشة ، حين أمرهم بها ، وأذن لهم فى الخروج اليها ، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة ٠

ثم انه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيبا ، رؤوس الذين أسلموا ، فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة ، وأعطوه عهودهم ، على أنا منك وأنت منا ، وعلى أنه من جاء من أصحابك أو جئتنا فانا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا ، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالخروج الى المدينة ؛ وهى الفتنة التى أخـرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه وخرج ، وهى التى أنزل الله عز وجل فيها : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) » (*) ٠

وعندما ننظر الى رواية عروة لابد أن نضع فى اعتبارنا أنه ينتمى الى أسرة الزبير التى كانت معادية لبنى أمية ، وأن تراث أسرته كان بالتالى يميل الى المبالغة فى الاضطهاد وتأثيره على مسيرة الأحداث ؛ نظرا لأن بنى أمية كانوا مشاركين وبعمق فى المعارضة ضد محمد ﷺ ٠ ومن هنا فان الدوافع التى ذكرها عروة لا يمكن اعتبارها رواية متوازنة ، فالآية القرآنية التى استشهد بها تعود لحقبة مدنية متأخرة (١٨) ؛ وبالتالى فليس يصلح الاستشهاد بها هنا ٠

واغفال عروة لذكر بيعتى العقبة قد يكون وراء ميل بعض الباحثين الغربيين الى القول بأنه لم تكن هناك الا بيعة واحدة ٠ والأرضية التى

(*) استخرجنا النص من الطبعة المتاحة لنا (بيروت ، دار الكتب العلمية) جـ ١ ، ص ٥٦٤ ٠

(١٨) Bell, translation of Quran.

انطلقوا منها فى ذلك هو أن العهد الذى قطعوه للرســـول فى الاجتماع الأول ـ وهو المعروف ببيعة النساء ـ قائم على نص قرآنى (١٩) ٠

(يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شـــيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم (١٢)) السورة رقم ٦٠ (الممتحنة) .

لكن حتى اذا كان هذا هو المعنى الدقيق للبيعة ـ أى كما ورد بالآية ـ فليس هناك ما يمنع من وجود بيعة أخرى (ثانية) ٠ بل العكس ، فانه من الواضح أنه لابد أن تكون هناك مفاوضات طويلة ودقيقة بين محمد ﷺ وأهل المدينة ٠ فعندما أرسل الرسول مصعبا لم يكن ذلك فقط ليعلم المسلمين الجدد دينهم ، وانما أيضا ليرسل للرسول تقارير عن الوضع هناك (فى المدينة) . وعلى هذا قد يكون من المقبول أن نوافق على هذه الرواية ، فالاتصالات (أو الاتفاقات) الفعالة الأولى كانت مع الخزرج ؛ لكن محمدا ﷺ اصر على مقابلة مزيد من ممثلى الجماعات من أهل المدينة ؛ لأنه لم يكن ليأمن على نفسه ان هو اعتمد على عشيرة واحدة من بين العشائر المتنافسة دون العشائر الأخرى ٠ ولابد أن التفاصيل الدقيقة ـ على أية حال ـ قد تم تناولها فى هذا الاجتماع (البيعة) ، ولابد أن اتفاقية قد عقدت بين محمد ﷺ وأهل المدينة تضمنت بعض المعلومات عن نبوة محمد (رغم أن هذه المعلومات قد تكون أقل ـ بلا شك ـ مما أصبح معروفا بعد صلح الحديبية) ٠ ٠

ومرة أخرى ، ففى سياق بيعة العقبة الثانية وهى البيعة الرئيسية (الاجتماع الرئيسى) كانت هناك تفاصيل محل بحث ، لكن الخطوط الدينية أو الأفكار العامة كانت محل قبول بصرف النظر عن التفاصيل ؛ وربما كانت الاشارة الى موقف العباس عم النبى اشارة يمكننا رفضها ؛

(١٩) Buhl, Muhammad, 186.

باعتبارها وضعت بعد ذلك لشجب المعامله السيئه التي لاقاها الرسول ﷺ من بنى هاشم في هذا الوقت • وعند عودة الرسول ﷺ من الطائف دخل في جوار (حمايه) زعيم عشيرة نوفل ونظرا لعدم وجود ايه اشاره في المصادر تفيد تغير هذا الوضع ، فمن المؤكد انه ظل تحت حمايه بنى نوفل وليس تحت حماية عشيرته • فاذا قيل ان حمايه العباس عم النبى وتوثقه من حماية أهل المدينة لمحمد ﷺ جائزة حتى لو كان العباس لم يسلم – فان هذا قول غير صحيح ، والرواية المنسوبة الى وهب بن منبه والتى حفظتها لنا أوراق البردى (٢٠) تميل الى تأكيد الرأى المذكور آنفا • ففي رواية وهب امتدح العباس محمدا ﷺ مدحا عظيما ، الا أن أهل المدينة زادوا فى مدحه ليروه أنهم أكثر حبا لمحمد ﷺ منه ، وأكثر تقديرا له منه . والانطباع الذى نخرج به من هذه الرواية أنها رد على دعاية العباسيين الذين أقاموا الدولة العباسية بعد ذلك (بعد سقوط الدولة الأموية) ، وبصرف النظر تماما عن رواية وهب هذه (التى تثير فى حد ذاتها بعض الأسئلة الصعبة) فان الغرض الذى يكاد يكون مرضيا ، هو أن حكاية زيارة العباس للعقبة ما هى الا مجرد اختراع (تلفيق) صرف من وضع أبواق الدعاية العباسية •

وثمة بعض الصعوبات الأخرى فيما يتعلق بتعيين الاثنى عشر نقيبا لأن المهام المنوطة بهم غير واضحة ، ويظن الباحثون الغربيون أن ما يتعلق بهؤلاء النقباء موضوع بعد ذلك لتشبيه محمد ﷺ بموسى وعيسى عليهما السلام (فكما كان لكل منهما نقباء ، فلم لا يكون لمحمد ﷺ نقباء أيضا ؟!) • ففى رواية وهب بن منبه نجد واحدا من أهل المدينة يبايع محمدا ﷺ بالمصطلحات نفسها التى بايع بها نقباء قبيلة اسرائيل ، موسى (عليه السلام) ، وواحد آخر يستخدم في مبايعته المصطلحات نفسها التى استخدمها الحواريون فى مبايعة عيسى ابن مريم (٢١) • وعلى أية حال ، فان الرواية التى تشير الى أن محمدا ﷺ أصبح نقيبا لبنى النجار عندما مات ممثلهم (نقيبهم) الأصلى تبين أن الشك فى رواية النقباء هذه لا أساس

(٢٠) G. Mélaméde, 'The meetings at Al-kaba', in le monde Orien'ale. xxviii. 1939. pp. 17-58.

(٢١) السورة ١٥/٥ • Mélaméde, Op. Cit., p. 4.

له ، كما أنه لا مجال – بالتالي – للقول بمحاكاة أقوالهم لنقباء بني اسرائيل أو حواريي المسيح • والاحتمال الأرجح هو أن يكون نظام النقباء كان جزءا من النظام الأولى أو الأساسي للمجتمع الجديد أو الأمة الجديدة في المدينة ، وأنه سرعان ما دخل في طوايا النسيان أو لم يعد مستخدما •

ومن ناحية أخرى ، فان النقطة الأساسية حول هذا اللقاء أو الاجتماع (البيعة) ، وهي الحرب (الجهاد) ، غير واضحة فالى أى مدى ذهب المبايعون في وعدهم بالحرب (*) واستمرارهم فيها في حالة حدوثها ، ولابد أن أهل المدينة قد وافقوا أيضا على استقبال المهاجرين من مكة بشروط ودودة . وما هو غير واضح هو الى أى مدى قيد أهل المدينة أنفسهم بمعاداة قريش • والذى لا شك فيه أن تزايد قوة مكة أمر غير مؤكد ، كما أن الحقيقة التى مؤداها أن محمدا ﷺ لم يكن شخصا مرغوبا فيه في مكة a Persona non grata تجعلنا نتأكد أنه من المحال أن يستخدم – أي محمد – لمد نفوذ مكة . لكن أكان الترحيب بمحمد ﷺ في المدينة والتخلى له عن النفوذ فيها بمثابة القاء القفاز في وجه أهل مكة ؟ (المقصود أكان ذلك بمثابة اعلان للحرب على أهل مكة ؟) •

ان الاجابة عن هذا السؤال مرتبطة بالاجابة عن أسئلة أخرى • ماذا أعد محمد ﷺ من خطط لأصحابه بعد ذهابهم للمدينة ؟ وكيف كانت طبيعة وجودهم في المدينة كما اقترحها عليهم ؟ انه لا يستطيع أن يجعلهم ضيوفا عاطلين بشكل دائم على أهل المدينة ، ولم يكن يكاد يتوقع منهم أن يقيموا في المدينة ويصلوا كفلاحين • انهم في المدينة لا يستطيعون العيش الا كتجار يرسلون القوافل ، أو ينظمون أنفسهم لشن الغارات على قوافل أهل مكة • وحتى اذا كان الخيار الأول هو القائم أو هو الخطة الأصلية (مع قلة الشواهد على ذلك) ، أليس هذا مؤديا لقيام عداوة ضارية مع قريش ؟ وألم يكن محمد ﷺ يتوقع ذلك ؟! وباختصار ، فلابد أن محمدا ﷺ كان على يقين من أن هجرته الى المدينة ستؤدى عاجلا أم آجلا للحرب مع

(*) عن هذه النقطة (وهى الحرب مع الرسول) يقول ابن هشام ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال لوفد يثرب : ابايعكم على ان تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم واولادكم فبايعوه على ذلك واضافوا انهم يبايعونه على هلاك الاموال وقتل الاشراف والاقتتال فى كل الاحوال (ابن هشام : جـ ١ ص ٤٧٥ – ٤٧٦ • (المراجع) •

أهل مكة . الى أى مدى أخبر محمد أهل المدينة بذلك ؟ وبأية طريقة صاغ لهم هذا ؟ والى أى مدى كان أهل المدينة واثقين من أنفسهم (٢٢) ؟

وقد عبر كيتانى Caetani (٢٣) عن وجهة النظر التى مؤداها أن أهل المدينة قد قبلوا محمدا ككاهن أعلى Superior Soothsayer لمجرد أنهم كانوا راغبين فى استتباب سلام داخلى فى المدينة ، وليس لقبولهم كل تعاليم القرآن الكريم ، على الأقل بالمعنى المقصود ، ويظن كيتانى أن عدد المتحولين للاسلام تحولا صحيحا كان قليلا . وهذه النظرة تؤكد فعلا العوامل المادية (كما فعل ابن اسحق حقا) لكن ليس من الضرورى أن نقلل من شأن العوامل الدينية أو الأيديولوجية ، فالعوامل المادية من ناحية والعوامل الدينية من ناحية أخرى ليس من الضرورى أن تكونا متعارضتين ، بل انهما متكاملتان . وقد نتفق على أن الانقسام الأساسى فى المدينة كان بين أولئك الراغبين فى حضور محمد ﷺ للمدينة ، وأولئك المعارضين لحضوره ، وأن التحول للاسلام لم يكن يعنى التحول النهائى ، وانما كان مرهونا بالنجاحات السياسية التى سيحرزها محمد ﷺ (المترجم : هذا التعبير لا يزيد عن كونه : نجاح دعوته) . ومن الممكن أيضا أن يكون أهل المدينة كما افترض كيتانى قد فسروا الأفكار اليهودية والمسيحية الواردة فى القرآن وفقا لمصطلحات وثنية عربية ، وبالتالى لم يفهموها على حقيقتها . ومع هذا ، فلابد أن نصدق أن جمهور أهل المدينة الذين آمنوا بمحمد رسولا قد فهموا فحوى الاسلام وجوهره ومبادئه وقبلوها : لقد آمنوا بأن الله هو الخالق ، وهو المهيمن على الكون ، وهو الحكم العدل يوم القيامة وآمنوا أن محمدا هو حامل رسالة الله الى العرب (المترجم : سبق أن أوضحنا أن هذا لا يعنى أن الاسلام لم يتنزل للناس كافة ، وانما المؤلف يتعامل مع مراحل : المرحلة القرشية ، والمرحلة العربية .. الخ) :

لقد كان المسلمون يوجدون مجتمعا من نوع جديد فى المدينة ، وهذا يتطلب أسسا أيديولوجية واضحة ومحددة . وبالنسبة لأهل المدينة

---

(٢٢) ابن هشام ، ٣١٣ .

(٢٣) Studi, iii, 27-36.

المسلمين ، فإن قلة منهم كانت تمتلك يقينا دينيا متحمسا ، وكان غالبهم – بالضرورة – مقتنعين اقتناعا كافيا بحقيقة العلاقات الدينية ، وربطوا ذلك بتجربة قيام مجتمع على أسس من الروابط الدينية بدلا من الروابط العرقية .

٥ – هجرة النبي ﷺ الى المدينة

أما وقد بايع أهل المدينة محمدا على دعمه وتأييده ، فانه لم يضيع وقتا فشرع في تنفيذ خططه . لقد ظلت البيعة سرية وكان لابد من انجاز أكبر قدر ممكن قبل القيام بأعمال واضحة صريحة تعطي لأعداء محمد ﷺ دلالات على ما يريد عمله . وعلى هذا ، فقد أمر أتباعه بمغادرة مكة الى المدينة . ورواية ابن اسحق (٢٤) توضح أن دوافع النبي ﷺ وأصحابه لذلك كانت هي امكانية ازدهار الحركة في المدينة ، أما قول عروة بن الزبير أنهم هاجروا للمدينة هربا من الاضطهاد ، فالتركيز على ذلك يعطي انطباعا خاطئا . فلم تكن هناك سلسلة جديدة متواصلة من الاضطهاد قبل الهجرة ، اللهم الا اذا استثنينا من ذلك حالة أبي سلمة (٢٥) ، والاهانات التي لاقاها محمد ﷺ وأبو بكر الصـــديق ، لكن ربما تحركت نوازع الاضطهاد بعد ذلك عندما تحقق زعماء قريش مما سيفعله محمد ﷺ . وفي ظل هذه الظروف ، يمكننا أن نفترض أن توجيهات محمد ﷺ لأصحابه كانت حثا وتشجيعا ونصحا وليست أوامر . فقد بقي في مكة نعيم النحام وكان مسلما بارزا ، وبقي آخرون ، ولم يكن ذلك يعني ارتدادهم عن الإسلام (٢٦) وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك :

(ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى

---

(٢٤) ابن هشام ، ٣١٤ ، ٣١٦ وما بعدها .

(٢٥) ابن هشام ، ٣١٤ وما بعدها .

(٢٦) Caetani, Ann, p. 364.

وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك في السورة رقم ٨ (الانفال) ، الآية ٧٢ .

يهاجروا وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثـاق والله بما تعملون بصير (٧٢)) السورة ٨ (الأنفال) ٠

لقد كانت هذه الموجة الأولى المهاجرة تتكون فيما يقال من حوالى سبعين شخصا ، رحلوا فى مجموعات صـغيرة ووصلوا الى المدينـة بأمان ، وقدم لهم أهل المدينة المأوى (٢٧) ٠

واخيرا ـ وفقا للرواية المتداولة ـ لم يبق مع محمد ﷺ فى مكة سوى على وأبى بكر (رضى الله عنهما) ، وربما ترجع أسباب محمد ﷺ لانتظاره حتى وصول غالبية أتباعه الى المدينة ، الى زغبته فى التأكد من أن المترددين لم يمنعهم ترددهم من اكمال الشوط ، وليتأكد من أنه سيكون فى موقف قوى ومستقل وألا يكتفى بالاعتماد على مسلمى المدينة وحدهم عندما يصل الى المدينة ٠ وفى هذه الأثناء ، كان زعماء قريش على وعى بأن شيئا ما يجرى فعقدوا اجتماعا ووافقوا ـ بعد بعض المناقشات ـ على خطة أبى جهل أن يكونوا مجموعة من الشباب ، من كل قبيلة شاب ، فينهالوا على محمد ﷺ بسيوفهم فى وقت واحد فيتفرق دمه بين القبائل ، أى تشارك كل القبائل فى قتله ، فلا يمكن تحديد قاتل بعينه (٢٨) ٠ والجدير بالملاحظة أن عشيرة نوفل كانت ممثلة فى هذا الاجتماع ؛ اذ حضر عنها طعيمة Tu'aymah بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والأول هو أخو الرجل الذى سبق أن قدم الحماية (الجوار) لمحمد عند عودته من الطائف ، والثانى ابنه ٠ أكان هذا الرجل (المطعم بن عدى) قد مات أم فضل البقاء بعيدا عن الأحداث ؟ لا ندرى ٠ أما القبائل الأخرى التى شاركت فى هذا الاجتماع فهى : عبد شمس ، وعبد الدار ، وأسد ، ومخزوم ، وسهم ، وجمح ، وهى فى الحقيقة مكونة من المجموعتين (ب) و (ج) فى القائمة التى وردت فى فصل سابق ٠ والذى يبدو أنه ليس من سبب يجعلنا ننكر عقد مثل هذا الاجتماع ، ان الذين حضروه ـ كما يقول ابن اسحق ـ قد

(٢٧) Ibid; p. 365.

(٢٨) ابن هشام ، ٣٢٣ وما بعدها ٠

تحققوا ـ أن محمدا ﷺ كان يخطط لنشاطات معادية لهم· ومن ناحية اخرى، فان توالى الأحداث وضح أنه لم يكن هناك محاولة تتسم بالتصميم على قتل محمد ، وعلى هذا فالاتفاق الذى اتفق عليه زعماء قريش فى هذا الاجتماع كان أقل خطورة مما تؤكده المصادر · وعلى أية حال ، فان الخطر المحدق (الخطر وشيك الحدوث) ربما عجل برحيل محمد ﷺ (هجرته) ·

ومن الصـــعب أن نكون متأكدين من طبيعة هذا الخطر ومداه ، فالرواية عن الهجرة بشكل عام تتسم بوجود كثير من الزخارف المقحمة ، وحتى المراجع الأولى ربما لا تخلو من الاضــافات · ومن الممكن أن يـكون محمد ﷺ ـ بعد الاجتماع الذى عقده زعماء قريش ـ قد تعرض للازعاج والمضايقة فى مكة ، وأن كان الخطر الأعظم كما نفهم من تصرفات الرسول كان أثناء الطريق الى المدينة ، فالذى لا شك فيه أنه كانت هناك مرحلة فى الطريق يفترض أنه ان وصلها أصبح خارج زمام الحماية التى يقدمها له حماته فى مكة ، بينما لا يكون قد وصل الى المنطقة التى يكون فيها تحت حماية مسلمى المدينة ، اذ كان من الممكن أن يتعرض للقتل فى هذه المنطقة الانتقالية دون أن يتعرض قاتله للقتل ثأرا ، وربما كان أبو بكر الذى صاحب الرسول فى هجرته فى الوضع نفسه ؛ لأن عشيرته ـ فيما يبدو ـ قد تخلت عنه (٢٩) ·

ويروى ابن اسحق أن محمدا ﷺ ـ وقد تأكد أنه لابد مهاجر ـ عهد الى على بأن ينام مكانه حتى يظن أهل مكة أنه لازال نائما فى أمان ، ثم انسل هو ـ أى محمد ﷺ ـ ومعه أبو بكر بعيدا عن ملاحظة قريش الى كهف غير بعيد عن مكة الى الجنوب منها ، وفى الكهف قضى مع صاحبه يوما أو يومين حتى جاء الخبر من ابن أبى بكر أن قريشا قد كفت عن البحث عن الرسول ، فانطلق الرسول وصاحبه ومعهما عتيق أبى بكر واسمه عبد الله بن أرقط Arqat (*) على الجمال ، وفى المرحلة الأولى من

(٢٩) ابن هشام ، ٢٤٥ وما بعدها ·

(*) فى السيرة النبوية لابن هشام فى معرض الحديث عن هجرة الرسول : ابن أرقط ، وابن أريقط ، فكلاهما صحيح · (طبعة مكتبة الايمان ، جـ ٢ ، ص ٨٨) · (المترجم) ·

الرحلة تعمدا المسير فى الممرات النائيــة بعيدا عن الطرق المطروقة التى لم يسيرا فيها الا بعد أن ابتعدا عن مكة ، ووصلا ومعهما عبد الله بن أرقط بسلام الى قباء على حافة الواحة (المدينــة) فى ١٢ ربيــــع الأول (٣٠) الموافق ٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢ م ٠

وتؤكد آية مدنية مبكرة قصة الغار (الكهف) :

(الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجـــه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السيـــفلى وكلمة الله هى العليـــا والله عزيز حكيم (٤٠)) السورة رقم ٩ (التوبة) ٠

وهناك آية أخرى ربما تشير الى اجتماع قريش ، وان كنا غير متأكدين من ذلك ، والآية هى :

(واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين (٣٠)) السورة ٨ (الأنفال) ٠

وبوصول النبى ﷺ الى قباء بدأت المرحلة المدنية ، وهى المرحلة الثانية التى باشر فيها الرسول مهمته ٠

٦ ـ حصاد الحقبة المكية

كان ظهور الدين الجديد (الاسلام) هو الانجاز الكبير فى الحقبة المكية ، فالخطوط العريضة أو المفاهيم الأساسية لهذا الدين ـ يمكن ان يقال ـ انها اكتملت فى وقت الهجرة ٠ وان كانت معظم مؤسساته لازالت فى حالة لم تتطور فيها بعد . فالصلوات المفروضة لم تكن قد تحددت بشكل نهائى رغم أنها ـ بلا شك ـ عرفت فى المرحلة المكية ٠ ومن ناحية

---

(٣٠) ابن هشام ، ٣٢٥ ـ ٣٣٣ ٠

أخرى، فيبدو أن صلاة الليل كانت الى حد كبير منتشرة (رائجة) (٣١) . وكانت بقية أركان الاسلام في هذه الحقبة معروفة ، وهى : الصيام وايتاء الزكاة والشهادتان والحج ، وان كانت أقل تطورا الى حد ما مما حدث بعد ذلك · بل لقد شهدت الحقبة المكية الماما بالأفكار الأساسية عن الله سبحانه واليوم الآخر والجنة والنار ، وارسال الله سبحانه للرسل .

ويناقش بعض الباحثين الغربيين مدى صحة الروايات عن غالبية المتحولين الى الاسلام ، ومالوا الى التأكيد على أن معظم المتحولين كانت دوافعهم في الأساس مادية · وهذه مسألة من الافضل ألا نأخذ بها مادامت الأفكار الاسلامية تعتبر غريبة بالنسبة للغرب (يقصد أن الغربيين لم يفهموا روح الاسلام) · ربما كان صحيحا أنه كان هناك تحول قليل ، وقليل من التقوى الحقيقية بالمفهوم السائد في الغرب ، لكن هذا يرجع الى أن الأفكار الغربية لا يمكن تطبيقها على مظاهر الدين في الشرق الادنى . أما بالنسبة للمقاييس السائدة في الشرق الأدنى فربما كان التحول (للاسلام) والتقوى أمرين صحيحين ، فربما كان الاعلان عن الاسلام (دخول الاسلام) يعنى أمرا مهما بالنسبة للعربى في ذلك الوقت ، أكثر بكثير مما يعنيه لدى الغربى في أيامنا هذه · فالدوافع المادية غير بعيدة عن الدوافع الدينية وربما كانتا متكاملتين · حقا ، ان الأفكار الدينية من الضرورى أن تجعل البشر واعين بأوضاعهم العامة ككل وواعين بأهداف نشاطاتهم (أعمالهم) ، ففى حركة التفكير الدينى مع الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية يجعلها ــ أى الحركة ــ واعية بذاتها · وهذه الفكرة (عدم انفصال الدين عن الدنيا) غالبا ــ وربما دائما ــ تعد حقيقة واقعة في الشرق الأدنى · انها فكرة يراها الغرب غريبة · فغربة هذه الأفكار بالنسبة للغرب ــ على أية حال ــ لا يجب أن تعمى بصائرنا عن الحقيقة التى مؤداها أن الجوانب الدينية في الاسلام كانت دائما مرتبطة ارتباطا وثيقا بالجوانب الأخرى .

---

(٣١) كما تشير سورة المزمل (يا ايها المزمل (١) قم الليل الا قليلا (٢) نصفه أو انقص منه قليلا (٣) أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا (٤) ··) ·

ولأن هذا الدين الجديد قد ارتبط إرتباطا وثيقا بالمجتمعات غير البدوية في غرب شبه الجزيرة العربية ، فقد كان قادرا على احداث تغيير اجتماعي عميق . ففي مكة والمدينة كانت الأخلاق البدوية والنظرة البدوية – على أية حال – مناسبة تماما للظروف البدوية التي ثبت انها غير صالحة لاقامة مجتمعات مستقرة . وفي مكة ربما كانت المشكلة الرئيسية متمثلة في الفردية الأنانية ، أما في المدينة فقد كانت الحاجة الى قيام سلطة عليا تفرض العدل هي الأكثر وضوحا . وبمعنى من المعاني ، فان انجاز الاسلام العظيم هو مواءمة الأخلاق البدوية لتصبح صالحة للمجتمعات المستقرة ، وكان مفتاح ذلك هو وضع مبدأ جديد لتنظيم المجتمع . وحتى اليوم فان رابطة المجتمع اعتبرت هي رابطة الدم ، لكن هذه الرابطة الأخيرة تعتبر ضعيفة جدا في حالة المجموعات أو الجماعات الأكبر ، فالأصل المشترك للأوس والخزرج لم يمنع الثارات المريرة بينهما ، كما أن الولاء للمجموعة برهن على أنه وازع غير كاف للسلوك طالما أن النزعة الفردية في حالة نمو .

من الصعب أن نصيغ هذا المبدأ الجديد الذي أدخله الاسلام بشكل محكم ، لكن نواة هذا المبدأ هي فكرة (النبي) كمحور لتكامل المجتمع . ان الوحدة الاجتماعية الجديدة قد تضم عشائر مختلفة (قد تكون ذوات قرابة بعضها ببعضها الآخر أولا) ؛ لكنها تترابط معا بمقتضى الحقيقة التي مؤداها أن النبي قد أرسل لهم جميعا . وعلى هذا ، فان أفراد المجتمع يقع عليهم اطاعة أوامر الله لهم كما أوحاها الى نبيه . وعلى هذا وجد مبدأ التضامن ومبدأ السلطة العليا التي تعلو فوق الجماعات المتنافسة ، أعني النبي ﷺ أو – كما يمكننا أن نقول – كلمة الله . وتطور هذه الفكرة الجديدة يظهر واضحا في القرآن الكريم ، بازدياد استخدام كلمة (أمة) في الآيات التي نزلت في فترة متأخرة . خاصة في سياق الحديث عن اليوم الآخر ، حيث يبعث الله كل أمة ويحاسبها وهذا لا يمنع من أن يلقى كل (فرد) جزاءه من ثواب أو عقاب وفقا لما يستحقه ، وأشار القرآن الكريم الى (أمم) لم تصدق انبياءها :

﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون (٨٣) ﴾ السورة ٢٧ (النمل) .

وتضاد كلمة (أمة) كلمة (قوم) التى تعنى قبيلة tribe of people التى تشير الى مجموعة لا بربطها سوى صلة الدم . واستخدام كلمة (أمة) كوصف رسمي فى (دستور المدينة) (٣٢) مسألة جديرة بالملاحظة ، فالمؤمنون من قريش وبشرب ومن آمن معهم هم جميعا أمة واحدة .

ولا شك أن هذه المعانى والأفكار لم تتبلور تبلورا تاما الا بعد الهجرة بفترة ، لكن لابد أنها كانت حاضرة فى حالتها الجنينية عندما بدأ محمد ﷺ مفاوضاته مع رجال المدينة (بيعتي العقبة) ، فلابد أن محمدا ﷺ كان واعيا بأفكار ومعان (أيديولوجية) يمكن تطويرها لتكون أساسا لحركة التوسع العربى العظيمة ، وهذا يعد مقياسا لاتساع ادراكه لحاجات عصره ، وعظمة انجازاته خلال الحقبة المكية .

---

(٣٢) ابن هشام ، ٣٤١ .



الملاحـــق




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الملحق (أ)

الأحـــابيش

لم يدعـــم هـ · لامانس H. Lammens وجهة نظره الساخرة في مقاله عن « الأحابيش) والتنظيم العسكري في مكة ... » (١) بالمصادر · فقد رأى لامانس أن أهل مكة المناوئين لمحمد (ﷺ) قد كفوا عن ولعهم بحـــربه ، وأنهم كانـوا في شـــئونهم العســكرية يعتمدون بصـفة رئيسية على قوات الأحابيش المكونة من عبيد من الحبشة ومن الزنوج ، أما العمود الفقرى لهذه القوات فمن بدو يحملون رماحا كانوا أفضل قليلا من قطاع الطرق .

وهنــاك الكثير مما هو صحيح في أقوال لامانس ، خاصة تأكيده على أن الأحابيش لم يكونوا مجرد « حلفاء » « Confederates » كما ذهب الى ذلك فلهوزن Wellhausen . وعلى أية حال ، فقد غالى لامانس ـ لسوء الحظ ـ في الاتجاه المناقض لما ذهب اليه فلهوزن ، وكانت معالجته للمصادر معالجة غير علمية ، فقد رفضها ورضى أن ينســاق وراء أفكاره وأحكامه المسبقة ولم يخضع للمبادىء الموضوعية · ففي عبارة « أحابيش وعبيد أهل مكة » تعتبر (الواو) بين (الأحابيش والعبيد) واوا شارحة

(١) Les Ahabis et l'organisation militaire de la Macque, au siécle d'hégire. Arabe, pp. 237-94, journal Asiatique, 1916, pp. 423-82.

وليست واو اضافة (واو عطف) ، أى أن الأحابيش مرادفة للعبيد ، بينما فى عبارة « الأحابيش ومن أطاعهم من قبائل كنانة وأهل تهامة » ـ والضمير فى أطاعهم عائد لقريش ـ فان (الواو) فى عبارة « الأحابيش ومن أطاعهم » تضع لنا فاصلا حادا ، (أى تعد واو عطف) • لكن لماذا ؟ السبب هو أن لامانس يفترض صدق النظرية التى يحاول اثباتها .

ولكى نصل الى نظرة أكثر حيادا ، سيكون من المفيد أن نتعرض أولا للمصادر التى تناولت الأحابيش (ابن هشام والواقدى والطبرى) •

(أ) ففى سياق خروج أبى بكر الصديق من مكة وطلبه الحماية من ابن الدغنة (أو ابن الدغينة) يقال ان ابن الدغنة الذى كان من بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، كان فى ذلك الوقت هو « سيد الأحابيش ••• والأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة والهون ابن خزيمة بن مدركة وبنو المصطلق بن خزاعة » (٢) • أما سبب تسميتهم بالأحابيش ، فهو أنهم « تحالفوا » فى واد اسمه وادى أحبش Ahbash (٣) •

(ب) •• وعندما فعل أبو سفيان وشركاؤه فى القافلة ذلك (دفعوا مالا) وافقت قريش أن تحارب رسول الله بأحابيشهم ومن أطاعهم ـ اى أطاع قريشا ـ من قبائل كنانة وأهل تهامة (٤) • وفى كتاب المغازى للواقدى ، ص ١٩٩ « ومن تبعنا من الأحابيش » ، وفى المرجع نفسه ، ص ٢٠١ أن واحدا من الثلاثة كانوا « من بين الأحابيش » •• وكل هذا فى سياق الحديث عن غزوة أحد •

(جـ) وفى غزوة أحد « لما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر فى الأحابيش وعبدان أهل مكة » (٥) .

(د) « كان الحليس بن زبان Zabban (فى الطبعة التى بين أيدينا ـ مكتبة الايمان بالأزهر : زيان بالياء) أخو بنى عبد الحارث بن

---

(٢) ابن هشام ، ٢٤٥ •

(٣) ابن هشام ، ٢٤٦ وهناك قراءات أخرى لاسم هذا الوادى •

(٤) ابن هشام ، ص ٥٥٦ والطبرى ، ١٣٨٤ •

(٥) نفسه ، ٥٦١ •

عبد مناة وهو يومئذ سيد الأحابيش قد مر بأبى سفيان ، وهو يضرب فى شلق حمزة بن عبد المطلب ... » (٦) .

(هـ) من قصيدة لحسان بن ثابت فى غزوة أحد :

جمعتموها أحابيشا بلا حسب　　أئمة الكفر غرتم طواغيهـــا

وفى قراءة « بلا عدد » بدلا من « بلا حسب » وفسرت كلمة « حسب » هنا بمعنى « شرف » . والنص على أية حال غير مؤكد ، والتفسير أيضا غير مؤكد ، ومن هنا فلا قيمة كبيرة يمكن أن نخلص بها من طريقة استخدام الكلمة (٧) .

(و) وفى قصيدة كعب بن مالك :

فجئنا الى موج من البحر وسطه　　أحابيش منهم حاسر ومقنـــع
ثـــلاثة آلاف ونحن نصـــية　　ثلاث مئين ان كثرنا وأربع (٨)

والنصية هم خيار القوم .

(ز) وفى سياق الحديث عن غزوة الخندق (حصار المدينة المنورة) نقرأ : « ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسيال من رومه بين الجرف وزغابه فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من كنانة وأهل تهامة .. » (٩) .

(ح) وفى الحديبية كان الحليس بن علقمة (أو ابن زبان) هو سيد الأحابيش ، وهو من بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة فلما رآه

---

(٦) ابن هشام ، ٥٨٢ .
(٧) نفسه ، ٦١٣ .
(٨) ابن هشام ، ٦١٤ .
(٩) ابن هشام ، ٦٧٣ .

رسول الله (ﷺ) قال : « ان هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه ... » ، وقد تأثر الحليس بمنظر « الهدى الذى ساقه الرسول » فهدد قريشا بالانضمام الى محمد (ﷺ) بمن معه من الأحابيش ، اذا لم يسمح أهل مكة لمحمد بزيارة (١٠) البيت الحرام .

(ط) وفى قصيدة الأخزر بن لعط الدؤلى (فى الطبعة التى بين أيدينا من السيرة : « الدعلى ») نقرأ :

ألا هل أتى قصوى الأحابيش أننا رددنا بنى كعب بأفـــوق ناصل

حبسناهم فى دارة العبد رافع وعند بديل محبســـا غير طائل

ويفهم من القصيدة أنه لا حرب لأن الأحابيش بعيدون . والقصوى : انثى الأقصى وهو البعيد . بأفوق ناصل : من قول العرب بأفوق ناصل أى رددته خائبا ، والأصل فيه أن الأفوق هو السهم الذى انكسر فوقه أى طرفه الذى يكون من ناحية الوتر ، والناصل الذى ذهب نصله أى حديده الذى يـــكون فيه . ودارة العبـــد : الدار ، والدارة بمعنى واحـــد (١١) .

(ى) الأحابيش الذين كانوا فى مكة عندما فتحها محمد ﷺ كانوا من بين القليلين الذين قاوموا قوات المسلمين (١٢) .

وبالاضافة لما ذكرناه آنفا ، يمكن أن نضيف المراجع الآتية للوقائع السابقة على الهجرة .

(ك) بعد الوقائع التى أدت لحرب الفجار (بكسر الفاء) ، فان قريشـــا وقبائل أخرى من كنانة وأسد بن خزيمة ومن لحق بهم من الأحابيش وهم قبائل : الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وعضل والقارة

(١٠) ابن هشام ، ٧٤٣ ، الطبرى ١٥٣ وما بعدها ، الواقدى ، ٢٥٢ وما بعدها .
(١١) ابن هشام ، ٨٠٤ .
(١٢) المرجع السابق نفسه .

ودش والمصطلق من خزاعة ـ بسبب حلفهم مع بنى الحارث بن عبد مناة ـ ظلوا مستعدين تماما لهذا الصراع (١٣) .

(ل) قبل حربى الفجار ، كان حرب بن أمية زعيم قريش فى الحرب مع بكر بن عبد مناة بن كنانة . وكان الأحابيش أثناء هذه الحرب مع بكر الآنف ذكره وعقدوا حلفهم هذا على جبل يقال له الحبشى (بحاء مضمومة) ، ضد قريش وترجع تسميتهم بالأحابيش نسبة لهذا الجبل (١٤) .

من خلال ما اقتبسناه آنفا من المصادر ـ وهى مختلفة كثيرا عن المصادر التى رجع اليها لامانس ـ تبدو النتائج التالية مؤكدة بدرجة معقـــولة :

١ ـ ليس هناك ما يدعونا للافتراض بأن الأحابيش لم يكونوا عربا، بل ان هناك ما يؤكد أنهم عرب بالفعل . انظـــر ما أوردناه آنفـــا فى الفقرة (ى) على نحو خاص . واستنتاج لامانس قائم أساسا على أصل الكلمة ، لكن القول انها مشتقة من الحبش أو الأحباش نسبة الى الحبشة ، ليس هو الاحتمال الوحيد . وهناك الاشتقاق الذى أورده ابن هشام ، فقد تكون الأحابيش هى جمع أحبوش أو أحبوشة وتعنى مجموعة رجال ليســـوا من قبيـــلة واحـــدة (Lane) . وحتى اذا كانت مشـــتقة من (حبش) ، فان هذا لايعنى أن الأحابيش كانوا زنوجا فقد يكونون عربا من ناحية آبائهم ، مع احتمال أن تكون أمهاتهم زنجيات ، ومن هنا كانت بشرتهم داكنة . وعلى هذا فليست هناك أسباب ملزمة للاعتقاد بان الأحابيش كانوا عبيدا من الحبشة ، فهناك أدلة كثيرة لرفض ذلك .

٢ ـ لقد كان الأحابيش ـ بشكل واضح ـ تنظيما قبليا ، فكلمة (سيد) تطلق عادة على زعيم قبلى (١٥) . وعلى أية حـــال ، فان بعض

---

(١٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ١ ، ٨١ ، ج ٨ ، ١١ .
(١٤) الازرقى ، (تحقيق فستنفلد) ، ٧١ ، ١٤ .
(١٥) Lammans, Berceau, 208.

العبارات المستخدمة تشير الى أن الأحابيش لم يكونوا قبيلة بالمفهوم المعتاد أو مجموعة قبائل ، كعبارة « أحابيشهم » (١٦) • فالكلمة فى هذه العبارة تتفق مع المعنى الذى أورده لين Lane للأحبوشة ، واذا كان الأمر كذلك فقد يكون الأحابيش مكونين أساسا من رجال غير قبليين أصبحوا متحالفين مع القبائل الوارد ذكرها فى الفقرة (أ) • فهذه القبائل يمكن - بالكاد - أن تعتبر هى الحلفـــاء المعتادين لقبيلة قريش والتى ربما حاربت جنبا الى جنب مع الاسرات (القبائل) التى ارتبطوا بها • وكان بعض الحلفاء أشخاصا ذوى أهمية فى مكة ، مثل الأخنس بن شريق الذى طلب محمد (ﷺ) حمايته فى موقف من المواقف . أما عبارة (بلا نسب) (١٧) - ان كانت صحيحة - فهى تعنى ببساطة - تواضع الأصل (ذوو أصل متواضع) . وحقيقة أن ظهورهم للمرة الأولى كمناوئين لقريش (انظر الفقرة ل) تجعلنا نميل الى التأكيد أنهم كانوا مجموعة ضعيفة تشكل ما يشبه التنظيم القبلى ، فى المناطق المجاورة لمكة •

٣ - وأفعال ابن الدغنة يمكن أن تشير الى وضــع خاص له فى مكة ، لكن أهميته مغالى فيها فهو لم يكن فى الحقيقة مستعدا للعمل ضد قريش • وفى الفقرتين : (د) و (ح) نجد الحليس يتصرف كزعيم مستقل يتعامل مع قريش على قدم المساواة ومثل هذا التصرف قد يكون كافيــا لتوضيح ما اذا كانت العلاقة بين الأحابيش وقريش - مثــلا - مثل علاقتها ببنى بكر بن عبد مناة •

٤ - لقد كان لدى أهل مكة عبيد سود - ربما كان عددهم كبيرا - وقد اشترك هؤلاء العبيد فى المعارك ، ويبدو أن بعضهم كانوا يحاربون عن سادتهم (أو فى صف سادتهم) ؛ لكن الفقرة (ج) تشير الى وجود تشكيل عســكرى خاص بهم فى معركة أحد ، وهو تنظيم منفصل عن تنظيم الأحابيش • فالعبيد يعيشون فى مكة كما هو مفترض ، أما الأحابيش فيعيشون على بعد رحلة قوامها يومان من مكة (الفقرة أ) •

---

(١٦) الواقدى ، ٢٢٥ فهناك اشارة الى (احابيش) سفيان الهذلى •

(١٧) انظر الفقرة (هـ) انفا •

٥ ـ ولابد أن نتذكر امكانية الخلط فى بعض الفقرات بين معنى « الاثيوبيين ـ الأحباش) وهم رجال ليسوا من قبيلة واحدة ، و « رجال الأحباش » men of Ahbash ، فمثل هـذه الاشـتقاقات المزعومة . يفترض أنها مرتبطة بمؤرخين حوليين متأخرين ـ أتوا فى زمن لاحق .

٦ ـ مهما يكن أمر الأحابيش ، ومهما كان الغموض الدائر حولهم ، فلم يكونوا ذوى أهمية كبيرة فى المعارك المذكورة ، رغم أن عددهم قد يكون أضاف شيئا للصعوبات التى واجهها المسلمون · فالافتراض الضار (غير الصحيح) Wicked الذى ذهب اليه لامانس بأن قوة مكة كانت قائمة على جيش من العبيد ـ افتراض لا حقيقة له · فلم يكن تجار مكة الكبار مولعين بالحرب بل لقد كانوا يحاولون تحاشيها ، وان كان هذا لا يمنع من اتخاذهم الحيطة لأنفسهم عند الضرورة .



الملحق (ب)

التوحيد عند العرب والتاثيرات اليهـودية المسـيحية

ظل الكتـاب طوال جيل أو جيلين يتسـاءلون عن مدى امتـداد التأثيرات اليهودية والمسيحية على محمد (ﷺ) نفسه ، وكان الفرض المهم السائد بينهم — مع استثناءات بسيطة — أنه لم يكن بين العرب الذين دعاهم (*) محمد للاسلام « توحيد » • على أية حال ، لقد اتضح — بشكل متزايد — أن هذا الفرض غير صحيح • فالسور القرآنية التى نزلت فى فترة مبكرة ، تفترض أن العرب كانوا يعرفون فكرة التوحيد (الايمان باله واحد) وأنها ليست غريبة عليهم ، ولا كان القبول بها غريبا عليهم • وثمة أدلة أخرى تنحو الى التأكيد أن الحياة الفكرية فى شبه الجزيرة العربية بشكل عام وفى مكة بشكل خاص قد نفذت اليها فـكرة التوحيـد (عبـادة اله واحد مهيمن Supreme being) (١) •

ويقدم لنا مرجليوث D. S. Margoliouth فى مقاله عن أصول الشعر العربى the Origins of Arabic Poetry عددا من الأمثلة عن ورود فكرة التوحيد — كما نادى بهـا الاسلام بعد ذلك — فى الشعر الجاهلى • حقيقة لقد استخدم مرجليوث ذلك ليدلل به على أن الشعر الجاهلى موضوع (يشكك فى مصداقية نسـبة هذا الشـعر الى فترة ما قبل الاسلام) ؛ لكن التفسير الأبسط لذلك هو أن القرآن (الكريم) قدم بدوره

(*) انظر الملحق رقم (ج) عن الحنفاء •

(١) Nicholson, Lit. His. 139 f.

فكرة التوحيد . ومرة أخرى نجد أن تورى C. C. Torrey في كتابه « الأساس اليهودي للاسلام The Jewish foundation of Islam في مجال سوقه الأدلة لتأكيد فكرته - يقدم الادلة لاثبات العكس . فهو يقول : « ان القرآن بلغته العربية - كعمل عبقرى يعد انجازا عظيما لرجل عظيم (*) ، قد قام حقا على أسس كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية (أي اتخذ مادته منها) . فكل الأسلوب القرآني حتى بما يتضمنه من كلمات أجنبية وأعلام - كان شائعا مألوفا في مكة قبل ظهوره - أي ظهور القرآن الكريم » (**) (٣) .

وتورى - الى حد ما - يفكر في المصطلحات الدينية التي كانت شائعة على ألسنة اليهود المتحدثين باللغة العربية . لكنه من المؤكد أن كثيرا من هذه المصطلحات كان يستخدمها أيضا العرب الخلص . والآن ، فان وجود الألفاظ لابد أن يكون دليلا على وجود الأفكار التي تعبر عنها . على الأقل على نحو أسميه « التوحيد البدائي » أو الفج Vague monotheism وأقصد به التوحيد الذي لا يعبر عنه بممارسات عبادية محددة ، والذي لا يكون الوعي فيه كاملا بالفرق بينه وبين الوثنية .

وعلى هذا فالعلم الصحيح ، وكذلك النزاهة اللاهوتية التي ينبغي أن يتحلى بها المؤرخ تقتضي أن القضية المطروحة عن تأثير الأفكار اليهودية

(*) من الواضح أن المسلمين وعدداً من غير المسلمين يؤمنون أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون الا من عند الله سبحانه ، وقد أورد منتجمرى وات في كتابه Islamic revelation in the Modern World أن بعض المذاهب المسيحية باتت مقتنعة أن القرآن الكريم وحى ، وذهب وات في كتابه هذا أن الاسلام هو دين المستقبل . ترجم هذا الكتاب للعربية في سلسلة الالف كتاب الثاني (الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

(**) العبارة الانجليزية : Before he appeared on Scene والمقصود طبعا كما يفهم المسلمون (قبل نزوله) .

(٣) JRAS, 1925, pp. 417-49. خاصة ٤٣٤ وما بعدها .

والمسيحية (وربما غيرهما) على أهل مكة فى القرن السابع للميلاد ، وليس على محمد (ﷺ) نفسه (بل وأكثر من هذا على القرآن الكريم) — هذه النزاهة تقتضي منا أن نقول ان هذا التأثير غير مؤكد ، كما أنه قضية غير بسيطة ، أى لا يمكن اطلاق القول فيها على عواهنه ٠

ووجود هذا التأثير غير المباشر ، أو التأثير الناتج عن البيئة المشتركة لا يعني أن التأثير المباشر يجب انكاره تماما ٠ (المترجمان : **تشابه بعض الأفكار في الأديان الثلاثة يعني ان لها جميعا مصدراً واحداً هو الله سبحانه، ولا يعني ان أحد الأديان قد تأثر بالدينين الآخرين ، بالمفهوم الدنيوى لكلمة التأثر**) ٠ وعلى أية حال ، فالأفكار لو كانت في الهواء in the air (أى ليس لها بذور فى البيئة) لما استطاع محمد (ﷺ) أن يبلغها بسهولة للعرب (المترجمان : من المفهوم أن الاسلام دين عالمى نزل للعالمين ، عرب وغير عرب ، وحديث المؤلف هنا عن العرب فقط أمر اقتضاه السياق ولا أكثر) ، لذا فانه يبدو من الأفضل أن نفترض بشكل عام أنه لابد أن نتعامل مع تأثيرات توحيدية فى بيئة مكة ، وأن نفترض فقط أن التأثير المباشر لظهور داعية للتوحيد في هذه البيئة يعد دليلا جيدا على ذلك ٠ والجانب الرئيسى من هذا الدليل يتمثل فى الاشارة الى معلم يتحدث لغة غير عربية ، فى سورة النحل :

« قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين (١٠٢) ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين (١٠٣) ٠٠٠ » ٠

وتـــورى Torrey الذى بنى كثيرا من النتائج على هذه النقطة (ص ٤٣ وما بعدها) لاحظ أن محمدا (ﷺ) لم ينكر انه « التقى بمعلم من البشر (*) ، لكنه — أى محمد ﷺ — أكد على أنه تلقى تعاليم الاسلام من الله سبحانه » ٠ واذا افترضنا أنه كان لمحمد ﷺ مثل هذا المعلم ، فسيكون من الطبيعى جدا أن نربطه بشىء يبدو حقيقيا ، وبالتحديد علاقة القرآن

(*) لا نقر ان الرسول ﷺ التقى بمعلم من البشر تلقى عنى أصول الدين وتشريعاته . اما اللقاء العابر ببعض اللاهوتيين دون تلق فهو ممكن — (المراجع) ٠

الكريم بالقصص التوراتي وهو أمر ملحوظ في القرآن الكريم (*)
(المترجمان : التشابه او حتى التماثل ناتج عن ان المصدر واحد هو الله

(*) ويضرب المؤلف أمثلة من القصص القرآني المتشابه مع ما ورد في العهد القديم (التوراة) كالتالي .

(ـ) السورة ٣٧ (الصافات) :

« وان لوطا لمن المرسلين (١١١) اذ نجيناه وأهله أجمعين (١٣٤) الا عجوزا في الغابرين (١٣٥) ... الخ) » .

(ـ) والسورة ٢٦ (الشعراء) :

« كذبت قوم لوط المرسلين (١٦٠) اذ قال لهم اخوهم لوط الا تتقون (١٦١) انى لكم رسول أمين (١٦٢) فاتقوا الله وأطيعون (١٦٣) وما أسالكم عليه من أجر ان اجرى الا على رب العالمين (١٦٤) اتأتون الذكران من العالمين (١٦٥) وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم بل أنتم قوم عادون (١٦٦) قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين (١٦٧) قال انى لعملكم من القالين (١٦٨) رب نجنى وأهلى مما يعملون (١٦٩) فنجيناه واهله اجمعين (١٧٠) الا عجوزا في الغابرين (١٧١) ثم دمرنا الآخرين (١٧٢) وامطرنا عليها مطرا فساء مطر المنذرين (١٧٣) ... » ففى هذه الآيات ، والآيات السابقة نجد أن المرأة التى لم تنج من العذاب هى امرأة عجوز (فى الغابرين) ، بينما نجد فى آيات اخرى سنوردها فى السطور التالية أن التى لم تنج من العذاب هى زوجة لوط (المترجمان : ليس هناك تناقض بين الآيات ، فالآيات التى ذكرت عجوزا فى الغابرين لم تقل انها زوجته ، والآيات التى ذكرت انها زوجته لم تذكر انها هى العجوز (فى الغابرين) فما المانع أن تكونا شخصيتين منفصلتين ، وعلى أية حال نورد الآيات التى استشهد بها المؤلف ليؤكد أن زوجة لوط هى التى لم تنج) .

(ـ) السورة ٢٧ (النمل) :

« فانجيناه وأهله الا امرأته قدرناها من الغابرين (٥٧) » .

(ـ) السورة ٧ (الأعراف) :

« فانجيناه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين (٨٣) » .

(ـ) السورة ١٥ (الحجر) :

« الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين (٦٠) » .

(ـ) السورة ١١ (هود) :

« ... فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه مصيبها ما أصابهم .. (٨١) » .

(ـ) السورة ٢٩ (العنكبوت) :

« قال ان فيها لوطا قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين (٣٢) » .

ويواصل المؤلف قوله :

« ومرة أخرى فاننا لا نجد فى الاقتباسات الاربعة الأولى أى ادراك للصلة بين ابراهيم (الخليل) ولوط ، ومن ناحية أخرى فاننا فى النصوص الثلاثة الأخيرة نلمح ادراكا لهذه الصلة ، فالآية الأخيرة مسبوقة بآية تشير الى ابراهيم : =

سبحانه ، ولم يأت الاسلام ليهدم كل أفكار الدينين السابقين وانما ليصحح ما شابهما من فســـاد في الأفكار لكثرة تداول النصوص بين اللغات المختلفة ، ونســـبة بعض الأحبـــار والرهبـــان ما يكتبونه الى الله سبحانه ٠٠) ٠

والمسلم السني اذا تقبل هذه الملاحظة ـ اى وجود تطور بالزيادة فى المعلومات الواردة فى النص القرآنى ـ فربما يذهب مذهب أن الله سبحانه قد صاغ كلمات القرآن (الكريم) لتكون لمحمد (ﷺ) وأتباعه ، وربما بناء على هذا يذهب الى أن هذه القصص كانت معروفة بالفعل للبشر ، وأن الله سبحانه يركز على ما بها من عظات وعبر ، لكن هذا يتعارض مع الآية الكريمة :

« تلك من أنبـــاء الغيب نوحيهـــا اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين » السورة ١١ / هود / الآية ٤٩ ٠

= (ـ) « ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو هذه القرية ان أهلـــها كانوا ظالمين (٣١) » / العنكبوت ٠

وآية سورة هود مسبوقة بآية كريمة تشير الى ابراهيم :

« يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود (٧٦)» هود ٠

ـ وفى سورة الحجر :

« ونبئهم عن ضيف ابراهيم (٥١) » ٠

فاذا كان هناك مثل أو مثلان من هذا النوع لأمكن استيعابهما ، لكن الحقيقة أن هناك أمثلة كثيرة ؛ مما جعل الباحثين الغربيين يجدون صعوبة فى انكار أن معلومات محمد (ﷺ) عن هذه القصص كانت فى حالة تطور أو نمو ، وعلى هذا خلصوا الى انه استقى معلوماته من شخص أو أشخاص يعرفهم ٠ (المترجمان : ليس فى مجموعة الآيات التى استشهد بها المؤلف ولا فى غيرها ما يفيد تطور معلومات النبى ﷺ مادام هناك ايمان يقينى بانه يتلقى الوحى من الله سبحانه ، والقصص القرآنى ليس مقصودا فى حد ذاته وانما لما فيه من عظة وعبرة ، ومن هنا يرد المضمون بما يتمشى مع الحقيقة التاريخية وجوهر العظة أو العبرة فى الوقت نفسه ، ومرة أخرى ، فان التشابه بين بعض ما ورد فى العهد القديم (التوراة) وما ورد فى العهد الجديد (الانجيل) لا يعنى أن المسيح عليه السلام نقله من العهد القديم ، والقول نفسه ينطبق على القرآن الكريم ؛ فالتشابه ناتج عن أن المصدر واحد هو الله سبحانه ، ثم ان الإسلام أتى ليصحح بعض ما ورد فى الدينين السابقين باعتباره خاتم الأديان ، فالقرآن الكريم لم ينكر كل ما ورد فى الأديان السابقة وانما بعضه ، فاتحا ذراعيه لاستقبال كل الداخلين فى رحاب الله) ٠

وإذا أردنا أن نجمع بين تصـــديقنا لمحمد ﷺ كنبي من ناحية ، ووجود مصادر بشرية لمعلوماته ، فإن أمامنا ثلاثة احتمالات :

١ ـ ان محمدا ﷺ خلط بين القصة نفسها و « العظة » الكامنة فيها ، ولأن العظة أتته عن طريق الوحي ، فقد اعتبر القصة ، والعظة ، معا وحيا • (المترجمان : نورد الترجمة الأمينة لنعرف كيف يفكر المستشرقون وهذا أمر ضروري ، لكن القارئ الفطن أيا كان دينه يستنكر ذلك فكيف تكون العظة وحيا ، والقصة بشرية ؟! وبالتالي ، فان هذا الفرض غير قائم) •

٢ ـ وربما أتته القصة وحيا (*) بطريقة استشعارية •

٣ ـ وربما كانت الترجمات التي بين أيدينا للقرآن الكريم غير دقيقة خاصة كلمة (نوحي) التي تعني ايصال المعلومات بالوحي ، فقد تعني أيضا معنى مختلفا اختلافا يسيرا عن ذلك مثل (افهام العظة أو العبرة أو التعاليم الكامنة في هذه القصة أو بيان معناها) ، وربما كمنت الحقيقة بين الاحتمالين الأول والثالث • فالقصص القرآني دائما يتم الاخبار به انطلاقا من نقطة بعينها ، ويتم الاخبار به مرة أخرى بطريقة فيها تلميح أكثر more allusive وبطـــريقة أكثر ايجـــازا elliptic fassion . فعلى سبيل المثال ، فهذا القصص يبين كيف أن المناوئين للنبي الذين يرفضون رسالته سينطبق عليهم في النهاية أسوأ ما في القصة ، وكيف سيتم خلاص المؤمنين • وأيضا ، فان هذا القصص القرآني ككل ربما يحمل معاني أبعد ، وهو ان يوضح للعقلية العربية الواعية بالأنساب أن هذه الحركة الجديدة (الاسلام) لها أجداد (لها أصول) روحيون مشرفون • ليست هناك صعوبة كبيرة في القول ان الشكل المحكم لهذه القصص ومعناها البعيد ومقاصدها التي تقصد اليها ، قد وصلت لمحمد (ﷺ) عن طريق الوحي ، وليس نتيجة اتصاله بمصدر بشري مزعوم •

(*) النص : The stories may have come to him by Some Supernomral method of a telepathic character

وهي تفيد الوحي ولكن بأسلوب علماني : بوسيلة فوقية أو فوق طبيعية ، وفقا لشخصيته التليباثية (التي تستشعر عن بعد) •

There is no great difficulty in claiming that the precise form, the point and the ulterior significance of the stories Came to Muhammad by revelation and not from the communication of his alleged informant.

فالارتباك الذى تسببه مثل هذه الآيات لأولئك الراغبين فى التشكيك فى صدق محمد (ﷺ) ، لا يجب أن يصرف الانتباه عن الأهمية الضئيلة نسبيا للرسالة التى يريد أن يبلغها لهم أحد الموحدين . فمحمد (ﷺ) والمسلمون كانوا مهتمين بالأنبياء الأوائل السابقين عليه (أى على محمد ﷺ) (وكانوا - من المحتمل - يحاولون تحصيل مزيد من المعلومات عنهم) ؛ لأن ذلك - من ناحية - يعطيهم مزيدا من التشجيع والسلوى ، ولأن - وهذا هو الأساس - ذلك يعد بمثابة فخر بالأجداد (من قبيل فخر الانسان بمزايا أجداده) ، وقبل كل ذلك لأن الرسالة الأساسية للقرآن (الكريم) كانت بالفعل متغلغلة فى مجتمع مكة ، فتفاعل الشكل القرآنى المحكم (الدقيق precise) مع الوضع المعاصر له (القائم فعلا) والذى لم يكن ينقصه سوى دعوة نبى (النص : حدس النبوة (Prophetic intuition .

ما أخبر يهودى أو مسيحى محمدا أنه نبى (*) . ومن هنا فلكى نفهم الاسلام ، فان القضية الأساسية المطروحة هى بأى الوسائل ، والى أى مدى كانت الأفكار اليهودية والمسيحية قد تأقلمت فى الحجاز !



(*) تزخر سيرة ابن هشام وغيرها من كتب السيرة بيهود دخلوا فى الاسلام وبأحبار ورهبان تنبأوا بنبوته (فالراهب بحيرا مثلا) . (المترجمان) .

الملحق (ج)

الحنفـــاء

يذكر ابن اسحق (١) اربعة رجال من جيل ســـابق لجيل محمد (ﷺ) اتفقوا معا على ترك عبادة الأوثان وأن يقصدوا الحنيفية ــ دين ابراهيم (عليه السلام) • وابن قتيبة (٢) يذكر لنا ستة أشخاص كان الآخرون يسمونهم حنفاء ، منهم : أمية بن أبي الصلت ، وابو قيس بن الأسلت • كيف نتصرف ازاء هذه الاشارات ؟ ألا تدل على وجود نوع من التوحيد في شبه الجزيرة العربيـــة غير التوحيـــد اليهودى والتوحيد المسيحى (٣) ؟

لقد أراق المؤرخون أحبـارا كثيرة فى هذا الموضوع الخلافى منذ تناوله Sprenger وحتى الآن ، بحيث أصـــبح من المســـتحيل هنا حتى مجرد تلخيص وجهات النظر المختلفة ، ولابد أن نرضى انفسنا بالاكتفاء بأكثر جوانب الموضوع اتصالا بحياة محمد (ﷺ) (٤) •

واستخدام كلمة (حنيف) فى القرآن (الكريم) يصلح كمنطلق وثيق ومؤكد • فهنا نجد أن « الحنفاء » كانوا هم أتباع الدين العربى الأصلى والمثالى ، ولم يكونوا يمثلون مجرد (مذهب) أو (فرقة) أو

(١) ابن هشام ، ١٤٣ ــ ١٤٩ •

(٢) المعـارف ، ٢٨ ــ ٣٠ •

(٣) ابن هشام ، أيضا ، ٤٠ ، ١٧٨ ، ٢٩٣ •

(٤) F. Buhl, Art Hanif, EI, Caetani, Ann, I, pp. 181-192. R. Bell « Who were the Hanifs » the Muslim World. XX. 1930, pp. 120-124. N. A. Faris H. & W. Gidden. « The development of the meaning in the Koranic Hanif » in : Journal of the Palestine oriental Society, XIX, 1939, pp. 1-13.



جماعة انقرضت (٥) (النص : جماعة تاريخية historical) أو لم يكن لها وجود عند ظهور الاسلام • وما أظهره القرآن الكريم فى بواكير المرحلة المدنية ــ عندما كانت علاقة محمد ﷺ باليهود متوترة ــ هو أن المسلمين قد استعادوا دين ابراهيم (عليه السلام) فى شكله النقى ، بينما حرفه اليهود والنصارى (٦) • ويبدو أكثر وضوحا ، أن كل الاشارات الى الحنفاء فى المراجع المبكرة تعمد الى ايجاد الحقائق التى توضح ما ذكره القرآن (الكريم) ، ولا تذكر شخصا واحدا بالاسم يسمى نفسه حنيفا أو كان يبحث عن الحنيفية •

وهناك عدة أمثلة حقيقية على استخدام كلمة (حنيف) بالعربية قبل محمد (ﷺ) (رغم أنه ليس من السهل دائما أن نذكر أى هذه الأمثلة حقيقى وأيها موضوع أو زائف) ؛ لكنه استخدام مختلف ذو معان متباينة • والدارسون المحدثون الذين درسوا هذه المسألة ، يعتقدون أن الكلمة ــ بصفة أساسية ــ مستعارة من النبط Nabateans (*) فهى

(٥) Bell, op. cit.

(٦) Snouck, Hurgronje, Het Mekkaansche Fest, 29 ff. = Verspreide Geschriften, i, 22 ff.

(★) والنبط عرب من عبدة اللات وذى الشرى ، نقرأ في معجم المصطلحات الاثارية :

« قبائل عربية دخلت أرض أدوم جنوب فلسطين (فيما يعرف الآن بمملكة شرقى الاردن) فى القرن الخامس ق٠م وتركوا حياة الرعى الى حياة الزراعة ، ومن هنا عرفوا بالانباط أو النبط أى الذين يستنبطون الأرض من أجل الزراعة وجعلوا من سلع عاصمة لهم عرفها الاغريق باسم البتراء التى تقع فى جنوب البحر الميت ، وأسسوا مملكة فى القرن الثالث ق٠م٠ استمرت حتى حول الامبراطور تراجان أرضهم الى ولاية رومانية باسم الولاية العربية Provincia Arabia عام ١٠٦ م واتخذ الرومان من بصرى عاصمة لها ، حيث كشفت الابحاث المصمك (١٧٨٢ هـ) وقصر الشمسية (وهو معاصر لقصر المربع) •

وتتنوع واجهات المقابر النبطية فى أشكالها المعمارية ، بين الحجم الصغير والحجم الكبير ، وتغلب أسلوب وحدة زخرفية على أسلوب وحدة زخرفية أخرى ، وإضافة وحدات زخرفية جديدة ، الا انها بقيت فى جوهرها تحافظ على السمات الفنية الاساسية للأسلوب الهندسى التماثلى • وبالرغم من أن واجهة واحدة من هذه الواجهات لم تأخذ شكل التكوينات المنحوتة فى مقابر البتراء ، الا أن واجهات مقابر الحجر (مدائن صالح) بقيت تكتسب اهمية لا تخلو من نقوش مؤرخة بالاضافة الى فنونها وبذلك تمدنا بكثير =

في لغتهم تعني من يعتنق بعض فروع دينهم الشامي ـ العربي المتأثر ـ جزئيا ـ بالثقافة الهيلينية (٧) . وعلى أية حال ، فمسألة أصل الكلمة مسألة ثانوية ، وحتى اذا كانت الفكرة السابقة صحيحة فليس من الضروري ان هذا التحوير (التكييف) للهيلينية (*) يشكل أي إسهام حقيقي في تغلغل أفكار التوحيد في شبه الجزيرة العربية ، فما بالك اذا كانت فكرة أصل الكلمة كما ذكرناه سابقا ـ فكرة بعيدة الاحتمال .

ورغم أن الاشخاص الأربعة في رواية ابن اسحق لم يطلقوا على أنفسهم اسم الحنفاء ، الا أنهم مع هذا كان لديهم شعور (وعي) بطريقهم نحو التوحيد . واثنان من هؤلاء الأربعة من عشيرة أسد القرشية : ورقة ابن نوفل ابن عم خديجة بنت خويلد (رضى الله عنها) وعثمان بن الحويرث ، وكلاهما كان قد تحول للمسيحية ، رغم ان مسيحية هذا الأخير (عثمان) ـ على الأقل ـ كان لها مضامين سياسية . وآخر هو عبيد الله بن جحش كان متحالفا مع عشيرة عبد شمس وابنا لابنة عبد المطلب ، وقد تحول ـ بعد ذلك ـ للاسلام وكان من بين من هاجروا للحبشة ، وهناك ارتد للمسيحية ، والرابع هو زيد بن عمرو من عدى ، وقد ظل موحدا دون إنتماء محدد . ونجد في كتاب الأغاني مزيدا من المعلومات عن هؤلاء الرجال (٨) . وعلى هذا ، فعندما تتم ازاحة كل ما علق بالموضوع من بدع وسوء فهم ـ بطريقة موضوعية ، ستبقى الحقائق المسلم بها ، لكنها لا تعطينا رخصة كافية لاعادة صياغة الأحداث ، فلسنا متأكدين من وجود صلة بين الرجال الأربعة ، فان كانت هناك صلة ، فلابد أن يكون لهذه الرابطة بعد سياسى الى جانب البعد الدينى ، وفى

= من المعلومات الاثرية والتاريخية عن الأنباط أنفسهم ، مكتوبة بالخط النبطى . لمزيد من المعلومات ، راجع .
A. Jaussen and F. Savignac, Mission Archeologique en Arabic (Hereafter) Mission, Paris (1914), pp. 59-63.
(المترجمان) .

(٧) Faris, & Glidden, op. cit., p. 12.

(*) الاغريقية والهيلينستية كما هو معروف مزيج من حضارة الشرق والحضارة اليونانية .

(٨) عن المراجع ، انظر . Caetni. Loc. Cit.

هذه الحالة ربما لا يكون الأمر بعيدا عن محاولة عثمان السيطرة على مقاليد الأمور في مكة (*) . لكن قد يكون كل واحد منهم ـ ببساطة ـ قد اتخذ طريقه لهذا التوحيد بشكل مستقل . ومن الممكن أن نسلم بأن أحدا منهم لم يكن غائب الوعي تماما عن العوامل غير الدينية التي أدت للوضع المزعج الذي وصلت اليه حال بلادهم ، مع أنه من المحتمل أن يكونوا أكثر اهتماما بالعامل الديني .

ورغم الغموض الذي استمر يحيط بهؤلاء الرجال الذين ارتبط بهم مسمى الحنفاء ، الا أن ما نعرفه عنهم يعد كافيا بدرجة تجعلنا نعتبرهم عاملا اضافيا يوضح لنا الطريقة التي تغلغلت بها أفكار التوحيد في البيئة التي نشأ بها محمد (ﷺ) ، والتي جذبت بعض أكثر العرب تنورا . فهؤلاء المسمون بالحنفاء لم يكونوا هم وحدهم الذين انجذبوا لفكرة التوحيد ، لقد كان هناك آخرون بين أتباع محمد (ﷺ) الأوائل ، مثل عثمان بن مظعون وواحد على الأقل في المدينة المنورة هو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي الذي عارض الرسول (ﷺ) معارضة مريرة . وبالنسبة للدارس لحياة محمد (ﷺ) ، يعد الحنفاء ذوي أهمية لأنهم يقدمون برهانا على أن أفكار التوحيد كانت موجودة بالفعل في البيئة التي ظهر فيها ـ أي ظهر فيها محمد النبي (ﷺ) .



(*) عن هذه الواقعة يحدثنا هيكل في حياة محمد . يقول :

« وأما عثمان بن الحويرث ، وكان من ذوي قرابة خديجة ، فذهب الى بزنطية وتنصر وحسنت مكانته عند قيصر ملك الروم . ويقال : انه أراد أن يخضع مكة لحماية الروم وأن يكون عامل قيصر عليها ، فطرده المكيون فاحتمى بالغساسنة في الشام ، وأراد أن يقطع الطريق على تجارة مكة ، فوصلت الى الغساسنة هدايا المكيين : فمات ابن الحويرث عندهم مسموما » ـ (المترجمان) .

الملحق (د)

مبحث حول (تزكى)

ترجمة لفظ تزكى ، وغيرها من مشتقات الأصل [ز ك ا] (بصرف النظر عن زكاة) · كما ورد فى القرآن (الكريم) يثير بعض الصعوبات · فأحد الباحثين جعل لها مقابلا انجليزيا purify oneself اى تطهير النفس ، لكنه أضاف بين قوسين في الحواشي موضحا أن تطهير النفس يكون [بتقديم الصدقات almsgiving] (١) · وهناك باحث آخر جعل لها مقابلا بسيطا هو be charitable (٢) ، أي أحسن أو تصدق · واذا نحينا لفظ (زكاة) ، فان الجذر (زكا) ومشتقاته ورد فى القرآن (الكريم) حوالى ٢٦ مرة ، ومن المفيد أن نتناول ما هو مهم من هذه الأمثلة (المقصود الآيات القرآنية التي ورد فيها الجذر ومشتقاته) · انها تقع فى أربع مجموعات :

المجموعة الأولى : نجد فيها المعنى واضحا ، فهى كلها أمثلة للجذر الثانى زكى (بتشديد الكاف) المستخدم بمعنى « التبرئة من الاثم » Justify أو count just ، تماما بنفس معنى الكلمة الانجليزية فى الأناجيل · ففى مثل هذه الحالات نجد أن الفكرة التى يدور حولها السياق هى الا يزكى أحد نفسه ، وانما الله هو الذى يزكى من يشاء · وكل الاشارات هنا مرتبطة بالايمان بالأخرويات ، وكلها تشير الى اليهود فيما عدا الآية الأخيرة (سنورد الآيات فى السطور التالية) · لقد ارتبط

(١) Bell, translation of Quran.

(٢) J. Obermann- in the Arabic heritage, 1946, p. 108.

استخدام الكلمة بهذا المعنى بتوجيه انتقادات لليهود ، على النحو نفسه الذي وجهت الأناجيل (العهد الجديد) النقد لليهود :

« ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا ، أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » البقرة / الآية ١٧٤ .

« ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » آل عمران / الآية ٧٧ .

« ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا » ٤ (النساء) / الآية ٤٩

« والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض واذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » ٥٣ (سورة النجم) / الآية ٣٢ (*) .

وفي المجموعة الثانية يبين السياق أن الرسول (ﷺ) قد أرسله الله (ليزكي) الناس بمعنى يطهر Purify ، وتعود الآيات التي تستخدم الكلمة بهذا المعنى الى بواكير منتصف الحقبة المدنية (سنورد الآيات فيما يلي). فالآية الأولى في سياق خطاب لليهود ، والآيات الأخرى تشير الى محمد (ﷺ) . ومادام الرسول لا يمكنه أن يطهر الناس (يزكيهم) Purify بالمعنى نفسه الذي نقصده عندما نتحدث عن أن الله (سبحانه) هو الذي (يطهر) أو (يزكي) ، ومن هنا فاستخدامنا للفعل Justify لابد أن يعني (تزكية) الله سبحانه كنتيجة لبعثة محمد (ﷺ) ، وعلى النحو نفسه يجب أن يكون استخدامنا للكلمة الانجليزية purify ، وعلى أية حال ، فربما كان من الممكن أن يمتد معنى الكلمة ليصبح « التوجيه

(*) ارقام الآيات كما أوردها المؤلف مختلفة ولعله خطأ مطبعي — (المترجمان) .

نحو التزكية أو الهداية« to dired to Justification of Purification »،
ومن ناحية أخرى فانها قد تعنى (دفع زكاة) وهذا مناسب اذا لم تكن كلمة (الزكاة) قد أخذت معناها الاصطلاحي وان احتفظت بشيء من الارتباط « بوسائل التطهر أو التزكي » . وعلى هذا ، فحيثما تستخدم كلمة (يزكى) مرتبطة بالرسول ، ربما كان معناها (أن يتطهر بفرض الزكاة) :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » البقرة / الآية ١٢٩ .

« كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليهم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » البقرة / الآية ١٥١ .

« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . آل عمران / الآية ١٦٤ :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » السورة ٦٢ (الجمعة) / الآية ٢ .

أما استخدام أهل مكة (وربما فى المرحلة المدنية المبكرة أيضا) لكلمة (تزكى) وكلمة (التزكى) التى تمثل المجموعة الثالثة ، فمختلفة اختلافا يسيرا ، ولنبدأ بذكر الآيات :

« جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى » السورة ٢٠ (طه) الآية ٧٦ .

« ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى انما تنذر الذين يخشون ربهم

بالغيب وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فانما يزكى لنفسه والى الله المصير » السورة ٣٥ (فاطر) الآية ١٨ .

« فقل هل لك الى أن تزكى » السورة ٧٩ (النازعات) / الآية ١٨ .

« وما يدريك لعله يزكى » السورة ٨٠ (عبس) الآية / ٣ .

« وما عليك الا يزكى » السورة ٨٠ (عبس) الآية / ٧ .

« قد أفلح من تزكى » السورة ٨٧ (الأعلى) الآية / ١٤ .

« الذى يؤتى ماله يتزكى » السورة ٩٢ (الليل) الآية / ١٨ .

ففي الآيتين ٣ و ٧ من سورة عبس (المذكورة أعلاه) ، يبدو أن هدف الدعوة الاسلامية هو الوصول بالانسان الى رحلة التزكى التى تبدو — فى الغالب — مساوية للتحول للاسلام . وفى آية سورة طه (الواردة آنفا) وعد بجنات عدن لمن تزكى ، وشيء من هذا المعنى فى معظم الآيات الأخرى (التى أوردناها آنفا) . وعلى هذا ، فان التزكى يبدو دليلا على الامتياز الخلقى الذى هو جزء من الأهداف السامية للحياة .

وهذا متفق مع ما كتبه الباحثون الغربيون عن الاستخدام المتماثل للكلمات الشبيهة فى العبرية والآرامية والسريانية (٢) . فالجذر العربى (ز ك ا) يعنى فى المعنى الأساسى نما أو ازدهر ، لكن استخدامه قد تأثر بهذه اللغات الأخرى (المترجمان : ليس من الضرورى ذلك . فالزكاة مثلا مع أنها مال يدفعه المزكى ، الا أن المفهوم دينيا أنها تزيد فى حسنات المزكى ، فما نقص مال من صدقة ..) .

ففى هذه اللغات تعنى الكلمة المقابلة — على نحو خاص — الطهارة الأخلاقية . وغرابة هذه الفكرة بالنسبة للعرب — رغم أنها قد لا تكون وصلتهم عن طريق القرآن الكريم — قد تساعدنا فى تفسير استخدامهم لمصطلح مثل تزكى لوصف هذه الفكرة . انها منفصلة عن الطهارة كنسك

(٢) Jeffery, Vocabulary, S. V.

أو طقس (انظر : طهر في سورة المدثر : « وثيابك فطهر » الآية / ٤) التى كانت معروفة ـ بلا شك ـ في الديانة القديمة (السابقة على الاسلام) . وعلى هذا ، فان معنى (تزكى) ربما كان أفضـل ـ ليعبر عن (الصلاح righteousness) ـ ومن (الطهارة Purity) ؛ وبذلك ارتبط بالفصـل (زكى) الوارد في الآيـات التى أوردناها في المجمـوعة الأولى . وأية صعوبة في افتراض أن الناس كانوا « صالحين » بالفعل يمكن أن نتجنبها باعتبار الكلمة تعنى « القصد الى الصـلاح أو العمل ليكونوا صالحين aim at reightness واتخـاذه مبدءا » ؛ ولكن التمييز الكامن هنا ربما لم يكن موجودا بالنسبة للعرب .

وربما أضفنا لهذه المجموعة مثالين آخرين من الجذر الثانى ، هما :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم » السورة ٢٤ (النور) / الآية ٢١ .

« قد افلح من زكاها » السورة ٩١ (الشمس) / الآية ٩ .

وربما يكون معنى يتزكى في السورة ٩٢ (الليل) / الآية ١٨ (الذى يؤتى ماله يتزكى) هو المعنى نفسه في الآيات السابقة لكن لاحتمال انها في مرحلة مدنية متأخرة [المترجمـان : سـورة الليل مكية وليست مدنية] (*) ولأنها تتعرض للمال ، فربما كان المعنى الأقرب هو : الذى يقدم ماله ليطهر نفسه بالزكاة . وربما كانت تشير الى الزكاة كمصطلح فقهى لكن هذا لا ينفى معنى التطهر . فليس هناك آية مكية تشير الى رباط بين (تزكى) والمال ، بل العكس ، فهناك اشارة خاصة تبدو أحيانا في غير سياقها كما في حالة فرعون :

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجمين .

« اذهب الى فرعون انه طغى (١٧) فقل هل لـك الى ان تزكى (١٨) » السورة ٧٩ (النازعات) . وفي سورة عبس رغم الاشارة الى رجل (أو رجال) ثرى ، فقد ورد ذكر الرجل الأعمى كاحتمال ان يتزكى (يزكى) .

وهناك ايضا مجموعة رابعة (من الآيات) يسود فيها الاستخدام العربي الأصلي للجذر ، نوردها كما يلي :

« واذا طلقتم النسـاء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلـكم أزكى واطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون » البقرة / ٢٣٢ .

« وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منـه وليتلطف ولا يشـعرن بكم أحدا » السورة ١٨ (الكهف) / الآية ١٩ .

« فانطلقا حتى اذا لقيـا غلاما فقتله ، قال أقتلت نفسـا زكيـة بغير نفس لقد جئت شـيئا نكرا » السـورة ١٨ (الكهف) / الآية ٧٤ .

« قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » السورة ١٩ (مريم) / الآية ١٩ .

« فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم » السورة ٢٤ (النور) / الآية ٢٨ .

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصـارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون » السورة ٢٤ (النور) / الآية ٣٠ .

وهذا لا يضيف عناصر جديدة لمشكلتنا ولا يحتاج الى مناقشة .

أما كلمة زكاة فتتردد فى القرآن (الكريم) بمعناها الفنى (الفقهى) وعادة ما يقترن ذكرها بذكر الصلاة ، لكن هذا لا يمنع من استخدامها فى بعض الحالات فى غير معناها الاصطلاحى (الفقهى) كمعنى التميز الخلقى أو الصلاح ، أى بالمعنى الوارد فى المجموعة الأولى من الآيات التى أوردناها آنفا ، وأفضل أمثلة على ذلك تتضح من الآيات التالية :

« فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما» السورة ١٨ (الكهف) / الآية ٨١ .

« والذين هم للزكاة فاعلون » السورة ٢٣ (المؤمنون) / الآية ٤ (*) .

وربما كانت الآيات الواردة فى سورة مريم (١٣ ، ٣١ ، ٥٥) أمثلة أخرى على هذا الاستخدام ، لكن لارتباطها بالأنبياء فقد يكون معناها مما يندرج تحت المعنى الوارد فى المجموعة الثالثة التى أوردناها آنفا ، وهذه الآيات هى :

— « وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا » مريم / ١٣ .

— « وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا » مريم / ٣١ .

— « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » مريم / ٥٥ .

وأخيرا ، فان الآية ١٠٣ فى السورة رقم ٩ (التوبة) تبدو مرتبطة بالمعنى الأخلاقى للفعل زكى مرتبطا بالطهارة كطقس (طهر) . « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » فقد أمر الله محمدا أن يجمع من الناس صدقة لتطهيرهم وتنقيتهم (من الآثام) . ويميل بعض المفسرين الى معنى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، ثم انك بدفعهم الصدقة ستزكيهم » . وفى تفسير آخر أن التزكية والتطهير فكرتان متصلتان مترابطتان . وقد يكون

(*) ليس هناك ما يمنع ان يكون لفظ الزكاة فى هذه الآية الكريمة بمعناه الفقهى اى اداء الزكاة المعروفة — (المترجمان) .

المفسرون غير مصيبين فيما يتعلق بسبب نزول هذه الآية ، لكنهم بلا شك على حق فيما ذهبوا اليه من أن الفكرة كانت مهضومة ومستوعبة في الأفكار العربية السائدة • فلابد أن هؤلاء الناس قد فعلوا شيئا جعلهم يعتقدون أنهم في حاجة الى تطهير وتزكية ، فهم أنفسهم الذين يريدون التطهر والتزكيــة •

هذا التدقيق يوضح لنا أنه في الحقبة المكية ـ المجموعة الثالثة ـ ارتبط الفعل (زكى) باستخدام ديني يشير الى الصلاح والتقوى • وقد أورد الطبري (٤) تفسيرا لابن زيد جعل التزكي والاسلام شيئا واحدا • والاشارة للتزكي قد تكون مقرونة بالطهارة الخلقية (المعنوية) لكن ليس هناك ما يشير الى ارتباطها بالطهارة الطقسية (كالوضوء مثلا) ، ولم يكن التزكي في هذه المرحلة المكية مرتبطا بدفع الصدقات • وفي المرحلة المدنية كما هو واضح من آيات المجموعة الثانية ، ارتبط التزكي بدفع مال بقصد التطهر (التخلص من الذنوب) ، كما ارتبط الى حد ما بأمور طقسية • فما سبب تغير المعنى ؟ ما الذي ربط الزكاة بأداء مال ؟ ربما كانت هذه الكلمة مشتقة من الآرامية حيث الزكاة تعني التطهر وليس أداء مال • أم أن تغير المعنى كان بفعل اليهود المستقرين في شبه الجزيرة العربية ، أم أن هذا كان بفعل محمد نفسه (المترجمان : المؤلف هنا يسوق فروضا بعضها غير معقول ، منها أن محمدا ﷺ هو الذي غير المعنى ، وهذا محال لأن القرآن الكريم منزل من عند الله ، بل ان المؤلف يؤكد هذه الحقيقة في أكثر من موضع في كتابه هذا وكتبه الأخرى التي ترجمنا بعضها في هذه السلسلة ، بل ويذكر أن هناك اتجاها بين بعض المذاهب المسيحية بالاقرار بأن النص القرآني وحي من الله سبحانه . المسألة اذن لا تعدو مجرد فرض ينقضه المؤلف بعد ذلك • أما تشابه بعض الألفاظ العربية مع لغات سامية أخرى فليس غريبا ؛ لأن العربية من بين مجموعة اللغات السامية ، فهذا المشترك مشترك سامي) •

أما سبب هذا التغيير أو التحول في معنى الكلمة فمسألة صعب فهمها أيضـا (٥) ، فما الصلة بين (الصلاح والتقوى) و (الطهارة الطقسية) و (دفع المال كصدقات) ؟

---

(٤) تفسير الطبري •

(٥) انظر : Jeffery, Vocabulary, s.v.

ورغم ان (تزكى) لم يكن لها أرتباط فى معناها الاساسى بدفع الصدقات ، الا أن « فضيله » الكرم كانت سائدة فى آيات القران الكريم فى أوائل ما نزل من القرآن ، وكانت هذه الفضيلة تتضمن ـ بطبيعة الحال ـ دفع الصدقات ، لكن الباحث سنوك هرجرونك (٦) C. Snock Hurgronic ناقش مسالة أن دفع الصدقات فى الشرق لم تكن (وحتى الآن) لسبب اجتماعي او نفعي ولكن لأنها ام الفضائل او الفضيلة الرئيسية ، وربما كان سنوك مثاليا فى قوله ان الصدقات (أو الزكوات) مقصودة لذاتها فى الشرق • وفكرة التضحية بشىء نفيس فكرة عميقة فى الفكر السامى الذى شهد حتى التضحية بالابن البكر ـ وهذا بلا شك للاعتقاد فى أن مثل هذا العمل يرضي الاله ، وليعبر المضحى عن سعادته ببقية ممتلكاته • وبالنسبة لبشر هذا تفكيرهم ، فانه قد وقر فيهم ـ حتى العظام ـ أنه من الطبيعى مراعاة الصدقات (الزكوات) التى تعنى التنازل عن جزء من ممتلكاتهم أو أموالهم ، كنوع من أنواع التضحية لاسترضاء الاله Propitiatory sacrifice (٧) •

وربما لم يكن شيء من هذه الفكرة موجودا فى الآيات التى نزلت فى فترة مبكرة مشتملة على كلمة تزكى ولا حتى بمفهوم الكرم ، لكن آيات القرآن الكريم التى نزلت فى فترة متأخرة تحمل شواهد على انبعاث الأفكار القديمة عن الكلمة ، وهذا مرتبط بالتأكيد بتطور تطبيق شعيرة الزكاة فى الفترة الأخيرة من نزول القرآن ، وتؤكد الشواهد من الأحاديث النبوية ذلك •

ففى سورة البقرة (الآية ٢٧١) ، نفهم أن الصدقات التى يتم دفعها خفية تكفر السيئات ـ أى تمحوها ـ وفقا للتفسيرات المتداولة • وفى السورة نفسها حديث عن الصدقات كفدية يستعاض بها للتكفير عن تقصير ، كعدم حلق الشعر فى وقته أثناء شعيرة الحج ، ويرى لين Lane أن الفدية

---

(٦) The Nouvelle Biographie de Mohammad, in Revue de l'histoire des religion, xxx 167 f – Verspreide Geschriften, 1, 353 f.

وانظر ايضا : المراجع التى أوردها •

(٧) M. Gaudefroy-Demombynes; Muslim Institutions, 105.

تقدم ليحفظ المرء نفسه من الشر (اتقاء الشر) الذى ربما يلحق به نتيجة تقصير فى أداء المناسك أو الشعائر الدينية ، أو بسبب حنثه فى يمينه .

ومرة أخرى ، فان الزكاة الشرعية وفقا لهذه النظرية الأخيرة تفسر أن ما كان يدفع من الزكاة كان دائما جزءا من ممتلكات المزكى وليس ما يقابلها من مال (٨) . وهناك مرويات كثيرة عن التبرع بالمال أو دفع الصدقات تبين أن الشخص الذى لا يجد من يقبل صدقته هو شخص بائس سيىء الطالع (٩) ، وأكثر من هذا فما دفع الشخص صدقة أو هبة لا يجب أن يسترده (١٠) .

---

(٨) الغزالى ، احياء ، ج ٥ ، الفصل ٢ .

(٩) البخارى ، ونورد هنا الاحاديث الدالة على ذلك :

(ـ) حدثنا معبد بن خالد قال سمعت حارثة بن وهب قال سمعت النبى ﷺ يقول : « تصدقوا فانه يأتى عليكم زمان يمشى الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها يقول الرجل لو جئت بها بالأمس لقبلتها فأما اليوم فلا حاجة لى بها » . حدثنا أبو اليمان اخبرنا شعيب حدثنا ابو الزناد عن عبد الرحمن عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه فيقول الذى يعرضه عليه لا أرب لى » . حدثنا عبد الله بن محمد ابو عاصم النبيل أخبرنا سعدان بن بشر حدثنا أبو مجاهد حدثنا محل بن خليفة الطائى قال سمعت عدى ابن حاتم رضى الله عنه يقول : كنت عند رسول الله ﷺ فجاءه رجلان أحدهما يشكو العيلة والآخر يشكو قطع السبيل فقال رسول الله ﷺ أما قطع السبيل فانه لا يأتى عليك الا قليل حتى تخرج العير الى مكة بغير خفير وأما العيلة فان الساعة لا تقوم حتى يطوف أحدكم بصدقته لا يجد من يقبلها منه ثم ليقفن أحدكم بين يدى الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له ثم ليقولن له الم أوتك مالا فليقولن بلى ثم ليقولن الم أرسل اليك رسولا فليقولن بلى فينظر عن يمينه فلا يرى الا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى الا النار فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمرة فان لم يجد فبكلمة طيبة » . حدثنا محمد ابن العلاء حدثنا أبو أسامة عن يزيد عن أبى بردة عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب ثم لا يجد أحدا يأخذها منه ويرى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة تلذن به من قلة الرجال وكثرة النساء .

(١٠) البخارى . وفيما يلى الاحاديث الدالة على ذلك :



والجدير بالملاحظة أن الغزالى عندما أعد قائمة بالممتلكات التى تجب فيها الزكاة ، وضع على رأس القائمة : الماشية ثم المحاصيل ، ثم النقود والبضائع والمعادن · ونقول ان ما ذكر أولا (الماشية والمحاصيل) ، هو ما كان يستوجب التضحية Sacrifices وفقا لما ورد فى التوراة (*) ·

واذا كان صحيحا أن نذهب الى أنه فى المرحلة المكية كانت (تزكى) تعنى القصد الى الصلاح أو التقوى أو الطهارة المعنوية ، فان اختفاء هذا المعنى بعد ذلك قد يكون راجعا الى حقيقة أن هذه الطريقة فى التعبير عن فكرة جديدة بالنسبة للعرب أصبحت تتناقض مع المفاهيم الأقدم للطهارة الطقسية ·········· · لقد ربط القرآن الكريم المثالية الأخلاقية بالأوامر الالهية وبالتالى بالحكم الالهى ، لكن اعادة تأكيد ملحوظة أن الطهارة الطقسية (بمعناها الطقسى) قد تفسد هذا الرباط · ومن هنا ، فان (تزكى) قد مالت الى الانزواء قبل الحنيفية والاسلام (**) ·

---

* حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا هشام وشعبة قالا حدثنا قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال النبى ﷺ : « العائد فى هبته كالعائد فى قيئه » · حدثنا عبد الرحمن بن المبارك حدثنا عبد الوارث حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ « ليس لنا مثل السوء الذى يعود فى هبته كالكلب يرجع فى قيئه » · حدثنا يحيى بن قزعة حدثنا مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول حملت على فرس فى سبيل الله فأضاعه الذى كان عنده فأردت أن أشتريه منه وظننت انه بائعه برخص فسألت عن ذلك النبى ﷺ فقال : « لا تشتره وان أعطاكه بدرهم » ـ (المترجمان) ·

(★) هذا مجرد صدفة ولا يعنى أى شىء ، فالبخارى فى صحيحه مثلا لم يبدأ بالماشية وانما كان تناوله كالآتى : باب وجوب الزكاة ، باب الورق ، باب الابل ، باب الغنم ··· أى انه بدأ بالورق ـ (المترجمان) ·

(★★) المعنى غير واضح · النص :
Hence, Tazakka tended to fade out before hanifiyah and Islam.

انظر ، ص ٧٦ من النص الانجليزى ·

الملحق (هـ)

كثير من الحقائق الأساسية التى أوردها الكتاب المسلمون الأوائل يمكن اعادة تنظيمها فى جداول . فأسماء المسلمين التى سأوردها فى الجداول التاليـة هي ما أورده ابن سعد فى المجلدين الثالث والرابع ، أما أسماء المشركين فهى من قوائم القتل والأسرى فى بدر ، (Caetani, Ann, i, pp. 512-517) بالاضافة الى عدد قليل ورد فى المصادر الأساسية كأعداء للرسول (ﷺ) . ويضم الجدول التالى المعلومات التالية :

- قبيلة الأم ، وقد حصلنا على المعلومات بهذا الشأن من ابن سعد ، وفى حالة ما اذا كان الشخص حليفا أو عتيقا ، فمن الطبيعى الا يقدم لنا هذه المعلومة حتى لو كانت معروفة .

- السن - والمقصود السن وقت الهجرة ، وغالب ما يتم حسابها من بيانات أو معلومات أخرى أوردها ابن سعد ، وغالبا ما يكون هذا البيان غير دقيق .

- ترتيبه فى قائمة أوائل المسلمين ومصدرنا فى هذا كيتانى Caetani (Ann, i 229) وابن هشام (٦٢ - ٦٥) ، والاشارة E فى العمود تشير الى أن الشخص المدرج أمامه هذه الاشارة كان أسبق اسلاما من المدرجين فى القائمة .

- الرمز Ab يشير الى الرقم فى قائمة كيتانى الأولى للمهاجرين الى الحبشة . (من كيتانى وابن هشام ، ٢٠٨ وما بعدها) .



ـ الرمز AB يشــير الى الرقم فى قائمة كيتانى الثانية عن المهاجرين (من كيتانى ، ٢٧٧ وابن هشام ٢٠٩ ـ ٢١٥ بعد حذف الأسماء الواردة فى القائمة الأولى) •

ـ الرمز R يشير الى الرقم فى قائمة كيتانى بالنسبة للمهاجرين الذين عادوا (كيتانى ، ٢٨٣ ، وابن هشام ٢٤١ ـ ٢٤٣) ، والرمز SH يشــير الى من عاد فى احـدى السفينتين (ابن هشــام ٧٨١ ـ ٧٨٦) والرمز X على من عاد ولا ندرى عن عودته شـيئا والذى لم يشهد بدرا كمســلم •

ـ الرمز H يشير الى الرقم فى قائمة كيتانى عن المهاجرين للمدينة (كيتانى ، وابن هشام ٣١٦ ـ ٣٢٣) •

ـ الرمز B ، المشاركة فى غزوة بدر : بالنسبة للمسلمين الرقم فى قائمة كيتانى (كيتانى وابن هشام ٤٨٥ ـ ٤٩١) و PK و PP تعنى أن هذه الأسماء موجودة فى قوائم كيتانى عن قتلى المشركين PK وأسرى المشركين PP . (المعلومات من كيتانى وابن هشام ، ٥٠٧ ـ ٥١٥) و P تعنى أنه حضر الغزوة كمشرك • و IS تشير الى أن ابن سعد ذكر الشخص كمهاجر للحبشة حضر بدرا • وعلامة النجمة ⁕ تشير الى أن الشخص لابد أن يكون موجودا فى هذه القائمة ، رغم أنه لأسـباب عادة ما تكون واضحة لم يأخذ رقما فى قائمة كيتانى • مثال : قائمة كيتانى الثانية عن المهاجرين للحبشة لا تضم الأسماء التى وردت فى قائمته الأولى ، رغم وجودها فى قوائم ابن هشام التى اعتمد عليها كيتانى فى قائمته الثـــانية •

بالاضافة للرموز التالية :

m = موالى ، تابعين أو عتقاء ، (وجعلنا لها الحرف العربى م)

h = حليف (وجعلنا لها الحرف العربى ح) •

h/Tamim = حليف من قبيلة تميم (وجعلنا مقابلا لها : ح تميم) •



	قبيلة الام	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة الى الحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
المسلمون محمد (ﷺ)	زهرة	٥٢	—	—	—	—	★	١
حمزة	زهرة	٥٦	—	—	—	—	٤٩	٢
علي بن ابي طالب	هاشم	—	E	—	—	—	★	٣
زيد بن الحارث	طيء	٤٢ ـ ٤٧	E	—			٥٠	٤
ـ ابو مرثد الغنوى (حليف)		٥٤					٥١	٧
مولى محمد (ﷺ) -Anasah							٥٣	٥
ـ ابو كبشة (مولى)							٥٤	٦

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
ـ صنائع سكران								IS
العباس بن عبد المطلب	نمر	٥٥ ؟						P. ?
جعفر بن ابى طالب	هاشم		٢٤		I	sh		
عقيل بن ابى طالب	هاشم	—	—	—	—	—	—	—
نوفل بن الحارث بن عبد المطلب	حارث بن F							PP.
ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب	حارث بن F	٥٧ ؟	—	—	—	—	—	
عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب	حارث F							P. ?

	قبيلة الأم	السن	E الاسبقية	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدنية	B من شهد بدرا
أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب	حارث بن F							P. ?
الفضل بن العباس	عامر بن صعصعة							
جعفر بن ابى سفيان بن الحارث	هاشم							
الحارث بن نوفل بن الحارث	أزد							
عبد المطلب بن ربيعة	هاشم							P. ?
عتبة بن ابى لهب	عبد شمس							P. ?
معتب بن ابى لهب	عبد شمس							P. ?

	قبيلة الأم	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
اسامة بن زيد بن الحارثة / مولى بني هاشم		٩						
ـ ابو رافع								
ـ سلمان الفارسي								
الوثنيـون								
عقيل بن ابي طالب								PP.
طالب بن ابي طالب								
ابو لهب بن عبد المطلب								
المطلـب **المسلمون**								

	قبيلة الام	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب	ثقيف	٦١	٧				٥٥	F ٩
طفيل بن الحارث بن المطلب	ثقيف	٣٨					٥٦	١٠
الحسين بن الحارث بن المطلب	ثقيف						٥٧	١١
مسطح بن عثاثة بن عباد	المطلب (وامها من تيم)	٢٢					٥٨	١٢
المطلب مشركون								
السائب بن عبيد بن عبد يزيد								PP.
نعمان بن عمرو بن القماة								PP.

	قبيلة الأم	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
عبيد بن عمرو بن (اللماة)								PP.
عقيل بن عمرو (حليف)								PP.
تميم بن عمرو (حليف)								PP.
ابن تميم بن عمرو (حليف)								
تيم مسلمون								
ابو بكر بن ابى قحافة بن عامر	تيم	٥٠	E				★	٤٥
طلحة بن عبيد الله بن عثمان	حضرمية	٢٦ ـ ٢٨	E				٤٧	٤٩
ـ صهيب بن سنان (مولى)		٣٢	٤٥				٤٨	٤٨

	قبيلة الأم	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
ـ عامر بن فهيرة (مولى)			٣٥					٤٧
ـ بلال بن رباح (مولى)								٤٦
الحارث بن خالد بن صخر	تيم				٣٢	سفينة		
عمرو بن عثمان بن عمرو					٣٤	×		
تيم مشركون								
عمير بن عثمان بن عمرو								PK
عثمان بن مالك بن عبيدة								PK
مالك بن عبد الله بن عثمان								PK

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
عمرو بن عبد الله بن جدعان								PK
مسافع بن عياض بن صخر بن عامر								PP.
– جابر بن الزبير								PP.
عبد الله بن جدعان بن عمرو		مات						مات
زهرة / المسلمون								
عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف	زهرة	٤٣	E	٧	×	١١	٦٢	٣٧
سعد بن ابى وقاص بن وهيب	عبد شمس	١٦ – ٢٩	E					٣٨
عمير بن ابى وقاص	عبد شمس	١٤	١٣	١٣				٣٩ K

	قبيلة الأم	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة الى الحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
ـ عبد الله بن مسعود (حليف)	زهرة (حليف)	٢٩ ـ ٣٧	١٤	١٧ ؟	٢٩	١٣		٤١
ـ المقداد بن عمرو (حليف)		حوالي ٣٧			٣١	١٢		٤٠
ـ خباب بن الارت (حليف)	خزاعة	٣٦	١٢					٤٤
ـ ذو اليدين عمير بن عبد عمرو	زهرة	٢٨ +						٤٣ K
ـ مسعود بن الربيع (حليف)		٣٠ +	١٥					٤٢
عامر بن ابى وقاص	عبد شمس				٢٦	سفينة		
المطلب بن ازهر بن عبد عوف	مطلب		٣٢		٢٧	X		
طليب بن ازهر	مطلب				IS			

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة الى الحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
عبد الله بن شهاب الأصغر	خزاعة (ح زهرة)	مات			IS			
عبد الله بن شهاب	خزاعة (حليف)	مات		٣٠	٣٠	سفينة		
ـ عتبة بن مسعود (حليف)	زهرة (حليف)							
ـ شرحبيل بن حسنة (حليف)	جمح	٤٩			٥٥	X		
ـ زهرة / المشركون								
عبد الله الخناس بن شريق (حليف ثقيف)								

	قبيلة الام	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
عدى / المسلمون								
عمر بن الخطاب بن نفيل	مخزوم	٤٣	E	٧	★	١١	٦٢	٣٧
زيد بن الخطاب	اسد						٣٤	٥٦
سعد بن زيد بن عمرو بن نفيل	خزاعة	٢٠ ـ ٢٩	٨				٣٩	٦٨
عمرو بن سراقة بن معتمر	جمح						٣٥	٥٨
ـ عامر بن ربيعة (حليف)			٢١	١١	★	٢٧	٢	٦٣
عمرو بن عقيل بن ابى بكير (حليف كنانة)		٣٢	٤٢				٤٤	٦٥ K
ـ خالد بن ابى بكير (حليف كنانة)		٣٠	٤٠				٤٥	٦٦

ر	قبيلة الأم	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	A الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
ـ اياس بن ابى بكر (حليف كنانة)			٤٣				٤٣	٦٧
ـ عامر بن ابى بكير (حليف كنانة)			٤١				٤٦	٦٤
ـ واقد بن عبد الله (حليف تميم)			٣٩				٤٠	٦٠
ـ خولة بنت ابى خولة (ح مذحج)							٤١	٦١
ـ مهجع بن صالح (مولى عمر)								
نعيم بن عبد الله بن اسد	عدى		٣٤					
معمر بن عبد الله بن نضلة	العدوى				٧١	سفينة		
عدى بن نضلة بن عبد العزى	سهم	ميت			٧٣	مات		

	قبيلة الام	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
عروة بن ابى اثاثة بن عبد العزى	عنزة وامها سهم				٧٢	مات		
مسعود بن سويد	عدى							
عبد الله بن سراقة	جمح						٣٦	٥٩ ؟
عبد الله بن عمر بن الخطاب	جمح	١٠ ـ ١١						
خارجة بن حذيفة بن غانم	عدى						...	
النعيم بن عدى بن نضلة					٧٤	X		
مالك بن خولة							٤٢	٦٢
الحارث بن فهر / مسلمون								

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H من الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
ابو عبيدة بن الجراح	الحارث	٣٩ – ٤٠	١		٨٢	٣٦		٨٠
سهيل بن بيضاء	الحارث	٣١ – ٣٢		١٥	★	٣٨		٨٢
صفوان بن بيضاء	الحارث							٨٣ K
معمر بن ابى السرح (او عمرو)	عامر							٨٤/٩٠
حاطب بن عمرو بن أبى السرح								٨٦
عياض بن ابى زهير	الحارث				٨٦	X		٨٧ ؟
عمرو بن ابى عمرو (من بنى محارب ابن فهر)		٣٠						
سهل بن بيضاء	الحارث							PP. ؟

	قبيلة الام	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
عمرو بن الحارث	عامر				٨٥	٣٧		٨١
عثمان بن عبد الغنم	زهرة				٨٧	X		
سعيد (ابو سعد) بن عبد اليس					٨٨	X		
الحارث بن عبد القيس					٨٩	سفينة		
عارث بن عبد غنم (السهمى ؟)					٩١	X		
الحارث بن فهر / مشركون								
الطفيل بن ابى قنيع								PP.
عقبة بن عامر بن جحدم								PP.

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
ـ شافع (حليف)								PP .
عامر / المسلمون								
ابو صبرة بن ابى رهم بن عبد العزى	هاشم	—	—	١٣	★	٣١	٦٤	٧٥
عبد الله بن مخرمة بن عبد العزى	كنانة	٢٨ ـ ٢٩	—	IS	٧٥	٢٩	—	٧٦
حاطب بن عمرو بن عبد شمس	اشجع	—	١٧	١٦	★	سفينة		٨٩ ؟
ـ عبد الله بن سهيل بن عمرو	نوفل	٢٥ ـ ٢٦	—	—	٧٦	٣٠	—	٧٧
ـ عمير بن عوف (مولى سهيل)								
وهب بن سعد بن ابى سرح	الشعر	٣٢	—	—	—	—	—	٨٥
ـ سعد بن خولة (مولى سليط بن عمرو)	اليمن	—	١٦	—	٧٧	X		

	قبيلة الام	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
السكران بن عمرو	خزاعة	ميت	—	—	٧٨	٣٣	ميت	—
مالك بن زمعة	-	—	—	—	٨٠	مدينة		
عبد الله بن قيس (ابن أم مكتوم)	مخزوم	--	—	—	—	--	—	—
عامر / المشركون								
سهيل بن عمرو بن عبد شمس								PP.
عبد بن زمعة بن قيس بن عبد شمس								PP.
حبيب بن جابر								PP.
السائب بن مالك + ٢ متحالفين								PP.

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
اســد / المسلمون								
الزبير بن العوام بن خويلد	هاشم	٢٧ ـ ٢٨	E	٥	★	٧	٦٣	٣٢
ـ حاطب بن ابى بلتعة (حليف)		٣٥						٣٣
ـ سعد (مولى حاطب)								٣٤
سائب بن العوام بن خويلد	هاشم							
خالد بن حزام بن خويلد	أسد	مدت			IS	مات		
الأسود بن نوفل بن خويلد	عبد شمس				١٥	سفينة		
عمرو بن امية بن الحارث	تيم				١٧	مات		

	قبيلة الام	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R انعائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
يزيد بن زمعة بن الاسود	مخزوم				١٦	X		
اسد / المشركون								
زمعة بن الاسود بن المطلب								PK
الحارث بن زمعة								PK
عقيل بن الاسود								PK
ابو البختري (العاص) بن هشام ابن الحارث								PK
نوفل بن خويلد								PP.
السائب بن ابى حبيش								PP.

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
الحويرث بن عبلد								PP.ا
عبد الله بن حميد								—
حكيم بن حزام بن خويلد + ٢ متحالفين ، وتابع واحد								
نوفل / المسلمون								
عتبة بن غزوان		٤٠			١٤	٦	٦٨	٣٠
خباب بن الارت (موالى)		٣١					٦١	٣١
نوفل / المشركون								
الحارث بن عامر بن نوفل								PK

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
طعيمة بن عدى بن نوفل								PK
عدى بن الخيار بن عدى بن نوفل								PP.
المطعم بن عدى بن نوفل + ٢ حلفاء + تابع واحد								مات ؟
عبد شمس / مسلمون								
عثمان بن عفان بن أبى العاص	عبد شمس	٣٩ـ٤٦	E	١	★	١	٦٩	١٣
أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة	كنانة	٤١ ـ ٤٢	٣٨	٣	★	٣	٦٦	١٤
سالم (مولى أبى حذيفة)	—	—	—	—	—	—	٦٧	١٥

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
عبد الله بن جحش/حليف/خزيمة	هاشم	٣٨ـ٤٦	٢٢	--	٧	٥	٤	١٧
ابو يزيد بن رقيش/حليف/خزيمة	—	—	—	—	—	—	١٤	٢١
ـ عكاشة بن محصن/حليف/خزيمة		٣٣					٧	١٨
ابو سنان بن محصن/حليف/خزيمة		٣٥						٢٢
ـ سنان بن ابى سنان		١٥						٢٣
ـ شجاع بن وهب/حليف/خزيمة		٢٩ـ٣٧			ابن سعد		٨	١٩
ـ عقبة بن وهب /حليف/خزيمة							٩	٢٠
ـ ربيعة بن اكثم/حليف/خزيمة		٣١					٢٠	٢٥

تابع عبد شمس / مسلمون	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
- محرز بن نضلة/حليف/خزيمة		٢٩_٣٢					١٣	٢٤
- أربد بن حميرة/حليف/خزيمة							١٠	٢٩
- مالك بن عمرو/حليف/سليم							١٧	٢٦
- مدلاج بن عمرو/حليف/سليم							١٩	٢٧
- ثقف بن عمرو/حليف/سليم								٢٨
خالد بن سعيد بن العاص	كنانة		٣٦		٥	السفينة		
عمرو بن سعيد	مخزوم				٢	السفينة		

تابع عبد شمس / مسلمون	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
ـ ابو احمد بن جحش/حليف/خزيمة	هاشم		٢٣		ابن سعد		٥	
عبد الرحمن بن رقيش/حليف/خزيمة								
ـ عمرو بن محصن/حليف/خزيمة							١٦	
ـ قيس بن عبد الله/حليف/خزيمة					١٠	س	١٥ ؟	
ـ صفوان بن عمرو/حليف/سليم							١٨	
ـ ابو موسى الاشعرى/حليف					١٣	سفينة ؟		
ـ معيقب بن ابى فاطمة/حليف					١٢	سفينة ؟		
ـ صبيح ، مولى ابى احيحة								
							٢١	٢١٦

تابع ـ عبد شمس / مسلمون	قبيلة الام	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
ـ الزبير بن عبيدة	—	—	—	—	—	—	٢٢	—
ـ تمام بن عبيدة	—	—	—	—	—	—	—	—
ـ محمد بن عبد الله بن جحش	—	—	—	—	—	—	٢٤	—
عبد شمس / مشركون	—	—	—	—	—	—	—	—
حنظلة بن ابى سفيان بن حرب بن امية	—	—	—	—	—	—	—	PK
عبيدة بن سعيد بن العاص بن امية	—	—	—	—	—	—	—	PK
العاص بن سعيد بن العاص بن امية	—	—	—	—	—	—	—	PK
عقبة بن ابى معيط بن ابى عمرو بن امية								PK

تابع عبد شمس / مشركون	قبيلة الام	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
عتبة بن ربيعة بن عبد شمس								PK
شيبة بن ربيعة بن عبد شمس								PP.
الوليد بن عتبة بن ربيعة								PK
عمرو بن ابى سفيان بن حرب بن امية								PK
الحارث بن ابى عمرو								PK
ابو العاص الربيع بن عبد العزى								PP.
ابو العاص بن نوفل بن عبد شمس + ٨ حلفاء + ٤ اتباع								PP.

تابع عبد شمس / مشركون	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R الخالدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
ابو سفيان بن حرب								
مخزوم / مسلمون								
ابو سلمة بن عبد الاسد بن هلال	هاشم	—	٢	٨	★	١٤	١	٥٠
الارقم بن عبد مناف بن اسد	خزاعة	٢٦ـ٣٤	٣	—	—	—	—	٥٢
شماس بن عثمان بن الشريد	عبد شمس				٣٠	١٦		٥١
ـ عمار بن ياسر / حليف / ابو حذيفة		٣٦ ؟	٤٤		٩٠	١٩		٥٣
ـ معطب بن عوف/حليف/خزاعة		٢١			٤١	٢٠		٥٤

تابع مخزوم / مسلمون	قبيلة الام	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
- عياش بن ابى ربيعة بن المغيرة	تميم		١٨		٤٠	١٨	—	—
- سلمة بن هشام بن المغيرة	ربيعة				٣٩	١٧		
- الوليد بن الوليد بن المغيرة	بجيلة							
- هاشم بن ابى حذيفة بن المغيرة	مخزوم				٣٨	س		
- هبار بن سفيان بن عبد الاسد بن هلال	عامر				٣٦	س		
- عبد الله بن سفيان بن عبد الاسد + ٢ حلفاء	عامر				٣٧	س		
مخزوم / وثنيون								
ابو جهل (عمرو) بن هشام بن المغيرة								

تابع – مخزوم / وثنيون	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
العاص بن هشام بن المغيرة	—	—	—	—	—	—	—	—
خالد بن هشام بن المغيرة	—	—	—	—	—	—	—	—
مسعد بن ابى امية بن المغيرة	—	—	—	—	—	—	—	—
ابو قيس بن الوليد بن المغيرة	—	—	—	—	—	—	—	—
ابو قيس بن فاكه بن المغيرة	—	—	—	—	—	—	—	—
حذيفة بن ابى حذيفة بن المغيرة	—	—	—	—	—	—	—	—
هشام بن ابى حذيفة بن المغيرة	—	—	—	—	—	—	—	—
امية بن ابى حذيفة بن المغيرة	—	—	—	—	—	—	—	—

تابع مخزوم / وثنيون	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
عثمان بن عبد الله بن المغيرة	—	—	—	—	—	—	—	—
رفاعة بن ابى رفاعة بن عائذ بن عبد الله	—	—	—	—	—	—	—	—
المنذر بن ابى رفاعة بن عائذ بن عبد الله	—	—	—	—	—	—	—	—
عبد الله بن المنذر بن ابى رفاعة ..	—	—	—	—	—	—	—	—
زهير بن ابى رفاعة بن عائذ بن عبد الله	—	—	—	—	—	—	—	—
السائب بن ابى رفاعة بن عائذ بن عبد الله	—	—	—	—	—	—	—	—
ابو المنذر بن ابى رفاعة بن عابد (عائذ ؟)	—	—	—	—	—	—	—	—
صيفى بن ابى رفاعة بن عابد (عائذ ؟) بن عبد الله	—	—	—	—	—	—	—	—
السائب بن ابى السائب بن عابد (عائذ ؟)								

تابع مخزوم / ولنيون	قبيلة الام	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
ابو عطا عبد الله بن السائب بن عابد (عائذ ؟)								PP.
الاسود بن عبد الاسد بن هلال ابن عابد								PK
حاجب بن السائب بن عويمر بن عمرو ابن عابد								PK
عويمر بن السائب بن عويمر بن عمرو ابن عابد								PK
هلال بن السائب بن عويمر بن عمرو ابن عابد								PK
المطلب بن حنتب بن الحارث بن عبيد								PK
قيس بن السائب ؟ + ٨ حلفاء فى بدر								PP.
عبد الله بن ابى ربيعة بن المغيرة								PP.

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
الحارث بن هشام بن المغيرة								
هشام بن الوليد بن المغيرة								
زهير بن ابى امية بن المغيرة								
الوليد بن المغيرة								PP
سهم / مسلمون								
خنيس بن حذيفة بن قيس بن عدى	سهم		٢٠		٥٧	٢٥	٣٧	٧٤
عبد الله بن حذيفة بن قيس بن عدى ابن عدى	كنانة				٦٢	س		
(ابو) قيس بن حذيفة بن قيس ابن عدى	كنانة				٦٠	س		

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
هشام بن العاص بن وائل	مخزوم				٥٩	٢٦		
ابو قيس بن الحارث	حضرموت				٦١	س		
عبد الله بن الحارث	كنانة				٥٨	مات		
السائب بن الحارث	كنانة				٦٨	س		
الحجاج بن الحارث					٦٣ ؟	س		PP.
تميم بن الحارث (او بشر او تميى)	صعصعة				٦٥	س		
سعيد بن الحارث	جمح				٦٧	س		
معبد بن الحارث (او معمر)	جمح		٣٠ ؟		٦٤	س		

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
- سعيد بن عمرو / حليف / تيم	د.عصيصة				٦٦	س		
عمير بن رئاب بن حذيفة	جمح				٦٩	س		
- محمية بن جذع	حمير				٧٠	سفينة		
- نافع بن بديل								
سهم / مشركون								
منبه بن الحجاج بن عامر								PK
نبيه بن الحجاج بن عامر								PK
العاص بن منبه بن الحجاج بن عامر								PK

	قبيلة الأم	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
ابو العاص بن قيس بن عدى بن سويد								PK
عاصم بن ابى عوف بن ضبيرة بن سعيد								PK.
عامر بن ابى عوف بن ضبيرة								PK
ابو وداعة بن ضبيرة								PP.
الحارث بن منبه بن الحجاج								PK
عروة بن قيس بن عدى بن حذافة								PP.
حنظلة بن قبيص بن حذيفة								PP.
الحجاج بن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد								PP.

	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
ـ اسلم / مولى نبيه								PP.
العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد								
عمرو بن العاص بن وائل								
الحارث بن قيس بن عدى بن سعد								
جمح / مسلمون								
عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب	جمح		٤	١٠	★	٢١		٦٩
عبد الله بن مظعون بن حبيب بن وهب	جمح	٣٠	٦	—	٤٤	٢٤	—	٧٢
قدامة بن مظعون بن حبيب بن وهب	جمح	٣٢	٥	—	٤٣	٢٣	—	٧١

تابع جمح / مشركون	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون ـ	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
السائب بن عثمان بن مظعون	سليم وامها من عبد شمس	١٩ـ٢٧	٣١		٤٢	٢٢		٧٠
معمر بن الحارث بن معمر بن حبيب	جمح		٣٠					٧٣
حاطب بن الحارث بن معمر بن حبيب	جمح	توفى ؟	٢٦		٤٦	مات		
خطاب بن الحارث بن معمر بن حبيب	جمح	توفى ؟	٢٨		٤٩	مات		
محمد بن حاطب					٤٧	السفينة		
الحارث بن حاطب					٤٨	السفينة		
عمير بن وهب بن خلف بن وهب	سهم							P.
سفيان بن معمر بن حبيب بن وهب	يمن				٥١	س		

تابع جمح / مسلمون	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
جابر بن سفيان					٥٢	س		
جنادة بن سفيان					٥٣	س		
نبيه بن عثمان بن ربيعة					٥٦ ؟	السفينة		
جمح / مشركون								
امية بن خلف بن وهب								PK
على بن امية بن خلف بن وهب								PK.
عمرو بن ابى خلف بن وهب								PP.
عبد الله بن ابى خلف بن وهب								PP.

تابع جمح / مسلمون	قبيلة الأم	السن	E الأسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
عوص بن معير								PK
عمرو بن عبد الله بن عثمان بن وهب								PK
وهب بن عمير بن وهب بن خلف بن وهب								PP.
ربيعة بن دراج بن الانبس + ٥ اتباع								PP.
ابى بن خلف بن وهب								
عبد الدار / مسلمون								
مصعب بن عمير بن هاشم	عامر	٣٧ +		٦	★	٨	٦٥	٥٣
ابو الروم بن عمير بن هاشم	يونانية ؟				١٢٤	س		

تابع ـ عبد الدار / مسلمون	قبيلة الام	السن	E الاسبقية للاسلام	AA الهجرة للحبشة	AB	R العائدون	H الهجرة للمدينة	B من شهد بدرا
سويبت بن سعد بن حرملة	خزاعة				١٩	٩	٥٩	٣٦
فراس بن الناضر بن الحارث	تميم				٣٥	س		
جهم بن قيس	؟				٢٠	السفينة		
خزيمة بن جهم بن قيس					٢٣	السفينة		
عمرو بن جهم بن قيس + تابع					٢٢	السفينة		
عبد الدار / مشركون								
الناضر بن الحارث								PK.
عبد العزيز بن عمير بن هاشم + ٣ حلفاء + ٢ اتباع								PP.
عبد / مسلمون								
طليب بن عمير	هاشم	٢٢	—	—	١٨		٦٠	٨٨


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

الملحق (و)

المرويات عن عروة

المادة المنسوبة الى عروة بن الزبير فيما يتعلق بالحقبة المكية من حياة محمد (ﷺ) ذات أهمية كبيرة ، بخاصة شذرات خطابه لعبد الملك التى نقلها لنا الطبرى ، فهى مسألة جديرة بالتمعن خاصة عند التركيز على مسألة التعويل على عروة كمصدر . وفيما يلى سنفترض أن ما هو منسوب الى عروة ، قد صدر عنه فعلا . وعلى أية حال ، فسنفرض أيضا أنه من الطبيعى ألا يذكر من أين حصل على مادته وأن نذكر احتمال أن يكون قد نسبها اليه شخص آخر فى زمن لاحق . مثل هذا الفرض قد يكون صحيحا تماما ، لكن لابد أن يكون هناك دائما عنصر غير مؤكد فيما يتعلق به .

وعروة هو ابن الزبير بن العوام أحد المسلمين الأوائل وصديق قريب لأبى بكر بن الصديق ، وأم عروة هى أسماء بنت أبى بكر ، لأن عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنها كانت هى خالته . فهو أخ من أبيه وأمه لعبد الله بن الزبير الذى بويع بالخلافة مناوئا بذلك خلفاء بنى أمية . وكان عروة من المؤيدين لأخيه عبد الله ، لكن بعد موت (عبد الله) يقال انه أسرع للخليفة الأموى عبد الملك وناشده باسم أمهما أن يسلمه جسد أخيه ليدفنه وتم له ما أراد . وتآلف عروة مع الحكم الأموى وعاش فى المدينة المنورة بهدوء . واختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته اختلافا تراوح بين سنة ٩٣ هـ و ١٠١ هـ ، لكن التاريخ الملائم هو ٩٤ .



ويقال ان عروة هو أول من جمع المواد المتناثرة عن حياة محمد (ﷺ) . والشذرات المتفرقة التي أوردها الواقدى (ap. Wellhausen) نقلا عنـــه أو عن طريقـــه (أى عن عـــروة الذى نقلهـــا بـدوره عن آخـرين) تؤكـــد أنه ـ أى عـــروة ـ لابـد قـــد قـام بمحـــاولة من هذا النوع . ومن ناحية أخـرى ، فان المواد المنقولة عنـه في السيرة النبوية لابن هشام هي في غالبها مواد متصلة بالأسرات التي ارتبط بها . وعلى هذا ، فهناك مواد متصلة بجده لأمه (أبو بكر) : ص ٢٠٥ ، ٢٤٥ وما بعدها ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٦٥٠ (في مدح تحرير أبي بكر لعامر بن فهيرة) ٧٣١ وما بعدها ، ١٠١٦ ، وانظر أيضا الواقدى (كتاب المغازى) ١٦٧ . وهناك فقرة واحدة عن أبيه (٨٠٩) وبعض الفقرات الأخرى عن عشيرة أسد أو أشخاص ذوى صلة بها .

ومن بين الفئة الأخيرة لابد أن نذكر عبد الله بن مسعود الذى آخى محمد (ﷺ) بينه وبين الزبير ، والذى تنازل (أى عبد الله) في وصيته عن ممتلكاته للزبير وعبد الله بن الزبير . وربما يمكننا أيضا أن نعتبر زيدا بن الحارثة مرتبطا بعشيرة أسد ؛ لأنه كان في وقت من الأوقات عبدا لخديجة وربما أيضا عبدا لابن عمها حكيم بن حزام (*) ، وتزوج أيضا لفترة من عمة عروة هند بنت العوام . وأيا ما كان السبب ، فان عروة كان مهتما بزيد وابنه أسامة ويذكر الطبرى نقـلا عن عروة أن زيد كان أول من أســـلم من الرجال (وليس جد عروة : أبو بكر الصديق) .

كل هذا يجعل عروة مرتبطا بظروف سياسية بعينها في الدول الاسلامية ـ المجموعة ذات النفوذ (المقـربة) في حيـــاة محمد (ﷺ) : أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة ، كما ارتبط بعد ذلك بمجموعة : عائشة وطلحة والزبير الذى كان مناوئا في سنة ٣٦ هـ لكل من على بن ابى طالب ومعاوية بن ابى سفيان ، ثم ارتبط ـ أى عروة ـ بالمجموعة (الحزب) التي كانت مسئولة عن مناوأة بني أمية منذ حوالى ٦٢ هـ الى ٧٢ هـ (وهذه المجموعات الثلاث ليست متماثلة في مواقفها ، وان كان

(*) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، ابو خالد ابن اخى خديجة وليس ابن عمها ، كان صديقا للنبى قبل البعثة وبعدها ، اسلم يوم الفتح . ازمنة التاريخ الاسلامي للدكتور عبد السلام الترمانيني ، جـ ١ ، م ٢ ، ص ٥٩٢ .

هناك نوع من الاستقرار يجمعها) · وعلى هذا ، فليس هناك غرابة أن نجد بين الروايات التى وصلت عن طريقه بعض المرويات التى تجعل أمية وآخرين مسئولين عن معاداة محمد (ﷺ) وأبى بكر الصديق ، فعلى سبيل المثال نجده فى احدى الروايات المنسوبة اليه يذكر أن محمدا (ﷺ) شكا من معاملة ابن عبد مناة ، وقوائم المعارضين ، وغلظة أبى جهل وبروزه للقتال ·

وعلى أية حال ، فان الأمر ليس بهذه البساطة ، فالمجموعة القديمة كانت فى طريقها للتفكك ، وقد بذل عبد الملك غاية جهده لاستقطاب رجل مثل عروة ، ومن هنا فنحن نعلم من ابن سعد أنه كان من بين زوجات عروة حفيدة أبى البخترى (؟!) من عشيرة أسد وهى عشيرة عروة وحفيدة الخليفة عمر (من عدى) وامرأة من بنى أمية وأخرى من مخزوم . ولسوء الحظ ، فان المراجع لم تخبرنا عن تواريخ هذه الزيجات ، فاذا كان زواجه من هذه الأموية قبل الحرب الأهلية فان ذلك يفسر كيفية وصوله الى عبد الملك (باتخاذه هذه الزيجة مدخلا لذلك) · وفى المواد التى بين أيدينا أيضا نلاحظ نصا فى مدح عتبة بن ربيعة من عبد شمس ، لكن هذا يتعارض مع حقيقة أن عتبة وان كان من عبد شمس الا أنه ليس من أمية بن عبد شمس ·

يبدو أن هذه الحقائق تشير الى أنه بينما لم يسارع عروة فى مناوأة الأمويين ــ وهذا أمر مؤكد ــ فهو كان متعاطفا لفترة طويلة مع معارضيهم ، رغم أن ذلك قد تغير شيئا ما بعد عام ٧٢ هـ . وأكثر من هذا ، فان تراث أسرته (ما مر بها من أحداث) قد أثر فى نظرته للأحداث ، ولابد أنه قد جعله معاديا للأمويين · وعلى هذا ، فهناك بعض الصحة فى الظن فى أن خطابه لعبد الملك رغم أنه منسوب له بالفعل ، الا أنه ليس معبرا تعبيرا صادقا عما فى نفسه · ويؤكد هذا الشك أن بعض رواة هذا الخطاب كانوا يتحركون فى نطاق عقيدة القدر التى كانت ضد الأمويين : أبان بن يزيد اعتنق عقيدة القدر (بالمفهوم المعتزلى) وكذلك فعل عبد الوارث بن سعيد أبو عبد الصمد ·



وبالنظر الى هذا ، فمن غير المعقول أن نظن - على سبيل المثال - أن الخطاب الموجه الى عبد الملك يعول كثيرا على الحاجة الى الهرب من الاضطهاد كدافع للهجرة للحبشة ، فهذا الاضطهاد كان في غالبه من فعل بني أمية والعشائر الأخرى التي كانت عدوة تقليدية لمجموعة أبي بكر والزبير وأسرتيهما • وحتى اذا كانت سياسة أبي بكر وأصحابه يمكنها فعل الكثير ازاء الهجرة للحبشة ، فان تراث الأسرة والعشيرة لم يكن ليصرف الانتباه لهذه الحقيقة غير المؤكدة •

الملحق (ز)

قـــوائم مختـــلفة

كى نفهم طبيعة القائمة الأولى التى رمزنا لها بالحرفين (AA) وهى قائمة بمن هاجروا الى الحبشة ، لابد أن نضع فى اعتبارنا قائمتين أخريين : قائمة العائدين من الحبشة التى رمزنا لهـا بالحرف (R) ، والتى كررها البـاحث كيتـــانى Caetani بالأرقام نقلا عن ابن هشام . وقائمة الذين هاجروا الى المدينة مع محمد (ﷺ) والتى رمزنا لها بالحرف *H* ، والتى نقلتها عن كيتانى .

وفيما يتعلق بالقائمة R (قائمة العائدين من الحبشة) ، فالنقطة الجديرة بالملاحظة هو أن الذين هاجروا للحبشة وحاربوا في غزوة بدر (فى جانب المسلمين) كانوا أيضا فى قائمة الذين عادوا الى مكة ، الا أن هناك استثناءين : اياد بن زهير (الحارث بن فهد) وشجاع بن وهب (عبد شمس) وهذا الأخير لم يرد ذكره في قائمة ابن هشـــام عن المهاجرين . لذا ، فمن غير المتوقع أن يورده فى قائمـــة العائدين . ومن ناحية أخرى ، فان كل العائدين كانـوا من المحاربين المســلمين فى بـدر ، باستثناء أربعة : سكران (عامر) الذى مات قبل أن يهاجر الرسول ، وثلاثة شبان كان أقرباؤهم من قادة المعارضين للاسلام : سلامة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة (كلاهما من مخزوم) وهشام بن العاص (سهم) وثمة رواية أنهم استسلموا لضغوط أسرية . وعلى هذا ، فان القائمة R

(قائمة العائدين) تعد هي القائمة الأساسية التي تعبر عن اولئك الذين اشتركوا في الحدثين : الهجرة للحبشة ، والمشاركة في غزوة بدر ·

والأكثر صعوبة في شرح القائمة H التي تعبر عن المهاجرين للمدينة (مع الرسول ﷺ) ، انها لا تحوى أسماء كل الذين ذهبوا مهاجرين للمدينة قبل معركة بدر ، والذين ظهروا في قائمة المهاجرين الذين حضروا بدرا · واذا قارنا القائمتين ، وجدنا أن القائمة H قد حذفت ثلاثة اشخاص من عبد شمس ، وشخصين من اسد ، وسبعة أشخاص من زهرة (من بين اجمالي من شهد بدرا وهم ثمانية) وشخصين من تيم وأربعة أشخاص من مخزوم (من بين اجمالي من شهد بدرا وعددهم خمسة) وشخصا واحدا من عدى وخمسة أشخاص من جمح (من بين خمسة حضروا بدرا) وستة أشخاص من عامر (من بين سبعة) وسبعة أشخاص من الحارث (من بين سبعة) · هذا أمر مريك ! هل هي مجرد صدفة أن تحذف هذه الأسماء ؟! أم أن هناك غرضا وراء حذفها ؟ فعلى سبيل المثال ، هل الذين تم حذفهم من القائمه H غير معدودين من بين من هاجروا ــ أى لم يهاجروا فعلا ــ نتيجة قيامهم بالهجرة في زمن مبكر عن المجموعة الرئيسية المهاجرة أو في زمن متأخر عنها ؟ لقد قيل ان البعض هاجر بين العقبتين ، لكن قد يكون ذلك مجرد محاولة متأخرة لتفسير هذا التعارض · ويقال ان عثمان بن مظعون ذهب الى المدينة وأغلق داره في مكة مع أن اسمه غير وارد في القائمة H · انه يمكن أن نقول ببساطة ان هذه القائمة (قائمة المهاجرين) غير كاملة .

وعن القائمة AA ، فان أول ما يمكن أن نقوله ان كل من ورد اسمه بها ، وارد أيضا في R (قائمة العائدين) · ان هذا يغرينا بأن نفترض أن القائمة (*) AA هي قائمة أولئك الذين كانوا في الحبشة وتم اعتبارهم من المهاجرين للمدينة ، ولكن رغم أن معظمهم ممن شاركوا في الحدثين : الهجرة الى الحبشة وشهود بدر وتم حذفهم من القائمة H قد تم حذفهم أيضا من القائمة AA والدليل غير قوى ، وفيما يلى احصاء كامل :

(*) عن دلالات الرموز فضلنا تركها كما هي مراعاة للايجاز ، ويمكن الرجوع للملحق (٨) لمعرفة دلالاتها ·

— الوارد ذكرهم في القوائم الثلاث : AA
و R و H = ٨

— الوارد ذكرهم في AA و R
ولم يرد ذكرهم في H = ٤ (منهم واحد محل شك)

— الوارد ذكرهم في AB و R
وكذلـــك في H = ٤

— الوارد ذكرهم في AB و R
وليســـوا في H = ١٤

ومع أن هذا الدليل ضعيف ، فان هذا الفرض ربما كان لايزال مقبولا (لأننا نفتقد ما هو افضل منه) ذلك لأن القائمة AA كما هو مقترح هي قائمة بمن قام بالهجرتين (الى الحبشة والى المدينة) ، وقد نفترض ما هو أكثر وهو الاعتماد على معلومات (قوائم) فيها نقص شديد فيما يتعلق بالمهاجرين الى المدينة . لكن دعنا نقول كما يقول المســـلمون : الله أعلم .



الملحق (ح)

عـــودة المهـــاجرين

قائمة العائدين (ممن شهدوا بدرا) وهى القائمة R قد ناقشناها لتونا . لكن هذه تحسب فقط حوالى نصف المهاجـرين الى الحبشـــة . فما معلوماتنا عن تاريخ عودة الآخرين ؟

نجد فى كتاب ابن هشام (٧٨١ ـ ٧٨٨) قوائم مختلفة تهدف الى اكمال الصورة . أول هذه القوائم قائمة بأولئك الذين صحبوا جعفر بن أبى طالب فى السفينتين ، والذين التحقوا بمحمد (ﷺ) فى خيبر فى العام السابع للهجرة . وهذا يبدو مستقيما تماما بقدر ما أن الستة عشر شخصا هم المقصودون وهذا ما يهمنا هنا . وبعد ذلك فى الصفحة ٧٨٧ نجد أسماء سبعة الأشخاص الذين ماتوا فى الحبشة . هذه الأســماء (أسماء من ماتوا) موجودة فى القائمة السابقة التى ذكر فيها (٣٤) اسما لرجال لم يلحقوا بمحمد (ﷺ) فى مكة ولم يشهدوا بدرا ولم يعودوا فى السفينتين . فهذه ببساطة قائمة قد جمعت معا كل أولئك الذين كانوا فى الحبشـــة والذين لايعـرف شىء محدد عنهـم . وقائمة الـ ٢٧ الذين عادوا أحياء قد يكون من الملائم أن نسميها القائمة المجهولة أو (س) .

ومن بين السبعة والعشرين لا نعرف عن ٢٢ منهم أية تفاصيل تمكننا من الحديث عن أى شىء متعلق بعودتهم ، رغم أنه يقال ان بعضا منهم قد شهد معركة الطائف وما أعقبها من أحداث . ونعرف أن بعضهم قد يكونون

بقوا فى الحبشة بعد مغادرة جعفر • وهناك اربعة تذكر روايات محددة أنهم شهدوا غزوة أحد : قيس بن عبد الله (حليف عبد شمس) وأبو الروم ابن عمير (عبد الدار) وأبو قيس بن الحارث (سهم) وسليط بن عامر (عامر) • وهؤلاء اما أن يكونوا قد غادروا الحبشة متوجهين مباشرة الى المدينة ، أو ــ وربما كان هو الأكثر قبولا ــ ذهبوا الى مكة حيث أقرباؤهم ثم استطاعوا بشكل أو بآخر أن يهاجروا من مكة الى المدينة . وأخيرا هناك الحجاج بن الحارث بن قيس أو الحارث بن الحارث بن قيس أو الحارث ابن الحارث واذا كان هذان الاسمان يشيران الى شخص واحد ، فاننا نواجه موقفا طريفا ؛ ذلك لأن الحجاج قد أسر فى بدر اذ كان يحارب ضد المسلمين• وابن هشام ذكر فقط الحارث فى القائمة AB والحجاج كأسير ، لكن ابن سعد يقول ان الحجاج شهد الهجرة الثانية للحبشة ، ولم يذكر الحارث • ويذكر ابن حجر أن المصادر المختلفة ــ بما فيها ابن اسحق ــ تتحدث عنه باعتباره ذهب للحبشة ، وهو أيضا يلاحظ أن بعض الرواة يقولون انه لم يتحول للاسلام الا بعد أسره فى بدر • وعلى هذا ، فيبدو أن ابن هشام قد صحح معلومات قائمة ابن اسحق AB فى هذه النقطة ، فمما لا شك فيه أنه مادام قد تم أسره فى بدر فلا يمكنه الهجرة للحبشة كمسلم • لكن هل هذا أمر محال حقا ؟ ألا يمكن أن « يضل » حتى بعد الهجرة ؟ ثم ألا يساعدنا هذا الفرض فى تفسير بعض الاضطراب فى المصادر (حيث لا شيء ورد عن الحارث ولا الحجاج ؟) •

ان الشخصيات غير واضحة المعالم والبراهين واهية جدا ، مما يجعلنا لا نعول عليها كثيرا • مما يدعونا الى القول ان بعض المهاجرين الى الحبشة قد تركوا ــ لفترة ــ جماعتهم المسلمة وانضموا لأعداء الاسلام ، ربما حتى من بين من حاربوا فى أحد الى جوار محمد (ﷺ) • وبالنسبة للباحثين المسلمين المتأخرين زمنا ، فان هذه الردة أمر لا يمكن التفكير فيه وربما محوا أخبارها وعموا على آثارها ، لكن تبقى حالة الحجاج بن الحارث السهمى ذات دلالة • كما أن الحقيقة التى مؤداها أن يزيد بن زمعة (أسد) والسائب بن الحارث (سهم) كانا حاضرين فى الطائف ، تعد دليلا مؤكدا على أنهما كانا فى مكة الى جانب المشركين ، حتى تم فتحها على يد محمد (ﷺ) والمسلمين .




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

المراجـــــع

فيما يلى قائمة بالاختصارات المستخدمة للدلالة على الأعمال التى تكررت الاشـــارة اليها ، فمن أراد المزيد من المراجـــع فليطلع على Handbuch der Islam Literature تأليف ج· ب· بفـــانمىللر G. P. Pfannmüller (برلـين ١٩٢٣) صفحـــة ١٦٥ الى ١٩٨ Introduction à l'Histoire de l'Orient Muselmane, (باريس ١٩٤٢ و ٢) صفحة ١١١ الى ١١٤ ·

أرنز ، محمد = كارل أرنز Muhammed, Carl Ahrens als Religionsstifter ليبتزج ، ١٩٣٥ ·

أزرقى = الأزرقى ، كتاب أخبار مكة (ف·فوستنفلد F. Wüstenfeld Mekka ، جـــزء ١ ، ليبتزج ١٨٥٨) ·

بل ، Origin = ريتشارد بل The Origin of Islam in its Christian Environment Richard Bell ، لندن ١٩٢٦ ·

بل Translation of Q. = ريتشارد بل The Qur'an translated with a critical re-arrangement of the surahs (جزءان) ، أدنبره ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ · (انظـر أيضـا تحت حرف Q) .

بخـارى = البخـارى ، الجامع الصحيح ، تحـرير كريل وجوينبول Krehl et Juynboll ، ليـــدن ١٨٦٢ ـ ١٩٠٨ · ترجمـــه الى الفرنسية أو · هوداس و و· مارسيز O. Houdas and W. Marçais : البخارى ، Le Traditions Islamiques (٤ اجزاء) ، باريس ١٠٣ ـ ١٠٤ ، الاشارة الى الكتاب والباب ·

بول ، محمد = فرانس بول Frants Buhl Das Leben Mohammeds (قام بالترجمة الى الألمانية هـ· هـ· شيدر (H. H. Shaeder ، ليبتزج ١٩٣٠ ·



كايتانى ، Ann. = ليون كايتانى Leone Caetani Annali dell' Islam
الجزء ١ ، ميلانو ١٩٠٥ .

كايتانى ، Studi = Studi di Storia Orientale ، جزء ١ ،
٣ ، ميلانو ١٩١١ — ١٤ .

د. م. أ. = دائرة المعارف الاسلامية (٤ أجزاء وملحق) .
ليدن ، ١٩١٣ و ٢ .

جولدتسيهر ، MS = اجناز جولدتسيهر Ignaz Goldziher
Muhammedanische Studies (جزءان) ، هال Halle ، ١٨٨٨ — ٩٠ .

ا.هـ. = ابن هشام ، كتاب سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
(Das Leben Muhammed's nach ... Ibn Ishak bearrbeitet von ...
(Ibn Hischam ، تحرير ف. فستنفلد F. Wüstenfeld (جزءان) ،
جوتنجن ١٨٥٩ — ٦٠ .

ا.س = ابن سعد ، الطبقات ، تحرير ى. ساخاو E. Sachau
(٩ اجزاء) ، ليدن ١٩٠٥ و ٢ .

الاسلام = Der Islam .

جفرى ، المعجم = ارثر جفرى Arther Jeffery .
The Foreign Vocabulary of the Qur'an ، باروردا Baroda ، ١٩٣٨ .

JRAS = Journal of the Royal Asiatic Society .

لامانس ، Arabie = هـ. لامانس H. Lammens
L'Arabie Occidentale avant L'Hégire ، بيروت ١٩٢٨ .
Berceau —— = Le berceau de ——
l'Islem : l'Arabie Occidentale a la Veille de l'Hégire ، روما
١٩١٤ .

Meque —— = L Mecque à la ——
Veille d l'Hégire, in Mélanges de l'Univ. S. Joseph IX.
وايضا طبعة بيروت ١٩٢٤ ، (تذكر عادة أرقام الصفحات فى الطبعتين) .



لامانس ، طائف = هـ· لامانس ، La Cite Arabe de Taif à la Veille de l'Hégire ، Mél. Univ. S. Joseph VIII وأيضا ، طبعة بيروت ١٩٢٢ ·

The Moslem World = MW

نيكولســـــون Lit. Hist = ر· ١· نيكولســـــون R. H. A Literary History of the Arabs, Nicyolson (الطبعة الثانية) ، كامبردج ، ١٩٣٠ ·

نولدكه ــ شفاللى = تيودور نولدكه ، Geschichte des Qorans (الطبعة الثانية ، الجزءان ١ ، ٢) تحرير ف· شفاللى F. Schwally · ليبتزج ١٩٠٩ ــ ١٩ ·

Q = القرآن (بترقيم فلوجل Flügel للآيات) ، الترجمة عادة لرتشارد بل ، الا أنه فى بعض الحالات ، عدلت هذه الترجمة أو استبدلت بها ترجمة أخرى للمحافظة على انسجام النص ، كما حاولنا فى مواضع معينة من النص التعبير عن تاريخ نزول الآيات التقريبى الذى وضعه بل بحروف كما يلى :

أ = الآيات الأولى

ب = آيات نزلت فى وقت مبكر فى مكة ، الفترة الأولى لنزول القرآن ·

جـ = آيات مكية ·

د = آيات نزلت فى الفترة الأخيرة من مقام الرسول عليه الصلاة والسلام فى مكة ·

هـ = آيات نزلت فى بداية هجرة الرسول للمدينــة ·

هـ + = آيات مدنية ·

و = آيات نزلت فى غزوة بدر ·

ز = آيات نزلت فى غزوة أحد ·

ح = آيات نزلت حتى صلح الحديبية ·

ط = آيات نزلت بعد صلح الحديبية ·

ــ + منقحة ·

سال و ويرى + ى· م· ويرى E. M. Wherry ·
A Comprehensive Commentary on the Quran : Comprising Sale's Translation and Preliminary Discourse with Additional Notes and Emendations
(٤ أجزاء) ، بوستون ، ١٨٨٢ ـ ٦ ·

طب (او حول طب) = الطبرى ، تأريخ الرسل والملوك (حوليات)، تحرير م· دى جوج M. de Goeje (١٥ جزءاً) ، ليدن ١٨٧٩ ـ ١٩٠١ ، جميع الاشارات تعود الى صفحات مجموعة بريما Prima Series ، ويتضمن الجزء الثالث منها حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى العـام الثامن الهجرى ، (ص ١٠٧٣ الى ١٦٨٦) ·

تورى ، Jewish Foundation = س· س· تورى ·
The Jewish Foundation of Islam C.C. Torrey ، نيويورك ، ١٩٣٣ ·

فلهـاوزن ، Reste = ج· فلهـاوزن J. Welhausen Rest Arabischen Heidentums ، الطبعة الثانية ، برلين ١٨٩٧ ·

وك = الواقدى ، كتـاب المغازى ، تحـرير فون كريمـر Von Kremer ، كلكتا ، ١٨٥٦ ·

فوست (او فوستنفلد) ، مكة = ف· فوستنفلد · F. Wüstenfeld Die Chroniken der Stadt Mecca (مجموعة من النصوص المنقحة بالألمانية) (٤ اجزاء) ، ليبتزج ١٨٥٨ ـ ٦١ ·

و ق = الواقـــدى ، كتـــاب المغـــازى ، ترجمة ج· فلهاوزن J. Wellhausen
(Muhammed in Medina ; das ist Vakidi's Kitab al Maghazi in (Verhürzter deutscher Wiedergeble ، برلين ١٨٨٢ ·

Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft = ZDMG

اما باقي الاعمال فسيشار اليها في اول مرة تذكر فيها ·

صدر من هذه السلسلة

أولاً: الموسوعات والمعاجم

ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية العالمية

وليام بيتر، معجم التكنولوجيا الحيوية

ج.كارفيل، تبسيط المفاهيم الهندسية

ب. كوملان، الأساطير الإغريقية والرومانية

و. د. هاملتون وآخرون، المعجم الجيولوجي المصور فى المعادن والصخور والحفريات

حسام الدين زكريا، المعجم الشامل للموسيقى العالمية (ج١)

خيرية البشلاوى،معجم المصطلحات السينمائية

دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية

ثانياً: الدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر

د.محمد نعمان جلال، حركة عدم الانحياز فى عالم متغير

إريك موريس؛ آلان هو، الإرهاب

ممدوح عطية، البرنامج النووى الإسرائيلى

د. ليئوار تشامبرز رايت، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر

إزرا .ف. فوجل، المعجزة اليابانية

د. السيد نصر السيد، إطلالات على الزمن الآتى

بول هاريسون، العالم الثالث غداً

مجموعة من العلماء، مبادرة الدفاع الاستراتيجى: حرب الفضاء

و. مونتجمرى وات، الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر

يلدى أونيمود، أفريقيا الطريق الآخر

فانس بكارد ، إنـــهم يصنعون البشر (٢ج)

مارتن فان كريفلد،حرب المستقبل

ألفين توفلر ، تحول السلطة (٢ج)

ممدوح حامد عطية ، إنهم يقتلون البيئة

د.السيد أمين شلبي، جورج كينان

يوسف شرارة ، مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية

د. السيد عليوة، إدارة الصراعات الدولية

د. السيد عليوة، صنع القرار السياسى

جرج كاشمان، لماذا تنشب الحروب(٢ج)

إيمانويل هيمان، الأصولية اليهودية

أنجيلو كودفيللا، المخابرات وفن الحكم

آلان أنترمان، اليهود (عقائدهم الدينية وعباداتهم)

ثالثاً: العلوم والتكنولوجيا

ميكائيل ألبى، الانقراض الكبير

فيرنر هيزنبرج، الجزء والكل: محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية

فريد هويل، البذور الكونية

وليام بينز، الهندسة الوراثية للجميع

د. جوهان دورشنر، الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد

إسحق عظيموف، الشموس المتفجرة (أسرار السوبرنوفا)

روبرت لافور، البرمجة بلغة السى باستخدام تيربوسى (٢ج)

إدوارد ايه فايجينباوم، الجيل الخامس للحاسوب

هـ. محمود سرى طه، الكمبيوتر فى مجالات الحياة
د. مصطفى عنانى، الميكروكمبيوتر
ى. رادو نسكاياى، الإلكترونيات والحياة الحديثة
جلال عبد الفتاح، الكون ذلك المجهول
إيفرى شاتزمان، كوننا المتمدد
فرد س. هيس، تبسيط الكيمياء
كاتى ثير، تربية الدواجن
د.محمد زينهم، تكنولوجيا فن الزجاج
لارى جونيك ومارك هويليس، الوراثة والهندسة الوراثية بالكاريكاتير
جينا كولاتا، الطريق إلى دوللى
دور كاس ماكلينتوك، صور أفريقية: نظرة على حيوانات أفريقيا
إسحق عظيموف، أفكار العلم العظيمة
د.مصطفى محمود سليمان، الزلازل
بول دافيز، الدقائق الثلاث الأخيرة
ويليام هـ... ماثيوز، ما هى الجيولوجيا؟
إسحق عظيموف، العلم وآفاق المستقبل
ب. س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان والزمان
د. محمود سرى طه، الاتجاهات المعاصرة فى عالم الطاقة
بانش هوفمان، آينشتين
زافيلسكى ف. س.، الزمن وقياسه
ر. ج. فوربس، تاريخ العلم والتكنولوجيا (ج٢)
د.فاضل أحمد الطائى، أعلام العرب فى الكيمياء
رولاند جاكسون، الكيمياء فى خدمة الإنسان
إبراهيم القرضاوى، أجهزة تكييف الهواء
ديفيد ألدرتون، تربية أسماك الزينة
أندريه سكوت، جوهر الطبيعة
إيجور إكيموشكين، الإيثولوجى
بارى باركر، السفر فى الزمان الكونى
ديمترى ترايفونوف، ظلال الكيمياء
بول ديفز، جونز جريبين، أسطورة المادة
جيفرى ملوساييف ماسون، حين تبكى الأفيال
ليونارد أ. كول، السلاح الحادى عشر
و. جراهام ريتشاردز، أسرار الكيمياء
د. زين العابدين متولى، وبالنجم هم يهتدون

رابعاً: الاقتصاد

ديفيد وليام ماكدوال، مجموعات النقود (صيانتها، تصنيفها، عرضها)
د. نورمان كلارك، الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا
سامى عبد المعطى، التخطيط السياحى فى مصر
جابر الجزار، ماستريخت والاقتصاد المصرى
ولت ويتمان روستو، حوار حول التنمية الاقتصادية
فيكتور مورجان، تاريخ النقود
د. تشارلز سى مانز، إدارة الأعمال بلا مديرين

خامساً: مصر عبر العصور

محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء
فرانسوا ديماس، آلهة مصر
سيريل ألدريد، إخناتون
موريس بيرابو، صناع الخلود

بكنث أ. كتشن، رمسيس الثاني. فرعون المجد والانتصار

آلن شورتر، الحياة اليومية فى مصر القديمة

ونفرد هولمز، كانت ملكة على مصر

جاك كرابس جونيور، كتابة التاريخ فى مصر

نفتالى لويس، مصر الرومانية

عبده مباشر، البحرية المصرية من محمد على للسادات (١٨٠٥ ــ ١٩٧٣)

د. السيد طه أبو سديرة، الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية

جابرييل باير، تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة

عاصم محمد رزق، مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية

ت. ج. هــ. جيمز، كنوز الفراعنة

حسن كمال، الطب المصرى القديم

أ. أ. س. إدواردز، أهرام مصر

سومرز كلارك، الآثار القبطية فى وادى النيل

كريستيان ديروش نوبلكور، المرأة الفرعونية

بيل شول وأدبنيت، القوة النفسية للأهرام

جيمس هنرى برستد، تاريخ مصر

د. بيارد دودج، الأزهر فى ألف عام

أ. سبنسر، الموتى وعالمهم فى مصر القديمة

ألفريد ج. بتلر، الكنائس القبطية القديمة فى مصر (ج٢)

روز أليندم، الطفل المصرى القديم

ج. و. مكفرسون، الموالد فى مصر

جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية

سوزان راتيه، حتشبسوت

مرجريت مرى، مصر ومجدها الغابر

أولج فولكف، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة

د. محمد أنور شكرى، الفن المصرى القديم

ت.ج. جيمز، الحياة أيام الفراعنة

إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة

تشارلز نيمس، طيبة (آثار الأقصر)

رندل كلارك، الرمز والأسطورة فى مصر القديمة

ديمترى ميكس، الحياة اليومية للآلهة الفرعونية

محمد عبد الحميد بسيونى، بانوراما فرعونية

حمدى عثمان، هؤلاء حكموا مصر

جوزيف دلى، العمارة العربية فى مصر

ميكل ونتر، المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى

بربارة واترسون، أقباط مصر

إيريك هورنونج، فكرة فى صورة

بيير جرانديه، رمسيس الثالث

سادساً: الكلاسيكيات

جاليليو جاليليه، حوار حول النظامين الرئيسيين للكون (ج٣)

وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (ج٣)

أبو القاسم الفردوسى، الشاهنامة (ج٢)

إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (ج٣)

ناصر خسرو علوى، سفر نامة

فيليب عطية، ترانيم زرادشت

جورج جاموف، بداية بلا نهاية

محمد كرد على، بين المدنية العربية والأوروبية

سابعا: الفن التشكيلى والموسيقى

عزيز الشوان، الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

ألويز جرايتر، موتسارت

شوكت الربيعي، الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي

ليوناردو دافنشي، نظرية التصوير

د.غبريال وهبه، أثر الكوميديا الإلهية لدانتي في الفن التشكيلي

روبين جورج كولنجوود، مبادئ الفن

مارتن جك، يوهان سباستيان باخ

ميخائيل ستيجمان، فيفالدي

هيربرت ريد، التربية عن طريق الفن

أدامز فيليب، دليل تنظيم المتاحف

حسام الدين زكريا، أنطون بروكنر

جيمس جينز، العلم والموسيقى

هوجو لا يختنتريت، الموسيقى والحضارة

محمد كمال إسماعيل، التحليل والتوزيع الأوركسترالي

د.صالح رضا، ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر

إدموندو سولمي، ليوناردو

سيوناند ميرى روبرتسون، الأشغال الفنية والثقافة المعاصرة

ثامناً: حضارات عالمية

جاكوب برونوفسكي، التطور الحضاري للإنسان

س. م. بورا، التجربة اليونانية

جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام

أ. د. جرني، الحيثيون

ل. ديلابورت، بلاد ما بين النهرين

ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية

آدم متز، الحضارة الإسلامية (٢ج)

جوزيف نيدهام، تاريخ العلم والحضارة في الصين

ستيفن رانسيمان، الحضارة البيزنطية

سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية

تاسعاً: التاريخ

جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى

هنرى بيرين، تاريخ أوربا في العصور الوسطى

أرنولد توينبي، الفكر التاريخي عند الإغريق

بول كولز، العثمانيون في أوربا

جوناثان ريلي سميث ، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية

د. بركات أحمد، محمد واليهود

ستيفن أوزمنت، التاريخ من شتى جوانبه (٣ج)

و. بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى

فلاديمير تيسمانيانو، تاريخ أوربا الشرقية

د.ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية (٢ج)

نويل مالكوم، البوسنة

جارى. ب . ناش، الحمر والبيض والسود

أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون (٢ج)

آرثر كيستلر، القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ناجاى متشيو، الثورة الإصلاحية في اليابان

محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية

د. إيرار كريم الله، من هـم التتار؟

ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية

آليان ويدجرى، التاريخ وكيف يفسرونه (٢ج)

جوسيبي دى لونا، موسوليني

جوردون تشيلد، تقدم الإنسانية

هـ. ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية (٤ج)

هـ . سانت موس، ميلاد العصور الوسطى

يوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى

هـ. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم
لورد كرومر، الثورة العرابية
و. مونتجمرى وات، محمد فى مكة

عاشراً: الجغرافيا والرحلات

ت.و. فريمان، الجغرافيا فى مائة علم
ليستر ديل راى، الأرض الغامضة
رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)
إميليا إدواردز، رحلة الألف ميل
رحلات فارتيما (الحاج يونس المصرى)
رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (٣ج)
رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر
رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (٣ج)
يوميات رحلة فاسكو داجاما
س. هوارد، أشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا
إريك أكسيلون، أشهر الرحلات فى جنوب أفريقيا
وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (٣ج)

حادى عشر: الفلسفة وعلم النفس

جون بورر، الفلسفة وقضايا العصر(٣ج)
سوندراى، الفلسفة الجوهرية
جون لويس، الإنسان ذلك الكائن الفريد
سدنى هوك، التراث الغامض: ماركس والماركسيون
إدوارد دو بونو، التفكير المتجدد
رونالد دافيد لانج، الحكمة والجنون والحماقة
د.توماس أ. هاريس، التوافق النفسي: تحليل المعاملات الإنسانية
د. أنور عبد الملك، الشارع المصرى والفكر
نيكولاس ماير، شارلوك هولمز يقابل فرويد
أنطونى دى كرسبنى، أعلام الفلسفة المعاصرة
جين وروبرت هاندلي، كيف تتخلصين من القلق؟
هـ. ج. كريل، الفكر الصينى
د. السيد نصر السيد، الحقيقة الرمادية
برتراند راسل، السلطة والفرد
مارجريت روز، ما بعد الحداثة
كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل
ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة
جوزيف داهموس، سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
د. روجر ستروجان، هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال؟
إريك برن، الطب النفسى والتحليل النفسى
بيرتون بورتر، الحياة الكريمة (٢ج)
فرانكلين ل. باومر، الفكر الأوربى الحديث (٤ج)
هنرى برجسون، الضحك
أرنست كاسيرر، فى المعرفة التاريخية
و. مونتجمرى وات، القضاء والقدر
إدوارد دو بونو، التفكير العملى

ثانى عشر: العلوم الاجتماعية

د.محيى الدين أحمد حسين، التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
م. و ثرنج، ضمير المهندس
رايموند وليامز، الثقافة والمجتمع
روى روبرتسون، الهيروين والإيدز
بيتر لورى، المخدرات حقائق نفسية
د.ليو بوسكاليا، الحـب
برنسلاو مالينوفسكى، السحر والعلم والدين

بيتر ز داى، الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي
بول جيرهارت، تعليم المعوقين
أرنولد جزل، الطفل من الخامسة إلى العاشرة
رونالد د سمبسون، العلم والطلاب والمدارس

ثالث عشر: المسرح

لويس فارجاس ، المرشد إلى فن المسرح
برونو باشينسكي ، حفلة ماتيكان
جلال العشرى ، فكرة المسرح
جان بول سارتر ؛ جورج برنارد شو؛ جان أنوى مختارات من المسرح العالمي
د.عبد المعطى شعراوى ، المسرح المصرى المعاصر: أصله وبدايته
توماس ليبهارت، فن المايم والبانتومايم
زيجمونت هبنر، جماليات فن الإخراج
أوجين يونسكو، الأعمال الكاملة (٢ج)
آلان ماكدونالد، مسرح الشارع
نك كاى، ما بعد الحداثية والفنون الأدائية
بيتر بروك، التفسير والتفكيك والإيديولوجية
أندريه فيلبيه، الممثل الكوميدى
لى ستراسبرج، تدريب الممثل
جلال جميل محمد، مفهوم الضوء والظلام فى العرض المسرحى

رابع عشر: الطب والصحة

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء
د.جون شندلر، كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
جاعوم بيتروفيتش، النحل والطب

م. هـ. كنج، التغذية فى البلدان النامية

خامس عشر: الآداب واللغة

برتراند رسل، أحلام الأعلام وقصص أخرى
ألدس هكسلى، نقطة مقابل نقطة
جول ويست، الرواية الحديثة : الإنجليزية والفرنسية
أنور المعداوى،على محمود طه: الشاعر والإنسان
جوزيف كونراد، مختارات من الأدب القصصى
تاجور شين ين بنج وآخرون، مختارات من الآداب الآسيوية
محمود قاسم، الأدب العربى المكتوب بالفرنسية
جابرييل جارسيا ماركيز، الجنرال فى متاهة
سوريال عبد الملك، حديث النهر
د.رمسيس عوض، الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها
مختارات من الأدب اليابانى: الشعر، الدراما، الحكاية، القصة القصيرة
ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر
نادين جورديمر وآخرون، سقوط المطر وقصص أخرى
رالف ئى ماتلو، تولستوى
والتر ألن، الرواية الإنجليزية
هادى نعمان الهيتى، أدب الأطفال
مالكوم برادبرى، الرواية اليوم
لوريتو تود، مدخل إلى علم اللغة
د. جابرييل جارسيا ماركيز، سيمون بوليفار
ديلاسى أوليرى، الفكر العربى ومكانه فى التاريخ
د. على عبد الرءوف البمبى، مختارات من الشعر الإسبانى فى العصور الوسطى (ج١)

ب. إيفور إيفانز، موجز تاريخ الدراما الإنجليزية
ج.س. فريزر، الكاتب الحديث وعالمه (٢ج)
جورج ستاينر، بين تولستوي ودستويفسكي (٢ج)
ديلان توماس، مجموعة مقالات نقدية
فيكتور برومبير، ستندال
فيكتور هوجو، رسائل وأحاديث من المنفى
يانكو لافرين، الرومانتيكية والواقعية
د.نعمة رحيم الغزاوي، أحمد حسن الزيات كاتبا وناقداً
ف.برميلوف، دستويفسكي
لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، الدليل الببليوجرافي:روائع الآداب العالمية (ج١)
محسن جاسم الموسوي، عصر الرواية : مقال من النوع الأدبي
هنري باربوس، الجحيم
ميجيل دي ليبس، الفئران
روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمي
يانيس ريتسوس، البعيد (مختارات شعرية)
ب. إفور ايفانز، مجمل تاريخ الأدب الإنجليزي
فخري أبو السعود، في الأدب المقارن
سليمان مظهر، أساطير من الشرق
ف.ع. أدينكوف، فن الأدب الروائي عند تولستوي
د. صفاء خلوصي، فن الترجمة
بلدوميرو ليلو وآخرون، قصص من أمريكا اللاتينية

سادس عشر: الإعلام

فرانسيس ج. برجير، الإعلام التطبيقي
بيير ألبير، الصحافة
هربرت شيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية

سابع عشر: السينما

هاشم النحاس، الهوية القومية في السينما العربية
ج.دادلي أندرو، نظريات الفيلم الكبرى
روي آرمز ، لغة الصورة في السينما المعاصرة
هاشم النحاس، صلاح أبو سيف (محاورات)
جان لويس بوري وآخرون ، في النقد السينمائي الفرنسي
محمود سامي عطا الله ، الفيلم التسجيلي
ستانلي جيه سولومون ، أنواع الفيلم الأمريكي
جوزيف وهاري فيلدمان، ديناميكية الفيلم
قدري حفني، الإنسان المصري على الشاشة
موني براح، السينما العربية من الخليج إلى المحيط
حسين حلمي المهندس، دراما الشاشة: بين النظرية والتطبيق للسينما والتليفزيون (٢ج)
إدوارد مري، عن النقد السينمائي الأمريكي
جوزيف م. بوجز، فن الفرجة على الأفلام
سعيد شيمي، التصوير السينمائي تحت الماء
دوايت سوين ، كتابة السيناريو للسينما
هاشم النحاس، نجيب محفوظ على الشاشة
يوجين فال، فن كتابة السيناريو
دانييل أريخون، قواعد اللغة السينمائية
كريستيان ساليه ، السيناريو في السينما الفرنسية
آلان كاسبيار. التذوق السينمائي
توني بار، التمثيل للسينما والتليفزيون
بيتر نيكولز، السينما الخيالية
بول وارن، خفايا نظام النجم الأمريكي
دافيد كوك، تاريخ السينما الروائية



ثامن عشر: كتب غيرت الفكر الإنساني

سلسلة لتلخيص التراث الفكرى الإنسانى فى صورة عروض موجزة لأهم الكتب التى ساهمت فى تشكيل الفكر الإنسانى وتطوره مصحوبة بتراجم لمؤلفيه وقد صدر منها ٩ أجزاء.

تاسع عشر: الأعمال المختارة

يوهان هويزنجا، أعلام وأفكار

د.مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى

ت. كويلر ينج، الشرق الأدنى

جيمس نيومان؛ ميشيل ويلسون، رجال عاشوا للعلم

اين زنبل الرمال، آخرة المماليك

د. محمد عوض محمد، نهر النيل

آرثر كريستنسن، إيران فى عهد الساسانيين

أوجست دييس، أفلاطون

يعقوب فام، البراجماتية

بلوطرخوس، العظماء

روبرت ديبو جراند وآخرون، مدخل إلى علم لغة النص

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



رقم الايداع بدار الكتب ٣٣٨٦ / ٢٠٠٢

ISBN — 977 — 01 — 7707 — 5


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

يتناول مونتجمرى وات وقائع الإسلام فى المرحلة المكّية، وهى المرحلة التى تطورت فيها بذور الإسلام واتضحت فيها معالمه كدين وحضارة، ولم يخرج المؤلّف فى مصادره عن المصادر المألوفة لكل من كتب فى السيرة النبوية من المحدثين: القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة، وكتب التاريخ الإسلامى العام، والسيرة النبوية لابن إسحق التى هذّبها ابن هشام، وكتب السيرة التى أتت بعده. وقد تناول المؤلف من خلال تحليلات رائعة حياة الرسول ﷺ ودوره فى تنقية العقائد السابقة عليه، وردّ ردوداً مقنعة على كل من قلّل من الدور الحضارى لهذا النبى العظيم.